

عَوْنُ الْحَمِيدِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

وَبَيَانِ مَا فِيهِ مِنَ الْهَدَايَاتِ وَالْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ

تَأَلِيفُ

أ. د. سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي هَيْسَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الْأَسْتَاذِ فِي قِسْمِ الْقُرْآنِ وَعُلُومِهِ

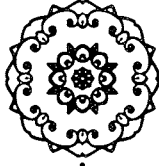
بِكَلِيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَالذَّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ - جَامِعَةِ الْقَصِيمِ

المجلدُ الرَّابِعُ عَشَرَ

تَفْسِيرُ سُورَةِ طهَ وَالْأَنْبِيَاءِ وَالْحَجِّ وَالْمُؤْمِنُونَ

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عَوْنُ الْمُؤْمِنِينَ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

١٤



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص.ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٢١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٢/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

✉ aljawzi@hotmail.com

☎ +966503897671

📌 aljawzi

📍 eljawzi

🌐 aljawzi.net

ح) دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله
عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد
والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ
٥٢٧ ص؛ ٢٤×١٧ سم
ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام
أ. العنوان

١٤٤١/٥٤٤٣

ديوي ٢٢٧,٣

جميع الحقوق محفوظة

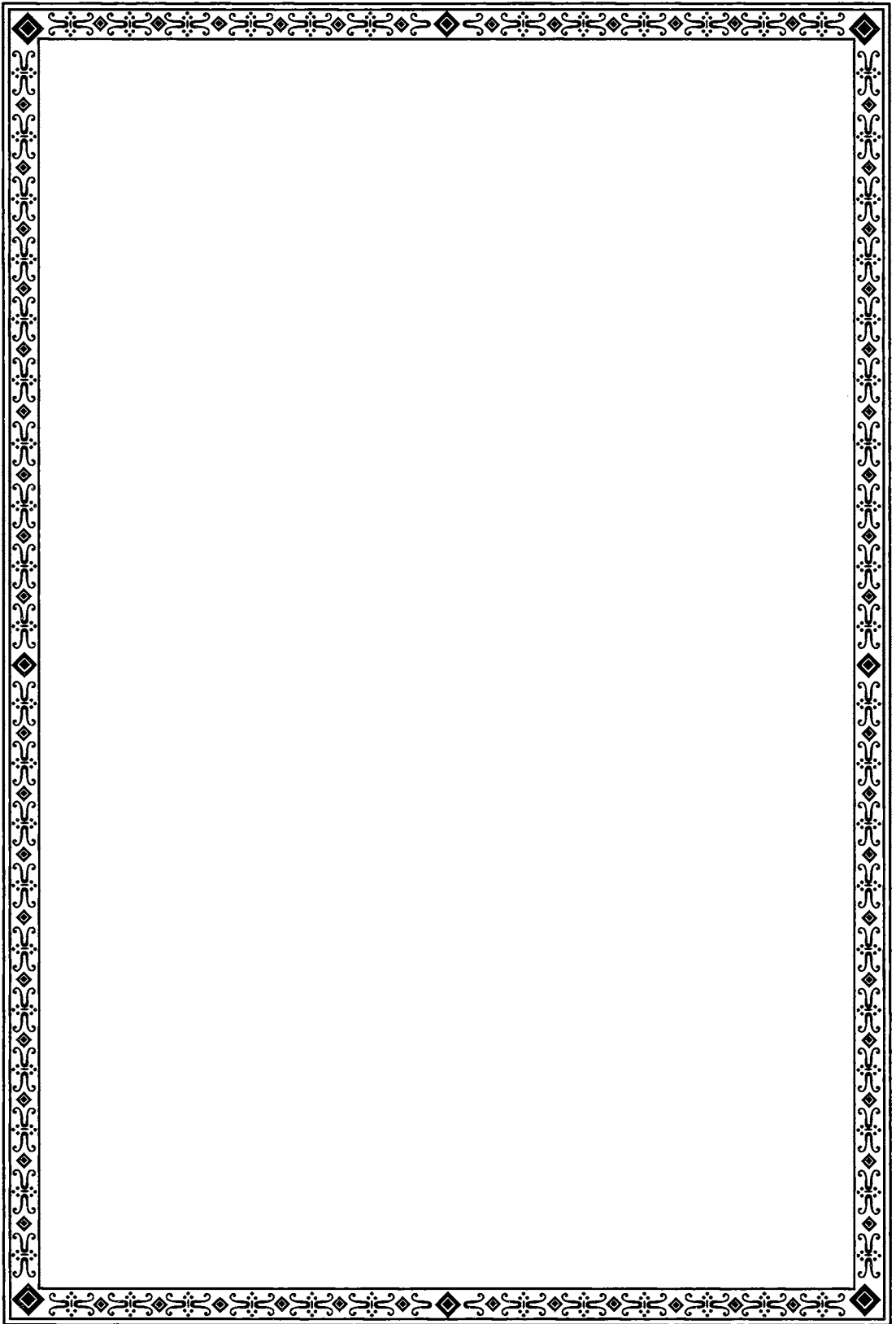
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي
لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ طَّه



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة طه»؛ لقوله تعالى في مطلعها: ﴿طه﴾، وهي من الحروف المقطعة أوائل السور، وقد جاء في الحديث في قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه تسميتها بهذا الاسم^(١).

وتسمى سورة «الكلم» كما ذكر ذلك السيوطي في «الإتقان» عن السخاوي. وتسمى أيضًا «سورة موسى»، ذكره في «الإتقان» عن الهذلي في «كامله»^(٢).

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «هن من العتاق الأول، وهن من تلادي»^(٣).

١- افتتحت هذه السورة بقوله تعالى: ﴿طه﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم. ووجه الخطاب في مطلعها إلى النبي ﷺ؛ لبيان مهمته وتقوية عزيمته، وبيان الحكمة من إنزال القرآن عليه، وهي التذكير والموعظة، وبيان عظمته، وعظمة منزله وعلوه، وعظيم ملكه، وسعه علمه، ووحدانيته، واختصاصه بالأسماء الحسنى، والصفات العلا.

٢- التذكير بقصة موسى عليه السلام، وابتداء وحي الله تعالى إليه واختياره لرسالته، ووحيه إليه بوحدانيته عز وجل في ألوهيته وعبوديته، وإقام الصلاة لذكوره، وإثبات الساعة وقيام القيامة، ومجازاة كل بعمله.

٣- إيتاء الله تعالى موسى العصا آية من آياته تعالى، يلقيها فتكون حية، ويأخذها فتعود لحالها الأولى، وإيتاؤه اليد آية أخرى، يضمها إلى جنبه فتخرج بيضاء من غير سوء؛ ليريه من آياته الكبرى، وإرساله إلى فرعون لطغيانه.

(١) انظر: «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل (١/٢٧٩)، «تاريخ المدينة» لابن شبة (٢/٦٥٧).

(٢) انظر: «الإتقان» (١/١٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الأنبياء (٤٧٣٩).

٤- سؤال موسى عليه السلام ربه أن يشرح له صدره، ويسر له أمره، ويحلل عقدة من لسانه؛ ليفقهوا قوله، وأن يجعل له وزيراً من أهله هارون أخيه؛ ليشده به أزره، ويشاركه في أمره وتسييحه ربه وذكره كثيراً، واستجابة الله له وإيتاؤه سؤاله.

٥- تذكير موسى عليه السلام بمنة الله عليه قبل ذلك مرة أخرى، منذ كان جنيناً في بطن أمه، وإنجائه من فرعون، وإرساله وأخيه هارون بآياته إلى فرعون بسبب طغيانه، وأمره لهما بدعوته بالقول اللين؛ لعله يتذكر أو يخشى، وتخوفهما من بطشه وطغيانه، وطمانته عز وجل لهما بسمعه ورؤيته لهما وحفظهما، وأمره لهما بإقامة الحجّة عليه، بأنهما رسولا ربه، وطلبهما منه إرسال بني إسرائيل معها وتحذيره عذاب الله: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبُهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴿١٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

٦- مجادلة فرعون لهما في ربهما، وردهما عليه بأن ربهما الذي أعطى كل شيء خلقه، وهدى كل مخلوق لما خلقه له، ذو القدرة التامة الذي خلق الأرض وسلك فيها السبل، وأنزل من السماء الماء وأخرج به أنواع النبات؛ لأكلهم ورعي أنعامهم.

٧- تكذيب فرعون لهما وإبائه، بعد أن أراه الله آياته كلها، واتهامه موسى بالسحر، وتحديه له بالإتيان بسحر مثله، وجمعه السحرة، وغلبة موسى لهم بما معه من الآيات، وبطلان سحرهم، وإيمانهم برب موسى وتوعد فرعون لهم حين آمنوا.

٨- وحيه عز وجل لموسى بالإسراء ببني إسرائيل ليلاً، وأن يضرب لهم طريقاً في البحر يسيّاً لا يخاف إدراك فرعون له، ولا يخشى من الغرق. وإتباع فرعون بجنوده لهم، وغشيان البحر لهم وغرقهم، وإضلاله لقومه وإبعادهم عن الهدى.

٩- الامتنان على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون، ومواعدهم جانب الطور الأيمن، وإنزال المن والسلوى عليهم، وأمرهم بالأكل من الطيبات، وتحذيرهم من الطغيان، وترغيبهم بالإيمان والعمل الصالح، وسلوك طريق الهدى.

١٠- معاتبه الله تعالى لموسى على الاستعجال عن قومه، وإخباره بما حصل لهم بعده من فتنة السامري وإضلاله إياهم بعبادة العجل، ورجوع موسى إليهم غضبان

أسفًا، ومعاتبته لهم على مخالفة مواعده وطاعة السامري بعبادة العجل، الذي لا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، ومعصيتهم هارون حين حذرهم من ذلك، وإصرارهم على العكوف على عبادة العجل حتى يرجع إليهم موسى.

١١ - معاتبه موسى لأخيه هارون بعدم اتباعه حين رأهم ضلوا، واعتذار هارون بخشيته أن يقول: فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي.

١٢ - معاتبه موسى وتأنيبه للسامري على ما فعل وتهديده له وتوعده، وابتلاء الله إياه أن يقول: لا مساس، وإحراق إلهه العجل، ونسفه في اليم نسفًا، وإثبات إلهية الله وحده الذي وسع كل شيء علمًا.

١٣ - الامتنان على النبي ﷺ بقصص أنباء ما قد سبق وإيتائه من لدنه علمًا، بما أوحى إليه من الكتاب والسنة، وتهديد ووعيد من أعرض عنه.

١٤ - إثبات النفخ في الصور، وتهديد المجرمين بحشرهم زرق الوجوه والألوان، يتخافتون بينهم: إن لبثتم إلا عشرًا، بل يقول أمثلهم طريقة: إن لبثتم إلا يومًا.

١٥ - ذكر أهوال القيامة من نسف الجبال، وجعلها قاعًا صنفصفًا، واتباع الخلائق الداعي، وخشوع الأصوات للرحمن، فلا تسمع إلا همسًا، حين لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الله عز وجل ورضي له قولًا، وإحاطة علمه بهم، وقصد الوجوه للحي القيوم، وخيبة من حمل ظلمًا، وبشارة من آمن وعمل صالحًا فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا.

١٦ - العودة لتعظيم القرآن، والامتنان بجعله قرآنًا عربيًا، وتصريف الوعيد فيه؛ لأجل أن يتقوا الله، ويجدث لهم ذكرا، وتعظيم نفسه عز وجل بتعاليه وكونه الملك الحق، ونهيه له ﷺ أن يعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليه وحيه، وحثه على طلب مزيد العلم من ربه.

١٧ - ذكر قصة آدم وعهده عز وجل إليه بعدم الأكل من الشجرة، وأمره الملائكة بالسجود له، وسجودهم له جميعًا إلا إبليس أبا، وتحذير آدم منه ومن عداوته له ولزوجه، وسعيه في إخراجها من الجنة لدار الشقاء.

١٨ - وسوسة الشيطان إلى آدم وتغريه له بالأكل من الشجرة، وأكله هو وزوجه منها وبدو سوءاتها لهما، ومعصية آدم لربه وغوايته، ثم اجتباؤه عز وجل له وتوبته عليه وهداه، وإهبطاهما إلى الأرض بعضهم لبعض عدو.

١٩- الترغيب في اتباع هدى الله، ووعده عز وجل بعصمة من اتبع هداه من الضلال والشقاء، والتحذير من الإعراض عن ذكر الله تعالى، ووعيد من أعرض عن ذكر الله بالمعيشة الضنك، وحشره يوم القيامة أعمى، بسبب إعراضه عن آيات الله وعماه عنها ونسيانها، وإسرافه وعدم إيمانه بآيات ربه. وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

٢٠- توبيخ المكذبين وتقريعهم كيف لم يعتبروا بكثرة القرون المهلكة قبلهم بسبب تكذبيهم؟ وهم يمشون في مساكنهم، ويرون آثارهم، مما فيه العظة لكل ذي عقل ولب، وتهديدهم بتعجيل العذاب لهم، لولا أن الله جعل له أجلاً مسمى.

٢١- تسليته ﷺ وتقوية قلبه بأمره بالصبر على قولهم، والتسبيح بحمد ربه في عموم الأوقات، وعدم النظر إلى ما متعوا به من زهرة الحياة الدنيا فتنة لهم، فزرق الله خير وأبقى. وأمره ﷺ بأمر أهله بالصلاة والصبر عليها وتكفله عز وجل برزقه والعاقبة للمتقوى.

٢٢- عتو المشركين وعنادهم بطلبهم منه ﷺ الإتيان بآية من ربه وقد جاءهم بينة ما في الصحف الأولى.

٢٣- بيان أنه عز وجل لو أهلكهم بعذاب من قبل إرسال الرسول ﷺ إليهم بالآيات، وقيام الحجة عليهم لقالوا: ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك، كذباً منهم، وتهديدهم بالتربص وانتظار العذاب، فكل متربص، وسيعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ۝ إِلَّا تَذَكُّرَةً لِمَنْ يَخْشَى ۝ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ۝ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ۝ وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ۝﴾

قوله: ﴿طه ١﴾، من الحروف المقطعة التي افتتح الله عز وجل بها تسعاً وعشرين سورة من سور القرآن الكريم، منها هذه السورة، لإثبات إعجاز القرآن الكريم والتحدي به، مع أنه مؤلف من الحروف التي ينطق بها العرب، وقد سبق الكلام عليها في مطلع سورة البقرة.

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ١﴾، الخطاب للنبي ﷺ، واللام في قوله: ﴿لِتَشْقَى ١﴾ للتعليل، أي: ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لأجل أن تشقى، بأن يكون فيه من التكليف ما يشق عليك وعلى أمتك، بل يسرنا ذكره وتكاليفه، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۝﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ ۝﴾ [المائدة: ٦].

وأيضاً: ما أنزلنا عليك القرآن لأجل أن تشقى وتتعب، وتذهب نفسك حسرات على المكذبين والكافرين من قومك بغية أن يؤمنوا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ ۝﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِعْمِ اللَّهِ غَفْلًا تَلْوَى ۝ وَمَا يَنْبَغُ عَلَيْكَ مِنْ حَرْجٍ مِمَّنْ يَبْغَى ۝﴾ [الكهف: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ اللَّهِ غَفْلًا تَلْوَى ۝ وَمَا يَنْبَغُ عَلَيْكَ مِنْ حَرْجٍ مِمَّنْ يَبْغَى ۝﴾ [الشعراء: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۝﴾ [آل عمران: ١٧٦].

فليس عليك هداهم، وإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۝﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝﴾ [الرعد: ٤٠].

وأيضاً: ما أنزلنا عليك القرآن وأمرناك بالعمل به، وتلاوته وقيام الليل به أنت

وأصحابك لتشقى بذلك، بل ليكون ذلك عنوان السعادة لكم وسببها؛ ولهذا قال ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار».

فما أنزله الله تعالى عليه ﷺ إلا ليكون سبباً للسعادة والفلاح والفوز في الدنيا والآخرة؛ كما هو مفهوم الآية، وكما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: ١٢٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة»^(١).

وقال قتادة: «لا والله ما جعل شقاءً، ولكن جعله نوراً ورحمة ودليلاً إلى الجنة»^(٢). وقد أحسن القائل:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقى هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للتقى مزيد^(٣)
ففي إنزاله القرآن عليه ﷺ تكريم له وعناية به وبأتمته، ومنة عظيمة منه تعالى عليهم، ورحمة بهم وإسعاد لهم؛ ولهذا قال:

﴿إِلَّا تَذَكَّرَ لِمَنْ يَخْشَى﴾، «إلا»: للاستثناء المنقطع بمعنى: «لكن».
﴿تَذَكَّرَ﴾ مفعول لأجله، و«مَنْ» موصولة، أي: لكن أنزلناه؛ ليكون تذكرة وعظة وعبرة للذي يخشى الله ويخاف عقابه، يهتدي به إلى العلم النافع والعمل الصالح، وإلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴿٥٥﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر: ٥٤-٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وخص به من يخشى؛ لأنه هو الذي ينتفع بالتذكرة دون غيره، كما قال تعالى:

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٩/١٦).

(٣) البيتان للحطيئة. انظر: «ديوانه» (ص ٣٢١).

﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى ﴿١٠﴾ وَيَجْجَبُهَا الْأَشَقَى ﴿١١﴾﴾ [الأعلى: ١٠-١١].

ويؤخذ من هذا أنه ليس عليك إلا أن تبلغ وتذكر بالقرآن، وليس عليك أن يؤمنوا لا محالة، قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ حَقَّقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿١﴾﴾، بعد أن نفى عز وجل أن يكون أنزل القرآن عليه ﷺ ليشقى، وقرر أنه إنما أنزله عليه؛ لإسعاده وإسعاد أمته؛ أتبع ذلك بذكر جلاله هذا القرآن، وعظمة منزلته، ورحمته، وكمال صفاته؛ إغراءً وحثاً على الأخذ به.

﴿تَنْزِيلًا﴾، مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره: نزلناه، «من»: موصولة، أي: من الخالق العظيم المتفرد بكمال الربوبية، الذي خلق هذه المخلوقات العظيمة الأرض والسموات العلى، والكون بما فيه، ومعنى ﴿الْعُلَى﴾، أي: اللاتي هن سقف هذا الكون وأعلاه؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

قال الفرزدق^(١):

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطول
وقد أجابته جرير بقوله^(٢):

أخزى الذي سمك السماء مجاشعاً وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
ثم بعدما بين كمال ربوبيته عز وجل أتبع ذلك ببيان كمال رحمته، وكمال علوه وكبريائه وعظمته، فقال:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾﴾، «الرحمن» اسم من أسماء الله عز وجل، بل هو ثاني أسماء الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠].

يدل على إثبات صفة الرحمة له عز وجل وسعتها: رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، عامة وخاصة؛ كما قال تعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَنْ

(١) انظر: «ديوانه» (٢/١٥٥).

(٢) انظر: «ديوان جرير» (ص ٣٥٧).

يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ ﴿٢١﴾ [العنكبوت: ٢١].

﴿عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾، «العرش»: يطلق على سرير الملك، وعرشه عز وجل أكبر المخلوقات وأعظمها وأعلاها وأرساها.

والاستواء: بمعنى العلو والارتفاع، أي: استوى عز وجل على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ثم لما بين كمال ربوبيته وكمال رحمته وكمال علوه وكبريائه وعظمته؛ أتبع ذلك ببيان سعة ملكه، فقال:

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، اللام: للملك والاختصاص، و«ما»: موصولة، أي له خاصة- خلقاً وملكاً وتدبيراً- الذي في السموات والذي في الأرض، والذي بينهما من جميع المخلوقات.

﴿وَمَا تَحْتِ الثَّرَى﴾، أي: وله الذي تحت الثرى، أي: الأرض وما تحتها، و«الثرى» في الأصل: التراب الندي.

﴿وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ ٧، معطوف على ما قبله، فبعد أن بين عز وجل سعة ملكه بين سعة علمه، أي: أنزله الذي له ملك كل ما في الكون، والذي يعلم الجهر من القول، كما يعلم السر وأخفى؛ كما قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ٦ [الفرقان: ٦].

و«السر»: ما أسر المرء في نفسه، و«أخفى»: ما حدث به نفسه من الخطرات. أو السر: ما خطر على القلب، و«أخفى»: ما لم يخطر على القلب. والمراد: أنه سبحانه محيط بجميع الأشياء كلها، دقيقها وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيها وجليلها، فسواء أسررت في قولك أو جهرت به، فالكل سواء بالنسبة لعلمه عز وجل.

ولما بين عز وجل وقرر كمال ربوبيته، وعموم رحمته، وكمال علوه وعظمته، وسعة ملكه وعلمه، أتبع ذلك ببيان وتقرير وإثبات كمال إلهيته، استدلالاً بتوحيد الربوبية على

توحيد الألوهية؛ فقال:

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، «الله» علم على ذات الرب، وهو أصل الأعلام، أي: المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا، وهو أصل أسماؤه عز وجل، وتأتي أسماؤه عز وجل كلها تابعة له، وهو الاسم الأعظم من أسماؤه عز وجل.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، «إلا» أداة حصر، أي: لا معبود بحق إلا هو.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، أي: له وحده الأسماء الكثيرة الكاملة، الحسنی من جميع الوجوه؛ الدالة على الحمد والثناء والمدح، وعلى جميع صفات الكمال؛ ولهذا أمر عز وجل عباده أن يشنوا عليه بها ويدعوه ويتعبدوا له بها؛ قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات إعجاز القرآن والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾﴾.
- ٢- إثبات أن القرآن منزل من عند الله تعالى غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ الآية، وقوله: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ الآية. وفي هذا إبطال لما ذهب إليه المعتزلة من القول بخلق القرآن، وما أثاروه من الفتنة والمحنة في ذلك أيام الخليفة المأمون^(١).
- ٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه، فله سبحانه وتعالى علو الذات وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا﴾، وقوله: ﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ الآية.
- ٤- إثبات نبوته ﷺ بإنزال الكتاب عليه، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾.
- ٥- أن الله عز وجل ما أنزل القرآن عليه ﷺ ليشتقى، بأن يكلف ما يشق عليه وعلى أمته، ولا ليشتقى ويتحسر أسفًا وندمًا على المكذبين له، ولا ليكون عمله بالقرآن، وتلاوته وقيامه الليل به شقاءً له، بل أنزله عليه ليسعد به هو وأمته في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، فمفهوم هذا: أنزلناه عليك لتسعد.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٥/٥٥٣-٥٥٥).

٦- أن الله عز وجل إنما أنزل القرآن تذكرة وعظة وعبرة لمن يخشى الله ويخاف عقابه، يهتدي به إلى معرفة الحق والعمل به، وينجوه به من طريق الضلال والزلل؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ (٣).

٧- تعظيم القرآن الكريم ورفع شأنه؛ لقوله تعالى: ﴿تَزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ﴾ الآية.

٨- تعظيم الله عز وجل لنفسه، وإثبات وتقرير كمال ربوبيته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ الآية.

٩- إثبات اسم الله عز وجل: «الرحمن»، وإثبات صفة الرحمة الواسعة له عز وجل: رحمة ذاتية ثابتة له سبحانه، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾.

١٠- إثبات استوائه عز وجل على العرش استواءً يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾.

١١- إثبات العرش، وهو أكبر المخلوقات وأعلاها وأرساها.

١٢- بيان سعة ملك الله عز وجل وعمومه، وأن له سبحانه خاصة كل ما في هذا الكون؛ خلقاً وملكاً وتدبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ (٦).

١٣- سعة علمه عز وجل واطلاعه على الجهر، وعلى السر وأخفى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجَهَّرَ بِأَقْوَالٍ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ (٧).

١٤- إثبات وتقرير كمال إلهيته عز وجل وتفرد وحده سبحانه بالعبودية، فلا إله غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٥- تعظيم الله عز وجل لنفسه، وامتداحه لها وثناؤه عليها بما له خاصة من الأسماء الحسنى، المتضمنة للصفات العلى؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ① إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنستُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ② فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَى ③ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ④ وَأَنَا آخَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ⑤ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ⑥ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ⑦ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ⑧ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ⑨ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَازِلُ أُخْرَى ⑩ قَالَ أَلْقَاهَا يَا مُوسَى ⑪ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ⑫ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ⑬ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى ⑭ لِئُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ⑮﴾.

أعقب عز وجل تثبيت النبي ﷺ على التبليغ، والتنويه بشأن القرآن، وعظمة منزلته سبحانه، بذكر قصة موسى عليه السلام، وما جرى له منذ ولادته، وإلى أن بعثه الله وأرسله إلى فرعون، وما جرى له مع فرعون، ثم مع بني إسرائيل؛ ليتأسى به ﷺ في الصبر على تحمل أعباء الرسالة، وتسلية له تجاه أذى المكذبين من قومه، وتحذيرًا لهم.

وهذه السورة من أوفى السور في ذكر قصة موسى، بدءًا من قوله تعالى: ﴿وَهَلْ

أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ①﴾ إلى قوله: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ②﴾.

وقد ذكرت قصة موسى عليه السلام، وكررت في القرآن أكثر من غيرها مبسوطه ومختصرة؛ لأن اليهود في المدينة أهل جدل، فأراد الله أن يبين ما فيه دحض افتراءهم، وأن يكون ﷺ أعلم بموسى منهم.

قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ① إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنستُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ②﴾

قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ①﴾، الواو استئنافية، والاستفهام: للتشويق والتحقيق والتقرير، أي: قد أتاك وجاءك حديث موسى، أي: خبره العظيم وقصته العجيبة.

﴿إِذْ رَأَى نَارًا﴾، أي: إذ أبصر نارًا وهو في طريقه من فلسطين إلى مصر هو وأهله.

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ﴾، يبشرهم بعد أن لم يجد ما يقدر به النار:

﴿امْكُثُوا إِنِّي آنستُ نَارًا﴾، أي: أقيموا؛ إني أبصرت نارًا؛ كما قال تعالى في سورة

القصص: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾ [القصص: ٢٩]، أي: أبصر من جانب جبل الطور الأيمن نارا.

﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾، «لعل» للترجي، أي: أرجو أن آتيكم منها

﴿ بِقَبَسٍ ﴾، أي: بشهاب قبس وجذوة وشعلة من النار توقدون منها ناركم، وتصطلون بها وتصنعون عليها طعامكم؛ كما قال في سورة النمل: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَتَاتِيكُمْ مِنْهَا يُخَبِّرُ أَؤْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [النمل: ٧]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿ لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩].

قال ابن كثير^(١) في مطلع كلامه على هذه الآيات: «من ههنا شرع تبارك وتعالى في ذكر قصة موسى، وكيف كان ابتداء الوحي إليه وتكليمه إياه، وذلك بعدما قضى موسى الأجل الذي كان بينه وبين صهره في رعاية الغنم وسار بأهله، قيل: قاصداً مصر بعدما طالت الغيبة عنها أكثر من عشر سنين ومعه زوجته، فأضل الطريق، وكانت ليلة شاتية، ونزل منزلاً بين شعاب وجبال، في برد وشتاء وسحاب وظلام وضباب، وجعل يقدح بزند كان معه ليوري نارا- كما جرت- فجعل لا يقدح شيئاً، ولا يخرج منه شرر ولا شيء، فبينما هو كذلك إذ آنس من جانب الطور نارا، أي: ظهرت له نار من جانب الجبل الذي هناك عن يمينه، فقال لأهله يبشرهم: ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ ﴾، أي: بشهاب من نار، وفي الآية الأخرى: ﴿ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ ﴾، وهي: الجمر الذي معه لهب ﴿ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ [القصص: ٢٩] دل على وجود البرد، وقوله: ﴿ بِقَبَسٍ ﴾، دل على وجود الظلام».

قال السعدي^(٢): «وكان مطلبه النور الحسي، والهداية الحسية، فوجد النور المعنوي، نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية الصراط المستقيم الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه ولا خطر بباله».

(١) في «تفسيره» ٥ / ٢٧٠.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥ / ١٤٦.

﴿أَوْ أجدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾، «أو» عاطفة، أي: أو أجد على النار من يهديني الطريق، وهذا يدل على أنه قد تاه عن الطريق.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْؤِسِي ۗ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا أَخْتَرُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾، أي: فلما أتى النار التي آتسها من بعيد، واقترب منها. قال السعدي^(١): «وكانت في الحقيقة نورًا، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»^(٢).

﴿نُودِيَ يَمْؤِسِي﴾، أي: ناداه الله عز وجل؛ كما قال في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَمْؤِسِي ۗ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]، وقال تعالى في سورة النمل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: ٨]، وقال تعالى في سورة مريم: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]. ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر بفتح الهمزة: «أني»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿إِنِّي﴾.

أي: إني أنا ربك، أي: الذي يناديك ويكلمك ربك؛ كما قال في آية القصص: ﴿أَن يَمْؤِسِي ۗ إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾، فناداه عز وجل هنا باسم الربوبية، وناداه في آية القصص باسم الألوهية.

﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾، تعظيمًا لهذه البقعة المطهرة؛ ليطأ بقدميه أرضها المقدسة المباركة فينال من بركتها. وقيل: لأنها كانتا من جلد حمار ميت^(٣).

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ١٤٦ / ٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإبان ١٧٩، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٣) انظر: «جامع البيان» ١٦ / ٢٣.

﴿إِنَّكَ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِينَ﴾، «الوادي»: هو المفرج والسهل بين الجبال والتلال، و«المقدس»: المطهر المبارك المعظم؛ لأن الله اختاره لمناجاة كلمه موسى عليه السلام. ﴿طُوًى﴾، قرأ ابن عامر وحمة والكسائي وعاصم بالتنوين: ﴿طُوًى﴾. وقرأ الباقون: «طُوًى» بغير تنوين، وهو اسم للوادي، فهو عطف بيان. ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾، قرأ حمزة: «وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ» بتشديد النون: «أَنَا»، و«أَخْتَرْتُكَ» بالنون المفتوحة وألف بعدها على لفظ الجمع.

وقرأ الباقون: «أنا» بتخفيف النون، و«اخترتك» بالتاء مضمومة من غير ألف على لفظ الواحد، أي: تخيرتك واصطفيتك على الناس. كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنِّي أَصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمَتِي﴾ [الأعراف: ١٤٤]، والمراد: الناس الموجودون في زمانه.

وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه توجب عليه تلقي ما أوحى إليه، وشكر الله تعالى؛ ولهذا قال الله تعالى في آية الأعراف: ﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٤]، وقال تعالى له هنا.

﴿فَأَسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط، و«ما»: موصولة، أي: فاستمع للذي يوحى إليك، أي: فألق سمعك للذي أوحى إليك. ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي﴾، هذا تفسير وبيان لـ«ما» في قوله: ﴿لِمَا يُوحَى﴾، أي: إنني أنا المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا. ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾، أي: لا إله غيري، ولا معبود بحق سواي.

﴿فَأَعْبُدْنِي﴾، الفاء: رابطة للمسبب بالسبب، أي: فاخضع وذل لي، وأخلص لي أنواع العبادة كلها، لا شريك لي.

وهذا هو حق الله على العباد، وأول وأعظم واجب عليهم؛ كما قال ﷺ في حديث معاذ رضي الله عنه: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً»^(١).

(١) أخرجه البخاري في اللباس ٥٩٦٧، ومسلم في الإيمان ٣٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، معطوف على ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ من عطف الخاص على العام؛ لأهمية الصلاة، فهي أعظم العبادات كلها، وأفضلها وأشرفها، متضمنة عبودية القلب واللسان والجوارح.

والصلاة في اللغة: الدعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة:

١٠٣].

وهي في الشرع: التعبد لله تعالى بأقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختمة بالتسليم.

﴿لِيُذَكِّرَ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تذكرني فيها بقلبك ولسانك وجوارحك؛ لأن الصلاة تذكّر بالله تعالى، أي: صل لتذكرني؛ لأن ذكره عز وجل أجل المقاصد.

قال ابن القيم: «قيل: المصدر مضاف إلى الفاعل، أي: لأذكرك بها، وقيل: مضاف إلى المذكور، أي: لتذكرني بها»^(١).

ويجوز كونها للتوقيت، أي: صل الصلاة عند الوقت الذي جعلته لذكرك، أي: صل الصلاة لوقتها؛ كما قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

وأيضًا: صل الصلاة حين تذكرها، فعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِيُذَكِّرَ﴾»^(٢).

والأظهر أنها لام التعليل، أي: وأقم الصلاة لأجل ذكري.

قال ابن القيم: «ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره، وإذا ذكر العبد ربه

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت، من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها ٥٩٧، ومسلم في المساجد، قضاء الصلاة الفائتة ٦٨٤، وأبو داود في الصلاة ٤٤٢، والترمذي في الصلاة ١٧٨، وابن ماجه في الصلاة ٦٩٦.

فذكر الله سابق على ذكره؛ فإنه لما ذكره أهمه ذكره، فالمعاني الثلاثة حق»^(١).

فالصلاة- بل العبادات كلها- شرعت لذكر الله تعالى، قال تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

ولهذا قال ﷺ: «إنما جعل الطواف بالبيت، وبين الصفا والمروة، ورمي الجمار لإقامة ذكر الله»^(٢).

قال السعدي^(٣): «وهذا النوع يقال له: توحيد الألوهية وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده».

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾، الجملة: تعليلية، أي: لأن الساعة آتية، أي: واقعة لا محالة، وكائنة ولا بد؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

﴿أَكَادُ أَحْفِيهَا﴾، أي: أقارب أن أخفيها، أي: أسترها من نفسي؛ لشدة إخفائي إياها.

قال ابن عباس: «لا أظهر عليها أحدًا غيري»^(٤).

كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْتَلُونَكَ كَاتِبًا حَتَّىٰ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ۚ قُلْ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾ [٦٣].

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٣.

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك ١٨٨٨، والترمذي في الحج ٩٠٢، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥/ ١٤٨.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٣٤/ ١٦).

إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰ ﴿٤٤﴾ [النازعات: ٤٢ - ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ [الزخرف: ٨٥].

فهي غيب استأثر الله بعلمها وأخفاها عن الخلائق، لم يطلع عليها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ ﴿٦٥﴾ [النمل: ٦٥].

﴿لِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تجزي كل نفس بما تسعى، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بالذي تسعاه، أو بسعيها، أي: عملها وكسبها من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ ﴿٧﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨]، وقال تعالى: ﴿لِيُجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيُجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ ﴿٣١﴾ [النجم: ٣١].

والمعنى: إن الساعة قائمة وواقعة لا محالة؛ لأجل أن تجزي كل نفس بسعيها وعملها خيراً كان أو شراً، وأخفيت علم وقوعها عن الخلائق؛ ليجتهدوا في العمل، ويتنافسوا في الاستعداد لها.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَّ عَنْهَا﴾، أي: فلا يصرفنك عن الإيمان بالساعة، والاستعداد لها، والخطاب لآحاد المكلفين.

﴿مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا﴾، «من» موصولة، أي: الذي لا يصدق بالساعة بل يكذب بها ويشكك ويجادل فيها بالباطل، قد أنكروا البعث والحساب والجزاء على الأعمال، واغتر بدنياه. ﴿وَأَتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، أي: اتبع ما تمواه نفسه الأمارة بالسوء، وأثر ذلك على طاعة مولاه، فحسر دينه ودنياه وأخراه.

﴿فَتَرَدَّى﴾، جواب النهي، أي: فتهلك وتحسر وتشقى مثله، قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ ﴿١١﴾ [الليل: ١١]، أي: إذا هلك.

واتباع الهوى مردٍ ومهلك، قال الشاعر:

وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجى^(١)

(١) البيت لابن دريد من مقصورته. انظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص ٧٤)، وانظر: «العقد الفريد» (١١٣/٢).

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

لما بين عز وجل لموسى أصل الإيوان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوى به إيمانه؛ بتأييد الله له على عدوه.

قوله: ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينِكَ يَمْوَسَىٰ ﴿١٧﴾﴾، الاستفهام: للتقرير والتنبيه والاهتمام والإيناس لموسى عليه السلام، أي: ما هذه التي في يمينك يا موسى.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾، أي: أعتمد عليها في قيامي وفي مشيي.

﴿وَأَهشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾، أي: أهرج بها الشجر لیتساقط ورقه فترعاه غنمي.

﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾، أي: حاجات ومنافع ومصالح أخرى غير ذلك، كأن يضعها عنزة له في صلاته، أو يدفع بها عن نفسه الأذى ونحو ذلك.

﴿قَالَ ﴿٢٠﴾﴾، أي: قال الله تعالى له: ﴿أَلْقَهَا يَمْوَسَىٰ﴾، أي: ألق هذه العصا التي في يدك يا موسى، أي: اطرحها على الأرض، ﴿فَأَلْقَهَا﴾، أي: طرحها على الأرض.

﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ﴾، الفاء عاطفة، و«إذا»: فجائية، أي: فإذا هي ثعبان تسعى، أي: فإذا هي قد انقلبت ثعباناً عظيماً خيفاً، ﴿تَسْعَىٰ﴾، أي: تمشي بسرعة وخفة وشدة، وتضطرب، وتتهز كأنها جان، وهو أسرع الحيات مشياً وحركة، فولى موسى هارباً خائفاً ولم يعقب؛ كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمْوَسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىٰ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [النمل: ١٠]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا وَلَمْ يَعْقِبْ يَمْوَسَىٰ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٣١].

وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لتوهم أنها تخيل لا حقيقة؛ كما هو حال سحر السحرة.

﴿قَالَ ﴿٢٠﴾﴾، أي: قال الله له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾، أي: فلا بأس عليك منها.

﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾، «سيرتها» منصوب بنزع الخافض، أي: سنعيدها إلى سيرتها الأولى، أي: سنرجعها إلى هيئتها وطبيعتها الأولى، أي: سنعيدها عصاً كما كانت من ذي قبل، وهذه هي الآية الكبرى؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْكَ الْكُرْبَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النازعات: ٢٠].

فامثل أمر الله إيماناً وتسليماً، فأخذها فعادت عصاه التي كان يعرفها.
 قوله تعالى: ﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾
 لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾.

قوله: ﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾، الضم: الإلصاق. والجناح: العضد وما تحته إلى الإبط.

أي: واضمم وألصق يدك، أي: كفك، إلى جنبك تحت عضدك، أدخلها في جيب قميصك حتى تماس بشرة جنبك.

﴿تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، أي: تخرج بيضاء بياضاً ساطعاً.
 ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾، أي: من غير مرض كالبرص والبهق ونحو ذلك.
 كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]، وقال تعالى في سورة القصص: ﴿أَسَلُّكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢].
 ﴿آيَةً أُخْرَى﴾، أي: آية ثانية غير الآية الأولى، فالآية الأولى: انقلاب العصا حية تسعى.

والآية الثانية: أن يلصق يده إلى جنبه فتخرج بيضاء من غير سوء؛ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا نَكَحَ بُرْهَانُ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [القصص: ٣٢].

﴿لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾، أي: أعطيناك هاتين الآيتين: العصا واليد؛ لأجل أن نريك ﴿مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾، أي: من حججنا وبراهيننا العظيمة التي هي غاية في الكبر، الدالة على كمال قدرتنا وعلى صدق رسالتك وصحة ما جئت به؛ ليطمئن قلبك وتثق بوعد الله ونصره وحفظه لك، ولتكون حجة على من أرسلناك إليهم.

الفوائد والأحكام:

١- تذكير النبي ﷺ وتقريره بما جاءه من خبر موسى عليه السلام وقصته العظيمة العجيبة، وعناية الله تعالى به قبل بعثته وبعدها، وما أيده الله به من المعجزات، وما جرى له مع فرعون، ومع بني إسرائيل؛ ليتأسى به في الصبر في تحمل أعباء الرسالة، وتسليته له تجاه

المكذبين من قومه، وتحذيرًا لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ۖ﴾ ﴿٥﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالته ﷺ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وتكريمه.

٣- فضيلة موسى عليه السلام، وعظم ما حفلت به قصته قبل مبعثه وبعد مبعثه من الآيات والدروس والعبر؛ لهذا كانت قصته أكثر القصص ذكرًا وورودًا في القرآن الكريم.

٤- رؤية موسى عليه السلام نارًا، واستبشاره بذلك، وأمره أهله بالملكث، وإخباره إياهم أنه آنس نارًا، راجيًا أن يأتيهم منها بقبس أو يجد على النار هدى؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى ۖ﴾ ﴿٦﴾.

٥- حاجة موسى وأهله في تلك الحال إلى ما يشعلون به النار للاصطلاء عليها من البرد وصنع طعامهم؛ كما قال في الآيتين الأخريين: ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، [القصص: ٢٩].

٦- أن موسى عليه السلام قد ضل الطريق؛ ولهذا قال: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾، أي: من يهديني الطريق.

٧- مناداة الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أتى إلى النار التي رآها وأنسها، وتكليمه له، وثبوت نبوته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى ۖ﴾ ﴿١١﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿١٢﴾ الآيات.

٨- إثبات الكلام لله عز وجل، وأنه يتكلم بحرف وصوت يُسمع من شاء، وأنه نادى موسى عليه السلام وكلمه؛ لقوله تعالى: ﴿نُودِيَ يَمْوَسَى ۖ﴾ ﴿١١﴾ ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾ الآيات.

كما قال تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ ﴿١٢﴾ [النازعات: ١٦]، وقال: ﴿وَتَذَيَّنَّهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا﴾ ﴿٥٥﴾ [مريم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى، إضافة اسم الرب إلى ضميره عليه السلام.

١٠- تطهير وادي «طوى» وتعظيمه؛ لأن الله أمر موسى عليه السلام بخلع نعليه، تعظيماً لهذا الوادي.

١١- أن الله فضل بعض البقاع على بعض، ففضل وادي طوى؛ كما جعل مكة أفضل البقاع.

١٢- إثبات اختيار الله عز وجل لموسى عليه السلام - واصطفائه ووحيه إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾.

١٣- إثبات الألوهية لله تعالى، وأنه هو الإله المعبود بحق، لا إله غيره، ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾.

١٤- وجوب عبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾.

١٥- أن أول واجب على الخلق، وأعظم حق لله تعالى عليهم؛ هو توحيده بالألوهية، وعبادته وحده لا شريك له.

١٦- أن من لازم توحيد الربوبية توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى لموسى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ﴾، وقوله بعده: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾.

١٧- وجوب إقام الصلاة، وأنها أعظم العبادات؛ لهذا خصها بالذكر من بين العبادات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

١٨- أن الله تعالى شرع الصلاة؛ لأجل ذكره عز وجل؛ كما شرع جميع العبادات لذلك، ففيها ذكر الله تعالى، والتذكير به عز وجل، وذكره عز وجل لعباده؛ كما قال تعالى: ﴿فَادْكُرُونِي أَذْكَرَكُم﴾ [البقرة: ١٥٢].

١٩- أن المهم في الصلاة أن تقام إقامة صحيحة بشروطها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ﴾، ولم يقل: «فصل».

٢٠- إثبات الساعة والقيامة، وأنها آتية لا ريب فيها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾.

٢١- شدة إخفاء الله عز وجل لعلم الساعة، وأنها من أعظم الغيوب التي استأثر الله تعالى بعلمها، لم يطلع عليها أحداً من خلقه، لا ملكاً مقرباً، ولا نبياً مرسلًا؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾، كما قال تعالى: ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ

مِنْهَا بَلْ هُمْ مِمَّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ [النمل: ٦٦].

٢٢- أن الحكمة في إتيان الساعة وإقامة القيامة لأجل أن تجزى كل نفس بسعيها، خيراً كان أو شراً؛ لقوله تعالى: ﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى﴾.

٢٣- أن إخفاء الساعة والقيامة؛ لأجل أن يجتهد العباد في العمل والاستعداد لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسَعَى﴾.

٢٤- كمال عدل الله عز وجل بين العباد، فلاجل ذلك أثبت إتيان الساعة؛ ليقنص للمظلوم من الظالم في ذلك اليوم، ولأجل أن يجازى العباد حسب أعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

٢٥- الترغيب والإغراء بالإيمان والعمل الصالح، والترهيب والتحذير من الكفر والمعاصي؛ لأن كل إنسان سيلقى جزاء عمله خيراً كان أو شراً.

٢٦- التحذير ممن لا يؤمنون بالساعة ويصدون الناس ويصرفونهم عنها، ويشككونهم فيها، وأن من سلك سبيلهم فمآله كمالهم: الهلاك والردى، والخسران والبوار؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾﴾.

٢٧- التحذير من اتباع الهوى، وأنه سبب للهلاك والردى.

٢٨- طمأنة الله عز وجل لموسى عليه السلام، وإيناسه له قبل أن يريه الآيتين: في عصاه، وفي يده بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَّكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى ﴿١٧﴾﴾.

٢٩- اتخاذ موسى عليه السلام العصا، للاعتماد عليها عند قيامه ومشيه، وليهش بها على غنمه، ولحاجاته الأخرى؛ لقوله: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَارِبُ أُخْرَى ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٨].

٣٠- أن اتخاذ العصا- حتى ولو كان الإنسان نشيطاً وغير كبير- ليس عيباً؛ لأن موسى عليه السلام اتخذها وهو نشيط وغير كبير.

٣١- تأييد الله عز وجل لموسى عليه السلام بالمعجزة العظيمة، وهي انقلاب عصاه إذا ألقاها حية تسعى، ومن ثم أخذها وعودتها عصا كما كانت؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَمْوَسَى ﴿١٩﴾ فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ﴿٢١﴾﴾ سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾﴾.

٣٢- تأييده عز وجل له بآية أخرى، وهي أن يضمم يده إلى جناحه ويدخلها في جيبه فتخرج بيضاء تسطع بياضاً من غير برص ونحوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمَ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ مَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ ﴿٢٣﴾.

٣٣- منة الله تعالى على موسى عليه السلام بما أيده به وأراه من الآيات الكبرى، والمعجزات العظمى؛ لقوله تعالى: ﴿لِرُبِّكَ مِنَ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ ﴿٢٣﴾.

٣٤- قدرة الله تعالى التامة على تأييد رسله وأنبيائه بما شاء من الآيات والمعجزات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٣٦﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٣٧﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٣٨﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٣٩﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٤٠﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٤١﴾ أَشَدَّ بِمَنِّ أَرْزِي ﴿٤٢﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿٤٣﴾ كَيْ نَسِيحَكَ كَبِيرًا ﴿٤٤﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَبِيرًا ﴿٤٥﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٤٦﴾.

لما أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام، وأراه الآيات الكبرى؛ أرسله إلى فرعون ملك مصر فقال: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾، أي: اذهب إلى فرعون ملك مصر الذي خرجت فأرأ منه وهاربًا، فادعه وبلغه ما أرسلناك به إليه.

﴿إِنَّهُ طَغَى﴾، الجملة تعليلية، أي: لأنه طغى، أي: تجاوز الحد في الكفر والفساد، والعتو والتمرد والعناد، والبغي والعلو في الأرض وظلم العباد، فادعى الربوبية والإلهية، وأضل قومه وعذب بني إسرائيل وأذاهم أشد الأذى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص: ٤٤].

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى عليه السلام وقد تلقى أمر الله تعالى له بالذهاب إلى فرعون بالقبول، سائلًا ربه الوسائل المعينة على ذلك، معدًّا لذلك الأمر العظيم عدته، حيث بعثه الله إلى أعظم ملوك الأرض آنذاك، وأشدهم كفرًا وتجبرًا، وعنادًا وطغيانًا.

مع شدة عداوته لموسى الذي تربى في بيته، وما حصل من موسى من قتل القبطي من قوم فرعون، ومع هذا كله لم يتردد موسى عليه السلام في إجابة أمر الله تعالى له، لكنه سأله فقال:

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾، أي: يا رب اشرح لي صدري، أي: وسِّعه وأفسحه بالحلم والصبر؛ لأستطيع القيام بهذا الأمر العظيم، وأتحمل في سبيل ذلك الأذى القوي والفعلي، فلا يضيق صدري بذلك فينفض الناس من حولي ولا يقبلوا قولي؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥].

وهذا أعظم مطلب يحتاجه الداعي إلى الله، وذلك لأن من كان ضيق الحشا، سريع الانفعال والغضب؛ لا يصلح لهداية الخلق؛ لأنه لا يصبر على أذاهم، ولا على

معالجتهم، ويستعجل جني الثمرة قبل أوانها، وأكثر الخلق يرد الحق، حتى ولو جاء به حليم واسع الصدر، فكيف إذا جاء به من ليس كذلك؟!

﴿وَيَايْتِرْ لِي أَمْرِي﴾، أي: سهل لي شأني، أي: جميع أموري بعونك وتسديدي لي، وهذا من أعظم المطالب، وأكبر أسباب التوفيق للعبد؛ أن ييسر الله له أمره ويعينه؛ فإن العبد لا يستطيع أن يعمل أي شيء إلا بتيسير الله وعونه، وقد أحسن القائل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فإول ما يجني عليه اجتهاده^(١)

ومن أعظم التيسير للداعي إلى الله: أن يوفق للدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وإتيان الأمور من أبوابها، ومخاطبة كل بما يناسبه، وبأقرب الطرق إلى قبول قوله.

﴿وَأَحَلَّ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾ ^(٧٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ^(٧٨)، أي: حل عقدة من لساني، أي: خفف ما في لساني من العقدة واللثغة والعي، التي لا أستطيع بسببها الإفصاح بالقول؛ ولهذا قال: ﴿رَأَيْتَ هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ﴾ ^(٧٩) [الشعراء: ١٣].
وجملة ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ في محل نصب مفعول لأجله، أي: لأجل أن يفقهوا قولي، أي: يعوه ويفهموه.

ولم يقل عليه السلام: «واحلل عقدة لساني»، بل سأل قدر الحاجة، فقال: ﴿وَأَحَلَّ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾، أي: بقدر ما يفقهوا ويفهموا المعنى.
وقد استجاب الله له فحل عقدة من لسانه، لكن بقيت في لسانه بقية من لثغة، ولو سأل الله زوالها لزالته بالكلية.

ولهذا عيّر فرعون - أخزاه الله - بقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ ^(٨٠) [الزخرف: ٥٢].

﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ^(٨١)، «الوزير»: مأخوذ من المؤازرة والمساعدة والمعونة، أي: اجعل لي مؤازراً ومساعداً ومعيناً.

(١) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الفرج بعد الشدة» (١/١٧٧).

﴿مِنْ أَهْلِ﴾؛ لأنهم أولى بالمعروف والبر، وأشفق وأنصح، والمرء أعرف بهم من غيرهم.

﴿هَرُونَ﴾، بدل من ﴿وَزَيْرًا﴾، ﴿أَخِي﴾، عطف بيان لـ«هارون»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وكان هارون أكبر من موسى»^(١).

﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾^(٢)، قرأ ابن عامر: «أَشَدُّ» بقطع الهمزة وفتحها، وقرأ الباقون بوصل الهمزة وضمها: ﴿أَشَدُّ﴾.

أي: قوّني به، وشدّ به ظهري؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ سَتَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَتَجْعَلَ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [القصص: ٣٥].

﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾^(٣)، قرأ ابن عامر بضم الهمزة: «وأشركه»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَشْرِكُهُ﴾، أي: أشركه في شأني ومشاورتي، واجعله نبياً رسولاً كما جعلتني.

﴿كَيْ نَسْبِحَكَ كَثِيرًا﴾^(٤)، أي: كي نسبحك تسبيحاً كثيراً، والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين.

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾^(٥)، أي: ونذكرك ذكراً كثيراً بأنواع العبادة كلها، من التهليل والتحميد والتكبير، وقراءة القرآن والصلاة، وغير ذلك.

وفي هذا إشارة إلى أن الحكمة والغاية من بعثة الرسل: هي عبادة الله تعالى وتعظيمه، وأنها أكبر معين للداعي إلى الله ولكل مؤمن في تيسير أمر دينه ودنياه.

أي: كي نتعاون ونتساعد على تسبيحك كثيراً، وذكرك كثيراً في سائر الأوقات والأحوال، آناء الليل والنهار، قياماً وقعوداً وعلى جنوبنا.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾^(٦)، أي: تعلم أحوالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إلى عونك في جميع أمورنا، وقد أوليتنا عنايتك ورعايتك في اصطفاك إيانا بالنبوة، فمنّ علينا بما سألناك، واستجب لنا فيما دعوناك، قال النابغة الذبياني^(٧):

عهدتك ترعاني بعين بصيرة وتبعث حراساً عليّ وناظراً

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥ / ٥٦١).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ٨١).

الفوائد والأحكام:

- ١- بعث موسى عليه السلام إلى فرعون مصر في زمانه، يدعوه إلى الله عز وجل، ويبلغه ما أرسل به إليه؛ لقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ ﴿٢٤﴾.
- ٢- شدة طغيان فرعون وتجبره وعناده وتكبره، وتجاوزه الحد في الكفر والبغي والظلم والعدوان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾.
- ٣- استجابة موسى عليه السلام لأمر الله له بالذهاب إلى فرعون، وتقديره وإعداده في نفسه لهذا الأمر الخطير قدره وعدته، وتحمله عليه السلام تجاه ذلك مسؤوليته؛ لهذا سأل ربه عز وجل أسباب العون على ذلك، بأن يشرح صدره، ويسر أمره، ويحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وأن يجعل أخاه هارون وزيراً له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾.
- ٤- أن من أعظم الأسباب لنجاح الداعي إلى الله تعالى في دعوته: أن يشرح الله صدره؛ ليتحمل ما يلاقه من الأذى والمكابرة والعناد بحلم وأناة، وصبر وسعة صدر؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾﴾.
- ٥- أن فقدان الحلم، وسرعة الانفعال والغضب، وضيق الصدر، وعدم التحمل والصبر؛ من أسباب إخفاق الداعي.
- ٦- أن نعمة انشراح الصدر للإسلام أعظم النعم، بها يستنير القلب بنور الله، ويهتدي بهدى الله، وبها ينشط العبد للقيام بأمر الله، وما ينفعه في أمر دينه ودنياه؛ لهذا سأل موسى ربه ذلك، بل وجعله أول مطالبه.
- ٧- أن قيام الإنسان بالدعوة إلى الله تعالى، أو بأي عمل كان؛ مرهونٌ بتيسير الله تعالى له أمره، فإن لم ييسر الله له أمره لم يستطع القيام بشيء؛ لهذا ينبغي التضرع دائماً إلى الله تعالى بذلك؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾.
- ٨- سؤال موسى عليه السلام ربه أن يحلل عقدة من لسانه؛ لما فيه من اللثغة، مما لا يستطيع معه إفهام قومه؛ لهذا سأل الله تعالى ذلك؛ لقوله: ﴿وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾.

٩- أدب موسى كغيره من الأنبياء عليهم السلام في الاقتصار في سؤاله على ما تدعو الحاجة إليه، وما تحصل به الكفاية في فهم قوله؛ لقوله: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي﴾ (٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٨﴾، ولم يقل: «واحلل عقدة لساني».

١٠- حاجة الداعي إلى الله تعالى إلى لسان فصيح يبين فيه الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويرغب في الحق والهدى، ويحذر من الباطل والضلال والردى.

١١- سؤال موسى عليه السلام ربه أن يجعل أخاه هارون وزيراً له، يشدد به أزره، ويشركه في أمره بالنبوة، وفي هذا- مع تقديره للأمر قدره- اعتراف منه عليه السلام بحاجته إلى من يكون له عوناً في هذا الأمر العظيم؛ لقوله: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ (١١) هَزُوْنَ أَخِي ﴿١٢﴾ أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي ﴿١٣﴾ وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴿١٤﴾.

١٢- عظم مكانة موسى ووجاهته عند ربه؛ ولهذا أجاب الله سؤاله وشفاعته في جعل أخيه هارون نبياً ووزيراً له؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيْهًا﴾ (١٢) [الأحزاب: ٦٩].

١٣- أن الأهل والأقربين أولى بالمعروف والبر؛ لقول موسى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيْرًا مِّنْ أَهْلِي﴾.

١٤- بر موسى بأخيه هارون عليهما السلام غاية البر؛ حيث شفع فيه عند الله أن يجعله نبياً ووزيراً له؛ ولهذا قالوا: إن أنفع أخ لأخيه في الدنيا موسى عليه السلام؛ حيث سأل الله لأخيه النبوة، فاستجاب الله له (١).

١٥- سلامة قلب موسى عليه السلام، وصفاء ما بينه وبين أخيه هارون؛ ولهذا خصه بالوجاهة له عند ربه.

وقل أن تجد أخاً يرشح أخاه ليكون وزيراً له، ولو كانت فيه الكفاءة، بل يبحث عن غيره، حكمة بالغة.

١٦- تمام معرفة موسى عليه السلام بربه، وما ينبغي له سبحانه من التعظيم، ومعرفته للحكمة العظمى من إيجاد الخلق وإرسال الرسل، وهي عبادة الله تعالى والمنافسة في ذلك؛ وأن ذلك هو الغذاء الروحي الذي هو أكبر معين للداعي إلى الله؛

لقوله: ﴿كَيْ سُبْحَانَكَ كَثِيرًا ۖ ﴿٣٣﴾ وَتَذَكُّرِكَ كَثِيرًا ۖ ﴿٣٤﴾﴾.

١٧- الترغيب في الإكثار من تسبيح الله تعالى وذكره وعبادته، وأن ذلك أعظم معين للعبد لتيسير أمور دينه ودنياه.

١٨- علم الله الواسع، واطلاعه التام على أحوال العباد، وعلى حال موسى وأخيه، وافتقارهما إلى عونيه، وعنايته بهما واصطفائهما بالنبوة؛ لقول موسى: ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ۖ ﴿٣٥﴾﴾.

١٩- إظهار موسى افتقاره وأخيه إلى الله عز وجل البصير بهما؛ لِيَمُنَّ عَلَيْهِ بالاستجابة لما سأله ودعاه، وقد فعل كما في الآيات التالية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَآذِنِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ، وَالْقَبْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّمِّي وَلِضَمِّعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ، فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿٤٠﴾ وَوَقَلْتَ نَفْسًا فَانْجَبْنَاكَ مِنَ الْعَمْرِ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَصْطَنَعْنَاكَ لِنَفْسِي ﴿٤٢﴾ .

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال الله عز وجل إخبارًا لموسى بإجابته سؤاله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾، أي: قد أعطيت سؤالك يا موسى، أي: قد أعطيتك ما سألت، وأجبتك فيما طلبت: من شرح صدرك، وتيسير أمرك، وحل عقدة من لسانك؛ ليفقهوا قولك، وجعل أخيك هارون وزيرًا لك.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾﴾، بعدما وعده عز وجل بإجابة سؤاله، أتبع ذلك بما يقوي تحقق هذا الوعد وتقريره؛ وهو سابق منته تعالى عليه، وأن هذه ليست المنة الأولى؛ فقد سبقها غيرها.

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾، اللام لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لقد، و«قد» حرف تحقيق، ﴿مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾، أي: أنعمنا عليك مرة أخرى قبل هذه المنة والنعمة، من غير سابق دعاء منك ولا طلب.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾﴾، أي: حين أوحينا إلى أمك، أي: ألهمناها ﴿مَا يُوحَىٰ﴾، «ما» موصولة، تفيد أهمية ما أوحى إليها، أي: الذي أوحيناه إليها، وألهمناها إياه وأنت رضيع: ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ﴾، «أن» تفسير للفعل «أوحينا» أو للفعل «يوحى»، أو مصدرية، والمصدر المؤول في محل نصب بدل من «ما» الموصولة، وضمير الهاء يعود إلى موسى، أي: أن ألقيه وضعيه في التابوت، و«التابوت»: الصندوق.

﴿فَأَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾، الفاء في الموضعين عاطفة، والهاء في الموضعين تعود إلى موسى أو إلى التابوت.

﴿فِي الْيَمِّ﴾، أي: في البحر، والمراد به: نهر النيل، ﴿فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ﴾ الفاء عاطفة، و«الساحل»: شاطئ النهر.

والمعنى: فألقيه وضعيه في اليم ﴿فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ﴾ كونًا وقدرًا، ﴿يَالسَّاحِلِ﴾، أي: بالشاطئ خارج النهر.

وذلك أن فرعون رأى رؤيا: أنه سيولد في بني إسرائيل غلام يكون هلاكه على يديه، فكان يقتل المواليد الذكور منهم، وكانوا يستعملونهم في الخدمة، فخوف أن يفنى بنو إسرائيل، فكان يقتل المواليد عامًا ويتركهم عامًا، فولد موسى في العام الذي يقتل به المواليد، فخافت أمه من فرعون وملئه أن يقتلوه، فألمها الله أن أرضعيه، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم، فكانت ترضعه، فإذا خافت عليه وضعت في تابوت وألقت في البحر، وأمسكته إلى منزلها بحبل، فانفلت منها الحبل يومًا وذهب به البحر فألقاه بالساحل إلى حيث دار فرعون، ولهذا قال:

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾، وهو فرعون عدو الله؛ لادعائه الربوبية والألوهية، وإنكاره ألوهية الله، بقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، وقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

وهو عدو لموسى عليه السلام عداوتان: عداوة قديمة؛ لأنه من بني إسرائيل الذين يقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم، أنجاه الله من قتله بأعجوبة كما ذكر الله تعالى في هذه الآيات وغيرها.

وعداوة جديدة أشد وأعظم؛ لأن موسى عليه السلام أنكر على فرعون دعواه الربوبية والألوهية، ودعاه إلى توحيد الله تعالى وحده، لا رب غيره ولا معبود بحق سواه.

وهذه سبب عداوته القديمة له.

﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، أي: وجعلت لك محبة مني، فأحببتك وحببتك إلى خلقي، حتى أحبك فرعون وزوجته.

﴿وَلتُصَنِّعَ عَلَى عَيْنِي﴾، قرأ أبو جعفر بإسكان اللام وجزم العين: «ولتُصَنِّعَ».

وقرأ الباقر بكسر اللام ونصب العين: ﴿وَلتُصَنِّعَ﴾، أي: ولتربى على نظري وفي حظي وكلاعتي وتحت رعايتي وعنايتي، وكفى به حافظًا؛ حيث جعله يترى في بيت الملوك، وعلى فراش ألد أعدائه، حكمة بالغة، وعناية فائقة.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾، الاستفهام: للعرض، أي: هل أدلكم على من يربيه ويضمن حضانته ورضاعه، وذلك أنه لما عرض عليه المراضع من آل فرعون أباهما؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِاحُونَ﴾ [القصص: ١٢]؛ لأنها علمت أنه سيقبل ثدي أمه، وهكذا حصل فاستأجروها لإرضاعه.

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾، أي: كي تطيب نفسها برؤيتك، ورجوعك إليها ووجودك عندها، فأكرمها الله بسببه فلم تفارقه إلا ساعات قلائل، عناية من الله عز وجل به.

﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾، على فراقك، وتحقق من سلامتك؛ كما قال تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنْ وَلَنَعْلَمَنَّ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣].

فجمع الله لها بين قرة العين به وذهاب الحزن، والأجر الأخروي والغنم الدنيوي.

﴿وَقَاتَلَتْ نَفْسًا﴾، يعني: القبطي من آل فرعون؛ كما قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَنْغَتْهُ الَّتِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

﴿فَجَجَيْتَكَ مِنَ الْعَمْرِ﴾، أي: فخلصناك من الغم والهـم بسبب عزم آل فرعون على قتلك قصاصًا بقتيلهم؛ كما قال عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، وقال: ﴿وَلَهُمْ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]، وقال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [التصحيح: ٥] فخرج منها خائفاً يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين [القصص: ٢٠-٢١].

حتى ورد ماء مدين وقال له الرجل الصالح: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾؛ «فتونًا»: مصدر فتنه يفتنه فتناً، أي: ابتليناك ابتلاء، وامتحانك

واختبرناك.

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنما قتل موسى الذي قتل من آل فرعون خطأً، فقال الله له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾» (١).

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، أي: وأقمت سنين طويلة في أهل مدين، وذلك بعدما خرج هارباً من فرعون وملئه خوفاً أن يقتلوه، ووصل إلى أهل مدين وتزوج منهم، وأقام فيهم معزراً عشر سنين أو ثمانياً يرعى على صهره، فلما قضى الأجل المضروب بينه وبينه خرج وسار بأهله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ [القصص: ٢٩].

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْوَسَىٰ﴾، أي: على قدر مقدر لتكليم الله لك، ووحيه إليك وإرسالك، لم تتقدم عنه ولم تتأخر، قال جرير (٢):

جاء الخلافة أو كانت له قدراً كما أتى ربه موسى على قدر
﴿وَأَصْطَفَعْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ (٣)، «الاصطناع» في الأصل: اتخاذ الصنعة، وهي الخير تهديه إلى غيرك، قال الشاعر:

وإذا اصطنعت صنعة فاقصد بها وجه الذي يولي الصنائع أو دع (٣)
والمعنى: اصطفيتك واجتيتك واخترتك واختصصتك لنفسي؛ لتبليغ وحيي ورسالتي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «التقى آدم موسى، فقال موسى: أنت الذي أشقيت الناس، وأخرجتهم من الجنة؟ قال: نعم، قال: فوجدته قد كتب علي قبل أن يخلقني؟ قال: نعم. فحج آدم موسى» (٤).

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة ٣٩٠٥، والطبري في «جامع البيان» ١٦ / ٦٣.

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ٢١١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٣/ ٢٧٦).

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة طه ٤٧٣٦، ومسلم في القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام ٢٦٥٢، وأبو داود في السنة ٤٧٠١، والترمذي في القدر ٢١٣٤.

الفوائد والأحكام:

١- استجابة الله عز وجل دعاء موسى وسؤاله، بشرح صدره، وتيسير أمره، وحل عقدة من لسانه، وجعل أخيه هارون وزيراً له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

٢- تذكير الله عز وجل لموسى بمنتته السابقة عليه بإنجائه من قتل فرعون بأعجوبة و قدرة تامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ الآيات.

٣- إلهام الله عز وجل لأم موسى أن تلقيه في تابوت وتلقيه في البحر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ﴾، وذلك بعد إرضاعه إذا خافت عليه من فرعون أن يقتله؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧].

٤- حكمة الله تعالى وقدرته وقدره المبرم في جعل البحر يلقىه بالساحل حيث دار فرعون؛ ليأخذه عدو الله وعدو موسى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾.

٥- أن الحذر قد يؤتى من مأمنه، وأن الحذر لا ينجمي من القدر، فقد تربى موسى في بيت فرعون الذي كان يقتل غلمان بني إسرائيل حذراً منه، وهو الذي هلاك فرعون وزوال ملكه على يده.

٦- أن من تسخير الله تعالى لموسى أن ألقى عليه المحبة، فأحبه عز وجل وحببه إلى خلقه، حتى أحبه فرعون وزوجته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾.

٧- عناية الله تعالى التامة بموسى، وجعله يتربى على نظره، وفي حفظه، وتحت كلاءته ورعايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنُضْمَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾.

٨- أن من عناية الله تعالى بموسى عليه السلام وبأمه: أن حرم عليه المراضع كوناً؛ ليرده إلى أمه لترضعه وتقر عينها ولا تحزن؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُمْ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾، وهذا بعد أن حرم الله

عليه المراضع؛ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٢-١٣].

٩- امتنان الله عز وجل على موسى بإنجائه من الغم وخوف القتل، بسبب قتله القبطي؛ لقوله تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾.

١٠- ابتلاء الله عز وجل لموسى بأنواع الابتلاء وامتحانه واختباره وتمحيص الله تعالى له؛ لقوله: ﴿وَوَفَّيْنَاكَ فَأَتُونَا﴾.

١١- أن من قدر الله له السلامة سلم مهما ألت به الحتوف والخطوب، فهذا موسى عليه السلام يلقي في البحر فينجو، ويصير إلى بيت فرعون عدو الله وعدوه، فيسلم من شره وبطشه.

١٢- لبثه عليه السلام في أهل مدين معززاً عشر سنين أو ثمان سنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾، ومن ثم خروجه منهم وسيره بأهله بعد أن قضى الأجل المضروب بينه وبين صهره في الرعي؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ [القصص: ٢٩].

١٣- مجيء موسى عليه السلام - بعدما قضى الأجل بينه وبين صهره - على قدر مقدر لم يتقدم ولم يتأخر؛ لتكليم الله تعالى له بالوحي والرسالة؛ لقوله تعالى: ﴿تُرْجِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يُمُوسَىٰ﴾.

١٤- اصطناع الله عز وجل موسى لنفسه، واصطفاؤه واجتباؤه واختياره لتبليغ وحيه عز وجل ورسالته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾.

قال الله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ٤١﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ٤٢﴾ فَقَوْلَا لَهُ، قَوْلَا لِنِنَّا لَعَلَّهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ٤٣﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يَفْطُرَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ٤٤﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ٤٥﴾ فَأْتِيَاهُ فَقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ أَنْبَعِ الْهَدْيِ ٤٦﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ٤٧﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ٤٨﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ، ثُمَّ هَدَى ٤٩﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ٥٠﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْضُلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ٥١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ تَبَاتٍ شَعْبٍ ٥٢﴾ كَلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ٥٣﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ٤١﴾ أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ٤٢﴾ فَقَوْلَا لَهُ، قَوْلَا لِنِنَّا لَعَلَّهُ، يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ٤٣﴾.

قوله: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾، أي: اذهب يا موسى، أنت وأخوك هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي، الدالة على صدقكما وصدق ما جئتما به من الحق وعلى إبطال الباطل؛ من العصا واليد وغيرهما من الآيات التسع؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَةً مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ١١٦﴾ [النمل: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْتَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ١٠٣﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هُنَالًا إِيَّاكُمْ مِنَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ ﴿[الإسراء: ١٠١-١٠٢].

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، أي: ولا تضعفا ولا تفترأ في ذكري، بل اذكراي على الدوام، والزمنا ذكري باستمرار في جميع الأحوال؛ كما وعدتما بقولكما: ﴿كُنِ سُبْحَانَكَ كَثِيرًا ٥٣﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ٥٤﴾.

وذلك لأن ذكر الله أعظم معين في الملهمات، وأكبر قوة وسلطان في مواجهة الخطوب؛ ومن أهم أسباب تيسير الأمور؛ ولهذا أمر الله تعالى به وقت الجهاد والقتال والجلاد، قال تعالى بعد أن ذكر صلاة الخوف: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ

قِيلَ مَا وَقَعُوا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴿النساء: ١٠٣﴾، وشرعه في ختام الأعمال من الصلاة والصيام والحج، وغير ذلك.

﴿أَذْهَبًا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، «إن»: تعليلية، أي: لأنه طغى، أي: تجاوز الحد في الكفر والفساد، والظلم والبغي والعناد، وادعى الربوبية والإلهية وتطاول على رب العباد.

﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: قولاً سهلاً رقيقاً لطيفاً برفق وأدب؛ لأن ذلك أوقع في النفوس وأبلغ وأنجع؛ كما قال تعالى في سورة النازعات: ﴿فَقُلْ هَلْ لَّكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ۗ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشِنَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٨ - ١٩]، فخاطبه عليه السلام بقوله: ﴿هَلْ لَّكَ﴾، الدالة على العرض والمشاورة، ولم يأمره أمراً، أو ينكر عليه، أو ينهه.

وهكذا أمر الله تعالى نبينا محمداً ﷺ وأمه بذلك، فقال تعالى: ﴿أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِلَا تِي هِيَ أَحْسَنُ ﴿١٥٠﴾﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: لعله يتعظ ويعرف الحق ويتبعه، ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: أو يخشى الله ويخاف عقابه، فينتهي عما هو عليه من المعارضة واتباع الهوى.

قال ابن تيمية: «الذي يذكر الذي إذا عرف الحق وتبين له اتبعه، فهو الذي يدعى بالحكمة، وهو الذي يتذكر، وهو الذي يُحدث القرآن له ذكراً.

والثاني: أن يكون له من الهوى المعارض ما يحتاج معه إلى الخوف الذي ينهى النفس عن الهوى، فهذا يدعى بالموعظة الحسنة، وهذا هو القسم المذكور في قوله: ﴿أَوْ يَخْشَىٰ﴾، فقوله «سبحانه»: ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [طه: ١١٣] طلب وجود أحد الأمرين، بتبليغ الرسالة، وجاء بصيغة «لعل»؛ تسهيلاً للأمر، ورفقاً وبيانا؛ لأن حصول أحدهما طريق إلى حصول الآخر، فلا يطلبان جميعاً في الابتداء»^(١).

فالقول اللين داعٍ للتذكر والخشية وقبول الحق وترك الباطل، والقول الغليظ بخلاف ذلك داعٍ لرد الحق والتهاذي في الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

(١) انظر: «دقائق التفسير» ٣/ ٤ / ٣٤٥.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنِي ﴿١٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿١٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا نُعَذِّبَهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿١٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَن كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا﴾، أي: أن يعاجلنا ويبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا قبل أن نبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة. ﴿أَوْ أَنْ يَطَّعِنِي﴾، أي: أو أن يتمرد ويزداد طغياناً، اغتراراً بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه.

﴿قَالَ﴾، أي: قال الله لها: ﴿لَا تَخَافَا﴾ أن يفراط فرعون عليكما. ﴿إِنِّي مَعَكُمَا﴾، معية خاصة، بتوفيقي وحفظي لكما، وتأيدكما، ودفع شره عنكما، ونصركما عليه. ﴿أَسْمَعُ﴾، أي: أسمع كلامكما وكلامه.

﴿وَأَرَى﴾ مكانكما ومكانه، وأعمالكما وأعماله، وأرقب أحوالكم؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَلَّا فَادْهَبَا بِبَيِّنَاتٍ إِنَّا مَعَكُمْ مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥]. فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بحفظ الله لهما، وهو خير الحافظين؛ ولهذا قال: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، أي: إنا أرسلنا من ربك إليك، وفي إضافة اسم الرب إلى ضميره دونها في هذا الموضع والذي بعده استدعاء لسمعه وطاعته؛ كما أن فيه إشعاراً له بكذب دعواه في قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: أطلقهم من الأسر والعبودية وسرحهم، واتركهم يذهبون معنا؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿فَأْتِيَاهُ فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦-١٧]، وقال في سورة الأعراف: ﴿وَقَالَ مُوسَى يُفْرِعَوْنَ إِيَّيَ رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الأعراف: ١٠٤-١٠٥].

﴿وَلَا نُعَذِّبُهُمْ﴾، بقتل أبنائهم واستحياء نسائهم، واستعبادهم، وتسخيرهم بالخدمة

والأعمال الشاقة.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾، «قد»: حرف تحقيق، أي: قد أتيناك بدلالة ومعجزة من ربك، وعلامة تدل على صدقنا، وأن ما جئناك به هو الحق من ربك.

ووحده «آية» مع أن معه آيتين؛ لأن المراد في هذا الموضع تثبيت الدعوى ببرهانها، فكأنه قيل: قد جئناك بمعجزة وبرهان وحجة على ما ادعيناه من الرسالة، ولذلك قال في سورة الأعراف: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

ويحتمل أن المراد بـ«آية»: جنس الآيات، كاليد والعصا؛ ولهذا لما قال فرعون بعد هذه: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِبَيِّنَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٦]، قال الله: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [١٠٧] وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٧-١٠٨].

ويحتمل أن المراد بالآية هنا: الآية الكبرى وهي العصا؛ كما في قوله تعالى في سورة النازعات: ﴿فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى﴾ [النازعات: ٢٠].

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [١٠٧]، أي: والسلام على الذي اتبع الهدى، أي: أن من اتبع الهدى الذي أرسل الله به الرسل حصلت له السلامة، وفي هذا ترغيب باتباع الهدى، أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى.

وهذا ليس بسلام تحية، بل هو خبر محض، بأن السلام المطلق على من اتبع الهدى، أي: أن السلامة له، دون من خالف الهدى، فإن له العذاب؛ كما قال تعالى بعد هذا: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [١٠٨].

قال ابن القيم: «أما قول موسى: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [١٠٧] فليس بسلام تحية؛ فإنه لم يبتدئ به فرعون، بل هو خبر محض؛ فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون من خالفه؛ فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [١٠٧] إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [١٠٨].» (١).

ولهذا لما كتب رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم كتابًا كان أوله: «بسم الله

الرحمن الرحيم: من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم يؤتك الله أجرًا مرتين»^(١).
وكتب إلى مسيلمة الكذاب: «سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء والعاقبة للمتقين»^(٢).

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ أي: قد أوحى الله تعالى إلينا وأخبرنا ﴿أَنَّ الْعَذَابَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع نائب فاعل لـ «أوحى»، أي: أن العذاب في الدنيا والآخرة ﴿عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: على الذي كذب بقلبه بآيات الله وما جاءت به الرسل.

﴿وَتَوَلَّىٰ﴾، أي: وأعرض عن الانقياد لذلك بجوارحه، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ﴾^(٣٧) ﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾^(٣٨) ﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾^(٣٩) [النازعات: ٣٧-٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَأَنْذَرْنَاكُمْ نَارًا تَلْقَىٰ﴾^(٤٠) ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾^(٤١) ﴿الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾^(٤٢) [الليل: ١٤-١٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾^(٤٣) ﴿وَلَكِنَّ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾^(٤٤) [القيامة: ٣١-٣٢]، أي: كذب بقلبه، وتولى بفعله.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾^(٤٥) ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ﴾^(٤٦) ﴿هُدًى﴾^(٤٧) ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾^(٤٨) ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾^(٤٩) [طه: ٤٩-٥٢].

قوله: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، والاستفهام للإنكار، أي: قال فرعون منكرًا ربوبية الله تعالى، ومنكرًا وجود الخالق الصانع: أي إذا كان الأمر كما تقول فمن هو ربكما يا موسى؟

﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى عليه السلام إجابة لفرعون:

﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ﴾، أي: الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، والملائم له، من حيث شكله وصورته ولونه وحسنه وكبره

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «الآحاد والمثاني» (٣/٢٤)، وابن قانع في «معجم الصحابة» (٣/١٤٨)، وابن شبة في «تاريخ المدينة» (٢/٥٧٢).

وصغره وجميع صفاته؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧].
 ﴿ثُمَّ هَدَى﴾، أي: ثم هدى كل مخلوق لما خلق له، قدرًا وشرعًا؛ كما قال تعالى:
 ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَوَفَّقْنَا وَمَا سَوَّلْنَا﴾ [فألهمها
 فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا] [٨] [الشمس: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البند: ١٠]،
 وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ
 الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، وقال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ
 عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

قال ابن القيم: «والمعنى: أعطاه من الخلق والتصوير ما يصلح به لما خلق له، ثم هداه
 لما خلق له، وهداه لما يصلح في معيشته ومطعمه ومشربه ومنكحه وتقلبه وتصرفه».
 وقال أيضًا: «والقول هو الأول، وأنه سبحانه أعطى كل شيء خلقه المختص به،
 ثم هداه لما خلق له، ولا خالق سواه سبحانه، ولا هادي غيره، فهذا الخلق وهذه الهداية
 من آيات الربوبية ووحدانيته، فهذا وجه الاستدلال على عدو الله فرعون»^(١).

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾، لما أخبره موسى بأن ربهما ﴿الَّذِي آتَىٰ كُلَّ
 شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، ولم يتمكن فرعون من رد هذا الدليل القاطع حاد عن
 المقصود، وأخذ بالمراوغة، فشرع يحتج بالقرون الأولى الذين لم يعبدوا الله، أي: إذا كان
 الأمر كما تقول، فما بال القرون السالفة والأمم الماضية الذين لم يقرؤا بهذا الرب ولم
 يعبدوه بل عبدوا غيره؟ أي: أن هذا لم يخف عليهم ولم يهملوه.

وهذا احتجاج فاسد؛ إذ كيف يعارض الإقرار بربوبية رب العالمين وألوهيته بكفر
 الكافرين وشرك المشركين؟! هذا في غاية الفساد والبطلان.

وهذا السؤال من فرعون لصرف موسى عما يدعو إليه أمام ملئه، وإشغاله بما لا يعني
 عما أرسل به.

ويحتمل أن يكون توهم أن موسى يعلم الغيب، فأراد أن يقف على ما مضى ويفتح
 بابًا للتكذيب والتخطفة بالفساد واللجاج؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٥٧، ١٥٨.

أَفْسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ [النمل: ١٤]، وقال تعالى:
﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَذِهِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢].

وشتان بين الاحتجاجين، فموسى عليه السلام يحتج على وجود الخالق وإلهيته بما يشاهده هو وغيره من آثار ربوبيته في خلقه، وعدو الله فرعون يحتج على إنكار ذلك بكفر الكافرين وشرك المشركين؛ كما هو شأن المبطلين.

﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾، أي: قال موسى: علم القرون الأولى عند ربي، أي: خبرهم وعملهم وكفرهم وشركهم معلوم عند ربي.

﴿فِي كِتَابٍ﴾، أي: محصى مضبوط في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾، أي: لا يعتري علمه عز وجل جهل سابق، ولا نسيان لاحق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١]، فعلمه عز وجل محيط بالأشياء كلها قبل وجودها وبعد وجودها وبعد عدمها، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وقد علم عز وجل أعمالهم وكتبها وقدرها قبل أن يعملوها، وهداهم إليها فعملوها، وعلم بها وكتبها بعد أن عملوها، وسيحاسبهم ويجازيهم عليها.

أي: أنه لا معنى لسؤالك يا فرعون عنهم، فسيحاسبون ويجازون بأعمالهم؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١].

وفي قوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ تعريض بحال الإنسان؛ فإن علمه مخوف بنقصين: جهل سابق بالأشياء قبل علمها، ونسيان لاحق لها بعد علمها.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّاكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٣٣﴾ كُفُّوا أَرْعَافَكُمْ إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿٣٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾، قرأ حمزة والكسائي وعاصم بفتح الميم ومن غير ألف: ﴿مَهْدًا﴾، وقرأ الباقون بكسر الميم والألف: «مِهَادًا».

وهذا من تمام كلام موسى، و«الذي» اسم موصول مبني في محل رفع نعت لـ«ربي»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو الذي جعل لكم الأرض مهدة، أي: ممهدة مذلة قرارًا وفرشًا لكم؛ لتتمكنوا من السكن والقرار عليها، والبناء والغراس؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢].

﴿وَسَلَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾، أي: جعل لكم فيها طرقًا، سهلها ويسرها وذلَّلها لكم، تسلكونها وتمشون فيها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾، أي: وأنزل من السحاب الذي في العلو مطرًا. ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾، أي: فأخرجنا من الأرض بسبب هذا الماء أصنافًا وأنواعًا وأشكالًا وألوانًا.

﴿مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾، أي: من نباتات وزروع وثمار كثيرة، مختلفة الطعوم والمآكل والروائح والمنافع وغير ذلك.

﴿كُلُوا﴾، الأمر للامتنان، أي: كلوا مما أخرجنا لكم من الزروع والفواكه والثمار. ﴿وَأَرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾، فيما أخرجنا لكم من النبات والعشب والقضب، رطبًا ويابسًا؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ ٢٤ ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ ٢٥ ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا﴾ ٢٦ ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ ٢٧ ﴿وَعَبًّا وَقَضْبًا﴾ ٢٨ ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ ٢٩ ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ ٣٠ ﴿وَفِكَهًا وَأَبَّا﴾ ٣١ ﴿مَتَّعًا لَّكُمْ وَلِيَنْعَمَكُمُ﴾ ٣٢ [عبس: ٢٤ - ٣٢].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾، الإشارة تعود إلى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ الآية، أي: إن في جعل الأرض ممهدة، وسلك السبل فيها، وإنزال المطر عليها، وإخراج النبات المتعدد الأصناف والأنواع المختلف الطعوم والمنافع منها

﴿لَا يَتِي﴾، أي: لعلامات ودلالات، وحججاً وبراهين ساطعات.
 ﴿لَأُولَىٰ الْكُنْهِ﴾، أي: لأولي العقول السليمة المستقيمة، الذين ينتفعون بعقولهم،
 فيهدون بها إلى الاستدلال بذلك على عظمة الله تعالى، وتمام قدرته ومنتته ونعمته
 واستحقاقه العبادة وحده، وأنه لا رب غيره، ولا معبود بحق سواه، بخلاف من
 عداهم ممن لم ينتفعوا بعقولهم، فهم كالبهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا تفيدهم
 الآيات؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
 مُعْرِضُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: ١٥].

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾، أي: من الأرض خلقناكم بخلق أبيكم آدم منها؛ كما قال
 تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [فاطر: ١١]، وقال تعالى: ﴿إِن مَثَلٌ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ
 كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩].

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾، بدينكم فيها بعد موتكم وصيرورتكم تراباً ورميماً؛ كما قال
 تعالى: ﴿وَكَأَنُوقًا يَقُولُونَ أَيُّدَا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَهْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة: ٤٧].
 ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾، أي: مرة أخرى ببعثكم من قبوركم يوم القيامة؛ كما
 قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء:
 ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]،
 وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُوفُضُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [المعارج: ٤٣]،
 وقال تعالى: ﴿خُشَعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾﴾ [القمر: ٧].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا
 تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥].

الفوائد والأحكام:

١- إرسال موسى وأخيه هارون إلى فرعون بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ
 وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾، وقوله: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

٢- نهيهما أن يضعفا في ذكر الله أو يفترا فيه؛ لأن ذكر الله تعالى أكبر معين لهما، وهو
 أعظم قوة في مواجهة جميع الملمات والخطوب، ومن أعظم أسباب تيسير الأمور؛ لقوله
 تعالى: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾، ولهذا أمر الله به حال الجهاد، وجعله ختام كثير من العبادات.

٣- شدة طغيان فرعون وعلوه وتكبره وعناده وتجبره؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ طَغَى﴾، وقد فاق بذلك جميع طغاة الأرض فادعى الربوبية والألوهية، أخزاه الله.

٤- سعة حلم الله عز وجل؛ لأمره عز وجل موسى وهارون بتليين القول لفرعون، وفتح باب التوبة له، لعله يتعظ ويخشى الله ويخاف عقابه، مع ما وصل إليه من التماهي والطغيان، وإنكار ألوهية الواحد الديان؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَحْشَى﴾.

٥- يجب على الدعاة إلى الله تعالى والمربين والمصلحين استلهم هذا الدرس العظيم من قول الله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾؛ لأنه إذا كان هذا مع فرعون أكبر طغاة الأرض، فغيره من المدعوين أولى بالرفق واللين والدعوة بالحكمة والموعظة، والمجادلة بالتي هي أحسن.

٦- سعة رحمة الله تعالى ومغفرته وعفوه، وأنه لا يهلك عليه إلا هالك، فمن تاب وأناب إليه قبله مهما ارتكب من الموبقات؛ لأن الله عرض التوبة على فرعون مع ما ارتكبه من الطغيان.

٧- مخافة موسى وهارون عليها السلام من فرعون أن يفرط عليهما فيعاجلها بالعقوبة، قبل أن يبلغاه رسالة الله، أو أن يتمرد ويزداد طغياناً؛ اغتراراً بملكه وسلطانه وجنده وأعدائه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّعِنَا﴾.

٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى وهارون؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّنَا﴾، وقوله: ﴿رَبُّكُمَا﴾، وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّي﴾.

٩- طمأنة الله عز وجل لهما بكلاءته ورعايته لهما، وعنايته بهما بسمعه وبصره وحفظه وتسديده وتوفيقه لهما؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

١٠- إثبات معية الله الخاصة لأوليائه، معية الحفظ والتسديد والعون والتوفيق، ونحو ذلك.

١١- إثبات صفة السمع لله تعالى، وأنه تعالى يسمع جميع الأصوات، وإثبات صفة الرؤية والإبصار له، وأنه سبحانه يرى ويبصر كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾.

١٢- أمر الله لها أن يأتيا فرعون ويخبراه أنهما رسولا ربه، ويدعوانه إلى الله، ويطلبان منه أن يرسل معهما بني إسرائيل، ويخلصهم من استعباده وأسرهم وقهره لهم وتعذيبه إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾.

١٣- جمع فرعون بين أشد أنواع الظلم بدعوى الربوبية والألوهية، وصرف حق الله لنفسه، وباستعباد بني إسرائيل وتعذيبهم وظلمهم.

١٤- إقامة موسى وأخيه الحجة على فرعون بما جاء به من الآيات؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكَ﴾.

١٥- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لفرعون ولجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ رَّبُّكَ﴾.

١٦- الإخبار بأن السلام على من قبل الهدى واتباعه؛ لقول موسى وهارون: ﴿وَأَسَلُّهُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعِ الْهُدَىٰ وَاتَّبَعْتَهُ﴾.

١٧- وحي الله عز وجل وإخباره لموسى وأخيه أن العذاب على من كذب بقلبه بالحق، وتولى وأعرض عن العمل به بجوارحه؛ لقولهما: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

١٨- إنكار فرعون ربوبية الله تعالى ووجود الخالق والصانع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾.

١٩- إفحام موسى عليه السلام لفرعون، وإبطال دعواه الربوبية في إجابته له بقوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ۖ ذُرِّيُّهُ هَدَىٰ﴾، حيث بين أن ربهم هو رب العالمين كلهم، الذي يشاهد فرعون وغيره آثار ربوبيته في خلقه، لا رب لأحد سواه.

٢٠- عدول فرعون لما أفحمه موسى بالجواب القاطع لحجته إلى المشاغبة والمراوغة؛ لصرف موسى عما يدعو إليه، بالاحتجاج بالقرون الأولى الذين لم يقروا بربوبية الله تعالى ولم يعبدوه بل عبدوا غيره، وهذا في غاية الفساد والبطلان؛ إذ كيف يعارض الإقرار بربوبية رب العالمين وإلهيته بكفر الكافرين وشرك المشركين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾.

٢١- رد موسى عليه السلام هذا الاحتجاج الباطل بأنه لا معنى لسؤالك يا فرعون عن القرون الأولى، فعلمهم وخبرهم وأعمالهم عند الله تعالى يحصيها عليهم ويحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾.

٢٢- إثبات سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء، وكتابه، وكتابة أعمال العباد، ومجازاتهم عليها، لقوله تعالى: ﴿عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾.

٢٣- إثبات اللوح المحفوظ، وكتاب الأعمال.

٢٤- كمال علم الله عز وجل، فلا يعتري علمه سبحانه ضلال وجهل سابق، ولا نسيان لاحق، لقوله: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾.

٢٥- التذكير بنعم الله تعالى على العباد، ودلائل وحدانيته؛ من جعل الأرض مهيأة للاستقرار والحياة عليها، وسلك الطرق فيها، وإنزال المطر عليها، وإخراج أصناف النباتات المختلفة منها؛ ليأكلوا منها، ويرعوا أنعامهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٦﴾ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿٥٧﴾﴾.

٢٦- أن كل ما يخرج من الأرض فهو حلال مباح، ما لم يكن فيه ضرر على البدن والعقل، كالسموم والمخدرات ونحوها؛ لأن الله عز وجل ساق الآية مساق الامتنان.

٢٧- أنه إنما يستفيد من الآيات الكونية والشرعية أصحاب العقول السليمة، والبصائر المستقيمة، الذين ينتفعون بعقولهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿٥٨﴾﴾، وفي هذا امتداح لهم وثناء عليهم.

٢٨- أن من لم ينتفع بالآيات فهو - وإن كان عنده عقل الإدراك - فليس من أولي النهى، بل هو أضل من البهيمة.

٢٩- إخبار العباد وتذكيرهم بمبدئهم ومتهامهم، وأنهم خلقوا من الأرض بخلق أبيهم من أديمها وترابها، وفيها يعيدهم بدفنهم فيها بعد موتهم وصيرورتهم ترابًا ورميًا، ومنها يخرجهم مرة أخرى ببعثهم يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٩﴾﴾.

٣٠- الترغيب والحث على التواضع والعمل الصالح، فالخلق خلقوا من التراب،

ويعودون إلى التراب، ثم يخرجون للحساب، فإما ثواب وإما عقاب.
٣١- الاستدلال بدليلين عقليين على قدرة الله التامة على البعث، وهما: إخراج
النبات من الأرض بعد موتها، وإيجاد المكلفين وخلقهم منها أول مرة.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَرَبُّكُمْ لَا تَفْقَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَبِكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ آفَتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرَأُوا التَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرَانٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعَلَىٰ ﴿٦٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا تَبَيَّنَكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾، الواو: استثنائية، اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والله لقد أرينا فرعون آياتنا كلها، كالعصا واليد، وغيرها من الآيات التسع، وغيرها، الدالة على صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الحق، وأنه مرسل من عند الله تعالى إليه.

﴿فَكَذَّبَ﴾ بها وجعلها ظاهرًا مع استيقانها باطنًا، ﴿وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾﴾، أي: امتنع من الانقياد لما دلت عليه من الأمر والنهي، كفرًا وعنادًا وبعيًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل: ١٤].

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا﴾، الاستفهام: للإنكار، واللام للتعليل، أي: قال فرعون منكراً ما جاء به موسى من الآيات البينات والدلالات والمعجزات: أجئتنا لأجل أن تخرجنا ﴿مِنْ أَرْضِنَا﴾ يعني: أرض مصر، ﴿بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب سحرك، فجعل ما جاء به موسى عليه السلام من معجزة العصا واليد، من السحر؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٦٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٦٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٦٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف: ١٠٦-١١٠].

وقال في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَئِن أُتِّخِذَتْ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ أُولُو حِجَّتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَأَتَيْتَ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ لَئِن لَّمَّا حَوْلَهُ إِنْ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩-٣٥].

فزعم أن ما جاء به موسى سحر، وأنه يريد به إخراجهم من أرضهم، ليؤثر في قلوب الناس، ويحرك مشاعرهم؛ لأن الناس تعز عليهم أوطانهم، ويصعب عليهم فراقها، وهذا أمر جبلي، فقد وقف المصطفى ﷺ على الحزورة، وقال مخاطباً مكة: «والله لأنت أحب البلاد إلى الله - أو إليّ - ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت» (١).

قال الشاعر:

ولي وطن آليت ألا أبيعته	وآلا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعماً	بصحة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحبب أوطان الرجال إليهم	مآرب قضأها الشباب هنالكا
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم	عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفتة النفس حتى كأنه	لها جسد إن بان غودر هالكا (٢)

وقال الآخر:

بلادي وإن جارت علي عزيزة وأهلي وإن ضنوا علي كرام (٣)
وقال الآخر الذي اضطره الفقر والبحث عن لقمة العيش إلى ترك بلده «نجد»
حائناً إليها، ومتوجداً عليها:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد لقد زادني مسراك وجداً على وجد
﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ﴾، الفاء: عاطفة، واللام: لام القسم لقسم مقدر،
والنون للتوكيد، أي: فوالله لنأتينك بسحر مثل سحر.

(١) سبق تحريجه.

(٢) الأبيات لابن الرومي. انظر: «ديوانه» (٥/١٨٢٦).

(٣) انظر: «تفسير المراغي» (٢٤/٨٢).

﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾، قرأ أبو جعفر بإسكان الفاء جزماً: «نُخْلِفُهُ»، وقرأ الباقون بالرفع: ﴿نُخْلِفُهُ﴾.

أي: فأمهلنا واجعل لنا ﴿مَوْعِدًا﴾، أي: وعدًا، ومكانًا للوعد، أي: اجعل لنا وقتًا ومكانًا محددين معينين نجتمع فيهما.

﴿لَا نُخْلِفُهُ﴾، أي: لا نخلف ذلك الموعد، ﴿نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ توكيد لضمير الفاعل المستتر في «نخلف».

﴿مَكَانًا سُوًى﴾، قرأ ابن عامر ويعقوب وعاصم وحمة وخلف بضم السين: ﴿سُوًى﴾، وقرأ الباقون بكسرها: «سُوًى».

وقوله: ﴿مَكَانًا﴾ بدل من «موعدًا»، ﴿سُوًى﴾، أي: يستوي علمنا وعلمك به، أو مكانًا مستويًا معتدلاً؛ لتمكن ويتمكن الناس كلهم من رؤية ما يجري فيه.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾، أي: يوم العيد، أي: يوم عيدكم الذي تتزينون فيه وتفرغون فيه من مشاغلكم وتجتمعون فيه، قيل: هو يوم عيد نوروزهم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان يوم الزينة يوم عاشوراء»^(١).

﴿وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾، أي: وأن يجمع الناس ضحى، أي: في ضحوة من النهار؛ ليكون الأمر أوضح وأجلى، وليظهر الحق لكل ذي عينين، ويزهق الباطل.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴿٢٤﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا التَّجْوَى ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٢٦﴾ فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَيْتُمُو صَاقًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعَلَى ﴿٢٧﴾.

قوله: ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ﴾، أي: انصرف فرعون وشرع يعد لهذا الأمر عدته؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى﴾ ﴿٢٥﴾ فَحَشَرَ فَنَادَى ﴿٢٦﴾ [النازعات: ٢٢-٢٣].

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾، أي: فجمع السحرة من جميع مدائن مملكته، وجمع كل ما لديه

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٢٩٣.

من وسائل الكيد والمكر والحيل، لإظهار غلبة السحرة؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَأُتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الأعراف: ١١١-١١٢]، وقال تعالى في سورة الشعراء:

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا تَأُتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّآ تَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمْ الْعَالِيِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الشعراء: ٣٦-٤٠].

وقال في سورة يونس: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٨﴾﴾ [يونس: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء: ٥٣].

﴿ثُمَّ آتَى﴾، أي: حضر الموعد هو وملؤه وجنوده.

قال ابن كثير^(١): «أي: اجتمع الناس لميقات يوم معلوم، وهو يوم الزينة، وجلس فرعون على سرير مملكته، واصطف حوله أكابر دولته، ووقفت الرعايا يمنة ويسرة، وأقبل موسى يتوكأ على عصاه ومعه أخوه هارون، ووقف السحرة بين يدي فرعون صفوفًا، وهو يحرضهم ويحثهم ويرغبهم في إجادة عملهم في ذلك اليوم، ويتمنون عليه، وهو يعدهم ويمنيهم، فيقولون: ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْعَالِيِينَ ﴿٤١﴾﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّا لَهُم مَّقْرَّبِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢].»

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَى﴾ واعظًا ومخدرًا لهم، ومنذرًا ومخوفًا.

﴿وَتِلْكَ﴾، الخطاب للسحرة، وقيل: لفرعون وملئه وللسحرة، و«الويل»: تهديد ووعيد بالعذاب.

﴿لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: لا تخلقوا على الله كذبًا بما تخيلون للناس من السحر والشعوذة؛ لتنصروا ما أنتم عليه من الباطل، وتغالبا الحق.

﴿فَيَسْحَتُكُمْ بِعَدَابٍ﴾، قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم وأبو عمرو وابن عامر وأبو جعفر بفتح الياء والحاء: «فَيَسْحَتُكُمْ»، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء: ﴿فَيَسْحَتُكُمْ﴾، أي: فيستأصلكم بعقوبة تبيدكم عن آخركم، ولا تبقي منكم بقية، ولا تذر منكم أحدًا.

﴿وَقَدْ حَابَ مِنَ افْتَرَى﴾، أي: وقد خسر الذي افترى واختلق على الله الكذب. ﴿فَتَنَزَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾، لما وعظ موسى عليه السلام السحرة وأنذرهم وخوفهم عقوبة الافتراء، وبين لهم خيبة وخسران من افترى؛ ارتبكوا فتنزعوا أمرهم بينهم فيما يقولون في موسى، هل هو على حق أم لا؟ وهل ما جاء به سحر أم لا؟ وهل ما توعدهم به من العذاب حقيقة أم لا؟ ونحو ذلك.

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾، أي: لما تنازعوا واختلفوا، اختلوا وأسروا الحديث والتناجي بينهم؛ ليصدروا عن رأي واحد يتفقون عليه، لا يدخل معهم فيه غيرهم. ﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرَان﴾، قرأ ابن كثير وحفص بتخفيف النون: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرَان﴾، وقرأ الباقون بتشديدها: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرَان﴾، قال ابن تيمية: «وهي أصح القراءات لفظاً ومعنى، ورفعت «هذان»؛ لأنها من الأسماء المبهمة»^(١).

وقرأ أبو عمرو بالياء: «هَذَيْنِ»، وقرأ ابن كثير على أصله في تشديد النون: «هَذَا». ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرَان﴾، يعنون موسى وأخاه هارون، ﴿لَسِحْرَان﴾، اللام: للتوكيد، أي: لساحران خبيران بصناعة السحر، وهذه المقالة: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرَان﴾ وما بعدها خلاصة ما اتفقوا عليه في نجواهم.

﴿يُرِيدَان أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب، أي: يريدان إخراجكم من أرضكم مصر، بحيث تكون لهم الغلبة في الناس، وتتبعها العامة، ويقاتلان فرعون وجنوده فينتصران عليه ويخرجاكم من أرضكم.

وقد توافقوا مع فرعون في مقاله السابقة، وزادوا عليها قولهم: ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾، أي: ويريدان أن يستبدا بطريقتكم المثلى في السحر، وينفردا بها، ويصرفا وجوه الناس إليهما، وتكون لهما الرياسة والتعظيم وجباية الأموال دونكم.

وهذا حض من بعضهم لبعض على الاجتهاد في مغالبتها؛ ولهذا قالوا:

﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ﴾، قرأ أبو عمرو بوصل الهمزة وفتح الميم: «فَأَجْمَعُوا»، وقرأ الباقون بقطعها وكسر الميم: ﴿فَأَجْمَعُوا﴾.

(١) انظر «دقائق التفسير» ٣/٤/٣٤٨.

ومعنى ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾، أي: اعزموا عليه، وابدلوا فيه غاية جهدكم، وأجمعوا عليه ولا تختلفوا.

﴿ثُمَّ أَتَتْكُمْ صَفًّا﴾، أي: ثم اتوا مجتمعين صفًّا واحدًا متظاهرين متناصرين، وألقوا ما في أيديكم مرة واحدة؛ لتبهروا الأبصار، وتكون لكم الغلبة والانتصار.

﴿وَقَدْ أَقْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعَلَى﴾، أي: واعلموا أنه قد فاز ونجح اليوم وبعده من غلب من الفريقين.

الفوائد والأحكام:

١- تأكيد قيام الحجة على فرعون بما أراه الله من الآيات والمعجزات على يد موسى عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا﴾.

٢- تكذيب فرعون بآيات الله تعالى، وامتناعه من قبول الحق، والانقياد للأمر والنهي؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾.

٣- إنكار فرعون على موسى بحجته بالآيات، وزعمه أنها من سحر موسى، جاء به ليخرجهم من أرضهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى﴾.

٤- اغترار فرعون بمن عنده من السحرة، وأنه سيقابل بسحرهم ما جاء به موسى من الآيات، حسب زعمه أنها سحر؛ لقوله: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ﴾.

٥- طلب فرعون من موسى ضرب موعد بينهم وبينه، أي: وقتًا يجتمعون فيه، لا يخلفونه لا هم ولا هو، ومكانًا يستوي علمهم وعلمه به، مستويًا يتمكن كل من حضر من الناس من رؤية ما فيه؛ لقول فرعون: ﴿فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ وَنَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا﴾.

٦- حرص موسى عليه السلام على بيان دعوته وما جاء به من الحق لجميع قوم فرعون، وعلى شهودهم كلهم ما يجري بينه وبين السحرة، وثقته عليه السلام التامة بأن الغلبة له ولما جاء به من الحق؛ ولهذا ضرب لهم موعدًا يوم زينتهم وعيدهم، وأن يكون جمع الناس ضحوة في رابعة النهار؛ ليعلنها صريحة في الملاء؛ وليزهق الباطل ويظهر الحق لكل ذي عينين؛ لقوله: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

٧- رفق موسى عليه السلام بالناس، وعدم تكليفه إياهم موعدًا آخر غير موعد

عبيدهم وزينتهم.

٨- انصراف فرعون وسعيه في جمع السحرة من جميع مدائن مملكته، وجمع ما عنده من وسائل المكر والحيل؛ لإظهار غلبة السحرة، وإتيانه وملؤه وجنوده هذا المشهد العظيم؛ ليكيد للحق ويغالبه، غروراً منه.

٩- تحذير موسى عليه السلام للسحرة، وإنذاره إياهم من افتراء الكذب على الله، وتهديدهم بإهلاكهم واستئصالهم بالعذاب والخيبة والخسران؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلِكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ۖ﴾.

١٠- أن نهاية كل مفتر على الله الهلاك والخيبة والخسران.

١١- تأثر السحرة بموعظة موسى، وتنازعهم أمرهم بينهم بسبب ذلك: هل موسى على الحق أم لا؟ وهل ما جاء به سحر أم لا؟ وهل لوعيده حقيقة أم لا؟ ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ۖ﴾.

١٢- أن الموعظة والدعوة إلى الحق لها أثرها في القلوب مهما كان حال المدعو.

١٣- إسرار السحرة النجوى واختلاؤهم فيما بينهم؛ ليصدروا برأي موحد قوي يتفقون عليه، يرضي فرعون وملاؤه، ولا يطلع عليه أحد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ ۖ﴾.

١٤- موافقة السحرة لقول فرعون في حكمهم على موسى وهارون بأنهما ساحران يريدان أن تكون لهما الغلبة والأمر، ويخرجوا فرعون وقومه من أرضهم؛ لقولهم: ﴿إِن هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾، وقد قال فرعون قبلها: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

١٥- اتهام السحرة موسى وهارون بأنهما يريدان أن يستبدا بالطريقة المثلى في صناعة السحر، ويسلبانها منهم، وتكون لهما الشهرة والرئاسات وجباية أموال الناس؛ لقولهم: ﴿وَيَذَّهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّىٰ ۖ﴾.

١٦- حض السحرة بعضهم بعضاً على جمع كيدهم ومكرهم، والحزم والعزم وتوحيد جهدهم وكلمتهم؛ لقولهم: ﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ﴾.

١٧- اتفاقهم على أن يأتوا مجتمعين متعاونين صفاً واحداً؛ ليلقوا ما في أيديهم من السحر ليبهروا الأبصار، وتكون لهم الغلبة والانتصار؛ لقولهم: ﴿ثُمَّ أَتَوْا صَفًّا ۖ﴾.

١٨- توهم السحرة الباطل بأنهم سيكون لهم الفوز والاستعلاء يومهم ذلك وما بعده؛ لقولهم: ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعَلَى﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِيمَاً أَنْ تُلْقِيَّ وَإِمَاً أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى ۗ﴾ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۗ فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۗ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۗ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ۗ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ۗ ﴿٦٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَ سُبْحَاً قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ۗ ﴿٧٠﴾ .

قوله: ﴿قَالُوا يَمْوَسِيَّ إِيمَاً أَنْ تُلْقِيَّ وَإِمَاً أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى ۗ﴾ ﴿٦٥﴾، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِمَاً أَنْ تُلْقِيَّ وَإِمَاً أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۗ﴾ ﴿١١٥﴾ [الأعراف: ١١٥].

«إما» في الموضعين: أداة شرط وتفصيل، وفيها معنى التخيير، أي: إما أن تلقي يا موسى أنت أولاً عصاك وما معك، مما يزعمون أنه سحر سيغالبنه عليه، وخيروه وقدموه في تخييرهم له موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي حال، ومغترين بذلك.

﴿وَأَمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى ۗ﴾، أي: وإما أن نكون نحن السحرة ﴿أَوْلَ مَنْ أَلْقَى ۗ﴾، أي: وإما أن تلقي نحن أولاً ما معنا من السحر.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۗ﴾، أي: بل ألقوا أنتم؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿قَالَ أَلْقُوا ۗ﴾ [الأعراف: ١١٦]، وإنما قال لهم هذا ثقة بأن الله سيبتل كيدهم، وإرخاء للعنان لهم؛ ليرى ماذا يصنعون من السحر، وليظهر للناس جلية أمرهم.

﴿فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ۗ﴾، أي: فألقوا حباهم وعصيبهم؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ لَهُم مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ۗ﴾ ﴿١٣﴾ فَأَلْقُوا جِبَالَهُمْ وَعَصِيْبَهُمْ وَقَالُوا بَعْرَةٌ فَرَعَوَتْ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِبُونَ ۗ﴾ ﴿١١﴾ [الآيات: ٤٣-٤٤].

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ۗ﴾، قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر، وروح عن يعقوب بالتاء على التأنيث: «مُخَيَّلٌ»، وقرأ الباقر بالباء على التذكير: ﴿يُخَيَّلُ ۗ﴾.

أي: يخيل إلى موسى من شدة سحرهم ﴿أَنَّهَا ۗ﴾، أي: أن هذه العصي والحبال ﴿تَسْعَى ۗ﴾، تتحرك وتضطرب وتميد بسبب ما أودعوها من الزئبق، مما يخيل للناظر أنها تسعى باختيارهم، وإنما كانت حيلة؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَأَسْرَبُوهُمْ وَجَاءَهُ وَبِسِحْرِ عَظِيمٍ ۗ﴾ [الأعراف: ١١٦].

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۗ﴾، أي: شعر وأحس في داخل نفسه خيفة؛ كما هو

مقتضى الطبيعة البشرية، مع ثقته وجزمه بوعد الله ونصره، ولهذا لم يظهر ذلك على ملاحظه.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾، أي: قلنا له تثبيتاً وتطميناً: لا تخف.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾، الجملة: استثنائية، أي: إنك أنت الأعلى عليهم، أي: ستعلو عليهم وتنتصر، ويخضعوا ويدلوا لك.

وقد أكد حصول العلو له والغلبة عليهم بست مؤكدات، هي: «إن» التي تؤكد ما بعدها، وضمير الفصل «أنت»، ولام التعريف في قوله: ﴿الْأَعْلَى﴾ أي: أنت الأعلى دون غيرك، وأفعل التفضيل، ولم يقل «العالي»؛ ليشعر بزيادة العلو، وإثبات الغلبة من «عالٍ»، والاستئناف في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾، ولم يقل: لأنك أنت الأعلى، فنفي الخوف عنه أولاً بقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾، ثم استأنف بقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (١). ويحتمل كون الجملة تعليلية، أي: لأنك أنت الأعلى.

﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ﴾، أي: عصاك التي في يمينك؛ كما قال تعالى: ﴿أَنَّ أَلْقَى عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [الأعراف: ١١٧].

﴿تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا﴾، روى ابن ذكوان برفع الفاء: «تَلْقَفُ»، وقرأ حفص بإسكان اللام مع تخفيف القاف: ﴿تَلْقَفُ﴾، وقرأ الباقون بالجزم وفتح اللام والتشديد: «تَلْقَفُ»، وذلك أنها صارت ثعباناً بيناً، وحية كبرى، وتيناً عظيماً هائلاً، فجعلت تتبع تلك الحبال والعصي فتبتلعها حتى لم تبق منها شيئاً إلا تلقفته وابتلعتها، والسحرة والناس كلهم ينظرون إلى ذلك في ذلك الجمع العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاحِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف: ١١٧-١١٩].

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «سِحْرٍ» بكسر السين، وإسكان الحاء من غير ألف، وقرأ الباقون بالألف وفتح السين وكسر الحاء: ﴿سَاحِرٍ﴾. «إنما»: أداة حصر، أي: ما صنعوا إلا كيد ساحر، أي: مكر ساحر وتخييله وتمويهه،

لا ثمرة منه، ولا ثبات له أمام الحق؛ ولهذا قال:

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾، أي: لا يفوز الساحر ولا ينجح، بل هو مغلوب مقهور، ثمرة عمله وعاقبة أمره الخيبة والخذلان، والبوار والخسران، في الدنيا والآخرة. ﴿فَأَلْقَى السِّحْرَ سُبْحًا﴾، لما رأى السحرة هذه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة - وهم أعلم الناس بفنون السحر وطرقه - علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والتخييل، وأنه برهان من رب العالمين، على ما جاء به موسى من الحق المبين، فخروا لله ساجدين.

﴿قَالُوا ءَأَمَّتَا رَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾، أي: صدقنا به بقلوبنا، وانقدنا له بجوارحنا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى السِّحْرَ سَاجِدِينَ﴾ ﴿قَالُوا ءَأَمَّتَا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿[الأعراف: ١٢٠-١٢١]﴾، وقال تعالى: ﴿فَأَلْقَى السِّحْرَ سَاجِدِينَ﴾ ﴿قَالُوا ءَأَمَّتَا رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ ﴿[الشعراء: ٤٦-٤٨]﴾.

الفوائد والأحكام:

- ١- تخيير السحرة لموسى وتقديمهم له في التخيير، موهمين ثقتهم بالظهور عليه، ومغترين بسحرمهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْفَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْفَى﴾.
- ٢- ثقة موسى عليه السلام بوعد الله تعالى له بالنصر والغلبة؛ لقوله: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾، ولكي يظهر للناس جليلة أمر السحرة، ويتبين لهم بطلان أمرهم.
- ٣- تمويه السحرة على موسى وعلى الناس، وتخييلهم عليهم بسحرمهم وحباهم وعصيتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾.
- ٤- شعور موسى عليه السلام وإحساسه في نفسه خيفة - كما هو مقتضى الطبيعة البشرية - مع تمام ثقته وجزمه بوعد الله ونصره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾.

٥- تثبيت الله عز وجل لموسى وطمأنته له بأن الغلبة له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾.

٦- أمر الله عز وجل لموسى بإلقاء عصاه لتلقف ما صنعوا من السحر، وابتلاع

كل ما صنعوه وأفكوه من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا^ط﴾، كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ أَخَذَ مَوْسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ^{١٥}﴾ [الشعراء: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿... وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مَوْسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ^ط فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ^{١٧}﴾ [الأعراف: ١١٧].

٧- أن ما صنعه سحرة فرعون هو من كيد ومكر وتخيل السحرة وتمويههم مما لا حقيقة له ولا ثبات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدًا سَاحِرًا^ط﴾.

٨- خيبة الساحر وخذلانه وخسرانه في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

٩- سجود السحرة لله عز وجل لما ظهر وتبين لهم - وهم أرباب صناعة السحر - أن ما جاء به موسى من الآيات الظاهرة، والمعجزات الباهرة، ليس من قبيل السحر والتخيل، وإنما هي براهين ودلالات على ما جاء به من الحق المبين؛ ولهذا خروا لله ساجدين، وآمنوا برب هارون وموسى رب العالمين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ سَجَدَ الَّذِينَ آمَنُوا لِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ^٧﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لهارون وموسى عليهما السلام، ولأوليائهما المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا ءَأَمَتْنَا رَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ^٧﴾.

١١- إبطال ادعاء فرعون الربوبية والألوهية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ءِِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبَيْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آئِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيُعْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ ءِِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِهُ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ءِِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا قُطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صُلْبَيْتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آئِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنْ الْبَيْتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيُعْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾﴾.

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال فرعون للسحرة: ﴿ءَامَنْتُمْ لَهُ﴾، أي: آمنتُم لموسى وصدقتم له؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق لنا، وقال تعالى: ﴿فَقَامَنَّ لَهُ لُوطُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، أي: صدق له.

أي: قال فرعون لما ظهر الحق، وآمن السحرة، وأسقط في يده مستغربًا ومنكرًا على السحرة ومهددًا لهم ومتوعدًا: كيف آمنتُم لموسى وصدقتموه.

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة إلى «قبل»، أي: قبل إذني لكم، فاستغرب واستنكر منهم ذلك؛ لذهم وانقيادهم له طوعًا أو كرهًا، أي: كيف آمنتُم له وما أذنت لكم بذلك وما أمرتكم به.

﴿ءِِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، «إن» واللام: للتوكيد، والضمير في ﴿ءِِنَّهُ﴾ يعود إلى موسى، فاعتبره فرعون كبير السحرة وأنه علمهم السحر، وأنهم اتفقوا هم وموسى عليه وعلى رعيته؛ كما قال في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِخُرُوجِهَا مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٣].

فيا سبحان الله! كان بالأمس يفتخر بسحرته ويعتز بهم وبسحرهم، ويقول لموسى

متحدياً له: ﴿أَجِثْنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ﴾ [طه: ٥٧-٥٨].

واليوم لما آمنوا تبرأ منهم ومن سحرهم، بل جعل إيمانهم سحراً، واعتبر موسى كبير السحرة، بعد أن كان يحتقره وسحره كما يزعم، فقال: ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾، وهذه مكابرة، يعلم هو والسحرة والخلق كلهم أنها بهت وكذب، ولكنه لما ظهر الحق، وآمن السحرة، وأصبح صديق الأمس عدو اليوم؛ اضطرب وارتبك وفقد شعوره، فأخذ يهذي بما لا يدري، فاتهم السحرة بعد أن اتهم موسى بأنهم اتفقوا هم وموسى عليه وعلى رعيته، وأن موسى لم يكن ليغلب لولا مكر السحرة وتمالؤهم معه، وأخذ يتهدهم ويتوعدهم بقوله:

﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾، اللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون: للتوكيد، أي: والله لأقطعن أيديكم وأرجلكم ﴿مِنْ خَلْفٍ﴾، أي: بأن أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو العكس.

﴿وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ﴾، الجملة معطوفة على ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ﴾، والصلب: ربط المصلوب قائماً على خشبة بعد قتله، أو قبل قتله، وتركه حتى يموت، للخزي والتشهير به. و«التقطيع»، و«التصليب» بالتشديد: تحتم القطع والصلب. ﴿فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾، «في» بمعنى: «على»، أي: على جذوع النخل؛ لأن المصلوب لا يصلب داخل الجذع، وإنما يصلب عليه.

وهذه الآية؛ كقوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَادَنَّا لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [الآية ٤٩].

﴿وَلَتَعْمُنَنَّ﴾، معطوف على ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ﴾، أي: ولتعلمن أيها السحرة. ﴿أَيْنًا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾، أي: أهو أنا، أو رب هارون وموسى الذي آمنتم به؟ وهذا تهديد منه ووعد لهم، أي: إنني أنا أشد وأعظم عذاباً وأبقى وأدوم، فخافوني. وقيل: المعنى: ولتعلمن أننا يكون له العذاب الشديد الدائم الباقي.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال السحرة ردًّا على فرعون في استغرابه واستنكاره إيمانهم لموسى، وتوعده إياهم بالقطع والصلب والعذاب الشديد الدائم، في تحدٍّ صارخ له، واستهانة لما يصيبهم في ذات الله:

﴿لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾، أي: لن نفضلك ونختارك ونقدمك على الذي جاءنا من الآيات البيّنات والهدى واليقين والحق المبين.

﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾، الواو: عاطفة، والاسم الموصول معطوف على «ما» الموصول السابق، أي: لن نؤثرك على الذي جاءنا من البيّنات ولا على الذي فطرنا، أي: الذي خلقنا وهو الله جل وعلا، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، أي: خالقهما. والمعنى: سنؤثره ونفضل ونختار الذي جاءنا من البيّنات والحق، ونؤمن به ونتبعه، دون ما أكرهتنا عليه من السحر والكيد للحق واتباع الباطل.

وسنؤثر الذي فطرنا وخلقنا وهو الله عز وجل، ونؤمن به ربًّا وإلهًا، ونعبده وحده لا شريك له، دون ما تلمزنا به من الإيثار بك، واعتقاد ربوبيتك وإلهيتك. ويحتمل أن تكون الواو في قوله: ﴿وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾ للقسم، والموصول مقسم به، والتقدير: وحق الذي فطرنا لا نؤثرك على ما جاءنا من الحق.

﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾، أي: فافعل ونفذ الذي أنت قاضيه؛ مما توعدتنا به من القطع والصلب والعذاب، هذا جواب لقوله: ﴿فَلَا قَطْعَانَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِّنْ خِلَافٍ﴾ الآية.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: إن ما توعدتنا به غايته قضاء هذه الحياة الدنيا الزائلة، ونحن نطمع في الحياة الباقية؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

﴿إِنَّا أَمَنَّا بِرَبِّنَا﴾، أي: صدقنا بربنا بقلوبنا وألسنتنا، وانقدنا له بجوارحنا. ﴿لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَاتِنَا﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يغفر لنا خطايانا وذنوبنا.

﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾، أي: ويغفر لنا الذي أكرهتنا على فعله من السحر وألزمنا لنعارض به الحق؛ كما قال تعالى عنهم في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [٥١]. ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبِّنَا خَطِيئَاتِنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآيات: ٥٠-٥١].

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾؛ هذا في مقابلة قول فرعون: ﴿وَلَتَعْمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾، أي: والله خير لنا منك ومما وعدتنا، أي: وهو سبحانه ورضاه وثوابه أبقى لنا وأدوم؛ كما أن عذابه لمن عصاه أبقى وأدوم.
قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كانوا أول النهار سحرة، فصاروا آخره شهداء ببرة» (١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ (٧١) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) [طه: ٧٤-٧٦].

يحتمل أن يكون هذا من تمام ما وعظ به السحرة فرعون، يحذرونه نقمة الله وعذابه السرمدية، ويرغبونه في ثوابه الأبدي. ويحتمل أن يكون هذا استئنافاً من كلام الله تعالى.
قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾، هذه الآية كقوله في سورة الأعلى: ﴿وَيَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣)﴾ [الأعلى: ١١-١٣].

قوله: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ﴾، أي: إنه من يأت ربه يوم القيامة ويلقاه ﴿مُجْرِمًا﴾، حال، أي: قد مات على الإجمام، أي: على الكفر والمعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَصْحَكُونَ (٦٦)﴾ [المطففين: ٢٩].

﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ﴾، جواب الشرط «من»، والفاء رابطة لجواب الشرط، واللام للاستحقاق، أي: فإن له نار جهنم، الشديد حرها وعذابها، البعيد قعرها، الشديدة ظلمتها، أي: أنه صائر إليها لا محالة.

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾، فيستريح من العذاب.

﴿وَلَا يَحْيَى﴾، حياة طيبة كريمة هينا ويلتذ بها، وإنما حياة عذاب أبدي سرمدية للقلب والروح والبدن؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦)﴾ [فاطر: ٣٦].

(١) ذكره الطبري في «جامع البيان» ١٦ / ١١٦.

وقال تعالى: ﴿وَنَادُوا يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِينُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الزخرف: ٧٧]،
 وقال تعالى: ﴿لَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ
 أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [المائدة: ٣٧].
 عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «وأما أهل النار
 الذين هم أهلها، فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون..» الحديث (١).

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾، أي: ومن يأتي ربه يوم القيامة ويلقاه حال كونه مؤمناً بقلبه
 ولسانه، أي: قدمات على الإيمان.

﴿فَدَعَمَلُ الصَّالِحِينَ﴾، أي: قد عمل الأعمال الصالحات بجوارحه.
 ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾، الفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية،
 وأشار بإشارة الجمع مراعاة لمعنى «من»، وأشار بإشارة البعيد تنويهاً برفعة شأن
 المؤمنين.

﴿الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾: المنازل العالية الرفيعة في الجنة.

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «الجنة مئة درجة، ما بين
 كل درجتين كما بين السماء والأرض، والفردوس أعلاها درجة، ومنها تخرج الأنهار
 الأربعة، والعرش فوقها، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس» (٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن أهل الجنة يتراءون
 أهل الغرف من فوقهم؛ كما يتراءون الكوكب الدرّي العابر في الأفق من المشرق أو
 المغرب لتفاضل ما بينهم». قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟
 قال: «بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين» (٣).

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾، بدل من «الدرجات العلى»، أي: جنات إقامة أبدية.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، إتيان الشفاعة وإخراج الموحدين من النار ١٨٥، وأحمد ٣ / ١١.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٠، وأحمد ٥ / ٣١٦.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ما جاء في صفة الجنة ٣٢٥٦، ومسلم في الجنة، ترائي أهل الجنة أهل
 الغرف كما يرى الكوكب في السماء ٢٨٣٠.

﴿خَلْدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها أبداً.

﴿وَذَلِكَ﴾، أي: الثواب العظيم من الدرجات العلى، وجنات عدن، والخلود فيها
﴿جَزَاءً مِّن تَزَكَّى﴾، أي: ثواب الذي تطهر من الشرك والمعاصي، والأرجاس المعنوية،
بالإيمان والعمل الصالح، وتطهر من النجاسات والأحداث الحسية؛ كما قال تعالى:
﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن رَّكَهَا ۗ﴾ [الشمس: ٩].

الفوائد والأحكام:

١- إنكار فرعون على السحرة إيمانهم برب هارون وموسى دون أن يأذن لهم؛ لأنه
كان قد أذهم واستعبدهم، فلا يصدر عن أمر دونه قبل ظهور الحق لهم؛ لقوله:
﴿ءَامَنُتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾.

٢- مكابرة فرعون، وزعمه أن موسى كبير سحرته الذي علمهم السحر؛ لقوله:
﴿إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾.

٣- تهديد فرعون للسحرة، وتوعده إياهم بتقطيع أيديهم وأرجلهم من خلاف،
وتصليبهم في جذوع النخل، وتعذيبهم العذاب الشديد؛ لقوله: ﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيِّدِكُمْ
وَأَرْجُلِكُمْ مِّنْ خِلْفٍ وَلَا ضَلَبْتَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَعَلَّكُمْ بَيْنَنَا عَذَابًا وَابْتِئْنَا﴾.

٤- شدة علو فرعون وجبروته وتسلطه واغتراره بقوته وسلطانه وجنوده، حتى
وصل به الغرور إلى الاعتقاد أن عذابه أشد وأبقى من عذاب الله.

٥- أن ما يفعله الطغاة والمتسلطون على الناس لإخضاعهم لما يريدون بالتهديد
والقوة؛ سياسة فرعونية.

٦- ثبات السحرة على الإيمان بربهم، وبما جاءهم من البينات، وكفرهم بفرعون
وما يدعو إليه من الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ
وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾.

٧- تضحية السحرة بأنفسهم وبالذنيا كلها في سبيل الإيمان بربهم، والتمسك بدينهم،
وتحديهم بذلك فرعون؛ لقولهم: ﴿فَأَقْضَ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.

٨- حسن ظنهم بربهم، وقوة رجائهم به، بمغفرته خطاياهم وما أكرههم عليه
فرعون من السحر؛ لقولهم: ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِّنْ

السَّحَرِ ﴿١٠﴾.

٩- أن الإيمان إذا وجد المرء حلاوته، وخالطت بشاشته قلبه؛ ثبت عليه بإذن الله وتوفيقه ثبات الجبال الراسيات، نسأل الله التوفيق؛ ولهذا قال ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار»^(١).
وفي حديث هرقل مع أبي سفيان، قال: «فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب»^(٢).

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقول السحرة: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾.

١١- أن ما صنعه السحرة من السحر ياكراه من فرعون لهم على ذلك؛ ليرد بذلك

الحق، ولكن خاب مسعاه.

١٢- أن الله خير وأبقى، وما عنده من الثواب والأجر خير من الدنيا بما فيها لمن

آمن به وأطاعه واتقى؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.

١٣- الوعيد الشديد لمن لقي الله على الإجمام والكفر بنار جهنم لا يموت فيها

فيستريح ولا يحيا حياة طيبة كريمة هنيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ

جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧١﴾﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِ﴾.

١٥- خلود أهل النار فيها؛ لقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾.

١٦- الوعد لمن لقي ربه مؤمناً قد عمل الصالحات بالدرجات العلا في جنات

عدن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مَوْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾﴾

جَنَّاتٍ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّى ﴿٧٦﴾﴾.

١٧- إثبات البعث ولقاء الله تعالى - والحساب والجزاء على الأعمال.

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٧، ومسلم في الجهاد والسير ٦٧٧٣، من حديث ابن عباس عن أبي سفيان رضي الله عنهما.

- ١٨- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب وعمل الأعمال الصالحات بالجوارح.
- ١٩- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى - موافقًا لشرعه.
- ٢٠- أن الجنات منازل ودرجات بعضها أعلى من بعض.
- ٢١- أن الجنات لا تبنى ولا يفنى نعيمها ولا يموت أهلها ولا يخرجون منها؛ لقوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.
- ٢٢- الترهيب والتحذير من الإجمام والكفر والترغيب والإغراء في التزكي والتطهر من الشرك والمعاصي والأرجاس المعنوية، ومن الأحداث والنجاسات الحسية.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۗ فَاتَّبِعْهُمْ فَعُودَهُ فَنَجُوهُمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا عَشِيَهُمْ ۗ﴾^(٧٧)
 وَأَصْلُ فِرْعَوْنَ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى ۗ ﴿٧٨﴾ يَلِيَّيْ إِسْرَائِيلَ قَدْ أُنْحَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ
 الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ۗ ﴿٧٩﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ
 عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ۗ ﴿٨٠﴾ وَإِلَىٰ لَعْنَتِكُمْ لِمَنْ تَابَ وَعَمِلَ
 صَالِحًا ثُمَّ أَهْتَدَى ۗ ﴿٨١﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا
 لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۗ فَاتَّبِعْهُمْ فَعُودَهُ فَنَجُوهُمْ مِنْ أَلِيمٍ مَا عَشِيَهُمْ ۗ﴾^(٧٨) وَأَصْلُ
 فِرْعَوْنَ قَوْمُهُ وَمَا هَدَى ۗ ﴿٧٩﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ﴾، أي: أمرنا موسى حين أبي فرعون أن يرسل معه
 بني إسرائيل.

﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾، «أن»: تفسيرية، فالجملة تفسير لـ«أوحينا»، والمعنى: أوحينا
 إلى موسى الإسرائاء بعبادي، أي: بني إسرائيل.

والإسرائاء: السير ليلاً، أي: أوحينا إلى موسى وأمرناه بأن يخرج ويسير ليلاً بعبادي
 بني إسرائيل، ليخلصهم من قبضة فرعون واستعباده إيهم.

وقد أخبره الله عز وجل أن فرعون سيتبعهم؛ كما قال تعالى في سورة الدخان:
 ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۗ﴾^(٣٢) [الدخان: ٢٣].

﴿فَأَصْرَبَ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، أي: فاضرب بعصاك لهم طريقاً في البحر
 يابساً؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ
 كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ۗ﴾^(٣٣) وَأَزْلَمْنَا ثُمَّ الْآخِرِينَ ۗ ﴿٣٤﴾ [الشعراء: ٦٣ - ٦٤].

﴿لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾، قرأ حمزة بسكون الفاء دون ألف: «تَخَفُ»، وقرأ
 الباقون بالرفع مع الألف: ﴿تَخَفُ﴾.

﴿دَرَكًا﴾: إدراكاً، أي: لا تخاف أن يدركك وقومك فرعون وجنوده؛ كما قال تعالى:
 ﴿فَاتَّبِعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ۗ﴾^(٣٥) فَلَمَّا تَرَأَ الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ۗ ﴿٣٦﴾ قَالَ كَلَّا ۗ
 إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۗ ﴿٣٧﴾ [الشعراء: ٦٠ - ٦٢].

﴿وَلَا تَخْشَى﴾، أي: ولا تخشى غرقاً في البحر أنت ولا قومك.

ومن الذي لا يخاف ولا يخشى أمام هذا الخطب الجسيم، والأمر العظيم، إلا من رحم الله، فالبحر أمامهم، والعدو خلفهم.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ يَجُودُوه﴾، لما خرج موسى ببني إسرائيل، وسار بهم ليلاً، وأصبحوا ليس في مصر منهم داع ولا مجيب، غضب فرعون غضباً شديداً، وقرر وعزم على اللحاق بهم وإرجاعهم مكرهين، وأرسل في المدائن حاشرين، يجمعون جنوده وجيشه للخروج في أثر بني إسرائيل؛ كما قال تعالى في سورة الشعراء: ﴿* وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الآيات: ٥٠-٥٦].

فأتبعهم هو وجنوده وسلكوا وراءهم في البحر، ﴿فَغَشَّيْهِمْ مِّنَ أَلْيَمٍ مَّا غَشَّيْهِمْ﴾، أي: فغشي فرعون وجنوده بعد أن أنجى الله موسى وقومه، أي: غطاهم وأغرقهم من البحر ﴿مَّا غَشَّيْهِمْ﴾، «ما» للتهويل، أي: من الأمر العظيم الذي غشيهما مما يصعب وصفه، ولا يستطيع دفعه ولا منعه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَلْمُؤْتِفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّيْهَا مَّا غَشَّيْنَا ﴿٥٤﴾﴾ [النجم: ٥٣-٥٤].

وذلك أنه لما تكامل موسى وقومه خارجين من البحر، وتكامل فرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر أن يرتطم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: ٢٤]، فغرقوا عن آخرهم.

﴿وَأَصَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾، أي: أوقعهم في الضلال، بما زين لهم من عبادته، وتكذيب موسى ورد دعوته، وبما ألزمهم من اعتقاد ربوبيته لهم وإلهيته.

﴿وَمَا هَدَىٰ﴾، تأكيد لما قبله؛ كقوله تعالى: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرٌ أَحْيَاءٌ﴾ [النحل: ٢١]، أي: وما هداهم إلى خير البتة.

والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، أي: أنه أضلهم إضلالاً تاماً عن الحق، أي: أضلهم غاية الإضلال، وما هداهم إلى خير أبداً، وفي هذا إبطال لقوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ [غافر: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿يَبْقَىٰ إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْبَيْتُمْ مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِّنْ طَيْبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾

وَمَنْ يَخْلَلْ عَلَيْهِ عَصْبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَعَٰمِنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ أَهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾.

قوله: ﴿يَبِيَّ إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْجَيْتَكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «أَجْجَيْتُكُمْ»، و«وَعَدْتُكُمْ»، و«رَزَقْتُكُمْ» بالياء مضمومة، على لفظ الواحد من غير ألف في الثلاث، وقرأ الباقون بالنون مفتوحة وألف بعدها: ﴿أَجْجَيْتَكُمُ﴾ ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ ﴿مَا رَزَقْتُكُمْ﴾.

أي: قد خلصناكم من عدوكم فرعون، وأهلكناه وجنوده بالغرق، وهذه من أعظم نعم الله تعالى عليهم؛ ولهذا قال تعالى ممتنًا عليهم بذلك: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَجْجَيْتَكُمُ وَعَرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فسألهم، فقالوا: هذا اليوم الذي أظهر الله فيه موسى على فرعون، فقال النبي ﷺ: «نحن أولى بموسى منهم، فصوموه»^(١).

﴿وَوَعَدْنَاكَ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾، أي: وواعدناكم مع موسى جانب جبل الطور الأيمن بعد هلاك فرعون؛ لإنزال الكتاب العظيم: «التوراة» على موسى، الذي فيه النعمة الدينية الكبرى عليكم.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الِّمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾، أي: ونزلنا عليكم في التيه «المن» وهو: طعام حلو يشبه العسل، و«السلوى» وهو: طائر كالسحاني، رزقًا رغدًا هنيئًا لكم، بلا مشقة ولا تعب، رحمة من الله تعالى بكم، وإحسانًا إليكم؛ ولهذا امتن الله تعالى عليكم بقوله: ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، الأمر: للإباحة والامتنان، وهو واجب في قدر ما يسد الرمق ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، «الطيبات»: الحلال وما يستلذ ويستطاب.

﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، «ما»: موصولة، أي: كلوا من طيبات الذي رزقناكم، أي: الذي أعطيناكم، أو مصدرية، أي: كلوا من طيبات رزقنا، أي: عطائنا إياكم، والمراد: كلوا واشكروا نعم الله تعالى عليكم الدينية والدنيوية.

(١) أخرجه البخاري في الصوم ٤٧٣٧، ومسلم في الصيام، صوم عاشوراء ١١٣٠، وأبو داود في الصوم

﴿وَلَا تَطْعَوْا فِيهِ﴾، أي: ولا تطغوا فيما رزقناكم، فتكفروا نعم الله عليكم بنسبتها إلى غيره، وبطرها، واستعمالها في معاصيه، وعدم شكرها، وتعالى بعضكم على بعض، وظلم بعضكم لبعض، والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد.

﴿فَيَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾، قرأ الكسائي بضم الحاء: «فَيَحُلُّ»، وقرأ الباقون بكسرهما: «فَيَجِلُّ»، أي: فينزل عليكم غضبي؛ بسبب طغيانكم وكفركم بنعمي.

﴿وَمَنْ يَجِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾، قرأ الكسائي بضم اللام: «يَجْلُلُ»، وقرأ الباقون بكسرهما: «يَجِلُّ»، أي: ومن يجل وينزل عليه غضبي.

﴿فَقَدْ هَوَى﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط لاقتراحه بـ«قد»، أي: فقد ردي وشقي وخسر وهلك؛ لأن من حل عليه غضب الله، عذبه الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿وَأَيُّ لَغْفَارٍ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾، لما نهى عن الطغيان وحذر منه وتوعد عليه، وعد بالمغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحًا ثم اهتدى؛ ترغيبًا في ذلك.

قوله: ﴿وَأَيُّ لَغْفَارٍ﴾، اللام: للتوكيد، و«غفار» على وزن «فَعَّال»، أي: كثير المغفرة، يغفر للكثيرين من عباده، ويغفر للعبد مرة بعد مرة مهما اقترف من الشرك والكفر والمعاصي إذا تاب وأناب.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة؛ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة: «إن الله يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه ويقرره بذنوبه، فيقول: يا فلان، أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم. إلى قوله: فيقول: أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»^(١).

﴿لِّمَنْ تَابَ﴾، أي: للذي تاب، أي: رجع وأناب إلى الله تعالى من الكفر والمعاصي، فأقلع عن ذلك وندم، وعزم على عدم العودة إليه، مخلصًا لله تعالى في توبته، في وقت تقبل فيه التوبة، قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿وَأَمَّنَ﴾، أي: وآمن وصدق بقلبه بالله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، ﴿وَعَمِلَ

(١) سبق تخريجه.

صَلِحًا ﴿٧٧﴾، أي: وعمل الأعمال الصالحات بجوارحه؛ من صلاة وصوم وحج وغير ذلك. ﴿ثُمَّ أَهْتَدَىٰ﴾ ﴿٧٨﴾، أي: استمر على الهدى وثبت عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَصَّوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾ [البلد: ١٧]. وعن سفيان بن عبدالله الثقفى رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً. قال: «قل: آمنت بالله، فاستقم»، أو: «ثم استقم» (١).

الفوائد والأحكام:

- ١- أوحى الله عز وجل لموسى بالخروج ببني إسرائيل والإسراء بهم ليلاً؛ لتخليصهم من قبضة فرعون واستعباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾.
- ٢- إثبات عبودية بني إسرائيل لله عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِي﴾.
- ٣- أمره عز وجل لموسى بضرب البحر بعصاه؛ ليتخذ لبني إسرائيل فيه طريقاً يبساً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾.
- ٤- طمأنة الله عز وجل لموسى وتثيبته له أمام هذا الخطب العظيم بألا يخاف إدراك فرعون له، ولا يخشى الغرق في البحر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾.
- ٥- إنجاء الله تعالى لموسى وقومه، وخروجهم جميعاً من البحر سالمين؛ لمفهوم قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ﴾.
- ٦- خروج فرعون وجنوده في أثر موسى وبني إسرائيل، واتباعهم إياهم في طريقهم على البحر، وارتطام البحر عليهم وإغراقهم جميعاً في أمر مهول؛ لقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.
- ٧- إضلال فرعون لقومه غاية الإضلال، وصدده إياهم عن الهدى غاية الصد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾ ﴿٧٩﴾.
- ٨- تذكير بني إسرائيل بنعم الله تعالى عليهم الدينية والدنيوية؛ من إنجاء أسلافهم من عدوهم فرعون، ووعدهم جانب الطور الأيمن لإنزال الكتاب عليهم، وتنزيل المن والسلوى عليهم، رزقاً لهم دون مشقة؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْنَئِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْجَيْتَكُم مِّنْ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢.

عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿٨٥﴾ .

٩- أن النعمة على المتقدمين من بني إسرائيل نعمة على المتأخرين منهم؛ لأن الله امتن على بني إسرائيل الموجودين في عهد النبي ﷺ بما أنعم به على أسلافهم الماضين. وهكذا كل نعمة على السلف هي نعمة على الخلف.

١٠- الامتنان على بني إسرائيل بإباحته عز وجل لهم الأكل من طيبات ما رزقهم؛ ليشكروه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ .

١١- إباحة الأكل من كل ما أحل الله وطاب أكله.

١٢- أن الأرزاق كلها من الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ .

١٣- النهي والتحذير من الطغيان وكفر نعم الله تعالى الدينية والدنيوية، وعدم القيام بحقها وشكرها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ .

١٤- في النهي عن الطغيان وكفر النعم- بعد الامتنان بذكر النعم- إشارة إلى أن من أسباب الطغيان كثرة النعم؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْأِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَإِطْعَى ﴿٦٧﴾ أَنْ رَأَاهُ أَسْتَفْعَى ﴿٧٧﴾﴾ [العلق: ٦-٧].

١٥- حلول غضب الله ونقمته وعذابه على من طغى وكفر نعم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ .

١٦- إثبات صفة الغضب لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ .

١٧- أن من حل عليه غضب الله فقد ردي وشقي وهلك، ووقع في النقمة والعذاب، وخسر دينه ودنياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ .

١٨- وعد الله تعالى بالمغفرة لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٥﴾﴾ .

١٩- أن مغفرة الله تعالى ورحمته تسبق غضبه؛ لأن الله لما حذر من حلول غضبه أتبع ذلك بذكر سعة مغفرته.

٢٠- سعة مغفرة الله تعالى؛ فهو يغفر للكثيرين من عباده، ويغفر للعبد مرة بعد مرة، مهما كثرت ذنوبه وعظمت، إذا تاب إليه وأتاب.

- ٢١- الترغيب بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، والاستمرار على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ (٢١).
- ٢٢- لا بد من الجمع بين الإيمان الباطن وعمل الجوارح الظاهرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمِنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾.
- ٢٣- لا يقبل العمل إلا إذا كان ﴿صَالِحًا﴾، أي: خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه.
- ٢٤- وجوب الثبات على الإيمان والعمل الصالح، والاستمرار على ذلك، وأن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ لِمَ بَعَدْتُمْ رَبِّي وَأَعَدَّ أَحْقَابَاطُ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّي فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ ۞

قوله: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾، الواو: استئنافية، و«ما»: استفهامية، والاستفهام هنا فيه معنى اللوم، ويقوي هذا قوله: ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ۞﴾.

أي: ما الذي جعلك تتقدم عن قومك وتأتي قبلهم، وفي هذا إيحاء إلى أن الأولى أنك صبرت وأتيت أنت وإياهم، ولم تركهم وتفارقهم.
﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءٌ عَلَيَّ أَثَرِي ۞﴾، روى رويس بكسر الهمزة وإسكان الثاء: «علَى إِثْرِي»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿ عَلَيَّ أَثَرِي ۞﴾.

أي: هم هؤلاء خلفي قرييون، سيصلون في أثري، أي: أي لم أتقدمهم كثيراً.
﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۞﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ترضى، أي: عجلت إليك يا ربي مسارعة في رضاك.

وذلك أنه عليه السلام لأجل المسارعة إلى ربه استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون.
﴿ قَالَ ۞﴾، أي: قال الله له: ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ۞﴾، الفتنة: الابتلاء والامتحان، ويكون بالبشر والخير؛ كما قال تعالى: ﴿ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۞﴾ [الأنبياء: ٣٥].

أي: فإننا قد امتحنا قومك يا موسى من بعدك، وابتليناهم بشر بلية، وهي عبادة العجل.
﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۞﴾، أي: أوقعهم في الضلال، فعبدوا العجل من دون الله، و«السامري»: نسبة إلى «السامرة» من بني إسرائيل من اليهود، يخالفونهم في بعض دينهم.
قيل: كان من أناس يعبدون البقر، وكان حب عبادة البقر في نفسه، وكان أظهر الإسلام مع بني إسرائيل، وكان من أهل «سامرا».

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾، أي: فلما أخبر الله تعالى موسى بما حصل لقومه من الفتنة وإضلال السامري لهم بعبادتهم العجل؛ رجع إليهم.

﴿غَضْبَانَ﴾ حال، أي: شديد الغضب، أي: في غاية الغيظ والحق عليهم.

﴿أَسِفًا﴾، حال ثانية، أي: حزينًا جزعًا مغمومًا.

﴿قَالَ يَقْوَرُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾، الاستفهام للإنكار، وفيه معنى التقرير، أي: أنه عز وجل قد وعدكم وعدًا حسنًا بإنزال التوراة عليكم، التي فيها شرعكم وشرفكم، ووعدكم حسن العاقبة في الدنيا والآخرة، فلم عبدتم غيره؟!

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾، الاستفهام: للإنكار. والعهد: المدة، أي: أفضالت عليكم

مدة غيبتي وهي قصيرة؟!

أو: أفضال عليكم عهد النبوة فانمحت آثارها، فعبدتم غير الله لغلبة الجهل؟!

أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

أي: أنه ليس وقوعكم في ذلك بسبب طول غيبتي؛ فهي قصيرة، وليس ذلك بسبب طول عهد النبوة عليكم؛ فالنبوة بين أظهركم.

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾، «أم»: للإضراب الإبطالي، والاستفهام: إنكاري، أي: لم يطل عليكم العهد، بل ﴿أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ﴾.

«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول «أردتم»، أي: أردتم حلول غضب من ربكم عليكم، أي: بل أردتم بصنيعكم هذا أن يحل عليكم غضب من ربكم؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيِّئًا لَهُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢].

﴿فَأَخَلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾، أي: حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت هارون بكم، وأمرتكم بطاعته.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال بنو إسرائيل في جوابهم على إنكار موسى عليهم عبادة العجل:

﴿مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾، قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم بفتح الميم: ﴿بِمَلِكِنَا﴾.
 وقرأ حمزة والكسائي وخلف بضمها: ﴿بِمَلِكِنَا﴾ وقرأ الباقون بكسرها: ﴿بِمَلِكِنَا﴾.
 أي: ما أخلفنا موعدك باختيارنا وقدرتنا وتعمدنا.
 ﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي
 وخلف وأبو بكر وروح بفتح الحاء والميم مخففة: ﴿حَمَلْنَا﴾.
 وقرأ الباقون بضم الحاء وكسر الميم المشددة: ﴿حَمَلْنَا﴾.
 أي: ولكن عذرنا في ذلك أنا حملنا أثقالاً من زينة القبط قوم فرعون، التي
 استعرتها منهم حين خروجنا من مصر، ﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾، أي: ألقيناها تورعاً وتأثماً، قيل:
 ألقوها في حفرة من نار.
 ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾، أي: فكذلك مثل إلقائنا ألقى السامري، وهذا عذر
 أوهى من نسج العنكبوت، لا يبرر لهم عبادة العجل من دون الله.
 قال السعدي^(١): «وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة: أنهم تورعوا عن زينة القبط،
 فألقوها عنهم، وعبدوا العجل، فتورعوا عن الحقيق، وفعلوا الأمر الكبير؛ كما جاء في
 الحديث الصحيح عن ابن عمر، أنه سأله رجل من أهل العراق عن دم البعوض إذا أصاب
 الثوب؛ يعني: هل يصل في أم لا؟ فقال ابن عمر رضي الله عنهما: «انظروا إلى أهل العراق،
 قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ - يعني الحسين - وهم يسألون عن دم البعوض!»^(٢).
 ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ﴾، أي: فصنع السامري لهم من تلك الزينة
 عجلاً مجسداً صاغه من الذهب، فصار له خوار، أي: صوت، كخوار البقر، بسبب
 حفيف الريح، ودخولها من جهة وخروجها من جهة أخرى.
 ﴿فَقَالُوا﴾، أي: فقال السامري والذين افتتنوا بعبادة العجل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ
 وَإِلَهُ مُوسَى﴾، أي: هذا العجل هو معبودكم ومعبود موسى.
 ﴿فَنَسِيَ﴾، أي: فنسي موسى، أي: ضل الطريق، يطلب ربه، فضلاً ولم يعلم مكانه،

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٣٠٤ / ٥.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، رحمة الولد وتقبيله ومعانقته ٥٩٩٤، والترمذي في المناقب ٣٧٧٠، وأحمد

أو نسي أن يذكر لكم أن هذا إلهكم وإلهه.
﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، الاستفهام: للإنكار والتقريع لهم، وتسفيه عقولهم وأحلامهم.

أي: أفلا يرون أن هذا العجل الذي عبده من دون الله لا يرجع إليهم قولاً؟! أي: أنه لا يتكلم، فلا يراجعهم ويراجعون، ولا يجيبهم إذا سألوه، ولا يرد عليهم ولا يسمعهم إذا خاطبوه؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَخَذَ قَوْمَ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَرُّ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا أَخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: ١٤٨].

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾، أي: لا يملك أن يدفع عنهم ضرراً، ولا يجلب لهم نفعاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨].
قال ابن القيم: «فجعل امتناع صفة الكلام والتكليم، وعدم ملك الضر والنفع؛ دليلاً على عدم الإلهية، وهذا دليل عقلي سمعي على أن الإله لا بد أن يكلم ويتكلم، ويملك لعباده الضر والنفع، وإلا لم يكن إلهاً»^(١).

الفوائد والأحكام:

١- استعجال موسى عليه السلام عن قومه، مسارعة إلى موعد ربه وطلباً لرضاه، ولومه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾، أي: لماذا لم تصبر حتى تأتي أنت وهم؟ ويدل على أن في هذا لوماً له قوله تعالى له بعد ذلك: ﴿فَأِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾، أي: إن هذا حصل بسبب تركك لهم.

٢- إثبات تكليم الله عز وجل لموسى عليه السلام.

٣- أن الأنبياء عليهم السلام لا يقرون على أي مخالفة مهما كانت، بل ينهبون إليها، ويرجعون عنها.

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٣.

- ٤- أن الإنسان طبع على العجلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ۝١١﴾ [الإسراء: ١١]، وقال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].
- ٥- أن الأنبياء والرسل عليهم السلام لا يعلمون الغيب؛ لأن موسى لم يعلم بما جرى لقومه من بعده حتى أعلمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾.
- ٦- أن موسى عليه السلام إنما عجل إلى ربه؛ طلبًا لرضاه عز وجل: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ۝١٠٠﴾.
- ٧- ذم العجلة؛ لأنها قد تكون سببًا لحصول ضرر، أو فوات نفع، بخلاف المبادرة، فإنها مندوبة أو واجبة.
- ٨- أن الأناة في الأمور محمودة، وسبب لإدراكها؛ ولهذا قال ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة».
- وقد قيل:
- قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل^(١)
- ٩- أنه ليس كل مجتهد مصيبًا، فموسى عليه السلام تقدم قومه مسارعة إلى رضا ربه، ولو صبر وأتى هو وإياهم لكان أولى.
- ١٠- إخبار الله عز وجل لموسى بما حصل من الفتنة والابتلاء لقومه من بعده بعبادتهم العجل، وإضلال السامري إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾.
- ١١- إثبات القدر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ ۝١٠٠﴾.
- ١٢- إثبات الأسباب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾.
- ١٣- رجوع موسى عليه السلام لما أعلمه الله بافتتان قومه بعبادة العجل وضلالهم إليهم، قد اشتد به الغضب، غضبًا لله تعالى، وأسفه وحزنه لما وقع منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۝١٠١﴾.
- ١٤- توبيخ موسى عليه السلام لقومه، وإنكاره عليهم ما وقع منهم؛ لقوله: ﴿الْمَرُّ

(١) البيت للقطامي عمير بن شميم. انظر: «ديوانه» (ص ٢٥).

يَعِدُّكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا ﴿٨٧﴾.

١٥- أن الله عز وجل وعد بني إسرائيل وعدًّا حسنًا بإنزال التوراة عليهم فيها شريعتهم، وشرف لهم، ووعدهم بالعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة؛ كما من عليهم بإنجائهم من فرعون وإهلاكه وهم ينظرون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾.

١٦- أن العهد لم يطل ببني إسرائيل بعد ذهاب موسى لوعده ربه، فلم تكن غيبته عنهم طويلة، فيبرروا إخلاف مواعده ونقض وصيته لهم بذلك، بل كانت غيبته مدة قصيرة، ومع ذلك خالفوا أمره؛ لقوله: ﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

١٧- إذا كانت مدة غيبة موسى عنهم قصيرة، وليست مبررًا لمخالفة أمره، فلم يبق إلا الأمر الثاني، وهو أنهم أرادوا تعريض أنفسهم لحلول غضب الله عليهم، فأخلفوا مواعده بلا عذر؛ لقوله: ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾.

ولهذا استحقوا ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٢].

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾.

١٩- اعتذار بني إسرائيل من موسى بما لا يصح عذرًا ولا يقبل، وهو أن ذلك لم يكن باختيارهم وقدرتهم، بدعوى أنهم حملوا أوزارًا من زينة القبط، استعاروها منهم عند خروجهم من مصر، فتورعوا عنها فألقوها، فصنع السامري وصاغ منها صورة عجل مجسد له خوار، فقالوا هم والسامري: هذا إلهكم وإله موسى، نسيه موسى أو ضل عنه، فعبدوه؛ لقولهم: ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾.

فادعوا أن ما فعلوه ليس باختيارهم ولا قدرتهم، وهذا باطل، فمن الذي ألزمهم ذلك وأجبرهم عليه؟! وتآثموا وتورعوا عن أمر حقير، وهو ما حملوه من زينة القبط،

ووقعوا في أمر خطير، وهو الشرك الكبير.

٢٠- وجوب الحذر من دعاة الضلال والشرك والبدع، ولزوم هدي الرسل وطريقهم عليهم الصلاة والسلام.

٢١- الإنكار على عبدة العجل وتقريرهم، وبيان سخافة عقولهم وسفه أحلامهم؛ حيث عبدوا جهاداً لا يجيبهم إذا سألوهم، ولا يرد عليهم ولا يسمعهم إذا خاطبوه، ولا يدفع عنهم ضرراً ولا يجلب لهم نفعاً؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ الْأَلَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

٢٢- أنه لا يستحق الإلهية إلا من كان يكلم ويتكلم، ويملك لعابديه الضر والنفع؛ لمفهوم قوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ الْأَلَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْلِكُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا نَأْخُذُ بِبَلِيحَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنْ خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَلِيمُ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَشْرِ الرَّسُولِ فَتَبَدُّثَهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفُهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلْهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْلِكُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: ولقد قال لبني إسرائيل هارون لما عبدوا العجل من قبل رجوع موسى إليهم:

﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾، «إنما»: أداة حصر، أي: يا قوم إنما ابتليتكم ﴿بِهِ﴾، أي: بعبادة العجل، أي: ما هو إلا فتنة لكم وليس ربًّا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾، أي: وإن ربكم ورب جميع الخلائق الذي يستحق العبادة وحده دون سواه هو الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي.

﴿فَاتَّبِعُونِي﴾، أي: اقتفوا أثري واسلكوا طريقي.
﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾، أي: امثلوا أمري إذا أمرتكم، واجتنبوا نهبي إذا نهيتكم.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال عبدة العجل من بني إسرائيل مخالفين لأمر هارون، معاندين له: ﴿لَنْ نَبْرَحَ﴾، أي: لن نزال ﴿عَلَيْهِ﴾، أي: على عبادة العجل ﴿عَاكِفِينَ﴾، مقيمين على عبادته، ملازمين لها ﴿حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾، أي: إلى غاية أن يعود إلينا موسى فنسمع كلامه فيه، وهذا يدل على توقيهم لموسى وخشيتهم منه، واستضعافهم هارون، وهوانه عندهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا

يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ [الأعراف: ١٥٠].
 ﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى: ﴿يَهْلِكُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾، الاستفهام:
 للإنكار والتوبيخ واللوم، أي: ما الذي منعك حين رأيت بني إسرائيل ضلوا بعبادتهم
 العجل.

﴿أَلَا تَتَّبِعُنِي﴾، أي: ألا تلحق بي فتخبرني، فأبادر بالرجوع إليهم؛ لإنكار ما
 وقعوا فيه؟!

﴿أَفَعْصَيْتَ أَمْرِي﴾، إنكار بعد إنكار، وتوبيخ بعد توبيخ، أي: كيف ولم خالفت
 أمري في قولي لك: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:
 ١٤٢]؟

﴿قَالَ﴾، أي: قال هارون لموسى مجيباً على لومه له وإنكاره عليه، ومعتذراً مما
 حصل: ﴿يَبْتَغُونَ﴾؛ قال هذا ترفيقاً وتحناً واستعطافاً له، وإلا فهما شقيقان.
 ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾، وذلك أن موسى لما رأى ما أصاب قومه من الفتنة
 اشتد غضبه، وألقى الألواح، وأخذ برأس أخيه يجره إليه من شدة الغضب والعتب
 عليه؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾
 [الأعراف: ١٥٠].

قال ابن القيم: «وكان الله عز وجل قد أعلمه بفتنة قومه، ولكن لما رأى الحال
 شاهدة حدث له غضب آخر؛ فإنه ليس الخبر كالمعاينة»^(١).

﴿إِنِّي خَشِيتُ﴾، أي: إني خفت أن أتبعك وألحق بك؛ لأخبرك بضلالهم.
 ﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل
 نصب مفعول ﴿خَشِيتُ﴾، أي: خشيت قولك: فرقت بين بني إسرائيل، أي: لم
 تركتهم وحدهم، وفرقت بينهم؟ لأن تركهم بلا راع سبب لتفرقهم.

قال ابن القيم: «فأقام هارون فيمن معه من المسلمين ممن لم يفتن، وأقام من يعبد
 العجل على عبادة العجل، وتخوف هارون إن سار بمن معه من المسلمين أن يقول له

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣ / ١٦٨.

موسى: ﴿فَرَقَتْ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، وكان له هائبًا مطيعًا^(١).

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾، أي: ولم تراع قولي لك حين استخلفتك عليهم: ﴿أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾ [١٥] قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي [١٦] قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا [١٧] إِنَّمَّا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا [١٨].

قوله: ﴿قَالَ﴾، أي: قال موسى مستفهمًا من السامري، مؤنبًا له، بعد أن ندم على ما صنع بأخيه هارون وهو غير مستحق لذلك؛ لأنه لم يقصر، ولا ذنب له، وبعد أن دعا لنفسه وأخيه بقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [١٧] [الأعراف: ١٥١]، فقال:

﴿فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«ما»، استفهامية، أي: ما شأنك فيما فعلت؟ وما حملك على ما صنعت؟

﴿قَالَ﴾، أي: قال السامري: ﴿بَصُرْتُ﴾، أي: أبصرت ورأيت ﴿بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف بالخطاب: «تَبْصُرُوا»، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يَبْصُرُوا﴾، و«ما» موصولة، أي: بالذي لم يبصروا به، أو نكرة موصوفة، أي: بشيء لم يبصروا به، أي: لم يروه. قيل: رأى جبريل عليه السلام لما جاء لهلاك فرعون وقومه. ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً﴾، أي: أخذت قبضة من التراب والقبضة: ملء الكف، أو بأطراف الأصابع.

﴿مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾، أي: من أثر حافر فرس الرسول جبريل عليه السلام، أي: من تحت حافر فرسه.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾، أي: فألقيتها وطرحتها على حلي بني إسرائيل، فانسبك عجلًا جسدًا له خوار.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٨.

﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتِ لِي نَفْسِي﴾، أي: زينت وحسنت لي نفسي أن أقبض هذه القبضة فأنبذها، فكان ما كان و«التسويل»: تزيين ما ليس بزین.

﴿قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ﴾، أي: انصرف وابتعد؛ فإن عقوبتك في الحياة الدنيا: ﴿أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ﴾، أي: أن تكون كالأجرب، منبوذًا، تقول لكل أحد: ﴿لَا مِسَاسٌ﴾، أي: لا أمس ولا أمس، أي: لا تماس الناس ولا يماسونك، ولا تقرب منهم ولا يقربونك، عقوبة لك؛ كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا﴾، أي: يوم القيامة تجازى فيه بعملك.
﴿أَنْ تُخَلَّفَهُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بكسر اللام: ﴿لَنْ تُخَلَّفَهُ﴾، أي: لن تخلفه أنت، أي: لن تغيب عنه ولا محيد لك، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿لَنْ تُخَلَّفَهُ﴾، أي: أنه آت لا محالة، ولا بد منه.

﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ﴾، أي: إلى معبودك، وهو العجل.
﴿الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ﴾، أي: الذي ظلمت عليه، أي: أقمت على عبادته
﴿عَاقِبًا﴾، أي: ملازمًا لعبادته.

﴿لَنْحَرِقَنَّهُ﴾، قرأ أبو جعفر بإسكان الحاء وتخفيف الراء: ﴿لَنْحَرِقَنَّهُ﴾.
وقرأ الباقون بفتح الحاء وتشديد الراء: ﴿لَنْحَرِقَنَّهُ﴾.
واللام: لام القسم لقسم مقدر، والنون للتوكيد.

﴿ثُمَّ لَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾، «النسف»: ذرء الأجزاء وتفريقها، ويطلق أيضًا على قلع الشيء من أصله وأساسه؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٧٥﴾﴾ [طه: ١٧٥].

والمعنى: ثم بعد إحراقه وصيرورته رمادًا لنذرونها، أي: في البحر، والمراد به: البحر الأحمر «بحر القلزم».

﴿نَسْفًا﴾ مفعول مطلق منصوب، أي: ذروا شديدًا.
فحرقه عليه السلام، وذراه في البحر؛ ليبين لهم أنه ليس بإله، فلو كان إلهًا لامتنع ممن يريد به بأذى ويسعى في إتلافه.

وأتلفه بهذه الطريقة؛ لأن قلوب بني إسرائيل قد أشربت بحبه، فاختر إيتلافه بهذه

الطريقة، بإحراقه ثم نسفه في اليم حتى لا تبقى منه بقية يرونها، ولتزلزل من قلوبهم محبته، بزواله واضمحلاله بشخصه، بطريقة لا يمكن إعادته؛ لأن في القلوب أقوى دافع إلى الباطل.

ولما بين لهم بطلان عبادة العجل، أخبرهم بالذي يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، «إنما»: أداة حصر، و«الحصر»: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، أي: ما إلهكم إلا الله الذي لا إله إلا هو، أي: ما معبودكم إلا الله الذي لا معبود بحق لجميع الخلائق إلا هو، ولا رب لهم سواه.

﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾، «علمًا»: منصوب على التمييز. و«العلم»: إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا. وعلم الله عز وجل واسع للأشياء كلها، محيط بها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، لا يعترى علمه جهل سابق، ولا نسيان لاحق؛ كما قال موسى عليه السلام لما سئل عن القرون الأولى: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، وكما قال تعالى: ﴿وَأَتَتْ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الجن: ٢٨]، [الطلاق: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

الفوائد والأحكام:

١- تنبيه هارون عليه السلام بني إسرائيل قبل رجوع موسى إليهم، أن ما وقعوا فيه من عبادة العجل فتنه وابتلاء، وأن ربهم الرحمن جل وعلا وحده، لا رب لهم غيره، ولا معبود بحق سواه، وأمرهم باتباعه وطاعة أمره، وإعذاره منهم، وإقامة الحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَقَوْمٍ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾.

- ٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾.
- ٣- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن»، وما يدل عليه من صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ﴾.
- ٤- تمرد بني إسرائيل على هارون، وعصيانهم له، ومخالفتهم أمره، وإصرارهم على ملازمة عبادة العجل إلى رجوع موسى إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.
- ٥- استضعاف بني إسرائيل هارون وهوانه عندهم؛ كما قال: ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي﴾ [الأعراف: ١٥٠].
- ٦- معاتبة موسى لهارون ولومه له: لماذا لم يتبعه فيخبره بما حصل من ضلال قومه، لعله يتدارك الأمر في أوله؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ يَكْفُرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾.
- ٧- المبادرة إلى إنكار المنكر قبل أن يتسع ويستشري وتألفه القلوب؛ لأنه إذا كثرت الإمساس قل الإحساس.
- ٨- ترقيق هارون في ندائه لموسى بقوله: ﴿يَبْنَؤُمَّ﴾ مع أنه شقيقه، تحننا إليه، واستعطافا له.
- ٩- أخذ موسى بلحية أخيه هارون ورأسه يجره من شدة الغضب لما رأى ما أصاب قومه؛ لقول هارون له: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾، وقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِسْمَا خَلَقْتُنِي مِنْ بَعْدِي أُعَلِّمُهُمْ أَمْرًا رَبِّيًّا وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].
- ١٠- أنه ليس الخبر كالمعاينة؛ فإن موسى لما أعلمه الله بافتتان قومه رجوع إليهم غضبان أسفاً، ولما رجع ورأى الحال مشاهدةً ازداد غضباً.
- ١١- لم يعتب الله تعالى على موسى في إلقاءه الألواح وفيها كلامه عز وجل، ولا في أخذه برأس أخيه يجره إليه؛ لأن الذي حمله على ذلك هو الغضب لله تعالى.
- ١٢- اعتذار هارون لموسى في عدم اتباعه له لما رآهم ضلوا بخشيته منه أن يلومه على ذلك؛ لقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

١٣- حرص هارون واهتمامه وعنايته بتنفيذ وصية موسى له في قومه على التمام، وشدة هيئته له وطاعته.

١٤- أن عدم وجود راع وخليفة على الناس سبب لفرقهم وتشتتهم واختلافهم.
١٥- قبول موسى اعتذار أخيه هارون؛ ولهذا لم يرد عليه، بل سأل الله المغفرة له ولأخيه؛ كما في قوله في سورة الأعراف: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

١٦- تأنيب موسى للسامري بسؤاله: ما شأنه؟ وما الذي حمله على ما صنع؟ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ﴾.

١٧- أن ما قام به السامري من إخراج العجل وصنعه لبني إسرائيل، وأمره إياهم بعبادته؛ مما سولته له نفسه الأمانة بالسوء؛ لقوله: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتِ لِي نَفْسِي﴾.

١٨- عقوبة السامري في الحياة بعقوبة شديدة، بسلبه الأُنس الذي في طبيعة البشر فيما بينهم، وجعله منبوذاً يقول: ﴿لَا مَسَاسَ﴾، أي: لا أمس أحداً، ولا يمسنى أحد؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾، فصار بهذه العقوبة كأنه ليس بين الناس، وهو بين أظهرهم.

١٩- توعده بأن له موعداً يوم القيامة لا بد منه، ولا محيد له عنه، يجازى فيه بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ نُخْلِفَهُ﴾، وفي هذا إثبات البعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٠- تبكيت السامري وإغاظته وتسفيه رأيه وفعله، بإحراق معبوده العجل، وأنه لا يملك الدفع عن نفسه ولا عن غيره؛ لقوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنْ نَسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾.

٢١- حكمة موسى عليه السلام في إحراق العجل ونسفه في البحر؛ ليزول بالكلية ويضمحل، بحيث لا تمكن إعادته، ولا يبقى في قلوب بني إسرائيل بقية من محبته التي أشربوها بقلوبهم.

٢٢- إثبات أن إله الخلق كلهم هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود لهم بحق سواه حصراً وقصراً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢٣- سعة علمه عز وجل، وإحاطته بكل شيء علمًا؛ لقوله: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

٢٤- أن من أعظم وأهم صفات الإله الحق: الإحاطة بكل شيء علمًا، وليس ذلك لأحد سوى الله عز وجل.

* * *

قال الله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۝ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۝ خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ۝ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ۝ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۝ خَلِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ۝﴾ .

قوله: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، أي: مثل ما قصصنا عليك خبر موسى وما جرى له مع فرعون، ومع قومه بني إسرائيل، كذلك نقصص عليك بعضًا من أنباء الذين سبقوا؛ لما فيها من الحكم والأحكام والمواعظ والدروس والعبر، والتسليية، والشهادة على صدقك وصدق ما جئت به.

﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾، الواو: عاطفة، أو حالية، و«قد»: حرف تحقيق، أي: والحال أننا أعطيناك من عندنا ذكراً وهو القرآن العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ۝﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾ [الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

وسمي القرآن: ذكراً؛ لأن فيه ذكر الله تعالى وأسمائه وصفاته وآياته، ويذكر بالله تعالى، وما يجب له من التعظيم، وفيه ذكر الأحكام والحكم والمواعظ، والعبر والدروس، والحساب والجزاء، وذكر الأخبار السابقة واللاحقة، وهو سبب لذكر الله تعالى لعباده؛ كما قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ولأن الله تعالى يسر ذكره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ۝﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، ولأن الله جعله شرفاً لمن اتبعه وعمل به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ لُتَسْأَلُونَ ۝﴾ [الزخرف: ٤٤].

ولهذا أوجب الله تعالى على الأمة تلقيه بالقبول والتسليم، والانقياد والتعظيم، والاهتداء بنوره إلى الصراط المستقيم؛ لأن فيه نبأ ما كان قبلنا، وخبر ما بعدنا، وحكم ما

بيننا، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله، وهو جبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾، أي: من أعرض عن القرآن، فكذب به بقلبه، وتولى عنه ببدنه؛ فلم يعمل به بجوارحه، فلم يتدبر ألفاظه ولا معانيه، ولم يعمل بأحكامه، وابتغى الهدى من غيره.

﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾، أي: إثماً عظيماً، بسبب إعراضه عن القرآن وكفره به وهجره؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدَهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الجن: ١٧].

﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾، أي: فيما يحملون من وزر، وفي العذاب.

﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾، أي: وبئس الحمل الذي يحملونه يوم القيامة ويعذبون به، وهذا عام في كل من بلغه القرآن وأعرض عنه من جميع الناس من العرب والعجم وأهل الكتاب وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَهَمَّ بَلَّغٌ﴾ [الأنعام: ١٩].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ ﴿٣٣﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٣٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿٣٥﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾، قرأ أبو عمرو بالنون وفتحها وضم الفاء: «نَنْفَخُ فِي الصُّورِ»، وقرأ الباقون بالياء وضمها وفتح الفاء: «يُنْفَخُ».

والصور: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام النفختين: نفخة الصعق، ونفخة البعث؛ كما قال ﷺ وقد سئل عن الصور، فقال: «قرن ينفخ فيه»^(١).

وقال ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له؟!»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٤٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٠، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) سبق تخريجه.

والمعنى: يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور لقيام الناس من قبورهم.
﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: ونجمع المجرمين، أي: أهل الإجرام بالكفر والشرك والمعاصي.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿زُرْقًا﴾، أي: زرق الألوان والعيون من شدة الخوف والقلق والعطش؛ لعظم ما هم فيه من الأهوال.
﴿يَتَحَفَّتُونَ بَيْنَهُمْ﴾، المخافتة: المسارة والتناجي بخفية، أي: يتسارون بينهم ويتناجون خفية.

﴿إِن لَّيْتُمُ إِلَّا عَشْرًا﴾، بيان لما يتسارون به، أي: يقول بعضهم لبعض متقاصرين مدة الدنيا: ﴿إِن لَّيْتُمُ إِلَّا عَشْرًا﴾، «إن»: نافية في الموضعين، أي: ما ليتم إلا عشرًا، أي: إن أقمتهم في الدنيا إلا عشرًا، أي: عشرة أيام؛ لقوله بعده: ﴿إِن لَّيْتُمُ إِلَّا يَوْمًا﴾.
﴿مَنْ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾، أي: نحن أعلم بقولهم، أو بالذي يقولونه حال تناجيههم ومسارتهم بينهم.

﴿إِذْ يَقُولُ امْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾، أي: حين يقول أعدلهم وأحسنهم طريقة، وأعلمهم وأوفاهم عقلاً، وأقربهم تقديراً.

﴿إِن لَّيْتُمُ إِلَّا يَوْمًا﴾، أي: ما ليتم إلا يومًا واحدًا، وإنما كان هذا هو أمثلهم طريقة؛ لتوسطه في قوله؛ لأن منهم من يقسم أنهم ما لبثوا غير ساعة؛ كما قال تعالى:
﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ [الروم: ٥٥].

وإنما استقصروا مدة لبثهم في الحياة الدنيا لما رأوا من أهوال القيامة وشدائدها؛ لأنهم ضيعوا في الدنيا أعمالهم بالكفر والسهو واللهو واللعب والغفلات، وترجية الأوقات، واتباع الشهوات، وأعرضوا عن القرآن وما يدعوهم إليه من الإيثار والأعمال الصالحات، والاستعداد لما بعد الممات، فانشغلوا بما يضرهم، وأعرضوا عما ينفعهم.

ولهذا ندموا حين لا ينفع الندم، واستقصروا مدة لبثهم في الدنيا، وهي كافية لإقامة الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَالْكَافِرُ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ تَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَلَّ كَمٌ لِيَشْتُرُوا فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا لَيْتَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلَّ الْعَادِينَ ﴿٣٩﴾ قَلَّ إِنْ لَيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٥].

الفوائد والأحكام:

- ١- أنه كما قص عز وجل على نبينا محمد ﷺ خبر موسى عليه السلام وما جرى له مع فرعون ومع بني إسرائيل، قص عليه بعض أنباء ما قد سبق من الأمم الماضية، فالكل من مشكاة واحدة؛ لاستلهاهم ما في تلك القصص من الحكم والأحكام والمواعظ والدروس والعبر، وغير ذلك، والشهادة بصدقه، وصدق ما جاء به، والتسلية له ﷺ وتثبيت قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].
- ٢- تشریف الله عز وجل وتكريمه للنبي ﷺ، بخطابه عز وجل له، وبما خصه به من إتيانه من لدنه الذكر الحكيم والقرآن العظيم، والإشادة والتنويه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾.
- ٣- أن القرآن هو أعظم الذكر، فيه ذكر العبد لربه وأسمائه وصفاته وآياته، وفيه ذكر التشريع والأحكام والأخبار والمواعظ والعبر، والحساب والجزاء، إلى غير ذلك، وبسببه يذكر الله عباده؛ كما قال تعالى: ﴿فَأذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].
- ٤- التهديد والوعيد لمن أعرض عن القرآن، لا يتدبر ألفاظه ولا معانيه، ولا يعمل بأحكامه؛ بالوزر الثقيل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ الآية.
- ٥- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.
- ٦- خلود المعرضين عن القرآن، المكذبين به فيما حملوه من الوزر، وفي العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾.
- ٧- ساء الوزر والحمل يوم القيامة حمل من أعرض عن القرآن وكذب به؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾.
- ٨- إثبات النفخ في الصور لبعث الناس من قبورهم والمعاد وحياة الأجساد؛

لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾.

٩- حشر المجرمين يوم القيامة زرق الألوان والعيون، من شدة الخوف والقلق والعطش؛ لعظم الأهوال والكروب؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

١٠- تسار المجرمين بينهم في عرصات القيامة، وتناجيهم مستقلين مدة لبثهم في الحياة الدنيا بسبب تضييعهم أعمارهم فيها بالكفر واللغو والغفلات واتباع الشهوات، ولما يروونه في ذلك الموقف من الأهوال والشدائد والكربات؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾.

١١- علم الله تعالى بما يقولون وما يتسارون به، ومدى استقلالهم للبثهم في دار الدنيا، وأن أمثلهم طريقة يقول: إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا؛ لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ آذَنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿٢٠﴾ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿٢١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ زِكْرًا ﴿٢٣﴾ فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿٢٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾﴾:

قوله: ﴿وَسْأَلُونَكَ﴾، أي: ويسألك الناس يا محمد ﴿عَنِ الْجِبَالِ﴾، أي: عن هذه الجبال الراسيات الصلبة العظيمة، هل ستبقى بحالها يوم القيامة أو تزول؟ ﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾، «نسفًا» مفعول مطلق منصوب، أي: نسفًا تامًا، أي: يزيلها عن أماكنها إزالة تامة، ويقتلعها من أصولها اقتلاعًا تامًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّفَتِ ﴿١٧﴾﴾ [المرسلات: ١٠]، ويسيرها فتمر مر السحاب، وتكون سرايا؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُبَّحَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾ [النبا: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿٢١﴾﴾ [الطور: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٣].

وتكون في الخفة كالصوف المنفوش؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ كَالْمَنْفُوشِ ﴿٢٤﴾﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿١٦﴾﴾ [المعارج: ٩]. وتبس وتذك وترجف، وتكون كثيبًا مهيلًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾﴾ [الحاقة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا ﴿١٤﴾﴾ [الزلزل: ١٤].

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: فيذر الأرض، أي: يتركها بعد نسف الجبال وإزالتها منها وتسويتها بها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾، أي: أرضًا مستوية ملساء، بساطًا واحدًا. ﴿لَا تَرَى﴾، أيها الناظر ﴿فِيهَا عِوَجًا﴾، أي: ميلًا، ﴿وَلَا أَمْتًا﴾، أي: ولا ارتفاعًا

ولا انخفاضاً.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (١٧٨):

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم القيامة حين يخرجون من قبورهم، ويرون هذه الأحوال والأحوال.

﴿يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾، أي: يستجيبون للداعي لهم إلى موقف الحشر والحساب، مهطعين إليه مسرعين؛ كما قال تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [١٣] [المعارج: ٤٣].

﴿لَا عِوَجَ لَهُ﴾، أي: مقبلين من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعوجون عنه يمناً ولا يسرة، ولا يميلون، فدعوته تسمع الجميع، لا تعوج عنهم، وكلهم يؤم صوت الداعي، لا يعوج عنه (١).

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾، أي: سكنت ذلاً وخضوعاً لله عز وجل. ﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾، الهمس: الصوت الخفي، والمراد به في الآية: وطء الأقدام في السير والمشي إلى المحشر بسكون وخضوع، أو المخافتة سرّاً بتحريك الشفتين، ونحو ذلك.

قال ابن كثير (٢): «وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥].»

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ (١٧٨) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١٧٩) * وَعَنْتَ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١٨٠) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١٨١).

قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ﴾، أي: في ذلك اليوم يوم القيامة، لا تنفع الشفاعة عند الله.

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٨، ١٦٩.

(٢) في «تفسيره» ٥/ ٣١٠.

والشفاعة: هي التوسط بطلب الخير للغير، أو دفع الشر عنه ممن يقدر على ذلك.
﴿إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾، «إلا»: أداة حصر، أو للاستثناء، و«من»: موصولة،
أي: إلا الذي أذن له الرحمن بالشفاعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].
﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾، أي: رضي قوله، أي: شفاعته، ورضي عن المشفوع له؛ كما قال
تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ
لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضِيَ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء:
٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ
صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

وفي حديث أنس رضي الله عنه الطويل في الشفاعة: قوله ﷺ: «ثم يقال لي: يا
محمد، ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع»^(١).
﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: علمه محيط بالخلائق كلهم، يعلم الذي
بين أيديهم، والذي خلفهم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾، كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ
عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والضمير في «به» على هذا يرجع إلى الله عز وجل.

وقيل: الضمير يرجع إلى قوله: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، فعلى القول
الأول يرجع إلى العالم، وعلى القول الثاني يرجع إلى المعلوم.
والقول الثاني يستلزم الأول، من غير عكس؛ لأنه إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته
المتعلقة بهم، فإن لا يحيطوا علمًا به سبحانه أولى^(٢).

﴿وَعَنَتِ الُّرُوحُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾، أي: خضعت وذلت الوجوه، واستكانت
واستسلمت وانقادت.

(١) سبق تحريجه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٩.

﴿لِّلْحَيِّ﴾، «الحي» من أسماء الله تعالى، أي: ذو الحياة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

﴿الْقَيُّومُ﴾، من أسماء الله عز وجل، أي: القيم على جميع شؤون خلقه، كل شيء فقير إليه؛ لا قوام له إلا به، القائم بنفسه، الغني عن جميع خلقه.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾، الواو: حالية، أي: وقد خسر الخسران المبين في ذلك اليوم كل من حمل ظلمًا، بالشرك بالله تعالى الذي هو أظلم الظلم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

وكل من حمل ظلمًا، بأن ظلم أحدًا من عباد الله؛ لأن ذلك اليوم يوم رد المظالم، والانتصار للمظلومين وإنصافهم، فالخيبة كل الخيبة، والخسران المبين لمن ظلم بالشرك بالله؛ لأن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء؛ كما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

ولأن الله حرم على المشرك الجنة، وجعل مأواه النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].
والخيبة لمن ظلم الناس بالاعتداء على حقوقهم؛ لأن الله تعالى حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرماً، وبين أن عاقبته وخيمة، وأنه ظلمات يوم القيامة، قال ﷺ: فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا»^(١).

وقال ﷺ: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٢).

كما أوجب عز وجل على نفسه إنصاف المظلوم، والاقتصاص من الظالم، قال ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها، حتى إنه ليقترض للشاة الجلاحاء من الشاة القرناء»^(٣).

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِرٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، لما تواعد

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب، تحريم الظلم ٢٥٧٧، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٧٨، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الظالمين بالخبية والخسران، وعد المؤمنين بحسن المجازاة والعدل.
 قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ﴾، «من»: شرطية، أي: ومن يعمل بجوارحه، ﴿مِنْ
 الصَّالِحَاتِ﴾، «من»: تبعيضية، أي: بعض الأعمال الصالحات، التي يتوفر فيها
 الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرسول ﷺ.
 ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، الواو: حالية، أي: والحال أنه مؤمن بقلبه، أي: مصدق بكل ما
 أوجب الله الإيمان به.
 ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، قرأ ابن كثير: «يَخْفُ» بالجزم، وقرأ الباقون بالرفع:
 ﴿يَخَافُ﴾.

أي: ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ بزيادة في سيئاته، ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ بنقص من حسناته، بل
 تضاعف حسناته؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً
 يضاعفها وَيؤتِ مِنْ لَدُنْهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].
 قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ
 أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٦﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى
 إِلَيْكَ وَحْيُهُ. وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٧﴾﴾.
 قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ
 يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٦﴾﴾.

لما ذكر تحقق البعث والمعاد، والمجازاة على الأعمال خيرها وشرها، وحذر من
 الظلم، ورجب في الإيمان والعمل الصالح، أتبع ذلك ببيان أنه أنزل القرآن عربياً
 فصيحاً، وصرف فيه من الوعيد؛ لأجل تقوى الله تعالى، والاستعداد ليوم المعاد،
 بالإيمان والذكر والأعمال الصالحة.

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب العظيم.
 ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾، أي: باللسان العربي الفصيح المبين؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
 مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥]، وفي هذا امتنان على الأمة بإنزال هذا القرآن العظيم أفضل
 كتب الله وأعظمها، بأوسع اللغات وأفصحها وأبينها.
 ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾، أي: فصلنا فيه أنواعاً من الوعيد، بذكر أسماء الله

الدالة على العدل والانتقام، وذكر المثلاث التي أحل الله بالمكذبين من الأمم السابقة، وذكر آثار المعاصي والذنوب، وذكر أحوال القيامة وأهوالها، والنار وعذابها، وغير ذلك. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، أي: لأجل أن يتقوا الله بترك الكفر والشرك والمعاصي، ويتقوا شر يوم القيامة.

﴿أَوْ يُحَدِّثْ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ «أو» عاطفة، أي: ويحدث لهم ذكراً، أي: تذكراً وموعظة بالإيمان والعمل الصالح والطاعات والقربات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ [الإسراء: ٤١].

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فتقدس وارتفع وتعاضم وتنزه عن كل نقص وعيب. ﴿الْمَلِكُ﴾ من أسماء الله عز وجل، أي: الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما. والمملك: من له المملك، وله حق التصرف والتدبير في ملكه، فهو عز وجل المالك لذلك كله، وهو المتصرف فيه والمدبر له، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل ملك مالك، وليس كل مالك ملك.

﴿الْحَقُّ﴾، أي: الحق الثابت، فوجوده حق، وملكه حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسمائه وصفاته حق، وقوله حق، وفعله حق، وشرعه حق، ولقاؤه حق، ووعدته حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق، وكل أمره حق، وهو الحق المبين؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، قرأ يعقوب بالنون مفتوحة وكسر الضاد وفتح الياء نصباً، ونصب «وحيه»: «نَقْضِي إِلَيْكَ وَحْيَهُ»، وقرأ الباقون بالياء مضمومة وفتح الضاد ورفع وحيه: ﴿يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

أي: من قبل أن يفرغ جبريل من قراءته، أي: أنصت، فإذا فرغ جبريل من قراءته فاقراه بعده، وكان ﷺ من حرصه على حفظ القرآن، ومخافة نسيانه؛ يستعجل ويبادر بالقراءة قبل أن يفرغ جبريل من قراءته، فكلما قرأ جبريل قرأ معه، فأرشده الله تعالى إلى ما هو أخف وأسهل، وهو أن يقرأ بعد فراغ جبريل من القراءة، وتكفل له عز وجل بجمعه وقراءته وبيانه.

كما قال تعالى: ﴿لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ كان يعالج من القرآن شدة، فكان مما يحرك لسانه، فأنزل الله هذه الآية (١).

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾، أي: اطلب من ربك زيادة العلم، وقد أعطاه الله عز وجل من العلم ما لم يعط لأحد سواه، فلم يزل في زيادة من العلم حتى توفاه الله تعالى، وكان الوحي أكثر ما كان تتابعاً عليه ﷺ يوم توفي عليه الصلاة والسلام (٢).

وكان ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً، الحمد لله على كل حال، وأعوذ بالله من حال أهل النار» (٣).

الفوائد والأحكام:

١- شدة أهوال يوم القيامة، فالجبال مع عظمتها ورسوها وصلابتها تنسف فيه نفساً، فتكون قاعاً مستوياً، لا ميول فيها ولا ارتفاع ولا انخفاض؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا جَبَلٌ وَلَا أَمْتًا ﴿١٧﴾﴾.

٢- تشریف النبي ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.

٣- جواز السؤال في مثل هذا إذا كان لغرض صحيح، وليس تعنتاً ومكابرة وتعجيزاً.

٤- توجيه السؤال لمن هو أهل للإجابة؛ للرسول ﷺ في حياته، ولأهل العلم بعد وفاته؛ كما قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٢) [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧].

٥- خروج الناس يوم القيامة من قبورهم، واتباعهم الداعي للحشر، واستجابتهم

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٥ ومسلم في الصلاة، الاستماع للقراءة ٤٤٨، والنسائي في الافتتاح ٩٣٥، وأحمد ١/ ٣٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨٢، ومسلم في التفسير ٣٠١٦، وأحمد ٣/ ٢٣٦، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٦٦٩، وابن ماجه دون قوله: «وأعوذ... إلخ، في المقدمة، الانتفاع بالعلم والعمل ٢٥١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

له، وتوجههم صوبه لا يميلون عنه يمينة ولا يسرة؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾.

٦- خشوع الأصوات كلها للرحمن من شدة الهول والكرب، فلا تسمع إلا وطم الأقدام، أو صوتًا في غاية الخفاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.

٨- أن الشفاعة يوم القيامة لا تنفع إلا من أذن له الرحمن، ورضي قوله؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾.

٩- علم الله عز وجل المحيط بما بين أيدي الخلائق وما خلفهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾.

١٠- عدم إحاطة الخلائق بالله عز وجل علمًا، ولا بشيء من علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾.

١١- خضوع الوجوه في ذلك اليوم واستكانتها وتذللها واستسلامها وانقيادها لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى: «الحي»، وصفة الحياة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لِلْحَيِّ﴾.

١٣- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْقَيُّومِ﴾، وأنه سبحانه القائم على جميع شؤون خلقه، القائم بذاته؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَيُّومِ﴾.

١٤- خيبة وخسارة من حمل ظلمًا بالشرك بالله، وظلم عباده، والتحذير من الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

١٥- الوعد لمن آمن وعمل صالحًا بإثابته بعمله، لا يخاف ظلمًا بزيادة سيئاته، ولا هضمًا بالنقص من حسناته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

١٦- تمام عدل الله تعالى في مجازاته عباده، فلا يظلمون لديه ولا يهضمون.

١٧- لا بد من كون الأعمال صالحة يتوفر فيها: الإخلاص لله تعالى، والمتابعة

لرسول الله ﷺ.

- ١٨- لا بد من الجمع بين عمل الجوارح الظاهرة وإيمان القلب.
- ١٩- أن النعمة كما تكون بجلب الخير، تكون بدفع الشر من الظلم والهضم ونحو ذلك.
- ٢٠- الامتنان بإنزال القرآن عربياً بأوسع اللغات وأفصحها وأبينها، هداية الخلق إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ومعادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا﴾.
- ٢١- تصريف الوعيد في القرآن وتنويعه؛ لحمل الناس على تقوى الله، بترك ما حرمه ونهى عنه من الكفر والشرك والمعاصي، وذكره بالإيمان والعمل الصالح والطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.
- ٢٢- تعاضمه عز وجل وتقدسه، وتنزهه عن النقائص والعيوب وتعالیه؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ﴾، فله عز وجل العلو المطلق: علو الذات، وعلو الصفات.
- ٢٣- إثبات اسم الله تعالى: «الملك»، وتفرد به بملك السموات والأرض وما بينهما وتديره والتصرف فيه؛ لقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ﴾.
- ٢٤- أن الله عز وجل هو الملك الحق، وجوده حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسمائه وصفاته حق، وشرعه حق، وخبره حق وصدق، ولقاؤه حق، ووعدته حق، ووعيده حق، والجنة حق، والنار حق، والبعث حق، وكل أمره حق، وهو الحق المبين؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ﴾.
- ٢٥- استعجاله ﷺ بقراءة القرآن قبل أن يفرغ جبريل من قراءته، حرصاً منه ﷺ على حفظه، ومخافة نسيانه، ونهى الله عز وجل له عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.
- ٢٦- إرشاده عز وجل له ﷺ لما هو الأسهل والأخف في حقه، وأرفع للمشقة عنه، وهو أن ينصت حتى يفرغ جبريل من قراءته، فإذا فرغ قرأ بعده؛ لمفهوم قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، أي: أنه إذا قضي إليك وحيه وفرغ جبريل من قراءته فاقراً بعده.
- ٢٧- الأدب في طلب العلم، وأنه ينبغي للمتعلم التأني وعدم العجلة، فلا يقاطع

المعلم أو المملي حتى يفرغ.

٢٨- أمر الله تعالى نبيه ﷺ بدعاء ربه بزيادة العلم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي

عِلْمًا﴾، ولهذا لم يزل ﷺ في زيادة من طلب العلم حتى لحق بربه.

٢٩- فضل العلم؛ لأنه ينير للمسلم طريقه، ويهديه إلى ما فيه خيره وصلاحه

وفلاحه في دينه ودنياه وأخراه، فرأس مال الإنسان في هذه الحياة: علم نافع، وعمل

صالح؛ ولهذا أمر الله تعالى نبيه ﷺ بدعائه بطلب زيادة العلم، وقال تعالى ممتناً عليه ﷺ

وعلى الأمة: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٣]،

[الفتح: ٢٨]، [الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَىٰ وَلَمْ يُحِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٧﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٨﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١١٩﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٢٠﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْئَىٰ ﴿١٢١﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ وَقَتَابَ عَلَيْهِ وَهْدَىٰ ﴿١٢٣﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَىٰ﴾، أي: وصيناه وعهدنا إليه، ونهيناه عن الأكل من الشجرة.

﴿وَلَمْ يُحِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، أي: حفاظًا لما أمر به.

قال ابن القيم: «فتأمل أول نقص دخل على أبي البشر، وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَنَىٰ﴾ الآية. والنسيان سواء كان عدم العلم، أو عدم الصبر؛ كما فسر به ههنا؛ فهو أمر عدمي»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ الآية. ذكر الله عز وجل قصة خلقه آدم وأمره الملائكة بالسجود له إكرامًا واحترامًا، في عدد من السور، منها سورة البقرة^(٢)، والأعراف^(٣)، والحجر^(٤)، والإسراء^(٥)، والكهف^(٦)، وص^(٧)، وفي هذه السورة^(٨)؛ لما فيها من الحكم والمواعظ والعبر، ومن

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٦٩، ١٧٠.

(٢) [الآيات: ٣٠-٣٨].

(٣) [الآيات: ١١-٢٥].

(٤) [الآيات: ٢٨-٤٠].

(٥) [الآيات: ٦١-٦٥].

(٦) [الآية: ٥٠].

(٧) [الآيات: ٧١-٨٥].

(٨) [الآيات: ١١٦-١٢٣].

أهم ذلك: أن يعلم بنو آدم شدة عداوة إبليس لهم ولأبيهم؛ لامتناعه من السجود له، وأن عداوته لهم ولأبيهم قديمة، فيحذروا منه أشد الحذر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾، أي: واذكر إذ قلنا للملائكة: اسجدوا لآدم إكرامًا واحترامًا له، وإظهارًا لفضله، وعبودية لله تعالى، وطاعة له.

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾، أي: فسجدوا جميعًا إلا إبليس امتنع من السجود مخالفة لأمر الله عز وجل، وتكبرًا على آدم واحتقارًا له؛ كما قال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]، وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣].

﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾، يعني: حواء عليها السلام، وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿لَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾، أي: فاحذر أن يسعى ويتسبب في إخراجكما من الجنة، دار النعيم المقيم.

﴿فَتَشْقَى﴾، أي: فتتعب في طلب رزقك والمكابدة في الدنيا، بعد أن كنت في الجنة في عيش رغيد هنيء، بلا كلفة ولا مشقة.

وشرك بينه وبين زوجه في الخروج، وخصه بالشقاء؛ لاشتغاله بالكسب والمعاش دون المرأة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [١١٨]، أي: إن لك ألا تجوع في الجنة ولا تعرى، أي: ولا تعرى من اللباس على بدنك، وقابل بين الجوع والعري؛ لأن الجوع ذل الباطن، والعري ذل الظاهر، كما أن الأكل كسوة البطن، واللباس كسوة الظاهر.

﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا﴾، قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة: «وَأَنَّكَ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿وَأَنَّكَ﴾، أي: لا يصيبك الظمأ، وهو العطش.

﴿وَلَا تَضْحَى﴾، أي: لا يصيبك حر الشمس. وهنا قابل بين الضمأ، وهو: حر الباطن، والضحي، وهو: حر الظاهر.

وبانتفاء ذل الباطن والظاهر، وحر الباطن والظاهر؛ تنتفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً.

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾، أي: سؤل وزين له وغره؛ كما قال تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِعُرُورٍ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾ [البقرة: ٣٦].

﴿قَالَ يَتْلَأُم حَلْ أَدْلَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾، أي: الشجرة التي من أكل منها خلد ودام مكثه وبقاؤه، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام ما يقطعها، وهي شجرة الخلد» (١).

﴿وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾، أي: لا ينقضي ولا ينقطع؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾، أي: فظهرت لهما عوراتهما، بسقوط ما عليهما من اللباس، بسبب الأكل من تلك الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها، وأباح لهما الأكل من حيث شاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

﴿وَوَطِفَقَا يَخِصِقَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾، أي: أخذوا يلصقان على عورتيهما من ورق الجنة لسترهما.

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾، بارتكابه ما نهاه الله عنه بالأكل من الشجرة.
﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾، أي: اصطفاه واختاره ووقفه إلى التوبة، فتاب إلى ربه وأتاب؛ كما

(١) أخرجه أبو داود في صفة الجنة ونعيمها ٢٨٣٣، وأحمد ٢ / ٤٥٥، ٤٦٢.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَعْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾، أي: فقبل توبته وتاب عليه وهداه، فصار بعد التوبة أفضل منه قبل المعصية، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «حاج موسى آدم، فقال له: أنت آدم الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم؟ قال آدم: يا موسى، أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، أتلومني على أمر قد كتبه الله علي قبل أن يخلقني، أو قدره الله علي قبل أن يخلقني؟» قال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى»^(١).

الفوائد والأحكام:

١- عهد الله تعالى ووحيه إلى آدم، ونهيه له عن الأكل من الشجرة، ونسيانه عليه السلام، وضعف عزمه، وأكله منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا آلَ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(١١٥).

٢- أمره عز وجل الملائكة بالسجود لآدم وسجودهم جميعاً؛ احتراماً وتكريماً له إلا إبليس أبا، استكباراً وكفراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾^(١١٦)، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾^(١١٧) [البقرة: ٣٤].

٣- إثبات وجود الملائكة عليهم السلام، وطاعتهم لله تعالى بفعل ما يأمرهم به.

٤- فضل آدم على الملائكة؛ لأن الله أمرهم بالسجود له، إكراماً واحتراماً له، وإظهاراً لفضله.

٥- أن سجد الملائكة لآدم بأمر الله تعالى، إنما هو عبادة لله تعالى؛ لأن الله هو الذي أمرهم بذلك.

٦- فضل الملائكة ومبادرتهم بالسجود لآدم طاعة لله تعالى.

٧- إخبار الله عز وجل لآدم بعداوة إبليس له ولزوجته، وتحذيرهما من أن يسعى

(١) سبق تخريجه.

ويتسبب في إخراجها من الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ ﴿١١٧﴾.

٨- أن عداوة إبليس لبني آدم قديمة قدم عداوته لأبيهم قبل ذلك.

٩- أن آدم وزوجه عليهما السلام كانا في الجنة يتمتعان بما فيها من النعيم والعيش الهنيء الرغيد، قبل أن يتسبب إبليس في إخراجها منها إلى دار العناء والشقاء.

١٠- الإشارة إلى أن المطالب بالسعي وطلب الرزق هو الرجل، يسعى على نفسه وعلى أهله؛ لقوله: ﴿فَتَشْقَى﴾، أي: فتشقى في طلب الرزق.

١١- تكفله عز وجل لآدم بالجنة بانتفاء جميع الآفات عنه ظاهراً وباطناً؛ فلا يناله جوع ولا عري ولا ظمأ ولا حر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾.

١٢- أن الجنة التي أسكنها آدم وزوجه هي جنة الخلد؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾، وهذا لا يكون في الدنيا.

١٣- وسوسة الشيطان وتزيينه وتسويله لآدم الأكل من الشجرة، وتغيره له ولزوجه بأنها شجرة الخلد والملك الدائم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾.

١٤- انخداع آدم وزوجه بتسويل الشيطان، ووسوسته لهما، وأكلهما من الشجرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا﴾.

١٥- انكشاف عوراتهما، وظهورها لهما بسبب أكلهما من الشجرة، وأخذهما بالإلصاق عليهما من ورق الجنة؛ لسترهما؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَدَّتْ لهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾.

١٦- معصية آدم لربه ومخالفته لنهيهِ، وغوايته؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾.

١٧- اجتباء الله تعالى لآدم، واصطفاه له، وتوفيقه للتوبة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ
أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لآدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُ﴾.

١٩- قبول الله تعالى توبة آدم وهدايته له، فصار بعد التوبة أفضل منه قبل المعصية،
فضلاً من الله تعالى وكرماً؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَهِيطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿٣٦﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿٣٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿٣٩﴾ وَكَذَلِكَ نُجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِرْ بِعَايَتِكُمْ رَبِّهِمْ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿٤٠﴾ .

قوله: ﴿قَالَ أَهِيطَا مِنْهَا﴾، أي: من الجنة ﴿جَمِيعًا﴾، يعني: آدم وحواء وإبليس؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا أَهِيطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْنَا أَهِيطُوا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٣٨].

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، يعني: آدم وذريته وإبليس وذريته.

﴿فِيمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى﴾، الفاء عاطفة، و«إن» حرف شرط جازم، و«ما»

زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، الفاء رابطة لجواب الشرط، وهذه الآية

كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾، ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾

[البقرة: ٣٨]، وكما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ

فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «تضمن الله لمن قرأ القرآن واتبع ما فيه ألا يضل

في الدنيا ولا يشقى في الآخرة. ثم تلا: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾» (١).

قال ابن القيم: «فنفى الضلال عنه الذي هو عذاب القلب والروح، والشقاء الذي

هو عذاب البدن والروح أيضًا، فهو منعم القلب والبدن بالهدى والفلاح» (٢).

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾، الواو عاطفة، و«من» شرطية، أي: ومن أعرض عن

ذكرى الذي أنزلته وهو القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾

[الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾﴾ [آل

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦ / ١٩١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٣ / ١٨٠.

عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [القلم: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت: ٤١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُذُرُ مِنَ اتِّبَاعِ الذِّكْرِ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾﴾ [يس: ١١].

والمعنى: ومن أعرض عن القرآن الكريم، أي: تركه، فلم يتدبره بقلبه، ولم يعمل به بجوارحه، بل نسيه، وخالف أمر الله واتبع هواه؛ ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا كَإِذَا هِيَ دُخَانٌ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾، أي: عيشة ضيقة شديدة في الدنيا، فلا سعادة، ولا طمأنينة، ولا انشراح صدر، وهو وإن تنعم ظاهراً، ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن ما شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى في قلق وحيرة وشك وضيق وحرَج. وله عيشة ضنك ضيقة بعذاب القبر في البرزخ، وهذا أشد من ضنك الدنيا، حتى إنه ليضيق قبره حتى تختلف أضلعه كما جاء في الحديث (١).

قال ابن القيم: «والصحيح أنها في الدنيا وفي البرزخ، فإن من أعرض عن ذكره الذي أنزله، فله من ضيق الصدر، ونكد العيش، وكثرة الخوف، وشدة الحرص والتعب على الدنيا، والتحسر على فواتها قبل حصولها وبعد حصولها، والآلام التي في خلال ذلك ما لا يشعر به القلب لسكرته، فقلوب أهل البدع والمعرضين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهل المعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر».

وقال أيضاً: «فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله على رسوله في دنياه وفي البرزخ ويوم معاده، ولا تفر العين ولا يهدأ القلب ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذي هو حق، وكل معبود سواه باطل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تفر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات، والله إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً» (٢).

﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، «الحشر»: الضم والجمع، ويراد به تارة: الحشر إلى

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٥٣ - من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٧٢، ١٧٤.

موقف القيامة؛ كما قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوير: ٥]، وقال ﷺ: «إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً» (١).

ويطلق ويراد به: الحشر إلى دار المستقر، فحشر المتقين إلى الجنة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]. وحشر الكافرين إلى النار؛ كما قال تعالى: ﴿* أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَاهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [٢٣] من دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ [الصافات: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ [٨١] [مريم: ٨٦].

فالحشر الأول من القبور إلى الموقف، والحشر الثاني من الموقف إلى النار، وهم عند الحشر الأول يسمعون ويصرون ويتكلمون ويجادلون، وعند الحشر الثاني لا يسمعون ولا يبصرون ولا يتكلمون؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧] (٢).

ولهذا قال هنا: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، أي: أعمى البصر؛ لقوله بعده: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [١٥]، أي: وقد كنت في الدنيا مبصرًا أرى الأشياء وأشاهدها.

ودلالة هذا على أن المراد بالعمى: عمى البصر واضحة جدًا، بل إن السياق لا يدل إلا عليه، بخلاف ما قيل: إن المراد بذلك: عمى البصيرة؛ لأنه لم يكن بصيرًا في كفره، بل إنه قد تبين له أنه كان في الدنيا في عمى عن الحق، فكيف يقول: ﴿وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾؟ وكيف يجاب بقوله: ﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى﴾ [١٦]، بل هذا الجواب فيه تنبيه على أنه من عمى البصر، وأنه جوزي من جنس عمله، فجازاه الله على إعراضه عن الذكر وعمى بصيرته عنه في الدنيا، بأن أعمى بصره يوم القيامة، وجازاه على تركه الذكر في الدنيا بتركه في العذاب يوم القيامة جزاءً وفاقًا.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، الحشر ٦٥٢٦، ومسلم في الجنة، فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٢٨٦٠، والنسائي في الجائز ٢٠٨١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٣، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٧٩-١٨٠.

وقد استدل من قال: المراد بالعمى: عمى البصيرة لا عمى البصر؛ بالآيات التي أثبتت لهم الرؤية في الآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾﴾ [التكاثر: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِّنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ [الشورى: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَيْسَ حَرٌّ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تَبْصُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الطور: ١٣-١٥]، وقال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾﴾ [الكهف: ٥٣].

وقد استظهر ابن القيم بعدما ذكر القولين وأدلتها: أن الصواب هو القول بأنه أعمى البصر، قال: «فإن الكافر يعلم الحق يوم القيامة عياناً، ويقر بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ»^(١).

﴿قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا﴾، أي: فأعرضت عنها وتركتها وأغفلتها.
﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى﴾، أي: ترك ويتخلى عنك وتسلم للنار والعذاب، ونعاملك معاملة من نسيك؛ لأن الجزء من جنس العمل؛ كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]، وقال تعالى: ﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].
فجمع الله لمن أعرض عن القرآن وخالف أمر الله واتبع هواه بين المعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، وحشره يوم القيامة أعمى البصر، وتركه ونسيانه في العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٦١﴾﴾ [غافر: ٤٦].

قال ابن كثير^(٢): «فأما نسيان لفظ القرآن مع فهم معناه والقيام بمقتضاه؛ فليس داخلاً في هذا الوعيد الخاص، وإن كان متوعداً عليه من جهة أخرى؛ فإنه قد وردت

السنة بالنهي الأكيد، والوعيد الشديد في ذلك».

عن عبادة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل قرأ القرآن فنسيه إلا لقي الله يوم القيامة وهو أجزم»^(١).

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ﴾، بتعدي الحدود، وارتكاب المحارم.

﴿وَلَمْ يُؤْمِنْ بِبَيِّنَاتِ رَبِّهِ﴾، أي: ولم يصدق بآيات ربه، خالقه ومالكة ومدبر أمره،

بل كفر وكذب بها وأعرض عنها.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾، الواو استثنائية، واللام للتوكيد، أي: ولعذاب

الآخرة بالنار، وما فيها من صنوف العذاب، أشد ألمًا وأعظم من عذاب الدنيا أضعافًا

مضاعفة؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ

لِلْعَذَابِ وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

ولهذا قال ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»^(٢).

﴿وَأَبْقَى﴾، أي: وأدوم؛ لأنه لا ينقطع أبدًا؛ كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ

مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧].

بخلاف عذاب الدنيا؛ فإنه مهمل طال ينقطع.

الفوائد والأحكام:

١- إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾.

٢- الترغيب والإغراء باتباع هدى الله؛ لضمانه عز وجل لمن اتبع هداه بحفظه من

الضلال، وإسعاده في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ

اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾.

٣- التحذير من الإعراض عن ذكر الله تعالى «القرآن الكريم» وتركه ونسيانه،

والوعيد لمن فعل ذلك بالمعيشة الضنك في الدنيا وفي البرزخ، وحشره يوم القيامة

(١) أخرجه أحمد ٥ / ٢٨٥، ٣٢٣، وأبو داود في الصلاة ١٤٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في اللعان ١٤٩٣، وأبو داود في الطلاق، باب في اللعان ١٢٠٢، والنسائي في الطلاق

٣٤٧٣، والترمذي في تفسير سورة النور ٣٢٢٨، وأحمد ١ / ٣٠٩، ٣١٠، من حديث ابن عباس رضي

الله عنها.

أعمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ ﴿١٢٤﴾.

٤- أن الهدى الحق هدى الله تعالى وحده؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَى اللَّهُ هُدَىٰ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧٣].

٥- أن سعادة الدنيا والآخرة باتباع هدى الله، لا طريق لها سوى ذلك.

٦- استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ على ثبوت عذاب القبر.

٧- إثبات الحشر والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال.

٨- أن الجزاء من جنس العمل، وكما يدين المرء يدان، وأن من عميت بصيرته عن الحق في الدنيا أعمى الله بصره يوم القيامة، وأن من أتته آيات الله فنسيها وتركها، تركه الله في العذاب يوم القيامة ونسيه؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسَيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾.

٩- التحذير من الإسراف بتعدي الحدود، وارتكاب المحارم، والكفر بآيات الله والإعراض عنها، والوعيد بالمجازاة على ذلك بمثل الجزاء السابق.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا رَبِّيَّ﴾.

١١- أن عذاب الآخرة أشد ألمًا من عذاب الدنيا، وأبقى زمنًا؛ لأنه لا ينقطع أبدًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٣٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٣٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٤٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرَرَقَ رَبُّكَ خَيْرٌ وَأَقْبَرُ ﴿١٤١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلَك رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٤٢﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٣٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٣٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٤٠﴾.

في هذه الآيات تحذير وتهديد للمكذبين، وتسليية له ﷺ، وثبتت لقلبه.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾، الاستفهام للإنكار، أي: أفلم يهد لهؤلاء المكذبين ما جنتهم به يا محمد.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾، «كم» للتكثير، أي: أفلم يهد لهم كثرة الذين أهلكننا قبلهم ﴿مِنَ الْقُرُونِ﴾، أي: من الأمم لما كذبوا الرسل فبادوا عن آخرهم، ولم تبق منهم باقية. ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ﴾، أي: يمشون ويسرون في ديارهم الخالية، ومساجدهم وبيوتهم الخاوية التي خلفوهم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ مَسَاجِدُهُمْ لَمَّ تَشْكَنَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص: ٥٨]. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾، الإشارة تعود إلى إهلاك كثير من الأمم الماضية المكذبة للرسل ﴿لَآيَاتٍ﴾، اللام للتوكيد، أي: لعلاجات ودلالات على صحة ما جاءت به الرسل.

﴿لِأُولِي النُّهَى﴾، أي: لأصحاب العقول السليمة، والألباب المستقيمة؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات، وتهديهم عقولهم إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، دون من سواهم ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ

أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ ﴿٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٦١﴾﴾ [الحج:
٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي
مَسَاجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأَنبِيَآءٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [السجدة: ٢٦].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾، الواو استثنائية، و«لولا» حرف امتناع لوجود فيه
معنى الشرط، أي: ولولا كلمة سبقت من ربك يا محمد، وهي أنه لا يعذب أحدًا إلا
بعد قيام الحجة عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:
١٥]، وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ
الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿لَكَانَ لِرِزَامًا﴾، اللام رابطة لجواب «لولا»، أي: لكان العذاب والهلاك عاجلاً
لازماً.

﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾، «أجل» معطوف على ﴿كَلِمَةٌ﴾، أي: ولولا أجل مسمى، أي:
وقت معين محدد لهلاك هؤلاء المكذبين، لا يستقدمون عنه ساعة ولا يستأخرون.
والمعنى: ولولا كلمة سبقت من ربك أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه،
ولولا أجل مسمى ووقت معين معلوم محدد ضربه الله لإهلاكهم؛ لكان الهلاك
والعذاب لهم عاجلاً لازماً.

﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فاصبر على قولهم، أو
على الذي يقولونه، من تكذيبهم لك، ورميهم لك بالسحر والجنون والكهانة والشعر
ونحو ذلك.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: وسبح ربك متلبساً بحمده، أي: قارئاً بين تسيحه وتحميده.
﴿وَقَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾، يعني: صلاة الفجر.
﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾، يعني: صلاة العصر.

عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه، قال: كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى

القمر ليلة البدر، فقال: «إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته. قال: فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا، ثم قرأ هذه الآية» (١).

وعن عمارة بن رؤية رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يلج النار أحد صلى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها: الفجر والعصر» (٢).

﴿وَمِنَ آيَاتِنَا اللَّيْلُ فَسَبِّحْ﴾، أي: ومن ساعات الليل وأوقاته فسبح وصل وتهجد؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

وحمله بعضهم على صلاة المغرب والعشاء.

﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾، في مقابلة ﴿آيَاتِنَا اللَّيْلِ﴾، أي: وسبح وصل أطراف النهار. ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾، قرأ الكسائي وأبو بكر بضم التاء: «تَرْضَىٰ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿تَرْضَىٰ﴾، أي: لأجل أن ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، والجزاء الأوفى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ [الضحى: ٥].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى، وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك؟ فيقول: أنا أعطيتكم أفضل من ذلك. قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً» (٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ

(١) أخرجه البخاري في المواقيت، فضل صلاة العصر ٥٥٤، ومسلم في المساجد، فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليها ٦٣٣، وأبو داود في السنة ٤٧٢٩، والترمذي في صفة الجنة، وابن ماجه في المقدمة ١٧٧.

(٢) أخرجه مسلم ٦٣٤، وأبو داود في الصلاة ٤٢٧، والنسائي في الصلاة ٤١٧، وأحمد ٤ / ١٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق، صفة الجنة والنار ٦٥٤٩، ومسلم في الجنة، إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبداً ٢٨٢٩، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٥.

فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٣٦﴾ وَأَمْرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا لَا نَسْتَلِكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿٣٧﴾ .

قوله: ﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾:

بعد أن أمره بالصبر على ما يقوله المكذبون من قومه، والاستعانة بالتسبيح والتحميد والصلاة فرضاً ونفلاً، تسلياً له وتثبيتاً لقلبه، نهاء عن الالتفات إلى ما هم فيه من زهرة الحياة الدنيا معجباً بذلك فهو فتنة لهم، وما عند الله من الرزق خير وأبقى.

قوله: ﴿وَلَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ﴾، أي: لا تنظر ولا تلتفت معجباً.

﴿إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا﴾، أي: إلى الذي متعنا به أصنافاً من المشركين المعرضين عن ذكر الله، من الأموال والأولاد والمآكل والمشارب والمسكن والمراكب ونحو ذلك. أي: لا تنظر إلى ذلك نظرة إعجاب واستحسان؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [التوبة: ٥٥]، ولهذا قال:

﴿زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، قرأ يعقوب بضم الهاء: «زَهْرَةَ»، وقرأ الباقون بإسكانها: «زَهْرَةَ»، أي: زهرة الحياة الدنيا وزيتها الحقيمة الزائلة.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾، اللام للتعليل، أي: لأجل أن نبتليهم ونختبرهم في الذي متعناهم به، ونمتحنهم، ونستدرجهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرًّا ﴿٨﴾﴾ [الكهف: ٧-٨].

﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، أي: وعطاء ربك خير خيرية مطلقة من جميع الوجوه. ﴿وَأَبْقَى﴾، أي: وأدوم، أي: خير مما متع به هؤلاء وأبقى، وخير وأبقى من الدنيا كلها وما فيها؛ ولهذا قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْكُمَاتِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٧٧﴾ لَا تَمَدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧-٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴿٥١﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ

يَتِيمًا فَتَاوَى ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى ﴿٨﴾ [الضحى: ٤-٨].

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ أنه دخل على رسول الله ﷺ في تلك المشربة التي كان قد اعتزل فيها نساءه، وهو مضطجع على حصير، قال: فجلست، فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظاً في ناحية الغرفة، وإذا أفيق معلق، قال: فابتدرت عيناى. قال: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» قلت: يا نبي الله، وما لي لا أبكي، وهذا الحصير قد أثر في جنبك، وهذه خزانتك، لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانتك؟! فقال: «يا ابن الخطاب: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟».

وفي رواية: «فقال: أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»^(١).

فما أعطاه الله تعالى لنبيه ﷺ ولعباده الصالحين من الرزق والعطاء الديني والديني، وما أعد لهم من ذلك، ومن العطاء الأخروي خير وأبقى؛ لأنه لا ينقطع؛ كما قال تعالى: ﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿بَلْ نُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦-١٧].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ﴾، أي: بإقام الصلاة فرضها ونفلها؛ لأنها قوام الدين، وعمود الإسلام، وسبب العون والتوفيق والحفظ من الشرور، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وخص الأهل هنا؛ لأن المسؤولية عنهم أعظم، وهم أولى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ﴿٣١﴾ [الشعراء: ٢١٤]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُرْءَانَ أَنفُسِكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحریم: ٦].

(١) أخرجه البخاري في المظالم- الغرفة العلية المشرفة ٢٤٦٨، وفي تفسير سورة التحريم، ومسلم في الطلاق- الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن ١٤٧٩، والترمذي في تفسير القرآن ٣٣١٨.

وفي الحديث: «رحم الله امرأ قام من الليل فصلى فأيقظ أهله»^(١) الحديث.
وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا قام من الليل أقام أهله، وقال: ﴿وَأَمْرٌ أَهْلَكَ
بِالصَّلَاةِ وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا﴾^(٢).

﴿وَأَصْطَبِرَ عَلَيْهَا﴾، الاضطبار: شدة الصبر، أي: واصطبر أنت على الصلاة بإقامتها
بأركانها وواجباتها وخشوعها ونحو ذلك؛ لأن ذلك شاق على النفس؛ كما قال تعالى:
﴿وَلِيْنَهَا لِكَبِيرَةٍ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥].

﴿لَا سَأَلَكَ رِزْقًا تَحْنُ نَزْرُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾، أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يأمر
أهله بالصلاة، وأن يصطبر عليهما، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿لَا سَأَلَكَ رِزْقًا تَحْنُ نَزْرُقُكَ﴾،
في إشارة واضحة ودلالة بيّنة على أن الصلاة من أعظم أسباب الرزق، وأوسع أبوابه.
قوله: ﴿لَا سَأَلَكَ رِزْقًا تَحْنُ نَزْرُقُكَ﴾، أي: أمرناك بأمر أهلك بالصلاة والصبر
عليها ﴿لَا سَأَلَكَ رِزْقًا﴾، بل لنرزقك؛ لأن الصلاة سبب الرزق؛ ولهذا قال: ﴿تَحْنُ
نَزْرُقُكَ﴾، أي: عليك إقام الصلاة وحفظها وعلينا رزقك، فإذا أقيمت الصلاة أتاك
الرزق من حيث لا تحتسب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ
مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٦١) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ
أَنْ يُطْعَمُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(٦٢) [الذاريات: ٥٦-٥٨].

فالصلاة عمود الإسلام وقاعدته ورحاه التي يدور عليها، وهي أعظم الأسباب
وأوسع الأبواب للعون والتوفيق لمصالح الدين والدنيا والآخرة؛ ولهذا كان الأنبياء
عليهم السلام إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، فمن صدق الله ودخل عليه من باب
الصلاة فليبشر بالخير.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾، أي: والعاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة للتقوى وأهلها، ففي

(١) أخرجه أبو داود في قيام الليل (١٣٠٨)، والنسائي في قيام الليل (١٦١٠)، وابن ماجه في إقامة الصلاة
(١٣٣٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦ / ٢١٧، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥ / ٣٢١.

الدنيا لهم التوفيق والسعادة بالإيمان، وفي الآخرة لهم الجنة دار السلام.
عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت ذات ليلة فيما يرى النائم كأننا في دار عقبة بن نافع، فأتينا برطب من رطب ابن طاب، فأولت الرفعة لنا في الدنيا والعاقبة في الآخرة، وأن ديننا قد طاب»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: يا بن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، وإلا تفعل ملأت يديك شغلاً، ولم أسد فقرك»^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: سمعت نبيكم ﷺ يقول: «من جعل الهموم همًا واحدًا هم المعاد، كفاه هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبال الله في أي وادٍ هلك»^(٣).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من كانت الدنيا همه فرق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة»^(٤).

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين عدم الاتعاض بإهلاك كثير من الأمم المكذبة قبلهم ممن يرون آثارهم، ويسمعون أخبارهم، والوعيد والتهديد لهم أن يحل بهم ما حل بأولئك القرون قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾.

٢- ينبغي أخذ العظة والعبرة مما حل بمن خالفوا أمر الله، والسعيد من وعظ بغيره.

٣- أن فيما أحله الله بالمكذبين من الأمم الماضية من العقوبات والهلاك؛ علامات

(١) أخرجه مسلم في الرؤيا، رؤيا النبي ﷺ ٢٢٧٠.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦، وابن ماجه في الزهد- الهم بالدنيا ٤١٠٧- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤١٠٦.

(٤) أخرجه ابن ماجه ٤٦٠٥.

ودلالاتٍ على صحة ما جاءت به الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّعَالِمِينَ﴾.

٤- أنه لا ينتفع بالآيات ويستفيد منها إلا أصحاب العقول السليمة، الذين تهديهم عقولهم إلى التأمل بالآيات والانتفاع بها؛ لقوله تعالى: ﴿لَأُولِي النُّهَى﴾.

٥- استحقاق المشركين المكذبين للنبي ﷺ معاجلتهم بالهلاك، وأنه لولا كلمة سبقت منه عز وجل أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، والإنذار والإعذار منه، وأنه عز وجل جعل لإهلاكهم أجلاً مسمى ووقتاً معلوماً محدداً، ولولا هذا وذاك لكان العذاب عاجلاً لازماً لهم. وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد وتحذير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامِ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٥٣﴾﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَسْتَ عَجَلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

٦- كمال عدل الله عز وجل، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب؛ كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

٧- إثبات القدر، وأن الله قدر الأقدار والآجال، فكل شيء خلقه بقدر، وكل شيء عنده بمقدار وأجل مسمى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾.

٨- أمره عز وجل للنبي ﷺ بالصبر على ما يقوله المشركون من التكذيب له ﷺ وغير ذلك؛ تثبيتاً لقلبه، وتسلية له؛ لأن الصبر أعظم أسباب النصر والعون من الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣].

٩- إرشاده إلى الاشتغال بما يعينه على ذلك ويسليه، وهو التسبيح بحمد ربه، والصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن ساعات الليل وأطراف النهار؛ ليرضى ويطمئن قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطابه عز وجل له، وإضافة اسم الرب إلى ضميره ﷺ.

١١- فضل الصبر والترغيب فيه؛ لأنه أكبر عون للعبد على تحقيق أمور دينه

ودنياه.

١٢- أن وقت صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، ووقت صلاة العصر قبل غروبها؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

١٣- فضل التسبيح بحمد الله، والصلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، ومن أناء الليل وأطراف النهار، وأن ذلك سبب لحصول الرضا؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ أَانَائِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾.

١٤- نهي الله عز وجل له ﷺ أن ينظر نظرة إعجاب، إلى ما مُتّع به المشركون المعرضون عن ذكر الله من متاع الحياة الدنيا وزهرتها وزينتها الفانية؛ لأن ذلك ما هو إلا فتنة لهم واستدراج؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ﴾، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَزَهَقَ أَنفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

١٥- ينبغي عدم الاغترار بمتاع الدنيا الزائل؛ لأن ذلك قد يكون فتنة وابتلاءً واستدراجًا.

١٦- ليس في نهيه عز وجل له ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ ما يدل على حصول ذلك منه، وحاشاه صلى الله عليه وسلم من ذلك، وهو الذي عرضت عليه الدنيا فرفضها، وقال ﷺ: «ما لي وما للدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استنزل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(١).

١٧- أن رزق الله تعالى وعطاءه لنبيه ﷺ خير مطلقاً، وأدوم وأبقى، وقد أعطاه الله من خيري الدنيا والآخرة ما لم يعطه لأحد سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَا رَبِّكَ خَيْرًا وَأَفْقَى﴾.

١٨- إرشاده ﷺ لأمر أهله بالصلاة، والاصطبار عليها؛ لعظم مكانتها في الإسلام، وما رتب على حفظها وإقامتها من صلاح أمور الدين والدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

١٩- الأقربون أولى بالمعروف؛ بالأمر والنهي، والتوجيه والدعوة إلى الخير، وغير ذلك.

٢٠- تمام غنى الله تعالى عن خلقه، وحاجة الخلائق كلهم إلى رزقه وتكفله عز وجل بأرزاقهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾.

٢١- أن الصلاة من أعظم أسباب الرزق، وأوسع أبوابه؛ لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يأمر أهله بها ويصطر عليها، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ في دلالة واضحة وإشارة بينة إلى هذا المعنى.

وكم من إنسان انغلقت أبواب الرزق دونه، وتعسرت عليه أسبابه بسبب التفريط في الصلاة أو التهاون فيها، وعدم حفظها وإقامتها كما شرع الله، والمصيبة أنه لا يدري ما سر تعاسته، وما سبب تعسر أموره وسوء أحواله.

وكم من أناس يسر الله رزقهم، وشرح صدورهم بسبب العناية والاهتمام بالصلاة، وحفظ حدودها.

٢٢- أن العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للتقوى وعباد الله المتقين، فلهم في الدنيا التوفيق والسعادة بالإيمان، ولهم في الآخرة سكنى الجنان؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿٣٧﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَضٍ فَرِيضًا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾، أي: وقال المشركون المكذبون للنبي ﷺ: ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا﴾، أي: هلا يأتينا محمد ﴿بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِمْ﴾، تدل على صدقه في أنه رسول الله، يريدون: من الآيات التي يقترحونها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٣٦﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٣٧﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا مِثْقَالَ حَبِّ خَيْبٍ أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَكِ قَيْلًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٩٠-٩٢].

﴿أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾، قرأ نافع وأبو عمرو ويعقوب وابن جاز وحفص بالتاء: ﴿أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ﴾، وقرأ الباقون بالياء: «أو لم يأتهم».

الاستفهام للإنكار، وفيه معنى التقرير، أي: أو لم تأتهم بينة الذي في الصحف الأولى: التوراة والإنجيل والكتب السابقة، وهو مصداق ما أخبرت به؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

والمعنى: أنه قد جاءهم القرآن العظيم الذي فيه بيان ما في الصحف الأولى، وأنباء الأمم الذين أهلكتناهم لما سألوا الآيات وكفروا بها، وهو الآية الكبرى، والمعجزة الخالدة العظمى، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْأَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهُمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «ما من نبي من الأنبياء قبلي إلا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، وإني لأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»^(١).

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٢٧٤، ومسلم في الإيمان ١٥٢.

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ﴾، أي: ولو أنا أهلكنا هؤلاء المكذبين بعذاب من قبل أن نرسل إليهم هذا الرسول الكريم، ونزل إليهم هذا القرآن العظيم.

﴿لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، اللام: رابطة لجواب «لو»، أي: لكانوا قالوا: هلا أرسلت إلينا رسولاً قبل أن تهلكنا؟

﴿فَتَتَّبِعْ آيَاتِكَ﴾، أي: فنؤمن ونتبع آياتك، ونعمل بها.

﴿مِن قَبْلِ أَنْ نُنزِّلَ﴾، أي: من قبل أن نذل ونهان بالعذاب، ﴿وَنُخَوِّضَ﴾، أي: نفتضح بحشرنا مع المكذبين والمجرمين.

وهم في هذا كذبة مبطلون؛ كما قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِّن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأنعام: ١٥٦-١٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِيحَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾ [فاطر: ٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنَقَلَبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩-١١٠].

﴿قُلْ﴾، يا محمد لهؤلاء المكذبين، ولكل من كذبك وخالفك: ﴿كُلُّ مُتْرِصٍّ﴾، أي: كل منا ومنكم ﴿مُتْرِصٍّ﴾، أي: منتظر، ﴿فَتَرْتَضَوْا﴾، أي: فانتظروا.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾، أي: من أصحاب الطريق المستقيم أنا أو أتم؟ و«من» استفهامية في الموضعين والسين في: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ﴾ للاستقبال والتحقيق.

﴿وَمَنِ أَهْتَدَى﴾، أي: ومن اهتدى إلى الحق وسلك سبيل الرشد، أي: أنا أو أتم؟ أي: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ أَهْتَدَى﴾، ممن ضل وصار من أصحاب الطريق العوج والضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يَعْمُونَ حِينَ يَرَوْنَ

الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿ [الفرقان: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشْرُّ ﴿٥١﴾﴾ [القمر: ٢٦].

الفوائد والأحكام:

- ١- مطالبة المشركين أن يأتيهم الرسول بآية من ربه مما يقترحونه من الآيات؛ مكابرة وعنادًا، وإمعانًا منهم في تكذيب القرآن، أعظم الآيات، وأكبر المعجزات؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّنَا﴾.
- ٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّنَا﴾، وفي تعبير المشركين بهذا دون أن يقولوا: «من ربنا» دلالة على جفائهم.
- ٣- الإنكار على المشركين في نفيهم وزعمهم أنه لم يأتيهم بآية من ربه، وإثبات وتقدير أنه جاءهم بأعظم الآيات: القرآن الكريم، الذي فيه بيان ما في الصحف الأولى والكتب السابقة وتصديقها، وأنباء الأمم الذين هلكوا لما اقترحوا الآيات وكفروا بها، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾.
- ٤- في بيان القرآن الكريم ما في الصحف الأولى والكتب السماوية السابقة، وتصديقه لها، وكونه مصداق ما أخبرت به؛ دلالة واضحة تامة على صدق الرسول ﷺ، وعلى أن القرآن من عند الله عز وجل.
- ٥- أن الله لو أهلك المشركين المكذبين بعذاب قبل إرسال الرسول ﷺ إليهم، وإنزال القرآن العظيم عليهم؛ لكانوا احتجوا قائلين: هلا أرسلت إلينا رسولاً قبل ذلك؟ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَّذَلَ وَنُخَذَى ﴿١٧١﴾﴾.
- ٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.
- ٧- أن الله أراد بإرسال الرسول وإنزال القرآن إقامة الحججة، والإنذار والإعذار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ﴾ الآية.
- ٨- تمام عدله عز وجل؛ لأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحججة عليه، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب.

٩- الإشارة إلى استحقاق المكذبين للهلاك بعد مجيء الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، بسبب تكذيبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ الآية.

أي: فإهلاكهم إنما كان بعد إتيان الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم، وتكذيبهم، فليس لهم حجة أن يقولوا: أهلكنا قبل ذلك. وفي هذا تكذيب لقولهم: ﴿فَتَتَّبِعْ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾.

١٠- أن العذاب إذلال وإهانة للمكذبين، وخزي وفضيحة لهم؛ لقولهم: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾.

١١- تربص جميع الخلق وانتظارهم موافاة الحساب، ومجازاتهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ مُرْتَبِّصٍ﴾.

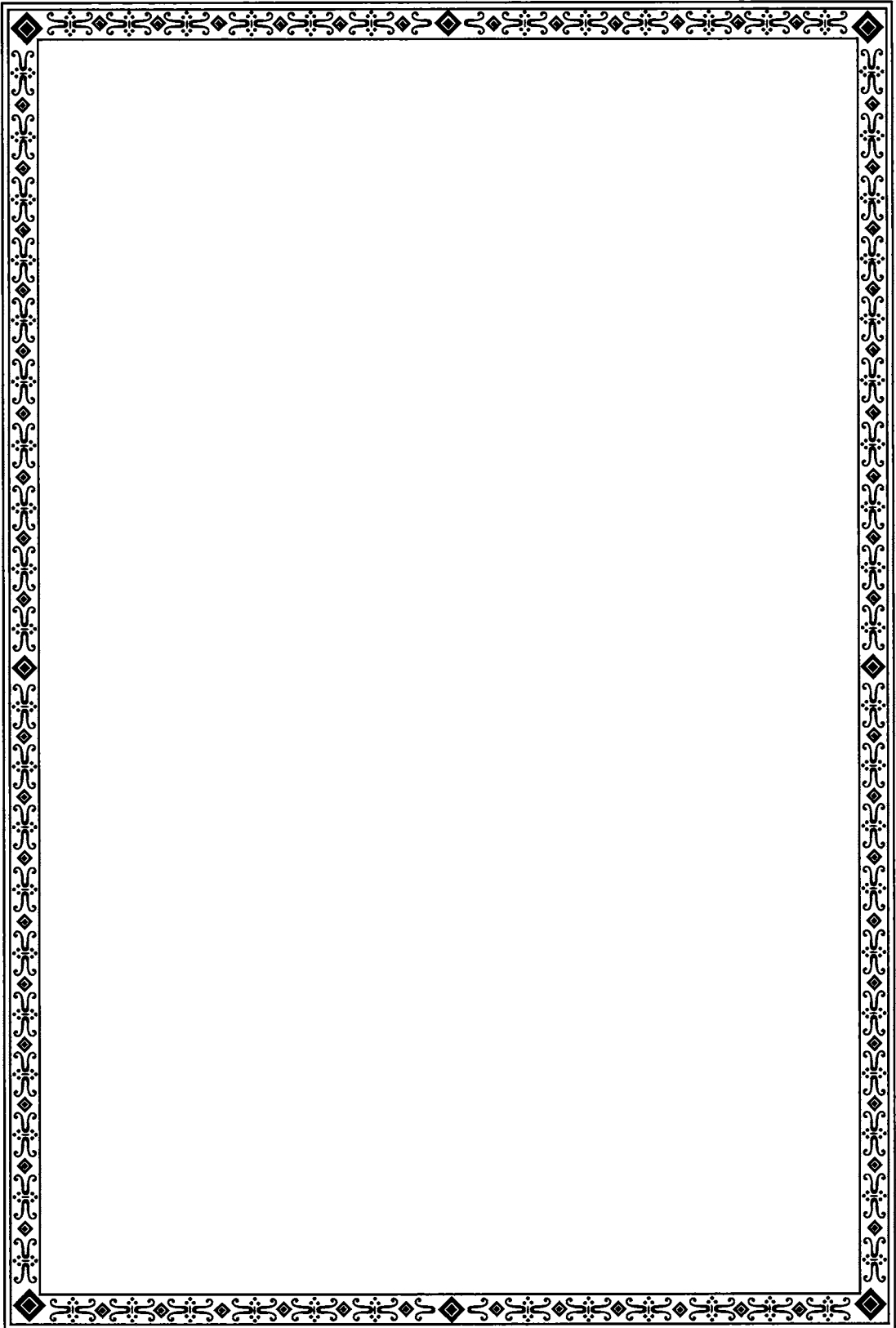
١٢- تهديد المكذبين له ﷺ ولما جاء به من الآيات البينات، وأمرهم بالتربص والانتظار؛ لقوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا فَمَا تَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾ أي: من هم خلاف ذلك، وهم أهل طريق العوج والضلال.

١٣- تنازله مع المكذبين له ﷺ بالخطاب؛ لقوله: ﴿فَمَا تَعْلَمُونَ مَن أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى﴾، أي: أنا أو أنتم؟ مع يقينه أنه هو وأتباعه أصحاب الصراط السوي والهدى.

١٤- تحقير طريق العوج والضلال؛ ولهذا أثر عدم ذكره.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الأنبياء»؛ لأن الله تعالى ذكر فيها ستة عشر نبياً، وشيئاً من قصص بعضهم وأخبارهم، ولم يأت في سورة من سور القرآن ذكر هذا العدد عدا سورة الأنعام، فقد ذكر فيها سرداً أسماء ثمانية عشر نبياً في قوله: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتْنَا أَتَيْنَهَا بِرُؤُوسِنَا عَلَىٰ قَوْمِهِمْ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣) إلى قوله تعالى: ﴿وَاسْمِعِلْ وَالْإِنْسَانَ وَبُؤْسَهُ لَوْ طَآءَ وَكَلَّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ (٨٦-٨٣). [الأنعام: ٨٣-٨٦].

فذكرت أسماءهم في هذه الآيات سرداً فقط، أما في سورة الأنبياء فجاء ذكرهم مع شيء من التفصيل في قصص بعضهم وأخبارهم، فكان تناولها للأنبياء أظهر وأشهر؛ لهذا- والله أعلم- خصت بهذا الاسم: «سورة الأنبياء»، كما سميت «سورة الأنعام» بهذا الاسم؛ لما اختصت به من ذكر أحكام الأنعام.

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: «هن من العتاق الأول، وهن من تلادي»^(١).

د- موضوعاتها:

- ١- افتتحت هذه السورة بما يهز القلوب ويحملها على الاستعداد ليوم القيامة: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ١ ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ فَتُحَذِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ٢ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٢- ذكر بعض الشبهات التي أثارها المشركون حول الرسول ﷺ، وحول القرآن والرد عليهم؛ قال تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ ٥.
- ٣- ذكر صدق وعده عزوجل رسله بإنجائهم وأهلاك المسرفين، والامتنان على

(١) سبق تخريجه.

العباد بإنزال القرآن العظيم الذي فيه ذكرهم، وتهديد المشركين والمكذبين بما حل بالظالمين قبلهم من العقوبات، وبيان سوء حالهم عند حلول العذاب بهم ودعائهم بالويل وندمهم على ظلمهم حين لا ينفعهم الندم؛ قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿١٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَلْمِيذِينَ ﴿١٥﴾﴾.

٤- ذكر الحكمة من خلق السماء والأرض، وأنه عزوجل ما خلقها لعباً ولا لهوًا، وإنما خلقها لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، وتوعد من ظن أن الله خلقها لعباً ولهوًا، وبيان سعة ملكه وعبادة الملائكة له؛ قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَلْعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿١٧﴾﴾.

٥- الإنكار على المشركين في اتخاذهم من دونه آلهة من الأرض لا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وبيان أنه لو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا، وتنزيهه عزوجل نفسه عن شركهم، وإثبات تفرده بالتدبير دونهم، وأنه لا برهان لهم على ما اتخذوه من دونه من الآلهة، وقد دل ما معه ﷺ من القرآن والذكر، وما أنزل على من قبله من الرسل على بطلان الشرك، وأجمعت الرسل على الدعوة إلى وحدانية الله؛ قال تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلَآِهَةٍ مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٠﴾﴾.

٦- الإنكار عليهم في نسبتهم الولد لله، واعتبارهم الملائكة بنات الله، وتنزيه نفسه عن ذلك، وثناؤه على الملائكة لعبادتهم وطاعتهم له وامتنانهم قوله وعملهم بأمره، وذكر إحاطة علمه بهم، وعدم شفاعتهم إلا برضاه، وإشفاقهم من خشيته، والوعيد لمن يدعي منهم الألوهية من دون الله بجهنم بسبب ظلمه وحاشاهم من ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾.

٧- الإنكار على المشركين في عدم النظر والتأمل في آيات الله الكونية، وأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما الله، وجعل من الماء كل شيء حي مما يوجب الإيثار به، وجعل في الأرض رواصي أن تميد بهم، وفجاجا وسبلاً لعلهم يهتدون،

وجعل السماء سقفا محفوظاً، وهم عن آياتها معرضون، وخلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون؛ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَأَنَّ رَتْقًا فَتَفْتَقَهُمَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾.

٨- حكمه عزوجل على جميع البشر بالفناء والموت، فلا هو ﷺ مخلد، ولا أعداؤه مخلدون، ولا غيرهم من البشر، وابتلاء العباد بالخير والشر فتنه، ومردهم إلى اليه عز وجل؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّ مِن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّن مَّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ كلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ.

٩- استهزاء المشركين به واحتقارهم له؛ انتصاراً لأهتهم، وكفرهم بالقرآن وتقرير أن من طبيعة الإنسان العجلة، وأنه عزوجل سيرهم آياته، وتحذيرهم من الاستعجال، وسؤالهم ما وعدوا به من العذاب؛ استعجالاً منهم، وتكديباً للرسول، وبيان سوء حالهم حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون، وإتيان الساعة لهم بغتة فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون؛ قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

١٠- تسليته ﷺ بذكر استهزاء المكذبين بالرسول من قبله، وإحاطة إستهزائهم وسخريتهم بهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

١١- تذكير هؤلاء المكذبين بكلاءة الله وحفظه لهم منه عزوجل بالليل والنهار، وهم عن ذكر ربهم معرضون، وتحقير آهتهم وأنهم لا يستطيعون دفع عذاب الله عنهم ولا نصر أنفسهم ولا ناصر لهم من الله؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِتْنَا يُصْحَبُونَ﴾.

١٢- اغترارهم وآباؤهم بما متعهم الله به من النعم حتى طال عليهم العمر؛ قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَاتِي الْأَرْضَ نَقُصُّهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

١٣- بيان أن مهمته ﷺ بالنسبة لهم هي إنذارهم بما أوحاه الله تعالى إليه، وليس عليه هدايتهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا

يُنذَرُونَ ﴿١٥﴾ ﴿١٥﴾.

١٤- دعاؤهم بالويل وتحسرهم عندما تصيبهم نفحة من عذاب الله بسبب ظلمهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٦﴾﴾.

١٥- بيان كمال عدله عزوجل في حساب الخلائق يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَاهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿١٧﴾﴾.

١٦- التذكير بإيتائه عزوجل موسى وهارون الفرقان فيه الضياء والذكرى للمتقين، الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون.
١٧- التنويه بالقرآن، وأنه ذكر مبارك أنزله الله عزوجل، والإنكار على من أنكره؛ قال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿١٨﴾﴾.

١٨- التذكير بإبراهيم وما أتاه الله من الرشد، وإنكاره على أبيه وقومه عكوفهم على عبادة الأصنام، وما جرى بينه وبينهم من المجادلة، وبيانه أن ربهم رب السموات والأرض الذي يجب أن يعبدون وحده، وتحطيمه أصنامهم. ورميهم إياه في النار وجعله عزوجل النار عليه بردًا وسلامًا، ورد كيدهم في نحورهم، وجعلهم الأخرسين، وإنجائه إبراهيم ولوطًا إلى الأرض المباركة، وهبة الله تعالى له إسحاق ويعقوب نافلة وجعلهم جميعًا من الصالحين، وأئمة يهدون بأمر الله، ووحية إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعبادة الله تعالى.

١٩- التذكير بمنتته على لوط عليه السلام، بإيتائه حكمًا وعلماً بالنبوة، وإنجائه من القرية التي كانت تعمل الخبائث وقوم السوء الفاسقين، وإدخاله في رحمته أنه من الصالحين.

٢٠- التذكير بمنتته على نوح عليه السلام من قبل، والاستجابة له، وإنجائه وأهله من الكرب العظيم، ونصرته على القوم الذين كذبوا بآيات الله قوم السوء وإغراقهم أجمعين.
٢١- ذكر حكومة داود وسليمان عليهما السلام في الحرث الذي رعته غنم القوم، وشهادته عزوجل لحكمهما، وتفهمهما لسليمان، وإيتاء كل منهما حكمًا وعلماً، وتسخير

الجال مع داود يسبحن والطير، وتعليمه صنعة لبوس لهم؛ لتحصنهم من بأسهم؛ ليشكروه وتسخير الريح لسليمان تجري بأمره، وإحاطة علمه عزوجل بكل شيء، وتسخير الشياطين يغوصون ويعملون له، وحفظه تعالى لهم.

٢٢- ذكر ابتلاء أيوب عليه السلام بالضر، وندائه ربه وشكواه إليه واستجابته تعالى له، وكشف ضره؛ قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٢﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَفَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَعَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

٢٣- ذكره عزوجل إسماعيل وإدريس وذا الكفل عليهم السلام كل من الصابرين، وإدخالهم في رحمته عزوجل إنهم من الصابرين.

٢٤- ذكره عزوجل ذا النون عليه السلام إذ ذهب مغاضباً لقومه، والتضييق عليه في بطن الحوت، ومناداته في الظلمات: أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، واستجابة الله تعالى له، وإنجائه من الغم كما ينجي عباده المؤمنين.

٢٥- ذكر زكريا عليه السلام حين نادى ربه سائلاً: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٤﴾﴾، واستجابة الله تعالى له وهبته يحيى، وإصلاح زوجه له، وثناء الله تعالى عليهم بدعائهم الله رغباً ورهباً والخشوع له.

٢٦- ذكر مريم عليها السلام، وامتداحها بإحصان فرجها، ونفخه عزوجل فيها من روحه، وجعلها وابنها عيسى آية للعالمين حيث حملت به وولدتها من غير أب.

٢٧- تقرير وتوكيد وحدة الأمة، فدينهم واحد وهو الإسلام، وربهم هو الله وحده، وهو مبعودهم دون سواه: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٨٥﴾﴾.

٢٨- تقطع الأمم واختلافهم على رسلهم، فمن مصدق لهم ومكذب، ومن مؤمن بهم وكافر، ورجوعهم كلهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء، فمن عمل من الصالحات وهو مؤمن فسعيه مشكور غير مكفور، ومسجل مكتوب، ومن عمل غير ذلك فله جزاؤه.

٢٩- تأكيد بعث المهلكين من المكذبين وغيرهم ورجوعهم إلى الله يوم القيامة،

وخروج يأجوج ومأجوج، واقتراب الوعد الحق والقيامة والحساب، وشخص أصبار الذين كفروا، ودعائهم بالويل وحسرتهم على غفلتهم وظلمهم، ووعيدهم بالنار هم ومعبوداتهم، وتأکید ورودهم إليها ودخولهم فيها.

٣٠- الامتنان على المؤمنين الذين سبقت لهم من الله الحسنى بإبعادهم عن جهنم وإدخالهم الجنة وبشارة الملائكة لهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٦﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٣١- طي السماء كطي السجل للكتب، وإعادته عز وجل الخلق كما بدأهم وعداً عليه حقاً.

٣٢- كتابته عز وجل وقضاؤه الشرعي أن الأرض يرثها عباده الصالحون.

٣٣- التنويه بالقرآن وتعظيمه وأن فيه البلاغ التام لقوم عابدين يعبدون الله ويعملون بما جاء في كتابه.

٣٤- أنه تعالى إنما أرسل محمداً ﷺ رحمة للعالمين كلهم، وأمره له بإعلان وحدانية الله تعالى في عبادته وحضهم على الإسلام: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحِيدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٣٥- التهديد والوعيد لمن تولى وأعرض عن طاعته ﷺ وعن إتباعه، وبيان أنه ﷺ لا يدري متى يحل بهم ما يوعدون، أقرب أم بعيد، ورده العلم إلى الله تعالى، وأنه لا يدري لعل ما هم فيه من النعم فتنة لهم ومتاع إلى حين، وطلبه من ربه الحكم بالحق، وتفويضه الأمر إليه: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٩﴾ وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٠﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿٢١﴾﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُخَدَّبٍ إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمُ أَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَكُ أَحْلَمُ بَلْ أَقْرَبَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ﴿٥﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ أَهْلَكْنَاهُمْ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾.

قوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾، أي: قرب ودنا للناس حسابهم ومجازاتهم على أعمالهم بقرب الساعة والقيامة؛ كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتْ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

وقال ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، وقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى»^(١). وذلك لأن ذلك آتٍ، وكل آتٍ قريب؛ كما قال تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿١﴾ وَزَرَّهُ قَرِيبًا ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

ولأن عمر الدنيا كلها، ومتاعها، وما بقي منها؛ كل ذلك قليل بالنسبة للآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

ولأن من مات قامت قيامته، ورأى جزاء عمله.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: وهم غافلون

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٣٠١، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٠، وأحمد (٣٨٨/٥)، من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه.

معرضون، و«الغفلة»: السهو وعدم اليقظة، أي: وهم في غفلة عما خلقوا له، وعما يراد بهم، لا يستعدون لذلك، ولا يعملون له.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ عن الحق، مكذبون له بقلوبهم، متولون عنه بأبدانهم، منشغلون عنه بدنياهم.

قال الشاعر:

والناس في غفلة عما يراد بهم كأنهم غنم في بيت جزار^(١)
وقال الآخر:

الناس في غفلاتهم — ورحا المنية تطحن^(٢)
﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ «من» في قوله: ﴿مِّنْ ذِكْرٍ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ما يأتي كفار قريش وغيرهم من الكفار من أي ذكر من ربهم من القرآن الكريم، يذكرهم ما ينفعهم، ويحثهم عليه، ويحذرهم ما يضرهم.
﴿مُحَدَّثٍ﴾، أي: حديث وجديد إنزاله.

﴿إِلَّا أَسْتَمَعُوهُ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا استمعوه فقط سماعاً تقوم به عليهم الحجة، ولا ينفعهم؛ لقوله: ﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾، أي: حال كونهم يلعبون، أي: غير منصتين إليه، ولا متدبرين له، ولا معتبرين بوعده ووعيده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا كَالْوَأْتِيَ الَّذِي يَأْتِي السُّحْرَةَ﴾ [الشعراء: ٥].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار بالله محضاً لم يُشب^(٣)!»،^(٣)

وفي حديث: «من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»^(٤).

(١) البيت لمجهول. انظر: «الأمثال الواردة» (ص ٤٣٦).

(٢) البيت لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص ٤٢٩.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد، قوله تعالى: ٧٥٢٣.

(٤) أخرجه ابن ماجه في المقدمة ١٣٨، من حديث أبي وعمر رضي الله عنهما.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، أي: غافلة منشغلة بما لا ينفعها.

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ «الذين» بدل من فاعل «أسروا».

أي: وأسر التجاجي بينهم الذين ظلموا بالكفر والتكذيب، وبالغوا بإخفاء ما يتناجون به قائلين فيما بينهم:

﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ﴾ الاستفهام بمعنى: النفي، والإشارة للنبي ﷺ، أي:

ما هذا إلا بشر مثلكم كسائر البشر، ليس بملك، فكيف اختص بالوحي دونكم؟!!

كما قال الذين كفروا من قوم نوح: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقال الذين كفروا من قوم هود: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [٢٣] وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٢٤﴾ [المؤمنون: ٢٣-٢٤].

وقالوا هم وغيرهم من المكذبين لرسولهم: ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأُنُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ [١٥] قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿١٠﴾ [إبراهيم: ١٠-١١].

وقال أصحاب القرية لرسولهم: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [١٥] ﴿[يس: ١٥].

وقال غيرهم من المكذبين: ﴿أَبَشْرٌ يَهْدُونَنَا فَكُفِّرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وكذا قال كفار قريش؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَبْتَغِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [٨] وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿١﴾ [الأنعام: ٨-٩].

﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، وجملة ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾

جالية، أي: وأنتم ذوو بصائر وعقول، أي: كيف تأتون السحر وأنتم تبصرون وتعرفون أنه سحر؟ أي: إن تصديقكم به واتباعكم له وأنتم تعلمون أنه بشر مثلكم وواحد منكم؛ كمن يأتي السحر وهو يعلم أنه سحر.

ويحتمل: أنهم أرادوا اتهامه ﷺ بالسحر، وأن ما جاء به سحر؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِحَقِّي لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿قَالَ﴾ بألف على الخبر، وقرأ الباقون: «قل» بغير الألف على الأمر.

أي: قال ﷺ مجيباً عما افتروه من الكذب، وما تناجوا به من الكيد له ﷺ ولدعوته: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: يعلم القول كله سره وجهره، خفيه وعلانيته، وفي هذا تهديد ووعد لهم.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي: وهو السميع لأقوالكم، العليم بأعمالكم وأحوالكم، ذو السمع الذي وسع جميع الأقوال والأصوات، وذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء.

و«السميع» و«العليم» من أسماء الله عز وجل.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلِ افْتَرَاهُ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي في المواضع الثلاثة، أي: بل قال الكافرون المكذبون للنبي ﷺ وللقرآن: ﴿أَضْغَتْ أَحْلَمٌ﴾، أي: ما جاء به محمد أضغاث أحلام، أي: أخلاط أحلام يراها في النوم، لا حقيقة لها.

﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾، أي: بل اختلقه وتقوله من عند نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقَوْلُهُ، بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الطور: ٣٣].

﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾، أي: وما جاء به شعر؛ كما قالوا: ﴿وَيَقُولُونَ آيَاتُنَا لَشَارِكُوهُ أَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصفات: ٣٦]، ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّرٰىصُ بِهِ رَبِّبَ اٰمَنُوْنَ﴾ [الطور: ٣٠].

وقد فند الله قولهم هذا وأبطله بقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [١].

[الحاقة: ٤١].

فمن شدة عنادهم وكفرهم وضلالهم وحيرتهم اختلفوا وترددوا فيما يصفون به الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي، فتارة يقولون: سحر، وتارة يقولون: أضغاث أحلام، وتارة يقولون: مفترى، وتارة يقولون: شعر؛ كما قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨]، [الفرقان: ٩].

﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: فليأتنا بآية وعلامة ومعجزة تدل على صدقه ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾، أي: كالأيات التي أرسل بها الرسل الأولون، أو جاء بها الرسل الأولون؛ مثل: ناقة صالح، وعصا موسى، ومائدة عيسى عليهم السلام، ونحو ذلك.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾، أي: ما آمنت قبلهم من قرية بالآيات التي اقترحوها، بل كفروا بها، فكانت سبباً لهلاكهم.

﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أنهم لن يؤمنوا بالآية لو جاءتهم، بل سيكفرون بها فتكون سبباً لهلاكهم؛ كحال الأمم قبلهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَعَآئِنَا تُمُودُ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَوَجَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وإذا كانوا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم الآية العظمى والمعجزة الخالدة الكبرى، وما جاء على يديه ﷺ من الآيات البينات، والحجج القاطعات، والمعجزات الظاهرات، فأتى لهم أن يؤمنوا بأي آية بعد ذلك؟! قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعُرُكُمْ أَنهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الدِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۖ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [٧] ثم صدقهم الوعد فأبجيتهم ومن نشأ وأهلكنا المفسرفين ﴿٨﴾.

ذكر عز وجل قول المكذبين والكفار: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ﴾ الآية،

واستبعادهم أن يكون الرسول من البشر، ثم رد في هذه الآية عليهم، وعلى من أنكر بعثة الرسل من البشر.

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: ما كان الرسل قبلك يا محمد ﴿إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾، أي: إلا رجالاً مثلك من البشر، ليس فيهم أحد من الملائكة؛ كما أنه ليس فيهم أنثى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ١٩].

﴿فَسَتَلَوْا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾، أي: فاسألوا أهل الذكر والعلم من الأمم السابقة؛ كاليهود والنصارى وغيرهم: هل كان الرسل الذين أرسلوا إليهم بشرًا أو ملائكة؟ إنما كانوا بشرًا مثلهم، وذلك من تمام نعمة الله تعالى على خلقه؛ ليمكنوا من الأخذ عنهم، ولتقوم بهم الحجة عليهم؛ إذ لو كان الرسل ملائكة ما استطاع البشر الفهم منهم، والأخذ عنهم.

﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أن الرسل لا يكونون إلا من البشر، وليسوا من الملائكة. ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾، أي: وما جعلنا الرسل أجسادًا وأجسامًا خارجين عن طبيعة البشر.

﴿لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾، أي: لا يحتاجون إلى الطعام والشراب ونحو ذلك، بل جعلناهم أجسادًا يأكلون ويشربون كغيرهم من البشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]. وفي هذا رد على المشركين، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لِيَإْكُلِ الطَّعَامَ وَيَمْشِيَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧].

﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾، أي: وما كانوا خالدين في الدنيا، بل هم كغيرهم من البشر، يعيشون ثم يموتون؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ﴾، أي: ثم صدقنا رسلنا الوعد الذي وعدناهم بإنجائهم وأتباعهم، وإهلاك أعدائهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي

الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ [غافر: ٥١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].
﴿فَأَجْبَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ﴾، أي: فخلصناهم والذي نشاء من أتباعهم المؤمنين من الهلاك.

﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحد في الكفر والتكذيب للرسول.

الفوائد والأحكام:

١- قرب الحساب والجزاء على الأعمال والقيامة؛ لقوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

٢- أن عمر الدنيا كلها بالنسبة للآخرة قليل، وما بقي منها بالنسبة للآخرة أقل من القليل، وأن من مات قامت قيامته، ورأى جزاءه؛ لقوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

٣- إثبات القيامة والحساب والجزاء على الأعمال.

٤- غفلة الناس عما خلقوا له وعما يراد منهم، وإعراضهم عن ذلك إلا من رحم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرُضُونَ﴾.

٥- انشغال قلوب كثير من الناس بالدنيا وهوها وشهواتها عما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.

٦- إسرار الظالمين المكذبين التناجي بينهم للكيد له ﷺ وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

٧- أن في التكذيب للنبي ﷺ ولما جاء به أعظم الظلم؛ ولهذا وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الظلم.

٨- إنكارهم رسالته ﷺ، بدعوى أنه ما هو إلا بشر مثلهم وليس بملك؛ لقولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

٩- إنكارهم على من صدقه، ووصفهم لمن اتبعه بمن أتى السحر وهو يعلم أنه

سحر، تحذيرًا وتنفييرًا للناس منه، واتهامهم له ﷺ بالسحر؛ لقوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾.

١٠- أن النبي ﷺ بشر كغيره من البشر، وإنما ميزه الله عنهم بوحيه إليه، كغيره من الرسل.

١١- الإنكار على من أتى السحر، أو أتى أي عمل منكر وهو يعرف ذلك ويعلم حرمة.

١٢- أن من أتى أي عمل منكر وهو يجهل ذلك فلا إثم عليه؛ لمفهوم قوله: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾.

١٣- علم الله عز وجل الواسع بجميع الأقوال سرها وجهرها، خفيها وعلانياتها، في السماء والأرض، وفي هذا وعيد وتهديد للمتناجين للكيد له ﷺ وللقرآن؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبِّي﴾.

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، وهما: «السميع» و«العليم»، وأنه سبحانه ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

١٦- اضطراب الكفار المكذبين للنبي ﷺ، وضلالهم وحيرتهم فيما يصفون به الرسول ﷺ والقرآن الكريم، فتارة يصفونه بالسحر، وتارة يقولون: أضغاث أحلام، وتارة يقولون: افتراه واختلقه من عنده، وتارة يقولون: شاعر؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ﴾، وقوله: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾.

١٧- تعنت الكفار والمكذبين، وطلبهم أن يأتيهم الرسول ﷺ بآية مما يقترحونه، كناقاة صالح، وآيات موسى وعيسى عليهم السلام؛ لقولهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾.

١٨- تكذيب كفار قريش بالقرآن، وعدم اعتدادهم بكونه آية؛ كفرًا منهم وعنادًا، وهو الآية العظمى، والمعجزة الخالدة الكبرى، وقد بهرهم وأسكتهم وأخرس ألسنتهم بفصاحته وبلاغته.

١٩- تكذيب جميع الأمم الماضية بالآيات التي اقترحوها على أنبيائهم، وإهلاكهم بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾.

٢٠- أن هؤلاء المكذبين للنبي ﷺ - كغيرهم ممن سبقوهم من الأمم - لو جاءتهم آية مما اقترحوه لن يؤمنوا بها، بل سيكفرون بها وتكون سبباً لهلاكهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾.

٢١- أن جميع الرسل الذين أرسلهم الله وأوحى إليهم؛ رجال من البشر، ليس فيهم أحد من الملائكة، كما أنه ليس فيهم أنثى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾.

٢٢- أنه لا فرق بين الرسل وسائر البشر، إلا أن الله خص الرسل والأنبياء بوحية تعالى إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ﴾.

٢٣- أمره عز وجل للمكذبين للنبي ﷺ بسؤال أهل الذكر من الأمم السابقة كاليهود والنصارى وغيرهم: هل كان الرسل الذين أرسلوا إليهم بشرًا أو ملائكة؟ وأن الرسل إنما كانوا بشرًا مثلهم، منة من الله تعالى على خلقه، وإقامة للحجة عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٢٤- أن السؤال في طلب الهداية والعلم إنما يكون لأهل الذكر والعلم؛ من الرسل ومن اقتفى أثرهم من أهل الإيمان والتقوى والورع والخوف من الله، لا من الجهلة، ولا من أنصاف المتعلمين؛ لأن في ذلك الهلاك والضلال. وصدق من قال: «يفسد الناس ثلاثة: نصفٌ فقيه، ونصفٌ طيب، ونصفٌ نحوي؛ فالأول يفتيهم في الأديان، والثاني يفتيهم في الأبدان، والثالث يفتيهم في اللسان»^(١).

٢٥- أن الرسل عليهم السلام كغيرهم من البشر يأكلون ويشربون، وليسوا مجرد أجساد؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾.

٢٦- أن الرسل - كغيرهم من البشر - يعيشون في هذه الحياة ثم يموتون، وليسوا

(١) انظر: «البصائر والذخائر» لأبي حيان التوحيدي (١٣٦/٨)، «الاستغاثة في الرد على البكري» لابن تيمية (ص ٤١١)، «الفتوى الحموية الكبرى» (٥٥٤).

بمخلفين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾.

٢٧- صدق الله عز وجل وعده رسله بإنجائهم ونصرهم وأتباعهم وإهلاك أعدائهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾.

٢٨- صدق الله عز وجل وعده؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

٢٩- أن من كذب رسل الله وكفر بما جاؤوا به من الحق فهو من المسرفين.

٣٠- الترغيب في اتباع الحق وما جاءت به الرسل، والتحذير من مخالفة ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْآ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَا تَخَذُتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْترُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَبُولْنَا إِنْآ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ ﴿١٥﴾﴾.

قوله: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد» حرف تحقيق، أي: لقد أنزلنا إليكم كتابًا عظيمًا، ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، أي: فيه عزكم وشرفكم وتذكيركم بما فيه صلاح دينكم ودنياكم وأخراكم.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، الاستفهام: للإنكار والتفريع والتوبيخ، أي: أفلا تتفعلون بعقولكم فتأملوا في عظمة هذا الكتاب وتدبروه، وتهتدوا بهديه، وتعملوا به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [الزخرف: ٤٤].

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾، أي: وكم أهلكنا واستأصلنا من قرية كانت ظالمة بالكفر والشرك وتكذيب الرسل، و«كم»: خبرية تفيد التكثير، أي: وكثير من القرى أهلكناها؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ١٧].

والمراد بالقرية: أهلها؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا﴾، أي: وأنشأنا بعد هذه القرى التي أهلكناها ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾، أي: أممًا أخرى.

﴿فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسْنَانَا﴾، أي: فلما رأوا عذابنا، وتيقنوا أنه واقع بهم، كما توعدهم نبيهم. ﴿إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ «إذا»: هي الفجائية، أي: إذا هم منها يسرعون فارين هارين من العذاب، وهيئات لهم ذلك.

﴿لَا تَرْكُضُوا﴾، أي: قيل لهم: لا تركضوا، أي: لا تسرعوا، فلا مفر لكم من عذابنا.
 ﴿وَأَرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ﴾، أي: وقيل لهم على سبيل التهكم
 والاستهزاء: ﴿وَأَرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ﴾ «ما»: موصولة، أي: عودوا إلى
 الذي أترفتم فيه من النعم والمساكن، فبطرتم وكفرتم، أي: إن استطعتم ذلك، وهيهات
 لهم ذلك، بعد أن حل بهم العذاب.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتُوبُونَ﴾ هذا من جملة التهكم بهم، أي: لعلكم تُسألون عن حالكم وما
 أصابكم، وأنى لهم الرجوع فضلاً عن السؤال؟!

﴿قَالُوا﴾ لما أيقنوا بنزول العذاب ندمًا وأسفًا: ﴿يَوَيْلُنَا﴾، أي: يا هلاكنا.
 ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ بما كنا عليه من الكفر والشرك والتكذيب لرسول الله.
 وهذا ندم منهم حين لا ينفع الندم، وإقرار منهم حين لا ينفع الإقرار؛ ولهذا قال:
 ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾، أي: فما زالت تلك المقالة - وهي الندم والاعتراف
 بالظلم - دعواهم وهجيراهم، يرددونها ويكررونها.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَلِيدِينَ﴾، أي: إلى غاية أن أهلكناهم واستأصلناهم،
 وجعلناهم كالزرع المحصود، ﴿خَلِيدِينَ﴾، أي: ميتين قد سكنت حركاتهم، وانقطعت
 أصواتهم.

وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين له ﷺ أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام.
 قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٧﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ
 لَهُمْ لَأَخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ
 زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
 عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٧﴾﴾، أي: ما خلقنا
 السموات والأرض وما فيها وما بينهما ﴿لِعَيْنٍ﴾ حال، أي: ما خلقنا ذلك لعبًا وعبثًا.
 واللعب: ما ليس فيه تحصيل مصلحة ولا دفع مفسدة، ولا جلب نفع ولا دفع
 مضرة، قولاً كان أو عملاً، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ
 ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [ص: ٢٧].

والمراد: تقرير وإثبات أن الله خلق السموات والأرض وما بينهما بالحق والعدل والقسط، ولأمر جليل وهدف عظيم، وهو الدلالة على عظمة الله تعالى ووحدانيته ووجوب عبادته، وتمام قدرته على البعث ومجازاة الناس بأعمالهم، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأحقاف: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيمَا وُقُوعًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٤١﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا يَمَّا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ﴾ ﴿٤٣﴾ [النجم: ٣١].

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ هذه الجملة مقررة لمعنى جملة: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾، «لو»: شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع. أي: لو أردنا- على سبيل الفرض والمحال- أن نتخذ ونجعل لهم ما يتلهم فيه ويلعب، مما لا حكمة فيه ولا مصلحة ولا فائدة؛ لاتخذناه وجعلناه من عندنا، وما خلقنا جنة ولا نارًا، ولا موتًا ولا بعثًا ولا حسابًا.

﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ «إن»: شرطية، وجواب الشرط محذوف، أي: إن كنا فاعلين ذلك لاتخذناه، ويحتمل كون «إن»: نافية، أي: ما كنا فاعلين لهم؛ لعدم إرادتنا له، وكونه لا يليق بنا.

وفي هذا رد وإبطال لنسبة الصاحبة والولد له عز وجل كما زعم اليهود والنصارى والمشركون؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [الزمر: ٤]؛ ولهذا قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ﴾ «بل»: للإضراب، أي: بل نرمي بالحق على الباطل، ببيان الحق وإظهاره وتأنيده.

﴿فَيَدْمَغُهُ﴾، أي: فيدحضه ويمحقه، ويزيله ويزهقه.

﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾، أي: ذاهب مضمحل زائل، متبين بطلانه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].
﴿وَلَكُمْ أَوْلِيٌّ﴾، أي: الهلاك والعذاب.

﴿مِمَّا نَصَفُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أي: من وصفكم، أو موصولة، أي: من الذي تصفونه، أي: من الذي تصفون به الله عز وجل كذبًا وافتراءً من الشركاء والأنداد والصاحبة والولد.

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اللام في قوله: ﴿وَلَهُ﴾ للاختصاص والملك، أي: وله خاصة جميع من في السموات والأرض خلقًا وملكًا وتدبيرًا.
﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ من الملائكة، وهذا تشریف وتكريم لهم.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾، أي: لا يتعاضمون ولا يأنفون ولا يستنكفون عن عبادته؛ كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٧٢].

﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، أي: لا يتعبون ولا يملون ولا يعيون؛ لقوة إيمانهم، ونشاط أبدانهم، وشدة رغبتهم، وقد جعل الله التسبيح لهم كالنفس لبني آدم.
يقال: حسر واستحسر: إذا تعب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَتَقَلَّبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤]، أي: كليل متعب.

وفي هذا تعريض بالمشركين الذين يستكبرون عن عبادته ويعبدون غيره.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾، بيان لجملة: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، أي: يصلون ويسبحون على الدوام أوقات الليل وأوقات النهار، لا يضعفون ولا ينقطعون.

الفوائد والأحكام:

١- الامتتان بإنزال القرآن، وإقامة الحججة به على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.

٢- إثبات صفة العلو لله تعالى، وأنه سبحانه عال بذاته فوق خلقه، بائن منهم، له علو الذات وعلو الصفات، وعلو القدر وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا﴾.

- ٣- أن القرآن الكريم منزل من عند الله عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.
- ٤- تعظيم القرآن الكريم وتشريفه، والتنويه به؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَابًا عَلِيًّا﴾ بالتشكير، أي: كتاباً عظيماً جليلاً، ولا غرو في هذا، فهو أفضل كتب الله تعالى على الإطلاق.
- ٥- أن القرآن الكريم ذكر لهذه الأمة، وشرف لها، وعز ورفعة؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾.
- ٦- توبيخ وتقريع الكفار الذين لا ينتفعون بعقولهم بالتأمل والتدبر في القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.
- ٧- أن من لم ينتفع بعقله بالاهتداء به إلى الحق والصراط المستقيم فليس بعاقل، وإن زعم وادعى أنه عاقل، وهكذا حال كثير من الخلق، لا عقل صحيح، ولا رأي رجيح، حكمة بالغة.
- ٨- التحذير والتهديد للكفار المكذبين بالقرآن، أن يحل بهم من الهلاك مثلما حل بالمكذبين الظالمين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْلِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ١١، والسعيد من وعظ بغيره.
- ٩- تمام قدرة الله تعالى، وشدة عقابه، وهوان الخلق عليه إذا هم عصوه وخالفوا أمره.
- ١٠- سعي من نزل بهم العذاب من أولئك الأقوام للهروب والفرار من العذاب، ولكن هيهات لهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحْسَسُوا بِأَسَنَّا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ ١٣.
- ١١- التهكم والاستهزاء بهم في مسعاهم للفرار من العذاب بلا جدوى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَلَكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْأَلُونَ﴾ ١٣.
- ١٢- ينبغي الحذر من الترف والتنعم؛ لأن ذلك من أسباب البطر، وكفر النعم، ومخالفة أمر الله تعالى.
- ١٣- أن الله عز وجل ما خلق السموات والأرض وما بينهما لعباً، وإنما خلقهما للدلالة على عظمته ووحدانيته، في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ووجوب عبادته،

وتمام قدرته على البعث والجزاء، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ۝١٦﴾.

١٤- تنزيه الله تعالى عن اللعب واللهو، وأن كل ما يخلقه ويقدره، أو يقوله ويفعله، أو يأمر به أو ينهى عنه، كل ذلك يجري في غاية الحكمة والإتقان.

١٥- أن الله عز وجل لو أراد أن يتخذ لهواً لاتخذه من عنده وفعله، ولكنه لا يريد ذلك وما يفعله؛ لأنه لا يليق به عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَآتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ۝١٧﴾ كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۝٤﴾ [الزمر: ٤].

١٦- دمع الباطل وإزهاقه وإزالته وإذها به بيان الحق وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ۝١٧﴾.

١٧- أنه لا ثبات للباطل مهما عظم أمام قوة الحق.

١٨- الوعيد والتهديد بالعذاب والهلاك للذين يصفون الله بما لا يليق به من الشركاء والأنداد والصاحبة والولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ الْأُولَىٰ مِمَّا نَصَفُونَ ۝١٨﴾.

١٩- أن الله عز وجل جميع من في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وتدبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۝١٩﴾.

٢٠- امتداح الله تعالى لمن عنده من الملائكة، وثناؤه عليهم بعدم الاستكبار عن عبادته، وعدم التعب والملل منها، والمداومة على التسييح آناء الليل والنهار، وعدم الانقطاع عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝٢٠﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢١﴾.

٢١- تشريف الملائكة وتكريمهم، والتنويه بعلو منزلتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ ۝٢١﴾.

قال الله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْئُرُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَن أَرَادَ وَلَهُمْ مِّنْ حَشِيئَتِهِ مُسْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِك بَعْثُهُ فِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾

قوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، والهمزة: للاستفهام الإنكاري، والتقدير: بل آتخذوا آلهة من الأرض؟

أي: هم يحيون الموتى وينشرونهم من الأرض، أي: هم لا يقدرُونَ على شيء من ذلك، بل هم كما قال عز وجل: ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ [النحل: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبًا مَّثَلُ فَمَا سَمِعُوا لَهُ إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٢١﴾﴾ [الحج: ٢١].

فنفى في هذه الآية: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ أن يكونوا آلهة بدليل العقل، وسيأتي نفي ذلك بدليل الشرع.

وفي قوله: ﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾ تحقير لهذه الآلهة والأصنام، وأنها أرضية سفلية، ومصنوعة من جنس الأرض.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ «لو» شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، أي: لو كان في السموات والأرض آلهة غير الله ﴿لَفَسَدَتَا﴾.

اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لاختل نظامهما وما فيهما من المخلوقات، أي: أنه لو كان في الوجود إله غير الله لفسدت السموات والأرض، واختل نظام الكون كله.

قال السعدي^(١): «فإنه لا يصلح الوجود إلا على إله واحد؛ كما أنه لم يوجد إلا برب واحد؛ ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات. وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة ولا معارضة، يدل على أن مدبره واحد، وربّه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنها يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما دون الآخر تدبير شيء وأراد الآخر عدمه؛ فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذا نيتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده من غير ممانع ولا مدافع هو الله الواحد القهار؛ ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ومنه على أحد التأويلين قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلَهِةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَيْلًا﴾ [سُبْحَانَ اللَّهِ وَعَلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا] [الإسراء: ٤٢ - ٤٣].

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ﴾، أي: تنزهه عز وجل وتقدس، وأظهر اسم الجلالة للتعظيم وتربية المهابة.

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٥ / ٢٢٠ - ٢٢١.

﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأوسعها وأعظمها، ووصف نفسه برب العرش للتذكير بأنه خالق ما هو أكبر وأعظم من السموات والأرض، وهو العرش الذي هو أكبر المخلوقات.

﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾، أي: عن وصفهم، أو عن الذي يصفونه تعالى به من الشركاء والأنداد والصاحبة والولد؛ كما قال تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، أي: لا يسأل سبحانه عن فعله، أو عن الذي يفعله؛ لكمال ربوبيته وتمام تدبيره، فهو خالق الخلق ومالكهم والمتصرف فيهم، الحاكم الذي لا معقب لحكمه؛ لعظمته وجلاله وكبريائه وعزته وعدله.

﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾، أي: وهؤلاء المشركون الذين يصفون الله باتخاذ الصاحبة والولد، والشركاء والأنداد، هم وجميع الخلق يسألون عن أفعالهم وأقوالهم، ويحاسبون، ويمجازون عليها؛ كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَأْتِنَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٩٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]،

وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْتَأْتِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلْنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].
قال ابن القيم: «فقوله: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ إثبات لحقيقة الإلهية، وإفراد له بالربوبية والإلهية، وقوله: ﴿وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ نفي صلاح تلك الآلهة المتخذة للإلهية، فإنها مسؤولة مربوبة مدبرة، فكيف يسوى بينها وبينه مع أعظم الفرقان؟!» (١).

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً ۗ قُلْ هَانُوا بَرَهَانِكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [١١] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [٥٥].

قوله: ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً﴾ الآية، تأكيد لقوله: ﴿أَمْ أَخَذُوا ءَالِهَةً مِنْ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِئُونَ﴾ [١١]، استعظاماً لفظاعته، وليبني عليه إبطاله بدليل الشرائع؛ كما

(١) انظر «بدائع التفسير» ٣ / ١٨٤.

بنى على نظيره السابق إبطاله بدليل العقل .
 و«أم» في قوله: ﴿أَمْ أَلْمَزْتُمْ لَنَا مِنَ دُونِهَا إِلَهًا﴾ كالتي قبلها للإضراب الانتقالي،
 بمعنى «بل»، والهمزة للاستفهام الإنكاري.
 ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أعطونا برهانكم، أي:
 دليلكم وحجتكم على صحة ما تقولون، وما ذهبتم إليه من اتخاذ الشركاء مع الله، من
 شواهد الشرائع والرسول.

﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِيَ﴾ الإشارة إلى القرآن، و«من»: موصولة، أي: هذا القرآن ذكر
 الذي معي من المسلمين، أي: ذكر أتباعي وأمتي.

﴿وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾، أي: وهذا ذكر الذي قبلي، أي: الكتب السابقة، أي: هذا
 القرآن الكريم والكتب السابقة قد اتفقت على إثبات وتقرير وحدانية الله تعالى، وإبطال
 الشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
 الظُّلُمَاتِ﴾ [النحل: ٣٦].

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثر
 المكذبين المتخذين آلهة من دون الله لا يعلمون الحق، وإنما يقلدون آباءهم وأسلافهم
 على جهل وضلال.

﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾، أي: فهم بسبب جهلهم وعدم علمهم معرضون عن الحق
 بقلوبهم، متولون ومبتعدون عنه بأبدانهم؛ لأن الجهل داء قاتل، وموت قبل الموت، وقد
 أحسن القائل:

وفي الجهل قبل الموت موت لأهله وأجسادهم قبل القبور قبور

وإن امرأ لم يحيي بالعلم ميت فليس له بعد النشور نشور^(١)

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢):

(١) البيتان بدون نسبة. انظر: «أدب الدنيا والدين» (ص ٣٧)، «نتائج الفكر» للسهيلى (ص ٢٦)، «طبقات
 الشافعية» (٥/ ٣٤٨).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ٧).

فقم بعلم ولا تطلب له بدلاً فالناس موتى وأهل العلم أحياء
وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾ قد يؤخذ منه أن منهم من يعلم الحق ويعرفه، ويتركه عناداً
واستكباراً.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢١﴾﴾.
هذه الآية بيان لقوله: ﴿وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي﴾.

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمد، ﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ «من»: زائدة من حيث
الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما أرسلنا من قبلك أي رسول
﴿إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ﴾ «إلا»: أداة حصر، ﴿أَنَّهُ﴾، أي: بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾،
أي: لا معبود إلا أنا، فاعبدوني وحدي؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ
بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

قال ابن كثير^(١): «فكل نبي بعثه الله يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له،
والفطرة شاهدة بذلك أيضاً، والمشركون لا برهان لهم، وحتجتهم داحضة عند ربهم،
وعليهم غضب، ولهم عذاب شديد».

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢١﴾ لَا
يَسْفُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرَادَ وَهُمْ مِنْ حَسْبَيْهِ مُسْتَفْتُونَ ﴿٢٣﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ
دُونِهِ فَذٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالُوا﴾، أي: وقال المشركون المكذبون: ﴿اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾، أي: جعل
له ولداً، وذلك بزعمهم أن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

كما قال تعالى: ﴿أَفَأَصْفِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا
عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً
الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾﴾ [النجم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنْتًا﴾

[الزخرف: ١٩].

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيه لنفسه عز وجل، أي: تنزهه وتقدس وتعالى عن اتخاذ صاحبه والولد، وعن كل عيب ونقص؛ لأن اتخاذ الولد إنما ينشأ عن الافتقار إلى إكمال النقص بفقد الولد؛ كما قال تعالى في سورة يونس: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية: ٦٨].

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: بل الملائكة عباد الله تعالى، مكرمون عنده، مقربون لديه، مربوبون له، ليس لهم من الأمر شيء، قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].
﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾، أي: لا يتقدمون بين يديه عز وجل بالقول إجلالاً له وتعظيماً؛ لكمال أدبهم وعلمهم ببالغ حكمته وواسع علمه، فلا يقولون إلا ما أذن الله لهم بقوله.

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ قدم قوله: ﴿بِأَمْرِهِ﴾؛ لإفادة القصر، أي: فكما أنهم لا يقولون قولاً إلا بإذنه، فكذلك لا يعملون عملاً إلا بأمره، ولا يعصونه، ومهما أمرهم عملوا بأمره وبادروه وامتثلوه؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحریم: ٦].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: علمه محيط بهم، يعلم الذي بين أيديهم والذي خلفهم، والذي قدموه والذي أخروه، وأمورهم الماضية والمستقبلية.
﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ هذا داخل في عموم النفي في قوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾، وخصه بالذكر اهتماماً بأمر الشفاعة، ولبیان خطئهم في جعلهم الآلهة شفعاء لهم عند الله.

أي: ولا يشفعون إلا للذي ارتضاه الله، وارتضى الشفاعة له، بأن أذن لهم بالشفاعة له؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا: ٢٣].

﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ﴾، أي: وهم من خوفه عز وجل ورهبتة، ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون

وجلون، فيعظمونه، ويحذرون من مخالفة أمره، ويخشون بطشه.

﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهٌُ مِّنْ دُونِهِ ﴾، أي: ومن يقل من الملائكة إني إله من دونه، أي: من دون الله، وهذا على سبيل الفرض، وحاشاهم من ذلك.

﴿ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾، أي: نجعلها مصيره وداره، ونعذبه فيها.

وهذا شرط، والشرط لا يلزم وقوعه؛ كقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿ لَيْتَ أَشْرَكَتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزمر: ٦٥].

والمقصود من هذا الشرط: الرد على الذين ادعوا للملائكة الإلهية، وأنهم ادعوا لهم ما لا يرضونه ولا يقولونه، وما يوجب لقائله نار جهنم.

﴿ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾، أي: مثل هذا الجزاء بجهنم نجزي الظالمين بالشرك بالله، فنجعلها ما لهم ونعذبهم فيها.

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [٣٥] وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًّا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ [٣٦] وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ [٣٧] وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ [٣٨].

قوله: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قرأ ابن كثير: «ألم ير» بغير واو، وقرأ الباقون بالواو: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ﴾، والاستفهام: إنكار، والرؤية يحتمل كونها علمية أو بصرية، أي: أولم ير الذين جحدوا وأنكروا وحدانية الله تعالى وعبدوا معه غيره؟

﴿ أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾، أي: كانتا ملتصقتين، ﴿ فَفَتَقْنَاهُمَا ﴾، أي: فصلناهما بقدرتنا.

قال ابن كثير (١): «كان الجميع متصلًا بعضه ببعض متلاصق متراكم بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السموات سبعًا، والأرضين سبعًا، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمرت السماء، وأنبئت الأرض، ولهذا قال:

(١) في «تفسيره» ٥/ ٣٣٢.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

وقال بعض المفسرين: المعنى: كانتا رتقا من المطر والنبات، ففتقنا السماء بالغيث، والأرض بالنبات، بدلالة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ الواو: عاطفة، و«جعل» هنا بمعنى: «خلق»، أي: خلقنا من الماء كل شيء حي، أي: أن أصل جميع الحيوانات من الماء، فما يتوالد منها خلق من ماء الذكر والأنثى، وما يتولد كالحشرات والديدان ونحو ذلك خلق من الرطوبات، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٥].

﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الاستفهام: للتوبيخ، أي: أفلا يؤمن ويصدق الجاحدون لإلهية الله تعالى، العابدون معه غيره؛ بوجدانته وعظمته وكمال قدرته على الخلق، وعلى إعادتهم بعد فنائهم، مستدلين بهذه الآيات العظيمة في السماء والأرض وفي سائر المخلوقات؟! كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَن اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [الإسراء: ٩٩].

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ هذا من آثار فتق الأرض.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: جبلاً رواسي، رست ورسخت في الأرض، وثبتنا بها الأرض.

﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ «أن» تعليلية، أي: لئلا تميد بهم، أي: لئلا تضطرب بهم وتتحرك فلا يستطيعون القرار عليها.

قال ابن كثير^(١): «لأنها غامرة بالماء إلا مقدار الربع؛ فإنه بادٍ للهواء والشمس، ليشاهد أهلها السماء وما فيها من الآيات الباهرات، والحكم والدلالات».

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ الفجاج: جمع فج، وهي الطرق الواسعة، أي: وجعلنا في الأرض طرقاً واسعة مسلوكة.

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾، أي: لأجل أن يهتدوا بهذه الطرق للوصول إلى مطالبهم،

(١) في «تفسيره» ٥/ ٣٣٣.

ويتنقلون عبرها من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى آخر.

وأيضاً: لأجل أن يهتدوا ويتأملوا في هذه الآيات الكونية العظيمة، ويستدلوا بها على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمه عليهم، فيؤمنوا به ويشكروه.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا﴾ على الأرض كالقبة عليها، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَدَّلَهَا﴾ [الشمس: ٥]، أي: جعلها كالقبة على الأرض.

﴿مَحْفُوظًا﴾ عاليًا محفوظًا من السقوط والزوال والخلل؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ يُمِيسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَيُمِيسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَزَقْنَاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ﴾ [الملك: ٣].

ومحفوظًا أيضًا بمعنى: محروسًا من استراق الشياطين السمع؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنًا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾ [حفظًا من كل شيطانٍ مَّارِدٍ] ﴿لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْيَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ] [الصفات: ٦ - ٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا﴾ [الجن: ٨].

﴿وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا﴾، أي: وهم عن آيات السماء، أي: عما فيها من الآيات العظيمة: من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والمجرات، في سيرها وغروبها وشروقها وغيبتها، وجريان ذلك على حساب قويم دقيق، ونظام عجيب، وما يترتب على ذلك من المنافع العظيمة، والمصالح الكبيرة.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم، لا يتأملون في هذه الآيات العظيمة فيستدلون بها على كمال قدرة الله تعالى، وتمام نعمته، ووحدانيته، وبالغ حكمته؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ ءَايَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ﴾ بظلامه وسكونه، وجعله وقتًا للنوم والراحة والسكون، ﴿وَالنَّهَارَ﴾، أي: وخلق النهار بضياءه وأنسه، وجعله وقتًا للحركة وطلب الرزق؛ كما

قال تعالى: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ [القصص: ٧٣].

وعاقب بينهما، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة يقصر الليل ويطول النهار؛ كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ١٣].

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، أي: وخلق الشمس وجعلها ضياءً، وخلق القمر وجعله نورًا، وجعلها يجريان بحساب دقيق؛ لمعرفة حساب السنين والأعوام، والشهور والأيام؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥]، وقال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ﴿٥﴾ [الرحمن: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ﴿٦٦﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَنًا آيَةً اللَّيْلَ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا تَفْصِيلًا﴾ ﴿١١﴾ [الإسراء: ١٢].

﴿كُلُّ فِي فَلَكٍ﴾، أي: كل من الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم في فلك. الفلك: كل شيء دائر.

﴿يَسْبَحُونَ﴾ يدورون ويجرون فيه، كالسباح في الماء، أي: كل منها يدور في فلكه ومداره لا يتجاوزه ولا يجيد عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّهُ لَهْمُ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُّظْلِمُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤٠﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤١﴾ [يس: ٣٧-٤٠].

وفي ذلك كله من الفوائد والمنافع والمصالح للخلق ما لا يحصى؛ ولهذا سيقت الآية مساق الامتنان.

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين في عبادتهم من دون الله آلهة من الأرض، لا يملكون من الأمر شيئاً، وإبطال ذلك بدليل العقل؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ أَخَذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ

- يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾، أي: كلاً؛ لا يملكون ذلك ولا ما دونه.
- ٢- تحقير آلهة المشركين وأصنامهم، وأنها أرضية سفلية؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ الْأَرْضُ﴾.
- ٣- إثبات وحدانية الله تعالى، واستحالة وجود آلهة غير الله، وأنه لو كان في السموات والأرض آلهة إلا الله لفسدتا، واختل نظامهما وما فيهما من المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾.
- ٤- تنزيه الله تعالى وتقديسه وتعظيمه عما يصفه به المشركون من الشركاء والأنداد، والصاحبة والولد؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾.
- ٥- إثبات العرش الذي هو أكبر المخلوقات، وإثبات ربوبية الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾، فربوبيته لما دونه من المخلوقات أولى.
- ٦- إثبات كمال ربوبيته عز وجل وعظمته، وتمام تدبيره وحكمته وعدله، وأنه لا معقب لحكمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾.
- ٧- أن الخلق كلهم يسألون عن فعلهم؛ من عبدوا من دون الله وعابدوهم، وسائر الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾.
- ٨- تأكيد الإنكار على المشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله، ومطالبتهم بالدليل والحجة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾.
- ٩- دلالة القرآن الكريم والكتب السابقة على بطلان الشرك، وعلى إثبات الوحدانية لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِي وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾.
- ١٠- أن كثيراً من المشركين المكذبين بالقرآن جهلة لا يعلمون الحق، بل يقلدون أسلافهم على ضلال؛ لهذا أعرضوا عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.
- ١١- خطر الجهل، وأنه من أسباب الضلال والإعراض عن الحق، ومرتع خصب للبدع والخرافات.
- ١٢- إجماع الرسل على الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وأنه لا رب غيره، ولا معبود

بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٥﴾.

١٣- قول المشركين وزعمهم الباطل أن الملائكة بنات الله، وأن له ولداً، تعالى الله عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾.

١٤- تنزيه الله تعالى نفسه عن اتخاذ الصاحبة والولد، وعن كل عيب ونقص؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

١٥- الرد على المشركين في زعمهم أن الملائكة بنات الله، وبيان أن الملائكة عباد من عباد الله تعالى، مكرمون عنده، مقربون إليه، مريبون له، ليس لهم من الأمر شيء؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾.

١٦- تعظيم الملائكة عليهم السلام لله عز وجل وإجلالهم له، وكمال أدبهم، وعلمهم ببالغ حكمته، وواسع علمه، فلا يتقدمونه بالقول؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾.

١٧- مبادرتهم إلى طاعته وعمل ما يأمرهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَأْمُرُونَ بِعَمَلِهِمْ﴾.

١٨- إحاطة علمه عز وجل بما قدموه وبما أخروه، وبأحوالهم وأمورهم الماضية والمستقبلية؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

١٩- أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضاه الله تعالى، وارتضى الشفاعة له، بأن أذن لهم بالشفاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾.

٢٠- إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون.

٢١- شدة خوفهم عليهم السلام، ورهبتهم له عز وجل، وإشفاقهم من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾.

٢٢- الرد على الذين اتخذوا الملائكة آلهة من دون الله، بأن الملائكة لا يرضون بذلك ولا يقولونه، ولو قال قائل منهم ذلك على سبيل الفرض - وحاشاهم من ذلك - لكان جزاؤه جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾.

٢٣- تنزل القرآن الكريم في الكلام مع المشركين في عبادتهم الملائكة؛ لاستنزاهم عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهُ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾، وهذا إنما هو على سبيل الفرض والتقدير، وحاشاهم من ذلك.

٢٤- إثبات جهنم، وأنها دار جزاء الظالمين؛ لقوله تعالى: ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

٢٥- الإنكار على الذين كفروا عدم النظر والتأمل بأن السموات والأرض كانتا ملتصقتين ففتقهما الله عز وجل، فأنزل من السماء المطر، وأخرج من الأرض النبات، والاستدلال بذلك على تمام قدرة الله تعالى ونعمته، ووحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾.

٢٦- أن كل شيء حي خلق في الأصل من الماء، فما يتوالد خلق من ماء الذكر والأثني، وما يتولد خلق من الرطوبات؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾.

٢٧- توبيخ الكفار على عدم إيمانهم مع ما يرون من الآيات العظيمة في السموات والأرض وفي سائر المخلوقات، وما في ذلك من المنن الجسيمة؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

٢٨- الامتنان على العباد بإرساء الأرض بالجبال العظيمة لئلا تضطرب بهم، وجعل الطرق الواسعة فيها ليسلكوها ويهتدوا بها في تنقلاتهم من مكان إلى آخر، وبيان تمام قدرة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

٢٩- كمال قدرة الله تعالى ونعمته في جعل السماء سقفاً على الأرض، محفوظاً من السقوط والخلل واستراق السمع؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾.

٣٠- إعراض المكذبين عن آيات الله العظيمة في السماء؛ من شمسها وقمرها ونجومها وكواكبها ومجراتها، وغروبها وشرقها وغيبتها، في نظام دقيق عجيب، وما في ذلك من المصالح والمنافع للخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾.

٣١- قدرة الله تعالى العظيمة، ونعمته الكبيرة على الخلق؛ في خلق الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، وجعلها تدور في أفلاكها، وما في ذلك من المصالح العظيمة من معرفة الحساب، ومن اختلاف الليل والنهار طولاً وقصرًا واعتدالاً، واختلاف الفصول حرًا وبردًا واعتدالاً، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿٣٣﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ لَنْ يَتَّخِذُوا إِلَهًا هُزُؤًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذُكِرُونَ ﴿٣٦﴾ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُورُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٤٠﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٣﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٤﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْمُرُّ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٨﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾.

قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾، أي: وما صيرنا لبشر من قبلك يا محمد الخلد في الدنيا، بل ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿٣٥﴾ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٦﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

وكان الكفار والمكذبون له ﷺ يقولون متشتمين به بأنه سيموت وينتهي أمره؛ كما مات لبيد والشعراء من قبله؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ [الطور: ٣٠]، فرد الله تعالى عليهم بأنه قضى ألا يخلد في الدنيا بشر، فإذا مات فسيبيل من مات قبلك من الرسل والأنبياء وسائر البشر.

قال الشاعر:

رأيت المنايا لم يدعن محمداً ولا باقياً إلا له الموت مرصداً^(١)
وقال الفرزدق^(٢):

إذا ما الموت جر على أناس كلاكله أناخ بأخرينا
فقل للشامتين بنا: أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا
﴿أَفَإِنْ مِتَّ﴾ يا محمد كما يتمنى أعداؤك ويتظرون.

﴿فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾، أي: فهم الخالدون بعدك، أي: فهل سيخلدون بعدك؟ كلا، بل الكل إلى فناء؛ فالموت منهل لا بد من وروده، وكأس لا بد من شربه؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].
قال الشافعي^(٣):

تمنى رجال أن أموت وإن أمت فتلك سبيل لست فيها بأوحد
فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى تهباً لأخرى مثلها فكأن قد
وقال الآخر:

كتب الموت على الخلق فكم فل من جمع وأفنى من دول^(٤)
وقال الآخر:

فهن المنايا أي واد سلكته عليها طريقي أو عليّ طريقها^(٥)
وقال الآخر:

(١) البيت لسحيم عبد بني الحسحاس، مع اختلاف في روايته. انظر: «ديوانه» (ص ٤٠)، «تاريخ الإسلام» للذهبي (٢/ ٣٨١).

(٢) انظر: «شرح ديوان الحماسة» للتبريزي (٢/ ٥٥).

(٣) انظر: «مناقب الشافعي» لليهقي (٢/ ٧٣).

(٤) البيت لابن دريد، ضمن مقصورته. انظر: «ديوانه» (ص ٧١)، وانظر: «شرح مقصورة ابن دريد» للتبريزي (ص ٧٤).

(٥) البيت بلا نسبة. انظر: «مدارج السالكين» (١/ ١٥).

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب متى حط ذا عن نعشه ذاك يركب^(١)
وقال أبو العتاهية^(٢):

الموت باب وكل الناس داخله ياليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار جنة عدن إن عملت بها يرضي الإله وإن فرطت فالنار
هما محلان ما للناس غيرهما فاختر لنفسك ماذا أنت مختار

وقد ذكر أن الإمام أحمد رحمه الله كان يتمثل بالبيتين الأولين من هذه الثلاثة.

﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ﴾، أي: ونختبركم بالمصائب والنعم، والشدة والرخاء، والفقر والغنى، والحرام والحلال، والمعصية والطاعة، والضلال والهدى، وما تجبون وما تكرهون.

﴿فِتْنَةً﴾، أي: اختبارًا لكم وامتحانًا؛ لننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يجزع ويقنط، ومن يختار طريق الخير، ومن يختار طريق الشر؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

﴿وَالْيَا تَرْجَعُونَ﴾، أي: وإلينا تُردون فنحاسبكم ونجازيكم بأعمالكم، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [٣٦] خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [٣٧].

قوله: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: وإذا رآك يا محمد كفار قريش، ﴿إِنْ يَتَّخِذُونَكَ﴾ «إن»: نافية، أي: ما يتخذونك ويجعلونك ﴿إِلَّا هُزُوًا﴾، «إلا»: أداة حصر، أي: إلا محلاً للاستهزاء والسخرية، أي: يستهزئون بك، ويسخرون منك، ويتقصونك، قائلين: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾ الاستفهام للتعجب، والإشارة للتحقير، أي:

(١) البيت للشاعر ابن عثيمين، وهو مطلع قصيدة له في رثاء صديقه عبدالله العجيري، ملحقة في آخر «ديوان ابن مشرف» ص ١٨٧. وانظر: «موسوعة الشعر الإسلامي» (١/١٤٨).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ١٤١).

أهذا المحقر بزعمهم: ﴿الَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾، أي: يذكر آلهتكم بسوء، بقرينة المقام، أي: أهذا الذي يسب آلهتكم ويذمها؟ فلا تبالوه ولا تحتفلوا به.

﴿وَهُمْ يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ الواو: حالية، أي: يستهزئون بك، ويتعجبون من سبك آلهتهم، ويحتقرونك لأجل ذلك، ويغضبون من ذكر آلهتهم بما هو كشف لحالها المطابق للواقع، في حال كونهم كافرين بذكر الرحمن، غافلين عن القرآن الكريم، الذي هو الحقيق بأن يذكروه، منكرين كونه آية على صدقه ﷺ، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْجُذُونَكَ إِلَّا هُزُوا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِنَّ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾ [الفرقان: ٤١-٤٢].

فهم يعيرون النبي ﷺ في بيانه بطلان آلهتهم التي هي باطلة حقًا، وهم مع ذلك يكفرون بالرحمن الإله الحق، ويحتقرونه بما هو كماله، وهو إخلاص العبادة لله تعالى، وذم ما يعبد من دونه، وهم محل الاستهزاء والاحتقار؛ لكفرهم بربهم، وعبادتهم ما لا ينفع ولا يضر.

وفي قوله: ﴿يَذْكُرِ الرَّحْمَنَ﴾ بيان لقبح صنعهم، وأنهم قابلوا الرحمن مسدي النعم كلها ودافع النقم بالكفر والشرك؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد: ٣٠].

﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، أي: من صفته وطبيعته وجبلته العجلة، و«العجل» و«العجلة»: السرعة، وهذه الآية كقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١].

فخلق الله الإنسان من طبيعته وسجيته العجلة، يستعجل الأمور، ويستبطئ وقوعها؛ ولهذا يستعجل المؤمنون وقوع ما وعدوا به من النصر على أعدائهم؛ كما قال ﷺ: «والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»^(١).

(١) أخرجه البخاري في الإكراه ٦٩٤٣، وأبو داود في الجهاد ٢٦٤٩، من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

كما يستعجل المكذبون المستهزون وقوع العذاب فيهم لجهلهم استبعاداً له؛ لشدة تكذيبهم وعنادهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجَلْنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

ولهذا قال عز وجل: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾، أي: في انتقامي ممن كفر بي وعصاني وكذب رسلي.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾، أي: فلا تستعجلوا عذابي وانتقامي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٣٦] لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ [٣٦] بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ [٣٧].

قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، أي: ويقول الكفار والمشركون إمعاناً منهم في التكذيب والعناد، وغروراً وجهلاً، واستبعاداً لما توعدوا به: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ الاستفهام: لتهمكم، أي: متى وقوع هذا الوعد بعذابنا وإهلاكنا إن كنتم صادقين؟ فالمراد بالوعد في الآية: «الوعيد»؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧].

وما علموا أن الله عز وجل يمهل ولا يهمل، وأن كل شيء عنده بأجل مسمى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

وقال ﷺ: «إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ قول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]؛ ولهذا قال:

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٦٨٦، ٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٨٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣١١٠، وابن ماجه في العتق ٤٠١٨، من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ «لو» شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، «يعلم» فعل الشرط، وجوابه محذوف، يدل عليه السياق، تقديره: لما استمروا على ما هم عليه من الكفر والاستهزاء بالرسول ﷺ، وتكذيب القرآن، واستعجال العذاب ونحو ذلك.

أي: لو يعلم الذين كفروا ويتيقنون حين لا يدفعون ولا يدرؤون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم، أي: حين دخولهم النار وغشيانها لهم وإحاطتها بهم من كل جانب، لا يستطيعون دفعها بأنفسهم عن وجوههم، ولا عن ظهورهم.

وخص الوجوه والظهور؛ لأن الوجوه مجمع المحاسن وأولى ما ينبغي وقايته من النار، وذكر الظهور للدلالة على غشيان النار لهم من كل جانب؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر: ١٦]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطَرَانٍ وَتَعَشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارَ﴾ [إبراهيم: ٥٠].

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾، أي: من خارجهم، أي: لا أحد ينصرهم، فلا انتصروا لأنفسهم، ولا نصرهم غيرهم.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل تأتيهم النار ﴿بِعَذَّةٍ﴾، أي: فجأة. ﴿فَتَنبَهُتُهُمْ﴾، أي: فتحيرهم، قال تعالى: ﴿فَبِهَتِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٢٥٨]، أي: تحير وانداهش وانقطعت حجته.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾، أي: فلا قدرة لهم ولا حيلة لرد النار عنهم. ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾، أي: ولا هم يمهلون ولا يؤخر عذابها عنهم ساعة. قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿١١﴾ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿١٣﴾.

ذكر عز وجل قبل هذا استهزاءهم به ﷺ بقولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾، ثم بين بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ الآية، بأن هذا دأب

الأمم السابقة مع رسلهم، وأنه قد حاق بهم ما كانوا به يستهزئون، وفي هذا تسلية له ﷺ، ووعيد وتهديد للمستهزئين به من المشركين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾، أي: ولقد استهزئ وسخر برسل كثيرين من قبلك، أي: فلست أنت أول رسول يستهزأ به، وليس استهزاء قومك بك يبدع من فعل الأمم السابقة مع رسلهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾﴾ [الحجر: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾﴾ [الزخرف: ٦-٧]، وقال الرجل المؤمن: ﴿يَحْصِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [يس: ٣٠].

﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾، أي: فأحاط بالذين سخروا من الرسل، وحل بهم ونزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾، أي: الذي كانوا به يستهزئون، أي: الذي كانوا به يستهزئون من العذاب ويستبعدونه؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى في سورة الأنعام: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّ الْأُرْسُلِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنعام: ٣٤].

فليحذر المستهزئون المكذبون من قومك أن يصيبهم ما أصاب الأمم قبلهم. ﴿قُلْ مَن يَكْفُرْ كُفْرًا﴾، أي: قل يا محمد هؤلاء المكذبين المعرضين: ﴿مَن يَكْفُرْ كُفْرًا﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: من يحرسكم ويحفظكم ويجيركم. ﴿بِالْيَلِّ وَالنَّهَارِ﴾، أي: في جميع الأوقات ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾، أي: من بأسه وعذابه، أي: لا أحد يكلؤكم وينجيكم ويجيركم من بأسه وعذابه.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَّالٍ ﴿١١﴾﴾ [الرعد: ١١].

فالمعنى: لا أحد يكلؤكم من الرحمن ويجيركم من عذابه إلا هو سبحانه؛ ولهذا قال

ﷺ: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»^(١)، وقال: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك»^(٢).

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾، أي: بدل الرحمن، أي: هو الذي يكلؤكم وحده، لا كالمى لكم غيره، ولا حافظ لكم سواه.

وفي هذا امتنان على العباد بحفظه عز وجل وكلاءته لهم في جميع الأوقات، وأنه لا حافظ لهم غيره، ولا واعي لهم سواه.

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل هم عن ذكر ربهم القرآن الكريم، وعن عبادته عز وجل وطاعته وشكره.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ فلا يتأملون بقلوبهم في آياته، ولا يعترفون فيها بنعمه عليهم وإحسانه إليهم، ولا ينقادون بجوارحهم لامثال أمره واجتناب نهيهِ.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام، أي: بل لهم آلهة؟ والاستفهام: للإنكار والتفريع والتوبيخ، أي: لهم ﴿آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ﴾، أي: تحفظهم وتكلؤهم.

﴿مَنْ دُونِنَا﴾، أي: غيرنا؟ أي: ليس الأمر كما زعموا وتوهوا، فألتهم لا تملك شيئاً من ذلك؛ ولهذا قال:

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾، أي: فهذه الآلهة التي عبدوها من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم والدفاع عنها، فكيف ينصرونهم ويدفعون عنهم؟

﴿وَلَا هُمْ مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾، أي: ولا هم منا يجارون ويمنعون وينصرون ويعانون، وإذا لم يجاروا من الله وينصروا ويعانوا ويؤيدوا فهم مخذولون، لا يستطيعون جلب نفع أو دفع ضرر، وقد أحسن القائل:

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٧، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٧١٠، وأبو داود في الأدب ٥٠٤٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٩٤، وابن ماجه في الدعاء ٢٨٧٦، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٦، وأبو داود في الصلاة ٨٧٩، والنسائي في التطبيق ١١٠٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٣، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٤١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده^(١)
 قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا
 نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١١﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ
 وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿١٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ
 لَيَقُولُنَّ يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ
 نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿١٧﴾﴾.
 قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَءَابَاءَهُمْ﴾ الآية، «بل»: للإضراب الانتقالي.

أي: بل إنما حملهم على الاستمرار على ما هم عليه من الكفر والضلال اغترارهم
 بما متعناهم به من النعم هم وآباؤهم في هذه الحياة الدنيا.
 ﴿حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾، أي: حتى طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وألفوا
 ما هم فيه، وظنوا أنهم على شيء؛ كما قال تعالى عن أهل الكتاب: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ
 فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فُسِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الحديد: ١٦].

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ الاستفهام: للتوبيخ
 والتقريع، أي: أفلا ينظرون ويتأملون ويعتبرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها؛
 بنصر الله تعالى لأوليائه، وإهلاك المكذبين والقرى الظالمة؟ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا
 مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الأحقاف: ٢٧]؛ ولهذا قال:

﴿أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: ليسوا هم الغالبون، بل هم
 المغلوبون الأسفلون، الأخسرون الأردلون؛ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا
 وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة: ٢١].

وأيضاً: أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها بموت أهلها وفنائها شيئاً
 فشيئاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين.

فلا يغتروا بما هم فيه من متاع الدنيا، فليسوا هم الغالبون، الذين بوسعهم الخروج
 عن قدر الله، والامتناع عن الموت والفناء.

(١) البيت ينسب لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «الفرج بعد الشدة» (١/١٧٧).

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: قل يا محمد للناس، وبخاصة المكذبين منهم: إنما أنذركم، أي: أخوفكم وأحذركم من العذاب والنكال بالوحي الذي أوحاه الله تعالى إليّ، أي: ما أنذركم إلا بالوحي الذي أوحاه تعالى إليّ، لا بشيء من عندي.

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ قرأ ابن عامر بالتاء مضمومة وكسر الميم: «تُسمع»، ونصب «الصُّمَّ»، وقرأ الباقون بالياء مفتوحة وفتح الميم، ورفع الصم: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ﴾.

و«الصم»: جمع «أصم»، وهو الذي لا يسمع، أي: الذي قد انسد عنده طريق السمع الحسي وتعطل، ﴿الدُّعَاءُ﴾ النداء، ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ولا يسمع الصم الدعاء بسبب ما في آذانهم من الصمم الذي عطل أسماعهم، أي: وكما لا يسمع الصم الذين انسد لديهم طريق السمع الحسي بالأذان النداء، فكذلك- بل أشد- من أصيبوا بالصمم المعنوي: صمم القلوب لا يسمعون الدعاء إذا ما أنذروا وخوفوا عذاب الله؛ لعمى قلوبهم وما عليها من الأكنة والغلف؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ذَاتِنَا وَقُرْ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ فاعْمَلْ إِنَّا نَحْمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨].

﴿وَلَيْن مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أصابتهم ﴿نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، أي: جزء ونصيب يسير، أي: أدنى شيء من عذاب ربك ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن معترفين بظلمهم واستحقاقهم العذاب، نادمين على ذلك، حين لا ينفع الندم داعين على أنفسهم بالويل والثبور: ﴿يَوَيْلَنَا﴾، أي: يا هلاكنا ويا مصيبتنا وعذابنا.

﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ اعتراف منهم على أنفسهم بأنهم كانوا ظالمين بكفرهم وشركهم، وندم حيث لا ينفع الندم؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَاءَ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٥].

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾، أي: ونضع أدوات الوزن العدل.

﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، أي: لوزن أعمال الخلائق يوم القيامة لمحاسبتهم ومجازاتهم عليهم؛

كما قال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾
وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْمُونَ ﴿٩﴾﴾
[الأعراف: ٨-٩].

﴿فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾، أي: فلا تظلم نفس مؤمنة أو كافرة.
﴿شَيْئًا﴾ نكرة في سياق النفي فتعم، أي: فلا تظلم نفس أي شيء، صغيرًا كان أو كبيرًا، قليلًا أو كثيرًا، أو غير ذلك، بأن ينقص من حسناتها أو يزداد في سيئاتها.
﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر برفع اللام: «مِثْقَالٌ»،
وقرأ الباقون بنصبها: «مِثْقَالٌ»، أي: وإن كان هذا الشيء ﴿مِثْقَالٌ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾،
أي: وزن حبة من خردل، أي: وزن ذرة، التي هي أصغر الأشياء وأقلها وأحقرها.
﴿آتَيْنَا بِهَا﴾، أي: أحضرناها ليجازى بها صاحبها؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى:
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَوُتِّ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا
عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال: ﴿يَبْنِيْ إِيَّاهَا إِنْ تَكَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ
لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّاتُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا
أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿وَكَفَىٰ بِنَا﴾، أي: حسبننا، وما أعظم كفايتنا ﴿حَسْبَيْنَ﴾، أي: حاسبين لأعمال
الخلائق، مثبتين حافظين لها، عالين بمقاديرها ومقادير ثوابها، مجازين عليها.
عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله
عز وجل يستخلص رجلاً من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينشر عليه تسعة
وتسعين سجلاً، كل سجل مد البصر، ثم يقول: تنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتكَ كتبتي
الحافظون؟ قال: لا يا رب. قال: أفلك عذر وحسنة؟ قال: فبهت الرجل، فيقول: لا يا
رب. فيقول: بلى، إن لك عندنا حسنة واحدة، لا ظلم اليوم عليك. فيخرج له بطاقة،
فيها: «أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله». فيقول: أحضره، فيقول: يا

رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تظلم. قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، قال: فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، قال: ولا شيء يثقل بسم الله الرحمن الرحيم»^(١).

الفوائد والأحكام:

- ١- لا خلود لأحد من البشر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾.
- ٢- تربص المشركين المكذبين به ﷺ، وانتظارهم موته؛ لتموت معه دعوته كما يتوهمون، ويقون بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾.
- ٣- أن كل نفس ذائقة الموت، وشاربة كأسه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.
- ٤- ابتلاء الخلق وامتحانهم بالشر والخير، بالمصائب والنعم، والشدة والرخاء، والفقر والغنى، ليتبين من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يجزع؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَبَلِّغُكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.
- ٥- رجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، ومحاسبته ومجازاته إياهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَرْجَعُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].
- ٦- استهزاء الكفار بالنبي ﷺ عند رؤيتهم إياه واحتقارهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذًا رَّءَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾.
- ٧- بيانه ﷺ بطلان عبادة الأصنام وذمها؛ لقولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾، أي: يذمها ويذكرها بالسوء، ويبين بطلان عبادتها.
- ٨- تعجب المشركين بل وإنكارهم وغضبهم لذكر آلهتهم بما هو كشف لحالها المطابق للواقع، وبيان بطلان عبادتها، مع أنهم في الحال يكفرون بذكر الرحمن الإله

(١) أخرجه أحمد ٢ / ٢١٣، والترمذي في أبواب الإيمان، فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله ٢٦٣٩، وابن ماجه في الزهد، ما يرجي من رحمة الله يوم القيامة ٤٣٠٠.

الحق، فكيف يعيبون عليه ﷺ بيان بطلان عبادة آلهتهم التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً مع كفرهم بالرحمن الإله الحق الذي له الخلق والأمر، وييده النفع والضرر، وكيف يحتقرونه بما هو كماله وهو إخلاصه العبادة لله تعالى رب العالمين، خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، ولا يحتقرون أنفسهم بما هو أعظم النقص، وهو عبادتهم ما لا يملك نفعاً ولا ضرراً، هذا أمر في غاية التناقض، وهو المثير للدهشة والعجب حقاً.

٩- إثبات اسم الله «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾، وقوله: ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ﴾.

١٠- أن الإنسان خلق طبيعته وسجيته العجلة في أموره؛ لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ ولهذا فالكفار لجهلهم وعجلتهم يستعجلون العذاب، والمؤمنون لعجلتهم يستعجلون موعود الله لهم بنصرهم وإهلاك عدوهم.

١١- الوعيد والتهديد لمن كفر بالله وعصى أمره وكذب رسله؛ لقوله تعالى: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُون﴾.

١٢- استبعاد الكفار ما تُوعِدُوا به من العذاب، وتكذيبهم به، وسؤالهم رسلهم تهكماً واستعجالاً: متى هذا الوعد؟ لقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾.

١٣- تأكيد وقوع ما توعِدُوا به من عذاب النار مما لا يستطيعون كفه عن وجوههم ولا عن ظهورهم، وأنهم لو علموا حقيقة ذلك لما استمروا على ما هم عليه من الكفر والاستهزاء بالرسول ﷺ، وتكذيب القرآن، واستعجال العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ...﴾ الآية.

١٤- غشيان النار وإحاطتها بالكفار من كل جانب؛ لقوله تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكْفُوتُ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ ففي ذكر الوجوه بيان حرق النار لمحاسنهم وإهانتهم، وفيه وفي ذكر الظهور بيان إحاطتها بهم.

١٥- أنه كما لا قدرة للكفار في كف النار عنهم بأنفسهم، فلا ناصر لهم من خارجهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُنصرون﴾.

١٦- إتيان النار أهلها فجأة فتبتهتهم وتحيرهم، فلا يقدر على ردها، ولا هم

يمهلون فيؤخر عنهم عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾.

١٧- تسلية الرسول ﷺ، بذكر استهزاء المكذبين بالرسول من قبله، وإحاطة ما استهزأوا به فيهم، وتحذير وتهديد المستهزين به من قومه أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

١٨- إطباق المكذبين للرسول على الاستهزاء بهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١١﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١٠-١١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَّبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزخرف: ٦-٧].

١٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

٢٠- الامتنان على العباد بحفظ الله تعالى، وكلاءته لهم بالليل والنهار وجميع الأوقات من بأسه وعذابه، فلا حافظ لهم سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾.

٢١- إعراض الكفار والمكذبين عن القرآن الكريم وذكر الله تعالى بقلوبهم، وتوليهم عن الانقياد لذلك بجوارحهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾.

٢٣- الإنكار على المشركين اعتقادهم الباطل أن آلهتهم تمنعهم وتحفظهم من دون الله، وتقرعهم وتوبيخهم، وبيان أن آلهتهم لا يستطيعون نصر أنفسهم، وليسوا معانين من الله، فكيف ينصرونهم؟! لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ﴾، وفي هذا إبطال زعمهم أنهم لهم شفعاء؛ كما في قولهم: ﴿مَا تَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

٢٤- أنه إنما حملهم على الاستمرار على الشرك والكفر والضلال اغترارهم بما

مُتَعَوِّبًا بِهِمْ وَأَبَاؤُهُمْ مِنَ النِّعَمِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، اسْتَدْرَاجًا لَهُمْ، حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾.

٢٥- أن إدراج النعم والتمتع بها قد يكون فتنة واستدراجًا، فيجب عدم الاغترار بذلك؛ كما قال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُغْنِيَنَّ عَنْ وَالِدِهِنَّ الْمَالَ وَالْبَنَاتُ يُغْنِيَنَّ عَنْ وَالِدِهِنَّ الْمَالَ وَالْحَنَانُ يَفْتَنُ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦-١٧]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤].

٢٦- وعيد هؤلاء المكذبين المعتزين بما متعوا به هم وآباؤهم، وتهديدهم بسلب ما هم فيه، وأن يحل بهم مثل ما حل بالقرى الظالمة وبالمكذبين قبلهم من إهلاكهم، ونصر الله تعالى لأوليائه، فليسوا بالغالبين ولا الممتنعين؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

٢٧- أن النبي ﷺ إنما ينذر الكفار والمكذبين بالوحي الذي أنزله الله تعالى عليه، وليس بشيء من تلقاء نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾.

٢٨- أن الإنذار والدعاء لا يجدي فيمن أعمى الله بصيرته، وختم على سمعه وقلبه، فهو كالأصم حسيًا لا ينفذ الدعاء والإنذار إلى سمعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾.

٢٩- أنه لو أصاب هؤلاء المكذبين المعرضين أدنى شيء من عذاب الله لاعترفوا بظلمهم واستحقاقهم للعذاب، وندموا حين لا ينفع الندم، ودعوا على أنفسهم بالويل والثبور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

٣٠- تمام عدل الله عز وجل في محاسبة الخلائق يوم القيامة، فلا تظلم نفس شيئًا، بنقص من حسناتها، أو زيادة في سيئاتها، ولو كان ذلك قدر مثقال ذرة أتى بها الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا﴾.

٣١- إثبات الموازين ووزن الأعمال يوم القيامة، وفي الحديث: «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله

العظيم»^(١).

٣٢- كفاية الله تعالى التامة في حسابه الخلائق؛ لعلمه التام بهم وكمال قدرته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾، وفي هذا ضمان للعدل، وترغيب في الثواب، وترهيب من العذاب.

* * *

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، قوله تعالى: ٧٥٦٣، ومسلم في الذكر وفضل التهليل والتسبيح والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب ٣٨٠٦، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَيْدَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ آعِينِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوكُم بِإِن كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يُهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مَنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنبياء: ٤٨ - ٥٠].

هذا شروع في ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام، وما لقوه من المكذبين من أمهم، وصبرهم في سبيل ذلك، حتى صارت العقبي لهم، بنصرهم وإنجائهم، وإهلاك

المكذبين لهم، وبيان أن هذه سنته في السابقين؛ كما قال تعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٧٧﴾ [الإسراء: ٧٧]، وفي هذا تسلية له ﷺ، وتقوية لقلبه، تجاه ما يلقي من أذى قومه، وتحذير وتهديد ووعيد للمكذبين له.

وابتداً بذكر قصة موسى وأخيه - والله أعلم - لمعرفة العرب بكتابهم، ووجود بعض أهل الكتاب في جزيرة العرب.

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ الواو استئنافية، واللام لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق. ﴿ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾، أي: آتينا موسى أصلاً وهارون تبعاً ﴿الْفُرْقَانَ﴾، أي: الكتاب العظيم «التوراة» التي فيها الفرق بين الحق والباطل، والكفر والإيمان، والهدى والضلال، والرشاد والغي، والعدل والجور.

﴿وَضِيَاءَ﴾، أي: وهدى ونوراً يهتدى به في معرفة الأحكام، وتمييز الحلال من الحرام، ومحاربة الجهل والبدع والخرافات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

﴿وَذَكَرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: تذكيراً وموعظة لهم، يتذكرون به ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيجتنبونه، وخصهم؛ لأنهم هم المنتفعون بذلك علماً وعملاً.

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ الآية، تفسير للمتقين، أي: الذين يخافون ربهم ويؤمنون به، وهو غيب لأنهم يرونه؛ كما قال ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(١).

ويخشونه ويخافونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما ألزم، وفي هذا امتداح لهم؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ حَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ ﴿٣٣﴾ [ق: ٣٣]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿١٢﴾ [الملك: ١٢].

﴿وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ الواو: عاطفة، والجملة معطوفة على «يخشون» من

(١) أخرجه البخاري في الإبان ٥٠، ومسلم في الإبان ٩، والنسائي في الإبان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

باب عطف الصفات، أي: وهم من القيامة وأهوالها وعذابها خائفون؛ كما قال: ﴿وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: ١٨].

فجمعوا لكمال معرفتهم بربهم وعظمته بين الإحسان بتقواه وخشيته، والخوف من
الساعة والاستعداد لها.

﴿وَهَذَا﴾، أي: وهذا القرآن العظيم ﴿ذِكْرٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ۝١﴾ [ص: ١]، وقال
تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝١﴾ [الحجر: ٩]، أي: تذكير وموعظة
وشرف ورفعة.

﴿مُبَارَكٌ﴾، أي: كثير البركة والخير والنعف؛ لاشتماله على مصالح الدين والدنيا
والآخرة، به السعادة والنجاة في الدنيا والآخرة، ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ من عندنا.

كما قال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥﴾
[الأنعام: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ ۝١﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١﴾ [إبراهيم: ١]، وقال تعالى:
﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا
نَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وكثيراً ما يقرن عز وجل بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وكتابيهما؛ لأن
كتابيهما أفضل كتب الله، وشريعتهما أعظم وأوسع الشرائع، ومحمد ﷺ أفضل ذوي
العزم من الرسل، وموسى عليه الصلاة والسلام ثالثهم.

﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أفأنتم لهذا القرآن
العظيم الذي هو غاية في الجلاء والظهور، المبارك الذي من الله بإنزاله على هذه الأمة
﴿مُنْكَرُونَ﴾، أي: جاحدون له مكذبون به.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ۝٥١﴾ إِذْ قَالَ
لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا لَهَا عِبَادِينَ ۝٥٣﴾
قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ
الْمُتَكَلِّفِينَ ۝٥٥﴾

الْعَالَمِينَ ﴿٥٦﴾ قَالَ بَلْ رَزَقَكُمُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ [الأنبياء: ٥١ - ٥٦].

قوله: ﴿٥٦﴾ وَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴿٥٦﴾، أي: أعطيناه الهداية والنبوة، ووقفناه للحق والتوحيد الخالص، وخصصناه بالخلعة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبل أن نوتي موسى وهارون الفرقان، أي: من قبل نزول التوراة. وقيل: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما.

﴿وَكُنَّا بِهٖ عَالِمِينَ﴾ أنه أهل لذلك لذكائه وذكائه، وسلامة قلبه، ونقاء سيرته؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الدخان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ - ٣٤].

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾، أي: إذ قال لأبيه «آزر» وقومه المشركين: ﴿مَا هٰذِهِ التَّمَاثِيلَ﴾ الاستفهام للتحقير، والإنكار عليهم، والتوبيخ لهم.

و«التمثيل»: جمع «تمثال»، وهي الأصنام التي صنعوها ومثلوها ونحتوها بأيديهم على صور بعض المخلوقات، ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾، أي: عليها عاكفون، أي: مقيمون على عبادتها، ملازمون لها.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾، أي: وجدنا آباءنا وأجدادنا لهذه التماثيل عابدين، فنحن نعكف عليها ونعبدها مثلهم، فلم يكن لهم حجة إلا صنيع آبائهم الضلال، يقلدونها على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قريةٍ من نذيرٍ إلا قال مُّتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ [الزخرف: ٢٢ - ٢٣].

ولهذا قال: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾، أي: والله لقد كنتم أنتم وآبائكم في ضلال مبين، أي: ضلال بين واضح، في عكوفكم على التماثيل، وعبادتكم الأصنام، وإشراككم بالله؛ إذ لا ضلال أشد وأعظم من الشرك بالله تعالى.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ﴾، أي: قالوا على وجه الاستغراب: أجتئنا بما هو الحق؟

﴿أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ﴾ «أم»: هي المتصلة حرف عطف، أي: أم أنت من اللاعبين، أي: كلامك كلام لاعب مستهزئ، لم نسمع به قبلك.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: بل ربكم الذي لا إله غيره هو رب السموات والأرض.

﴿الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾، أي: خلقهن وما فيهن من جميع المخلوقات، وهو المستحق للعبادة وحده، لا إله غيره، ولا رب سواه.

﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: وأنا على وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته من الشاهدين، أشهد أنه لا إله غيره، ولا رب سواه.

قوله تعالى: ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٩﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٦٣﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٧١﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٧٧﴾

قوله: ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿لما بين لهم ضلالهم في عبادتهم ما لا يملك من التدبير شيئاً، أراد أن يريهم بالفعل عجزها؛ ليحصل إقرارهم بذلك.

قوله: ﴿وَتَأْتِيهِمُ اللَّيْلُ بَعْدَ النَّهَارِ إِذْ هُمْ يُسْأَلُونَ عَنِ اللَّيْلِ وَقَالُوا هِيَ اللَّيْلُ الَّتِي جَاءَنَا وَإِنَّا بِهِيَ لَنَافِلُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿واقعة في جواب القسم، و«الكيد»: التحيل والمكر والتدبير بخفية لإلحاق الضرر، أي: لأحتال لإلحاق الضرر والأذى بأصنامكم وتكسيها بخفية.

﴿بَعْدَ أَنْ تُولُؤُوا مُدْبِرِينَ﴾، أي: بعد انصرافهم إلى عيدهم مباشرة، وكان لهم عيد يخرجون إليه.

وفي هذا تأكيد منه على عزمه على فعل ذلك، مبادرة منه إلى إنكار المنكر.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ قرأ الكسائي: «جُدًا» بكسر الجيم، وقرأ الباقون: ﴿جُدًا﴾ بضمها، أي: فجعل أصنامهم جُدًا، أي: حطامًا وقطعًا صغيرة، وكسرها كلها.

﴿إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ «إلا»: أداة استثناء، «كبيرًا»: منصوب على الاستثناء، أي: إلا الصنم الكبير عندهم.

﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾، أي: لعل قومه إلى هذا الصنم الكبير يرجعون، أي: إن إبراهيم ترك تكسير صنمهم الكبير؛ لأجل أن يرجعوا إلى هذا الصنم فيعتقدوا أنه هو الذي غار لنفسه، ويحتمل أن الضمير في «إليه» يعود إلى إبراهيم عليه السلام، أي: لعل قومه يرجعون إليه ويستمعون له، ويلتفتون إليه، ولا يعرضون عنه.

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾، أي: من الذي فعل هذا الفعل بآلهتنا فكسرها، وجعلها جذاذاً؛ كما قال تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ صَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿١٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الصافات: ٩٣ - ٩٤].

﴿إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن الذي فعل هذا لمن الظالمين غاية الظلم. ﴿قَالُوا﴾، أي: قال من سمع إبراهيم يقول: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ الآية [الأنبياء: ٥٧].

﴿سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُرُهُمْ﴾، أي: سمعنا شاباً يعيبهم ويذمهم ويتوعد بكيدهم. ﴿يُقَالُ لَهُ إِبرَاهِيمُ﴾، أي: يسمى إبراهيم. ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾، أي: بمرأى من الناس ومسمع، وعلى رؤوس الأشهاد، وبحضرة الناس كلهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، أي: لأجل أن يحضروا ويشهدوا عليه وعلى ما يقول، ويشهدوا ما يصنع به.

ويا سبحان الله! فما دعوا إليه من هذا المجمع الكبير والإتيان به عليه السلام، ليشهدوا الناس عليه، هو الذي أراده إبراهيم؛ ليكون بيان الحق بمشهد من الناس؛ وتقوم عليهم الحجة، ويظهر جهلهم وسفه عقولهم في عبادة ما لا يسمع ولا يضر ولا ينفع؛ كما قال موسى حين واعد فرعون وملاؤه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٩].

﴿قَالُوا﴾ حين حضر الناس، وأتوا بإبراهيم: ﴿ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا ابْنِ بَرَاهِيمَ﴾، أي: أنت فعلت هذا التكسير بآلهتنا يا إبراهيم؟ والاستفهام فيه معنى التقرير، أي: هل أنت الذي فعلت هذا الفعل؟ وما الذي جرّك على ذلك؟ ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُو كَيْدُهُمْ هَذَا﴾ بل: للإبطال ونفي أن يكون هو الفاعل لذلك، أي:

الذي فعل ذلك هو ﴿كَبُرُهُمْ هَذَا﴾، أي: كبير آهنتهم؛ يعني: الصنم الذي تركه فلم يُكسِّره بقصد إلزامهم، وإقامة الحجة عليهم، ولهذا قال: ﴿فَسَتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، أي: فاسألوا هذه الآلهة من فعل هذا بهم ﴿إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾؟ ومراده عليه السلام بهذا: أن يبادروا من تلقاء أنفسهم، فيعترفوا أنهم لا ينطقون. قال ابن القيم: يعني أن كبير الأصنام غضب أن تعبد هذه الأصنام الصغار معه فكسرها.

فعرض إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه من هذا الكلام: إقامة الحجة عليهم؛ لأنه قال: ﴿فَسَتَلَوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ هذا على سبيل الاستهزاء بهم، وهذا من رموز الكلام، والقصد فيه أن إبراهيم عليه السلام لم يكن القصد الصادر عنه إلى الصنم، إنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها، على أنه أسلوب من الفصاحة آخر يقتضي أن يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجة، وتبكيتهم والاستهزاء بهم^(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات: ثنتين في ذات الله، قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾. قال وبينما هو يسير في أرض جبار من الجبابرة ومعه سارة إذ نزل منزلاً، فأتى الجبار رجل فقال: إنه نزل بأرضك رجل معه امرأة أحسن الناس، فأرسل إليه فجاءه، فقال: ما هذه المرأة معك؟ قال: هي أختي، قال: فاذهب، فأرسل بها إليّ، فانطلق إلى سارة، فقال: إن هذا الرجل سألني عنك، فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني عنده، فإنك أختي في كتاب الله، وأنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، فانطلق بها إبراهيم، ثم قام يصلي، فلما أن دخلت فرأها أهوى إليها فتناولها، فأخذ أخذًا شديدًا. قال: ادعي الله لي ولا أضرك، فدعت له فأرسل، فأهوى إليها فتناولها، فأخذ بمثلها أو أشد، ففعل ذلك الثالثة فأخذ، فذكر مثل المرتين الأولين، فقال ادعي الله، فلا أضرك، فدعت له فأرسل، ثم دعا أدنى حجابها، فقال: إنك لم تأتني بإنسان، أتيتني بشيطان، أخرجها وأعطها هاجر. فأخرجت وأعطيت هاجر، فأقبلت، فلما أحس إبراهيم بمجيئها انفتل من صلاته قال: مهيم^(٢)؟

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ١٨٨).

(٢) أي: ما شأنك وما خبرك؟

قالت: كف الله كيد الكافر والفاجر، وأخدمني هاجر» (١).

قال محمد بن سيرين: فكان أبو هريرة رضي الله عنه إذا حدث بهذا الحديث قال: «فتلك أمكم يا بني ماء السماء» (٢).

قوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: فرجعوا وعادوا إلى أنفسهم بالملامة، أي: رجع كل منهم إلى نفسه، ورجع بعضهم إلى بعض، وأقبل بعضهم على خطاب بعض. ﴿فَقَالُوا﴾، أي: فقال بعضهم لبعض: ﴿إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الجملة مؤكدة بـ«إن»، وبضمير الفصل «أنتم»، وبكونها جملة اسمية معرفة الطرفين، تفيد الحصر، أي: إنكم أنتم الظالمون في اتهامكم لإبراهيم بتكسيها قبل أن نسألها عن فعل بها ذلك، ويظهر أن الذي فعله كبيرهم.

﴿ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾، أي: ثم رجعوا إلى عنادهم وضلالهم، فبعد أن كادوا يعترفون بحجة إبراهيم رجعوا إلى المكابرة لما غلبوا، فاحتجوا على إبراهيم بما هو حجة له عليهم، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾، أي: فكيف تقول لنا: سلوهم إن كانوا لا ينطقون، وأنت تعلم أنهم لا ينطقون؟ أنتهكم وتستهزئ بنا؟ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والتفريع والتوبيخ، أي: لما اعترفوا أن هؤلاء الآلهة لا ينطقون أنكر عليهم عبادتهم، وهم في هذه الحالة من الضعف، فقال: أفتعبدون غير الله ﴿مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾، أي: الذي لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم.

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ ٣٣٥٨، ومسلم في الفضائل،

فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام ٢٣٧١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) وقول أبي هريرة: «فتلك أمكم يا بني ماء السماء» يعني: العرب؛ لخلوص نسبهم وصفائه، وقيل: لأنهم

أصحاب مواشٍ، وعيشهم على المرعى والخصب، وما ينبت بهاء السماء.

و«شيئاً»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: الذي لا يقدر على جلب أي نفع لكم، ولا دفع أي ضرر عنكم.

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: قبلاً لكم وللذي تعبدون غير الله، وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، ولم يقل: «من دونه»؛ لتعظيمه عز وجل، وزيادة البيان، وتشنيع عبادة غيره.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتفريع والتوبيخ، أي: أفلا تتفكرون بعقولكم وتعلمون ما أنتم عليه من الضلال والكفر في عبادتكم ما لا ينفع ولا يضر؟! وبهذا أقام عليه السلام عليهم الحجة؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ [الأنعام: ٨٣].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَبْنَازُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾.

لما غلبهم بالحجة القاهرة، وظهر الحق، وبان عجزهم وبطلان ما هم عليه من عبادة ما لا ينفعهم ولا يضرهم، لجؤوا إلى معاقبته بالقوة، فقالوا:

﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ﴾، أي: حرقوه بالنار، والتحريق: المبالغة في الحرق، واختاروا التحريق للنكاية به؛ لأن التحريق أشد ما يعاقب به وأفظع وأهول.

﴿وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ﴾، أي: وانتصروا لآهتكم، بإحراق من اعتدى عليها وكسرها وأهانها، بقتله أشنع قتلة؛ غضباً لآهتكم وانتصاراً لها.

﴿إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ تحريض وتلهيب لحميتهم، أي: إن كنتم فاعلين الانتصار لها فنفذوا ذلك، ولهذا قال تعالى:

﴿قُلْنَا يَبْنَازُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٦٩﴾، أي: قلنا للنار وأمرناها أمراً كونياً أن تكون برداً فتقلب حرارتها برودة ﴿وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ بحيث لا يؤذيه بردها. قال المفسرون: لو لم يقل الله: ﴿وَسَلَامًا﴾ لآذاه بردها.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:

[١٧٣] (١).

قال بعض السلف: «عرض له جبريل وهو في الهواء، فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى» (٢).

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ حيث عزموا على إحراقه ودبروا ذلك بخفية.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ «الأخسرين»: جمع «أخسر»: اسم تفضيل يفيد القصر والمبالغة، أي: فصيرناهم الأخسرين الخائئين المغلوبين، الذين بلغوا الغاية في الخسران، وخاب مسعاهم، فخسارتهم لا تدانيها خسارة، فكأنهم انفردوا بوصف الأخسرين، فلا يصدق هذا الوصف على غيرهم؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [الصافات: ٩٨].

قوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴿٧٦﴾ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٨﴾ وَلُوطًا إِتَيْنَهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَذَسِقِينَ ﴿٧٩﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٠﴾.

قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ﴾ ونجينا إبراهيم عليه السلام نجاة ثانية بعد أن نجيناه من النار. ﴿وَلُوطًا﴾، أي: ونجينا لوطًا مع إبراهيم؛ لأنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، وهو ابن أخيه هارون بن آزر، قال تعالى: ﴿فَقَامَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦].

﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: بخروجها من بين ظهراي أعدائهم الكفار من «بابل» في أرض العراق، وهجرتها من دار الكفر والشرك، ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: إلى بلاد الشام والأرض المقدسة ﴿الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ بكونها مهد كثير من الرسالات، وفيها بيت المقدس ثالث المساجد التي تشد إليها الرحال، وبخصب أرضها، وطيب مائها، واعتدال جوها،

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٥٦٣.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٣٤٥/٥.

وكثرة خيراتها، قال تعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾، أي: وهبنا له ابنه إسحاق بعد اعتزاله قومه، وبعد دعوته: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، وذلك بعدما كبر وكانت امرأته عاقراً، قال تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لَهُ يَسَّحِقَ بِبَيْتًا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١١٢]، وقد وهبه الله إسماعيل قبل ذلك؛ كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩].

﴿وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، أي: وهبنا له يعقوب بن إسحاق ﴿نَافِلَةً﴾ زيادة عما سأل، وعطية وفضلاً، قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدِيْنَا﴾ [الأنعام: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾، أي: وكلًا من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلنا صالحين؛ مخلصين العمل لله تعالى، متبعين لشرعه، قائمين بحقوقه وحقوق عباده.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً﴾ يقتدى بهم في الخير والصلاح، استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾، أي: يهدون الناس، ويدعونهم إلى الحق، ويدلونهم على الخير. ﴿بِأَمْرِنَا﴾، أي: بأمرنا وإذننا الشرعي، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَابَتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾، أي: وأوحينا إليهم وأهمناهم فعل الخيرات عموماً، ووقفناهم إلى ذلك، من حقوق الله تعالى وحقوق العباد.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةَ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: وإقام الصلاة إقامة تامة؛ كما شرعها الله تعالى، وإعطاء الزكاة من المال لمستحقيها، وخص الصلاة والزكاة، لعظم مكانتهما في الشرع، فالصلاة أعظم العبادات البدنية، وفيها تمام الإحسان في عبادة الله تعالى، والزكاة أعظم العبادات المالية، وفيها تمام الإحسان إلى عبادة الله.

﴿وَكَاؤُوا لَنَا عَيْدِينَ﴾ هذا أشبه بعطف العام على الخاص، أي: مديمين على عبادة الله تعالى باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وجوارحهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَاؤُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿وَلُوطًا﴾ الواو: عاطفة، أو استئنافية، أي: واذكر نبينا ورسولنا لوطًا، وهو: لوط بن هارون بن آزر.

﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، أي: أعطيناه بالنبوة حكمًا بين الناس بالعدل والصواب والسداد، وعلماً بالشريعة.

﴿وَجَعَلْنَاهُ مِنَ الْقَرِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْحَبِيثَ﴾، أي: وخلصناه من القرية التي كانت تعمل الأعمال الخبيثة وفاحشة اللواط، وهي قرية «سدوم» الذين بعثه الله إليهم فكذبوه وخالفوه، فأهلكهم الله وجعل عالي ديارهم سافلها، وأتبعها بالحجارة. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَاسِقِينَ﴾ الجملة: مستأنفة بيانية، أو تعليلية، أي: لأنهم كانوا قوم سوء خارجين عن طاعة الله تعالى.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ بالتوفيق والنصر والتأييد والثناء الحسن في الدنيا، وبدخول الجنة في الآخرة.

﴿إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الجملة: تعليلية، أي: لأنه من الصالحين الذين صلحت أعمالهم وزكت أحوالهم بالإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه.

والصلاح من أعظم الأسباب للدخول في رحمة الله وجزائه، وهو من أخص أوصاف الأنبياء عليهم السلام؛ ولهذا قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقْ بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

قوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [٦٦] وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا سَوِيًّا فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ [٦٧].

قوله: ﴿وَنُوحًا﴾، أي: واذكر نبينا ورسولنا نوحًا ﴿إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبل من ذكر من الرسل؛ لأنه كان أول الرسل، أي: حين دعا على قومه لما كذبوه، فقال: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَازَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، أي: فاستجبنا له دعاءه، ﴿فَجَازَيْنَاهُ﴾، أي: فخلصناه ﴿وَأَهْلَهُ﴾ وهم أهل بيته عدا أحد ابنيه، وهو الذي كفر به؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَاسْأَلْكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧].

﴿مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾، أي: من كرب الطوفان العظيم. ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا﴾، أي: ومنعناه وحميناه منهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ مَتَّأ لَا تُنصِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ﴾، أي: أهل كفر وفساد، وتكبر وعناد. ﴿فَأَعْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي: فأهلكناهم بالغرق بالطوفان كلهم جميعًا، فلم نبق منهم على وجه الأرض أحدًا.

وهكذا عاقبة الكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله وتكذيب رسله، وفي هذا تهديد لكفار قريش وغيرهم من المكذبين من هذه الأمة.

الفوائد والأحكام:

١- ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام وما جرى لهم مع أممهم، وما لقوه منهم من أذى، ومن ثم نصر الله تعالى لرسله وإنجاؤهم، وإهلاك أعدائهم المكذبين، تسلية للنبي ﷺ وتقوية لقلبه، وتحذيرًا وتهديدًا للمكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾ الآيات.

٢- إثبات رسالة موسى وهارون عليهما السلام وإيتائهما التوراة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾.

٣- ثناء الله عز وجل على التوراة وامتداحه لها؛ لعظم مكانتها، فهي أفضل كتب

الله عز وجل بعد القرآن الكريم، فيها بيان الفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والإيمان والكفر، وهي ضياء ونور، وتذكير وموعظة للمتقين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٨﴾﴾.

٤- أنه إنما يتذكر ويتفجع بكتب الله تعالى ووحيه إلى رسله المتقين الذين يخشون ربهم، وهو غيب لم يروه، وحال غيبتهم عن أعين الناس، مع إشفاقهم من الساعة واستعدادهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿١٩﴾﴾.

٥- ثناء الله عز وجل على المتقين، وامتداحه لهم بخشيتهم له بالغيب، وهم لم يروه، وهذه درجة الإحسان، وخشيتهم له أيضاً حال غيبتهم عن الناس، فلا يراؤون الناس بأعمالهم، وإنما يراقبون الله وحده، مع إشفاقهم وخوفهم من الساعة وأهوالها.

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه المتقين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُمْ﴾.

٧- إثبات الساعة والقيامة، وأهوالها، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.

٨- ينبغي أن يجمع العبد بين تقوى الله بفعل أو امره واجتناب نواهيه، وبين خشيته وخوفه ورجائه، فلا يُدل على الله بعمله.

٩- تعظيم الله عز وجل للقرآن الكريم، والتنويه بشأنه، وامتداحه بكونه تذكيراً وموعظة، كثير النفع والخير، والامتنان بإنزاله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾.

١٠- الجمع بين ذكر موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام وكتابيهما هنا وفي مواضع كثيرة من القرآن؛ لأن كتابيهما أفضل كتب الله، فالقرآن أفضل كتب الله على الإطلاق، وبعده التوراة، ولأن شريعتيهما أعظم وأوسع الشرائع.

١١- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، فله عز وجل العلو المطلق، علو الذات وعلو الصفات.

١٢- أن القرآن الكريم منزل من عند الله، وكلامه عز وجل، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾.

١٣- الإنكار والتفريع والتوبيخ لمن أنكروا القرآن، وما فيه من الذكر والبركة، وكذبوه، وهو منزل من عند الله، وفي غاية الجلاء والوضوح؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُوٌ﴾.

مُنِكْرُونَ ﴿٤٨﴾.

١٤- التنويه بإبراهيم الخليل عليه السلام، وأن الله أعطاه رشدَه وهداه، وآتاه النبوة والرسالة، وخصه بالخلة، واصطفاه في الدنيا والآخرة قبل إيتاء موسى وهارون الفرقان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾.

١٥- علم الله التام بأن إبراهيم عليه السلام أهل لما أعطاه الله عز وجل من الرشد والاصطفاء والهدى، والنبوة والرسالة، وبما خصه به من الخلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾.

١٦- إنكار إبراهيم عليه السلام على أبيه وقومه عكوفهم على التماثيل وعبادة الأصنام، وتحقيره لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

١٧- أنه لم يكن لهم حجة أو دليل إلا التقليد الأعمى لما وجدوا عليه آباءهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

١٨- بيان إبراهيم لهم أنهم هم وآباؤهم في عكوفهم على هذه التماثيل في ضلال بين واضح؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥١﴾﴾.

١٩- استغرابهم، بل وإنكارهم أن يكون ما جاءهم به حق، واستهزاؤهم به عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ ﴿٥٢﴾﴾؟

٢٠- إثبات إبراهيم وبيانه لهم أن ربهم وإلههم الذي يجب أن يعبدوه وحده هو رب السموات والأرض، هذه المخلوقات العظيمة، الذي خلقهن وما فيهن من جميع المخلوقات، لا رب لهم غيره، ولا معبود بحق سواه، وشهادته عليه السلام على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

٢١- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ﴾.

٢٢- تهديده عليه السلام لهم بالكيد لأصنامهم؛ مبادرة لإنكار المنكر؛ وليظهر لهم مدى ضعفها، وأنها لا تدفع عن نفسها، فكيف تدفع عنهم أو تنفعهم؟! لقوله: ﴿وَتَأَلَّه

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٦﴾.

٢٣- تكسيره عليه السلام لأصنامهم كلها ما عدا الكبير منها؛ لأجل أن يرجعوا إليه فيظنوا أنه هو الذي كسر أصنامهم الصغيرة غيرة وغضباً أن تعبد معه، أو لأجل أن يرجعوا إليه عليه السلام، ويستملوا له ويستمعوا إليه ولا يعرضوا عنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

٢٤- استفهامهم إنكاراً لمن فعل هذا الفعل بألتهم، وأنه من الظالمين غاية الظلم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

٢٥- توجس بعضهم أنه إبراهيم لسامعهم قوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدُكُرُّهُ يُقَالُ لَهُوَ إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾.

٢٦- أمرهم بالإتيان به عليه السلام بمرأى من الناس ومسمع وعلى رؤوس الأشهاد؛ ليشهدوا عليه وعلى ما يقول ويشهدوا ما يصنع به، والله الحكمة البالغة، فهم بهذا العمل يمهدون لإبراهيم؛ ليقم عليهم الحجة في هذا المجمع العظيم الذي لو أراد هو جمعهم لما استطاع؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾.

٢٧- استفهامهم منه عليه السلام: أهو الذي فعل هذا بألتهم؟ وإجابته بإبطال ذلك ونفيه، وأن الذي فعله كبيرهم، فليسألوهم إن كانوا ينطقون، وفي هذا تبكيت لهم، واستهزاء وتهكم بهم، وتدرج لإبطال آلتهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

٢٨- رجوعهم إلى أنفسهم باللامامة، وأنهم هم الظالمون باتهامهم إبراهيم بتكسيروها قبل أن يسألوها عن فعل بها ذلك، مستظهرين في هذه الحال أن الذي فعله كبيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٢٩- انتكاسهم إلى العناد والمكابرة لما غلبوا في الحجة، واحتجاجهم على إبراهيم بما هو حجة له عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

٣٠- تدرجه عليه السلام معهم ووصوله بهم إلى إقرارهم واعترافهم بضعف آلتهم، وأنها لا تنطق، ولا تدفع عن نفسها، فكيف تدفع عن غيرها أو تنفعهم؟! ولهذا

أكد الإنكار عليهم والتفريع والتوبيخ لهم في عبادتهم من دون الله ما لا ينفع ولا يضر، فقال: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ ﴿٣٦﴾.

٣١- تقييح حالهم ومعبوداتهم من دون الله؛ لقوله: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ﴾.

٣٢- تسفيه عقولهم، والإنكار عليهم في عدم الانتفاع بها؛ إذ كيف يعبدون من دون الله أحجارًا لا تنطق، ولا تنفع ولا تدفع، ولا تملك من الأمر شيئًا؛ لقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

٣٣- أن من لم يهده عقله إلى معرفة الله وتوحيده في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ومعرفة ما يجب لله فليس بعاقل، ولو بلغ من الدنيا مبلغه.

٣٤- لجوء قومه عليه السلام إلى أخذه بالقوة، لما غلبهم بالحجة الظاهرة، وبأن عجزهم وبطلان ما هم عليه من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهَاتِكُمْ إِن كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾ ﴿٣٨﴾، وهذا يدلن المكذبين للرسول وللدعاة إلى الله تعالى، عندما تبطل حجتهم يسلكون طريق التهديد بالقوة؛ كما بين ذلك القرآن في مواضع كثيرة.

٣٥- توأصيهم بالنكايه به، وقتله أشنع قتله، بتحريقه انتصارًا لأهنتهم، وتحريض بعضهم لبعض على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا إِلَهَاتِكُمْ إِن كُنْتُمْ فاعِلِينَ﴾.

٣٦- أمره عز وجل الكوني للنار أن تكون بردًا على إبراهيم فلا يضره حرها، وسلامًا فلا يؤذيه بردها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَكَانَازُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾.

٣٧- قدرة الله تعالى التامة التي لا يستحيل أمامها أي شيء حتى لو كان مخالفًا للقوانين الكونية، فالنار طبيعتها الإحراق، فجعلها عز وجل بردًا وسلامًا على إبراهيم.

٣٨- عناية الله تعالى بخليته إبراهيم وحفظه ووقايته له، وإنجاؤه وتسليمه من النار.

٣٩- رد كيد قومه ومكرهم، وخيبة مسعاهم، وجعلهم الأخسرين المغلوبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ ﴿٧٧﴾.

٤٠- إنجاء الله عز وجل له عليه السلام نجاة ثانية بعد إنجائه له من النار، وذلك بخروجه من بين ظهراني قومه المشركين، هو ولوط عليها السلام، وهجرتهما من دار الكفر والشرك إلى الأرض المقدسة المباركة، أرض الشام وفلسطين؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٧﴾.

٤١- فضل الله عز وجل على لوط عليه السلام بإنجائه وهجرته مع إبراهيم عليهما السلام إلى الأرض المقدسة.

٤٢- أن الهجرة من بلد الكفر والشرك إلى بلد الإسلام مشروعة في الشرائع السابقة، ويقال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من هاجر؛ كما قال عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصفات: ٩٩]، أي: مهاجر إلى ربي.

٤٣- مباركة الله تعالى في أرض الشام، فهي تحتضن المسجد الأقصى المبارك، ومهبط كثير من النبوات والرسالات، وخصب أرضها وكثرة خيراتها.

٤٤- هبة الله تعالى لإبراهيم عليه السلام- بعد هجرته للأرض المباركة- ابنه إسحاق، إجابة لدعائه ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصفات: ١٠٠]، وهبته «يعقوب» ابن ابنه إسحاق نافلة زيادة وفضلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾.

٤٥- امتنان الله تعالى على إبراهيم وإسحاق ويعقوب وآل إبراهيم، وثناؤه عليهم وتفضيلهم، بجعلهم صالحين، مخلصين العمل له، متبعين لشرعه، وأئمة يدعون الناس ويرشدونهم بأمره، وتوفيقهم وإهامهم فعل الخيرات، وإقام الصلاة والمداومة على عبادة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

٤٦- الترغيب في الصلاح، والدعوة إلى الله، وفعل الخيرات، وإقام الصلاة، والمداومة على عبادة الله، والإمامة في الخير؛ لامتناع المتصفين بهذه الصفات والثناء عليهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَابِدِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤]؛ ولهذا قال عباد الرحمن: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

٤٧- فضيلة الصلاة والزكاة؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين سائر العبادات، فالصلاة أفضل العبادات البدنية، والزكاة أفضل العبادات المالية، وقدم الصلاة؛ لأنها أفضل العبادات على الإطلاق بعد الشهادتين.

٤٨- منة الله تعالى على لوط عليه السلام بإيتائه بالنبوة حكماً بين الناس بالعدل والصواب والسداد، وعلمًا بالشريعة، وإنجائه من القرية التي تعمل الخبائث،

وبإخراجه من بين قومه قوم السوء الفاسقين قبل إهلاكهم، وإدخاله في رحمة الله تعالى إنه من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَ إِتْمَهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِّءٍ فَسِيقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

٤٩- الحذر من عمل الخبائث والفواحش، وارتكاب فاحشة اللواط والأعمال السيئة والفسق.

٥٠- إثبات رحمة الله تعالى الواسعة، رحمة ذاتية ثابتة له، ورحمة فعلية يوصلها ويشمل بها من يشاء من عباده.

٥١- التذكير بمنة الله عز وجل على نوح عليه السلام أول الرسل باستجابة دعائه، وإنجائه من كرب الطوفان العظيم، ونصره على المكذبين بآيات الله قوم السوء وإغراقهم جميعاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوِّءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

٥٢- ذم قوم لوط بأنهم قوم سوء فاسقين؛ لكفرهم وتكذيبهم لوط وفعل فاحشة اللواط، وذم قوم نوح بأنهم قوم سوء؛ لكفرهم وشركهم وتكذيبهم نوحاً، وشدة عنادهم واستكبارهم.

٥٣- صدق الله عز وجل وعده رسله، وسنته الكونية التي لا تتبدل ولا تتحول، في إنجاء رسله وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، وتحذير وتهديد ووعيد للمكذبين.



قال الله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسَلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَنْ يُفَوِّضُ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ .

قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الواو: استثنائية، و«داود»: منصوب بفعل محذوف، تقديره: اذكر، أي: واذكر يا محمد داود وسليمان، والمراد بهما: داود وسليمان النبيان عليها الصلاة والسلام؛ داود بن يسي من سبط يهوذا، وهو الذي آتاه الله «الزبور».

كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣].

وابنه سليمان، الذي وهبه الله له، وورثه، كما قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٦].

﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف بمعنى «حين» أي: حين حكم كل منهما على انفراده في الحرث، بما رآه وفهمه، حسب اجتهاده، بحكم مخالف لحكم الآخر. و«الْحَرْثِ﴾ النبات والزرع، سُمي بذلك؛ لأن الأرض تحرث، ويوضع فيها النبات. والحرث المذكور كان عنباً. وقيل: كان زرعاً.

﴿إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ أي: حين نفست فيه غنم القوم، أي: انتشرت فيه ورعته ليلاً بلا راع وأفسدته.

والنَّفْسُ - بفتح الفاء -: الغنم المنتشرة، والرعي بالليل. والهمل: الرعي بالنهار، والنفس يلزم صاحبه ضمان ما أتلفته ماشيته.

عن حرام بن محيصة عن أبيه - رضي الله عنه: «أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائط رجل، فأفسدته عليهم، ففضى رسول الله ﷺ على أهل الأموال حفظها بالنهار،

وعلى أهل المواشي حفظها بالليل، وما أفسدته بالليل فهو ضامن على أهلها»^(١).
﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ الواو: حالية. وقد تكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة؛ لأنه العظيم سبحانه وتعالى.

﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ أي: لحكم داود وسليمان، وجمع الضمير وهما اثنان؛ لأن الجمع يطلق على الاثنين، وهما أقل الجمع، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿إِنْ نُبَا إِلَى اللَّهِ فَقَد صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحریم: ٤]، فجمع القلوب مع أن المخاطب اثنان عائشة وحفصة رضي الله عنهما. ومثله قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١]، والمراد أخوان فأكثر.

وقيل: جمع الضمير في قوله: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ باعتبار داود وسليمان والمتحاكمين إليهما. ﴿شَاهِدِينَ﴾ أي: عالين به، مطلعين عليه؛ لأنه - عز وجل - مطلع وشهيد، ورقب على جميع الخلق وأعمالهم وأقوالهم وأحوالهم، لا تخفى عليه منهم خافية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

قوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمْنَا حُكْمًا وَعَلَّمْنَا سَخْرَانًا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالِ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

قوله: ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ﴾ أي: ففهمنا القضية والحكومة سليمان - عليه السلام - فحكم فيها بما وافق الحق والصواب.

ويفهم من قوله - عز وجل - ﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَانَ﴾ أن داود - عليه السلام - لم يفهم الحكومة فيها، ولم يوفق فيها للصواب، وأن حكمها فيها كان باجتهاد منها. وقيل: إن كلاً منها مصيب، لكن حكم سليمان كان أصوب. كما قيل: إن حكمها كان بوحى.

والفهم: منحة من الله - عز وجل - ونور يقذفه في قلب من شاء من عباده، به يستطيع الاستنباط من النصوص، وفهمها فهماً صحيحاً، كما قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - لما سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ قال: «لا والذي

(١) أخرجه أبو داود في البيوع - المواشي تفسد زرع قوم (٣٥٦٩، ٣٥٧٠)، وابن ماجه في الأحكام - الحكم فيها أفسدت المواشي (٢٣٣٢)، وأحمد (٤٣٥/٥ - ٤٣٦).

فلق الحبة، وبرأ النسمة، إلا فيها يؤتية الله عبداً في كتابه، وما في هذه الصحيفة. وكان فيها العقل، وهو الديات، وفكاك الأسير وأن لا يقتل مسلم بكافر»^(١).

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «والفهم الفهم فيما أدلى إليك»^(٢).

قال ابن القيم^(٣): «الفهم نعمة من الله على عبده، ونور يقذفه في قلبه يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره مع استوائهما في حفظه، وفهم أصل معناه».

عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- في قوله: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْكُفَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ﴾ قال: «كرم أنبتت عنا قيده، فأفسدته- قال: ففرضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غير هذا يا نبي الله، قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، وتدفع الغنم إلى صاحبا، فذلك قوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾»^(٤).

وروي عن ابن عباس نحوه^(٥) وهكذا روي عن جمع من التابعين^(٦). قال ابن القيم^(٧): «فحكم داود بقيمة المثل، فاعتبر الغنم فوجدها بقدر القيمة، فدفعتها إلى أصحاب الحرث، إما لأنه لم يكن لهم دراهم، أو تعذر بيعها، ورضوا بدفعها، ورضي أولئك بأخذها بدلاً عن القيمة».

وأما سليمان ففرضى بالضمان على أصحاب الغنم، وأن يضمنوا ذلك بالمثل، بأن

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٩٠٣)، والنسائي في القسامة (٤٧٤٤)، والترمذي في الديات (١٤١٢)- من حديث أبي جحيفة- رضي الله عنه- أنه سأل علياً- رضي الله عنه.

(٢) انظر: «إعلام الموقعين» (١/٨٥) وما بعدها.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٣/١٨٩).

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/٣٢٢)، والحاكم (٢/٥٨٨)، والبيهقي (١٠/١١٨).

(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/٣٢٣).

(٦) انظر: «جامع البيان» (١٦/٣٢٣-٣٢٨).

(٧) انظر: «بدائع التفسير» (٣/١٨٩).

يعمروا البستان كما كان، ولم يضيع عليهم مغلّه من حين الإلتلاف إلى حين العود، بل أعطى أصحاب البستان ماشية أولئك، ليأخذوا من نائها بقدر ناء البستان، فيستوفوا من ناء غنمهم نظير ما فاتهم من ناء حرثهم، وقد اعتبر النعاءين، فوجدهما سواء. وهذا هو العلم الذي خصه الله به، وأثنى عليه بإدراكه».

ولما تبين لداود- عليه السلام- إصابة سليمان الحق رجع إلى حكم سليمان- عليه السلام- وقد قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه: «ولا يمنعك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق، فإن الحق قديم لا يبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التهادي في الباطل»^(١).

والأنبياء- عليهم السلام- ليسوا بمعصومين من الخطأ في الصغائر على الصحيح من أقوال أهل العلم كما هو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره^(٢). ولهذا قال رسول الله ﷺ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه، فليأخذها أو ليدعها فإنما أقطع له قطعة من النار»^(٣).

وما قضى به داود وسليمان- عليهما السلام- من تضمين أصحاب الغنم ما أفسدته بالليل موافق لما جاء في شرعنا، كما في حديث حرام بن محيصة- رضي الله عنه: «أن ناقة للبراء بن عازب دخلت حائطاً فأفسدت فيه، فقضى رسول الله ﷺ على أهل الحوائط حفظها بالنهار، وما أفسدت المواشي بالليل ضامن على أهلها»^(٤).

وهكذا قضى شريح القاضي- رحمه الله- بين رجلين جاءا إليه، فقال أحدهما: إن شاة هذا قطعت غزلاً لي، فقال شريح: نهراً أم ليلاً؟ فإن كان نهراً فقد برئ صاحب الشاة، وإن كان ليلاً فقد ضمن، ثم قرأ: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتِ

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (١/ ٨٥-٨٦).

(٢) انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية» (٤/ ٣١٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٦٧)، ومسلم في الأفضية (١٧١٣)، وأبوداود في الأفضية (٣٥٨٣)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠١)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٧) من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٤) سبق تحريجه.

فِيهِ غَنَمٌ لِّلْقَوْمِ ﴿١﴾ قال: كان النفس ليلاً^(١).

ومثل هذه الآية في الدلالة على فهم سليمان - عليه السلام - في الحكم والقضاء ما جاء في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «بيننا امرأتان معهما ابنان لهما، جاء الذئب فأخذ أحد الابنين فتحاكمتا إلى داود، ففضى به للكبرى، فخرجتا. فدعاهما سليمان، فقال: هاتوا السكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: يرحمك الله هو ابنها، لا تشقه. فضى به للصغرى»^(٢).

والذم والوعيد إنما هو لمن قضى على جهل، وبلا علم، كما في حديث سليمان بن بريدة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «القضاة ثلاثة: قاضٍ في الجنة، وقاضيان في النار؛ رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة، ورجل حكم بين الناس على جهل فهو في النار، ورجل علم الحق وقضى بخلافه فهو في النار»^(٣).

﴿وَكَلَّأْنَا أَيُّهَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ آتَيْنَاهُمَا حُكْمًا﴾ أي: حكماً وفصلاً في المسائل والقضايا، وفي الاختلاف بين الناس، كما قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ [ص: ٢٦].

﴿وَعَلَّمَآءُ﴾ أي: وآتيناهما علماً، وأعظم ذلك وأجله علم النبوة، به يتمكنان من الحكم بين الناس وتعليمهم أمر دينهم ودنياهم، فنخص عز وجل سليمان - عليه السلام - بالفهم في هذه الواقعة المعينة، وأثنى على داود وسليمان بالحكم والعلم. وقد استدلل بهذا الاحتراز من قال: إن كلاً منهما مصيب لكن حكم سليمان - عليه السلام - أصوب.

ومهما يكن فليس في حكم داود - عليه السلام - ما يعاب عليه لأنه اجتهد، والحاكم إذا كان ممن له الاجتهاد، أي ممن يملك أدوات الاجتهاد - إذا اجتهد فأصاب

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/٣٢٥)، من رواية عامر الشعبي رحمه الله.

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٩)، ومسلم في الأفضية (١٧٢٠)، والنسائي في آداب القضاة (٥٤٠٢)، وأحمد (٢/٣٢٢، ٣٤٠).

(٣) أخرجه أبو داود في الأفضية - باب في القاضي يخطئ (٣٥٧٣)، والترمذي في الأحكام (١٣٢٢)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٥).

فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر.

عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر»^(١).

قال الحسن: «لولا هذه الآية لرأيت أن الحكام قد هلكوا، لكن الله - تعالى - حمد هذا بصوابه، وأثنى على هذا باجتهاده»^(٢).

وليس في الآية دلالة على أن كل مجتهد مصيب، بل فيها أن الذي فهم القضية هو سليمان - عليه السلام - دون داود، لكن ليس فيها تأييم داود - عليه السلام، بل فيها الاحتراز من ذلك؛ لأنه اجتهد، فهو مأجور باجتهاده، غير آثم في خطئه.

وعلى هذا دل قوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

ومثل هذا يقال في فعل الصحابة - رضي الله عنهم - لما قال لهم النبي ﷺ: «لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»، فمنهم من صلى العصر في الطريق لما دخل وقتها، ومنهم من أخرها فلم يصلها إلا في بني قريظة بعد المغرب وفوات وقتها^(٣)، فكل منهم مجتهد، ولهذا لم يعنف النبي ﷺ أحداً منهم، وإن كان المصيب من صلى العصر في وقتها.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ أي: وذللنا مع داود الجبال ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بيان لـ «سخرنا» أو حال مبينة، أي: حال كونهن يسبحن.

﴿وَالطَّيْرَ﴾ الواو بمعنى: «مع» أي مع الطير، أي: وذللنا الجبال والطير يسبحن معه إذا سبح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مُحْشَرَةً

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام - أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (٧٣٥٢)، ومسلم في الأفضية - بيان أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ (١٧١٦)، وأبوداود في الأفضية (٣٥٧٤)، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٤).

(٢) أخرجه البيهقي في «سننه» (١١٨/١٠ - ١١٩)، وانظر: «معالم التنزيل» (٢٥٣/٣).

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٤٦)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٧٠)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

كُلُّ نَهْرٍ أَوْابٌ ﴿١٩﴾ [ص: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: ١٠]، أي: رجّعي ورددني معه التسبيح. وقدّم الجبال على الطير - والله أعلم؛ لأن تسخيرها وتسييحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز، لأنها جماد والطير حيوان إلا أنه غير ناطق. والمعنى: وسخرنا مع داود الجبال والطير يسبحن، لكنه لو جاء هكذا لربما أفهم أن التسبيح فقط من الطير وحدها.

قال ابن كثير^(١) في كلامه على الآية ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾: «وذلك لطيب صوته بتلاوة كتابه الزبور، وكان إذا ترنّم به تقف الطير في الهواء فتجاوبه، وترد عليه الجبال تأويباً، ولهذا لما مرّ النبي ﷺ على أبي موسى الأشعري وهو يتلو القرآن من الليل، وكان له صوت طيب فوقف واستمع لقراءته، وقال: «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود»، قال: يا رسول الله، لو علمت أنك تسمع لحبّرتك لك تحبيراً^(٢). وفي رواية: «لقد أوتيت مزاميراً من مزامير آل داود»^(٣).

والتسبيح: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وذكره وتهليله وتحميده وتكبيره وعبادته، والانقياد له، والدلالة على وجوده، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأن كل كمال فهو أولى به، له الأسماء الحسنى والصفات العلى. فالجبال والطير تسبح الله - عز وجل - مع داود - عليه السلام، وكذا جميع المخلوقات تسبح الله - عز وجل - حقيقة وإن كنا لا نفقه هذا التسبيح؛ كما قال - عز وجل: ﴿تَسْبِحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

(١) في «تفسيره» (٥/٣٥٢).

(٢) التحبير: التحسين، أي: لحسنته لك تحسيناً.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن، حسن الصوت بالقراءة (٥٠٤٨)، ومسلم في المسافرين، استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٣)، والترمذي في المناقب، مناقب أبي موسى الأشعري (٣٨٥٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، حسن الصوت بالقرآن (١٣٤١)، وأحمد (٣٦٩/٢، ٤٥٠)؛ من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

وقال تعالى عن الحجارة: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْفَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤].

﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ توكيد لما قبله، أي: فاعلين ما قضيناه وأردناه وقادرين عليه؛ من تفهيم سليمان، وإيتائه وداود الحكم والعلم، وتسخير الجبال والطيور يسبحن مع داود، وغير ذلك - مع ما في ذلك من الأمر العجب الدال على كمال قدرة الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (٨٠).

قوله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ اللبوس: اللباس، يقال: البس لكل حالة لبوسها، فلحال السلم لبوسها، و لحال الحرب لبوسها، أي: وعلمنا داود عليه السلام صنع لباس لكم حال الحرب، وهي الدروع، وهي السابغات؛ كما قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجِبَالٌ أَوْيٍ مَعَهُ، وَالطَّيْرُ وَالنَّالَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَاعِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

قال كعب بن زهير (١):

شم العرانيين أبطال لبوسهم من نسج داود في الهيجا سراويل
بيض سوابغ قد شكت لها حلق كأنها حلق الأكفاء مجدول

﴿لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحفص: ﴿لِنُحْصِنَكُمْ﴾ بالتاء على التأنيث، أي: لتحصنكم صنعة اللبوس، وفي رواية أبي بكر عن عاصم ورويس عن يعقوب (لنحصنكم) بالنون، فيعود الضمير إلى الله - عز وجل.

وقرأ الباقون (ليحصنكم) بالياء، أي: ليحصنكم اللبوس أو داود - عليه السلام. والإحصان لغة: المنع، والتحصن: الامتناع، ومنه سمي «الحصن» لأنه يُمتنع به من الأعداء، وسمي «الحصان» لأن صاحبه يركبه ويمتنع به.

والبأس: الشدة والقوة والقتال، قال تعالى: ﴿وَيَذِيقُ بَعْضُكُمُ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]،

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٨].

ومعنى: ﴿لِنُحِصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: لتمنعكم وتحميكم من ضرب السيوف والسهام والسنان وغير ذلك حال القتال والنزال، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١].

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«هل»: للاستفهام، ومعناه الأمر، أي: فاشكروا نعمة الله عليكم لما منَّ به عليكم من تعليم داود- عليه السلام- صنعة هذه اللبوس والدروع لتحصنوا بها حال القتال، وغير ذلك من نعمه عليكم، والشكر يكون بنسبة النعم إلى الله، واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته، واحترامها وعدم إهانتها.

و ضد ذلك كفران النعم بحيث تستعمل في معصية الله أو يستعان بها على ذلك، أو تنسب لغيره- عز وجل، أو تهان ولا تحترم؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]، وفي مجيء الأمر بالشكر على صيغة الاستفهام تشويق لامثال الأمر، وتحييه إلى النفوس، وتلطف معها في الطلب في عدم مقابلتها بالأمر الذي قد يثقل على بعض النفوس.

كما أن فيه إشارة إلى قلة الشاكرين، وضعف الشكر عند الكثير منهم؛ كما قال تعالى: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾ [سبأ: ١٣].

قوله: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً﴾ الواو: عاطفة، أي: وسخرنا لسليمان الريح، كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غَدُوًّا شَهْرًا وَّوَأُخَاهَا شَهْرًا﴾ [سبأ: ١٢].

ومعنى ﴿عَاصِفَةً﴾ أي: شديدة الهبوب، وهي تحت أمره- عليه السلام، فإن أراد أن تشتد اشتدت، وإن أراد أن تلين لانت، تتجه وتسير حيث أراد من البلاد، كما قال

تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ (ص: ٣٦).

والرياح: هي نسيم الهواء، وهي مخلوق لطيف شفاف لا يرى، وإنما يُحس به من خلال تحريكه للأشياء.

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ أي: تسير بأمر سليمان عليه السلام، وتتجه حيث أمرها، وحيث شاء.

﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام المباركة التي بارك الله فيها، أي: جعلها كثيرة الخير والبركة، ومهبط كثير من الرسالات، ومبعث كثير من الرسل، منهم داود وسليمان وموسى وعيسى بن مريم - عليهم السلام - وغيرهم من أنبياء بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١].

قال الطبري^(١): «﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا﴾ يعني إلى الشام، وذلك أنها كانت تجري لسليمان وأصحابه إلى حيث شاء سليمان، ثم تعود به إلى منزله بالشام، فلذلك قيل: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَرَكْنَا فِيهَا﴾».

وقال ابن كثير^(٢): «وذلك أنه كان له بساط من خشب، يوضع عليه كل ما يحتاج إليه من أمور المملكة والخيل والجمال والخيام والجند، ثم يأمر الريح أن تحملته فتدخل تحته، ثم تحملته فترفعه وتسير به، وتظله الطير من الحر إلى حيث يشاء من الأرض، فينزل وتوضع آلاته وخشبه».

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء، صغيراً كان أو كبيراً، خفياً أو جلياً ﴿عَلِيمِينَ﴾ لا يخفى علينا منه شيء.

أي: فسخرنا مع داود الجبال والطيور، وعلمناه صنعة الدروع، وسخرنا لسليمان الريح، كل ذلك وغيره بعلم منا، كما علمنا أن تسخيرنا لداود وسليمان ما ذكر مما يزيدهما خضوعاً لله - عز وجل - وتعظيماً له، وتذللاً بين يديه.

(١) في «جامع البيان» (١٦/٣٣١).

(٢) في «تفسيره» (٥/٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوِصُونَ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ۗ وَكُنَّا لَهُمُ

حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

قوله: ﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوِصُونَ لَهُ﴾ أي: وسخرنا أيضاً لسليمان من الشياطين من يغوصون له.

والشياطين: جمع شيطان، مشتق من شطن، أي: بعد عن رحمة الله - عز وجل - وعن كل خير، وهو كل متمرّد عات خارج عن طاعة الله - عز وجل - من الإنس والجن والحيوان، قال تعالى: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال ﷺ: «الكلب الأسود شيطان» (١).

والغوص: النزول تحت الماء، أي: يغوصون له في أعماق البحار. والمراد بالشياطين هنا شياطين الجن وعفاريتهم سخرهم الله - عز وجل - لسليمان - عليه السلام، يغوصون له في الماء وفي أعماق البحار، يستخرجون منها الجواهر النفيسة، كاللؤلؤ والمرجان والمحار وأنواع الحلية، وغير ذلك، فسخرهم الله - عز وجل - له، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر على كثير منها غيرهم.

﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: دون الغوص، كالبنيان، والمحاريب والتماثيل، والجفان، والقذور، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيْطَانُ كُلُّ بَنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَمَا يَخْرُجُ مِنْ مَّقَرَّتَيْنِ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِحْفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١١﴾﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَاتَهُمْ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتْ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٣، ١٤].

﴿وَكُنَّا لَهُمُ حَافِظِينَ﴾ أي: حافظين لأعدادهم وأعمالهم فلا يخرجون عن أمره، ولا يقدرّون على الامتناع منه وعصيانه، بل هم مسخرون له وتحت أمره وقهره، يطلق

(١) أخرجه مسلم في الصلاة - قدر ما يستر المصلي (٥١٠)، وأبو داود في الصلاة - ما يقطع الصلاة (٧٠٢) - من حديث أبي ذر - رضي الله عنه.

من شاء منهم في العمل ويحبس من شاء منهم، كما قال تعالى: ﴿وَالشَّيْطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ
وَعَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَعَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْجِنَّةِ مَن
يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنَّ آمْرِنَا نَذِقْهُ مِن عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [سبأ: ١٢].

الفوائد والأحكام:

- ١- تذكير النبي ﷺ وأُمَّته بما حصل من سليمان وداود- عليهما الصلاة والسلام- في هذه الواقعة لأخذ العبرة من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ الآية.
- ٢- إثبات نبوة داود وسليمان- عليهما السلام.
- ٣- في ذكره ﷺ خبر داود وسليمان- عليهما السلام- أعظم دليل على صدق نبوته ﷺ.
- ٤- إطلاق الجمع على اثنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ والمراد حكم داود وسليمان.
- ٥- تعظيم الله- عز وجل- لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ بضمير العظمة، وكذا ما بعده إلى آخر الآية- وهو العظيم- سبحانه وتعالى.
- ٦- سعة علم الله- عز وجل- واطلاعه على كل شيء، ومن ذلك حكم داود وسليمان- عليهما السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾.
- ٧- اختصاص الله- عز وجل- سليمان- عليه السلام- بتفهمه الصواب في هذه القضية، وهو دفع الكرم إلى صاحب الغنم ليقوم عليه حتى يعود كما كان، ودفع الغنم إلى صاحب الكرم ليصيب منها حتى إذا كان الكرم كما كان دفعه إلى صاحبه ودفع الغنم إلى صاحبها؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾.
- وهذا موافق لما جاء في قضائه ﷺ كما في حديث حرام بن محيصة عن أبيه- رضي الله عنه- «أن على أهل المواشي ضمان ما أفسدته مواشيهم بالليل، وأن على أهل الحروث حفظها بالنهار»^(١).
- وهذا مخصص لعموم قوله ﷺ: «العجماء جرحها جبار»^(٢) أي: هدر.

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الديات (٦٩١٢)، ومسلم في الحدود (١٧١٠)، وأبو داود في الخراج (٣٠٨٥)،

وهذا قول جمهور أهل العلم، فما أتلفته المواشي بالليل يضمن بقيمته، وإن زادت على قيمة المواشي.

وقد قال بعض أهل العلم بضمان ما أتلفته المواشي بالنهار، كما قيل بعدم الضمان على أهل المواشي مطلقاً.

٨- جواز الاجتهاد للأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- وغيرهم ممن هو أهل للاجتهاد.

٩- أنه ليس كل مجتهد مصيباً، وفي الحديث: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»^(١).

لكن من اجتهد ممن له الاجتهاد فأخطأ فإنه لا يلام ولا يأثم؛ ولهذا قال ﷺ: «وإنكم تحتصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له بنحو مما أسمع، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فليأخذها أو ليدعها فإنما أقطع له قطعة من النار»^(٢).

١٠- جواز الخطأ والوقوع في الصغائر من الأنبياء- عليهم السلام، لكنهم لا يُقرون على ذلك، بل سرعان ما يتوبون من ذلك، وقيل بعدم جواز الخطأ عليهم وعصمتهم من الخطأ مطلقاً.

١١- وجوب رجوع القاضي عما حكم به إذا تبين له أن الحق في غيره، فقد رجع داود إلى حكم سليمان- عليهما السلام- لما تبين له أن حكم سليمان أحق وأصوب.

١٢- ثناء الله- عز وجل- على كل من داود وسليمان- عليهما السلام- والامتنان عليهما بما آتاهما عز وجل من الحكم والعلم، وأعظم ذلك علم النبوة؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

١٣- الاحتراز والإشارة إلى أنه ليس في حكم داود- عليه السلام- ما يعاب؛ لأن الله-

والنسائي في الزكاة (٢٤٩٥)، والترمذي في الزكاة (٦٤٢)، وابن ماجه في الديات (٢٦٧٣)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

عز وجل - أثنى على سليمان بقوله: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ ولم يذم داود، بل أثنى عليها معاً فقال: ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾.

١٤ - امتنان الله - عز وجل - على داود - عليه السلام - بتسخير الجبال والطيور يسبحن معه؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾.

١٥ - تسبيح الجهاد والطيور لله - عز وجل - وهكذا جميع المخلوقات؛ كما قال - عز وجل: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤].

١٦ - قدرة الله - عز وجل - التامة على فعل ما قضاه وأراده، من تفهيم سليمان الحكم في هذه القضية، وإيتائه وداود الحكم والعلم، وتسخير الجبال والطيور تسبح مع داود وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾، كما قال تعالى: في وصف نفسه: ﴿فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

١٧ - فضل الله - عز وجل - على داود - عليه السلام - بتعليمه صنعة الدروع والسراويل ليتحصن بها جنوده حال القتال؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُحِصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾.

١٨ - وجوب شكر نعم الله بنسبتها إليه - عز وجل؛ والاستعانة بها على طاعته، والبعد عن معاصيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾.

١٩ - أن التلطف في الخطاب - أحرى للقبول؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾، فجاء الخطاب بصيغة الاستفهام، والمراد الأمر، أي: اشكروا.

٢٠ - امتنان الله - عز وجل - على سليمان - عليه السلام - بتسخير الريح له تجري بأمره، وتحمله هو وجنوده ورجال مملكته وما أراد إلى الأرض المباركة، وإلى حيث شاء من أرجاء مملكته ذهاباً وإياباً، تارة تجري بعصف وشدة، وتارة بلين ورخاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

٢١ - مباركة الله - عز وجل - في أرض الشام؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

٢٢ - علم الله - عز وجل - الواسع لكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾.

٢٣- تسخير الله - عز وجل - الشياطين لسليمان - عليه السلام، يغوصون له في أعماق البحار، يستخرجون ما فيها من الكنوز، ويعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ، وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾.

٢٤- عظم قدرة الله - عز وجل - في تسخيره الريح، هذا المخلوق الخفيف اللطيف لحمل سليمان - عليه السلام - وما معه من المحمولات الثقيلة، وفي تسخيره مردة الجن لخدمته في الغوص والعمل.

٢٥- عظمة ملك سليمان - عليه السلام - وما أعطاه الله - عز وجل - من القوة ونفوذ السلطان وتسخير الريح له ومردة الجن.

٢٦- حفظ الله - عز وجل - لأعداد الشياطين وأعمالهم في مملكة سليمان فلا يخرجون عن أمره - عليه السلام، ولا يقدرّون على الامتناع منه ومعصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَذَا النُّوْبِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضَبًا فَطَقَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمَىٰ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآمُومِنِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَكَرْنَا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ وَآتَاهُمْ كَمَا نَاوَأُ يَسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٨٨﴾ وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

قوله: ﴿* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب حين نادى ربه ودعاه، قائلًا: ﴿* إِنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾، أي: أصابني الضر؛ كما قال تعالى: ﴿* وَأَذْكُرُ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٥١﴾﴾ [ص: ٤١].

وذلك أن الله ابتلاه في ماله وولده وجسده، فقد كان ذا مال كثير من الأنعام والدواب والمواشي، وله أولاد كثيرون، ومنازل واسعة، وذا صحة وعافية في بدنه، فابتلي بذهاب ماله كله وولده، ثم ابتلي بالضر في جسده، يقال: أصيب بالجدام في سائر بدنه، ولم يبق منه سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله تعالى بهما، وتقزز من حالته الناس، فلا أحد يجالسه، وأفرد في ناحية من البلد، ولم يبق من يجنو عليه سوى زوجته، كانت تقوم بحاجته، ويقال: إنها احتاجت، فصارت تخدم الناس لأجله.

﴿* وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ وصف نفسه بما يقتضي شدة الحاجة إلى رحمة ربه، ثم أثنى على ربه بقوله: ﴿* وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وفي هذا الثناء على ربه بعد وصف حاله من التعريض بعظيم حاجته إلى رحمة أرحم الراحمين ما يكفي عن التصريح؛ كما قيل: إذا أثنى عليك المرء يومًا كفاه من تعرضه الثناء (١).

قال ابن القيم: «جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد، وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه،

(١) البيت لأمية بن أبي الصلت انظر: «ديوانه» (ص ١٧).

ووجود طعم المحبة في التملق له والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته هو وفقره، ومتى وجد المبتلى هذا كشفت عنه بلواه، وقد جرب أنه من قالها سبع مرات - ولاسيما مع هذه المعرفة - كشف الله ضره^(١).

قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَاكْشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَعَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ﴾، أي: فأجبنا له دعاءه وتضرعه، والسين والتاء للمبالغة. وفي هذا دلالة على أنه في وصفه حاله، وثنائه على ربه، يعرض بسؤال رحمة ربه وكشف ضره؛ ولهذا قال:

﴿فَاكْشَفْنَا مَا بِهِ﴾، أي: أزلنا الذي بجسده ﴿مِنْ ضُرٍّ﴾، أي: من مرض وبلاء. ﴿وَعَاتَيْنَاهُ أَهْلَهُ﴾، أي: وأعطيناه أهله، ورددناهم له، وجمعناه بهم في الجنة، ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾، أي: وآتيناه مثل أهله في الدنيا، أي: عوضناه عنهم في الدنيا أهلاً مثلهم، ويحتمل ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾، أي: آتيناه أجرهم في الآخرة. وقال بعضهم: آتيناه أهله في الدنيا ومثلهم معهم.

عن ابن عباس، رضي الله عنهما، قال: «ألبسه الله حلة من الجنة، فتنحى أيوب فجلس في ناحية، وجاءته امرأته، فلم تعرفه، فقالت: يا عبدالله، أين ذهب هذا المبتلى الذي كان ههنا؟ لعل الكلاب ذهبت به أو الذئب! فجعلت تكلمه ساعة، فقال: ويحك، أنا أيوب!

قالت: أتسخر مني يا عبدالله؟ فقال: ويحك، أنا أيوب، قد رد الله علي جسدي!

قال ابن عباس: ورد الله عليه ماله وولده عياناً ومثلهم معهم^(٢).

﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ «رحمة» منصوب مفعول لأجله، أو مفعول مطلق، أي: رحمناه رحمة.

أي: رحمة من عندنا به، وفي هذا تعظيم لنفسه عز وجل ولرحمته بأيوب، وتنويه

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٨٩ - ١٩٠.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨/ ٢٤٦١، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٣٥٦.

بشأنه عليه السلام، حيث صبر، فاتاه الله ثواب الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

﴿وَذَكَرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ معطوف على «رحمة»، أي: وعظة وعبرة وتذكيراً ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون بذلك ويتعظون ويعتبرون، فيعلمون أن الله يتلى العبد - وإن كان من أهل الصلاح - ليزيده رفعة ومنزلة.

قال ﷺ: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشي على الأرض ما عليه خطيئة»^(١).

وذكرى للعابدين أيضاً: ليتأسوا به في الصبر على الضر والابتلاء، وليعلموا عناية الله تعالى بعباده، واستجابته لهم، إذا لجأوا إليه.

وخص العابدين؛ لأنهم هم الذين يتذكرون، وتنفعهم الذكرى؛ كما قال تعالى: ﴿وَذَكَرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [٨٥] وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ [الأنبياء: ٨٥ - ٨٦].

قوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ﴾، أي: واذكر إسماعيل وإدريس وذا الكفل، أي: اذكرهم بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء؛ لكونهم من الصابرين، ولهذا قرن بينهم وبين أيوب عليه السلام؛ لكونهم مثلاً يحتذى في قوة الصبر وكماله.

وإسماعيل هو: إسماعيل بن إبراهيم، أكبر أولاد إبراهيم عليهما السلام، وكان من عظيم صبره عليه السلام أن الله عز وجل أمر إبراهيم عليه السلام أن يذبحه، فرضي عليه السلام واستسلم لأمر الله تعالى متذرعاً بالصبر الجميل، قائلاً: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

وأما إدريس فهو نبي الله تعالى، الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَأَذَكَّرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [٥٦] وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ [مريم: ٥٦ - ٥٧].

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٨، وأحمد ١ / ١٧١، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

وأما «ذو الكفل»: فهو نبي من أنبياء الله تعالى؛ ولهذا قرن مع إسماعيل وإدريس في هذه الآية، كما قرن مع إسماعيل واليسع في قوله: ﴿وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ﴾ ﴿ص: ٤٨﴾.

﴿كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، أي: كل من هؤلاء الثلاثة ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الصبر.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾ الخاصة، فآتيناهم النبوة، وهديناهم لخيري الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الجملة تعليل لإدخالهم في رحمته عز وجل، أي: لأنهم من الصالحين، الذين أخلصوا لله تعالى باطنًا وظاهرًا، بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، واتبعوا شرعه.

قوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَجَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمْرِ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾.

قوله: ﴿وَذَا النُّونِ﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا ذا النون، أي: صاحب النون، و«النون»: الحوت، وذو النون هو: يونس بن متى عليه السلام.

وقد ذكر الله قصته هنا وفي سورة الصافات، وفي سورة «ن».

وكان من قصته: أن الله بعثه إلى أهل نينوى، قرية من أرض الموصل، فدعاهم إلى الله، فأبوا، وتمادوا في كفرهم وكذبوه، فتوعدهم بالعذاب بعد ثلاث وخرج من بين أظهرهم مغاضبًا لهم، وذهب وركب مع قوم في سفينة، فلججت بهم وخافوا أن يغرقوا، فاقترعوا على رجل يلقونه من بينهم يتخففون منه، ف وقعت القرعة على يونس فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقع عليه أيضًا فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوا القرعة فوقع عليه أيضًا فأبوا أن يلقوه، ثم أعادوها فوقع عليه؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلِّكَ الْمَسْحُوحِ ﴿١٢٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٢١﴾﴾ [الصافات: ١٤٠-١٤١].

أي: وقعت عليه القرعة، فقام عليه السلام وتجرد من ثيابه وألقى نفسه في البحر، فالتقمه الحوت.

أما قومه فإنه لما توعدهم بالعذاب بعد ثلاث، وقد تحققوا أن النبي لا يكذب، خرجوا إلى الصحراء بأطفالهم وأنعامهم ومواشيهم، وتضرعوا إلى الله تعالى، وجأروا إليه فرفع عنهم العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

﴿إِذْ ذَهَبَ مُغَضِبًا﴾، أي: حين ذهب مغاضبًا لقومه؛ لأنهم لم يؤمنوا به.
﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ قرأ يعقوب بالياء المضمومة وفتح الدال: «يُقَدِّر»، وقرأ الباكون بالنون مفتوحة وكسر الدال: «نَقْدِر».

أي: فظن أن لن نضيق عليه في ذهابه وفي بطن الحوت، فمعنى ﴿نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾: نضيق عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا ءَاتَاهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦].

وقال بعضهم: معنى ﴿لَن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، أي: لن نقدر ذلك عليه، فتكون من التقدير؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَلْتَمَىٰ الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١٢]، أي: قد قدر، ومنه قول الشاعر:

ولا عائد ذاك الزمان الذي مضى تباركت ما تقدر يكن فلك الأمر (١)

ولا تعارض بين القولين، فالتضييق عليه وقع بقدر الله.

﴿فَنَادَىٰ﴾، أي: بعد أن التقمه الحوت، ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

﴿أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ﴾، أي: أنه لا إله للخلق ولا معبود لهم بحق إلا أنت.
﴿سُبْحَانَكَ﴾، أي: تنزيهاً لك عن كل نقص وعيب، وعن الشريك والولد، وعن مشابهة المخلوقين.

﴿إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف على نفسه عليه السلام بالظلم.

قال تعالى: ﴿فَأَتَقَمَهُ الْحَوْتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصفات: ١٤٢]، أي: فاعل ما يلام عليه، ولهذا نهى الله عز وجل نبينا ﷺ بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحَوْتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَرِّ﴾ الاستجابة: مبالغة في الإجابة، أي: فاستجبنا له دعاءه وقبلنا توبته مما فرط منه.

﴿وَبَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَرِّ﴾، أي: خلصناه من الغم والضيق في تلك الظلمات؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَبَدَّ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ [القلم: ٤٩ - ٥٠].

﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر بنون واحدة وتشديد الجيم: «نُجِّي»، وقرأ الباقون بنونين؛ الثانية ساكنة مع تخفيف الجيم، أي: مثل إنجائنا ليونس عليه السلام وإخراجنا إياه من الظلمات والغم، بسبب دعائه واعترافه بالظلم وتوبته، كذلك ننجي من وقع في شدة وغم من المؤمنين، وهذا وعد من الله تعالى وبشارة للمؤمنين عموماً، وللمؤمنين من الصحابة بأن الله سينجيهم من أذى المشركين لهم.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾»، وفي رواية: «فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨] ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ وَيْحَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ وَوَجَّهْنَاهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَعَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

ذكر الله عز وجل قصة زكريا وابنه يحيى في أول سورة مريم، وفي أول سورة آل عمران، كما ذكرها هنا بأخصر من ذلك.

(١) أخرجه أحمد ١/١٧١، والترمذي في الدعوات ٣٥٠٥، والحاكم ١/٥٠٥، ٢/٣٨٢ وصححه ووافقه الذهبي.

قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا﴾، أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا بن يحيى عليهما السلام.
 ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ﴾، أي: حين دعا ربه خفية، وتضرع إليه أن يهبه ولداً يرث النبوة
 من بعده؛ كما في قوله في سورة مريم: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ۖ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ
 آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّي رَضِيًّا ۖ﴾ [مريم: ٥-٦].

﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، أي: يا رب، لا تتركني فرداً، أي:
 منفرداً وحيداً، لا ولد لي، ولا وارث يقوم بعدي بالدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله.
 ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ دعاء وثناء مناسب للمسألة، أي: وأنت خير الباقيين، وخير
 من يرثني بخير، وخير الوارثين للعالمين وما عليها، وأرحم وأشفق بعبادك، من كل مخلوق.
 ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾، أي: فاستجبنا له دعاءه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ
 يَحْيَى﴾ كما قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ
 بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝﴾ [آل عمران: ٣٩]،
 وقال تعالى: ﴿يَنْزَكِرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝﴾
 [مريم: ٧].

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾، أي: امرأته، يقال: كانت عاقراً لا تلد، فولدت له،
 وأصلحها الله.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْأَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ الجملة تعليل لما قبلها، أي: لأنهم
 كانوا يسارعون في الخيرات، والضمير في «إنهم» يعود إلى زكريا وأهل بيته، أي: إنهم
 كانوا يبادرون إلى فعل الطاعات في أوقاتها الفاضلة، ويتسابقون في فعل القربات،
 ويتنافسون في الخيرات.

﴿وَيَدْعُونََنَا﴾، الجملة معطوفة على ﴿يُسْأَرُونَ﴾.
 أي: ويدعوننا دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ﴿رَغْبًا وَرَهْبًا﴾ حالان؛ ﴿رَغْبًا﴾،
 أي: رغبة ورجاء فيما عندنا من الثواب.

﴿وَرَهْبًا﴾، أي: ورهبة وخوفاً مما عندنا من العقاب.
 ﴿وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾، أي: خاضعين متذللين متضرعين.

روي أن أبا بكر رضي الله عنه قام خطيباً، ثم قال: «أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله، وتشنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرغبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة؛ فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾» (١).

قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (١١).

ذكر الله عز وجل قصة زكريا وابنه يحيى عليهما السلام، ثم أتبع ذلك بذكر قصة مريم وابنها عيسى عليهما السلام هنا؛ كما قرن بينهما في سورة آل عمران وسورة مريم، لما في كل منهما من الدلالة على كمال قدرة الله تعالى، وعجيب صنعه.

وقدم عز وجل في الذكر قصة زكريا توطئة وتمهيداً للذكر قصة مريم، فإنه وإن كان إيجاد ولد من شيخ كبير قد طعن في السن، ومن امرأة عجوز عاقر لم تلد في حال شبابها أمراً عجبياً، فإن إيجاد ولد من أنثى بلا ذكر أشد عجباً، وأدل على قدرة الله تعالى.

ولهذا يذكر عيسى ابن مريم في القرآن الكريم - غالباً - منسوباً لأمه؛ للتنبيه على هذا الأمر.

قوله: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، أي: حفظته وصانته من الفواحش، وهي مريم عليها السلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢].

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أرسل إليها عز وجل جبريل الروح الأمين، فنفخ عليه السلام في جيب قميصها ودرع جيبها، فوصلت النفخة إلى رحمها، فحملت بعيسى عليه السلام.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ عيسى عليه السلام ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ عبرة وعظة وعلامة ودلالة على كمال وتمام قدرة الله تعالى للعالمين من الإنس والجن؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، أي: آية على أنه عز وجل على كل شيء قدير؛

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ٨ / ٢٤٦٦، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥ / ٣٦٥.

كما قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٨٣﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

الفوائد والأحكام:

- ١- التذكير بقصة نبي الله تعالى أيوب عليه السلام وما ابتلاه الله به من الضر، وعظم صبره، وابتهاله وتضرعه إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَآتَى مَسْئِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿٨٣﴾.
- ٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأيوب عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّهُ وَ﴾.
- ٣- أن الذي يجب أن ترفع إليه الشكوى ويطلب منه كشف البلوى، هو الله تعالى وحده؛ لقوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ وَ﴾، وفي هذا تظهر حقيقة التوحيد.
- ٤- جواز ذكر المبتلى ما ابتلي به؛ إظهارًا لشدة فقره وحاجته وفاقته إلى ربه، لا جزعًا وسخطًا مما قدر الله.
- ٥- إثبات أن الله عز وجل هو أرحم الراحمين، وأنه سبحانه ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء وعمت كل حي؛ لقوله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا﴾.
- ٦- في ثنائه عليه السلام على ربه تعريض بشدة حاجته إليه، وغنية عن التصريح بذكر حاجته.
- ٧- إن من أسباب إجابة السؤال الثناء على المسؤول؛ ولهذا قدم في سورة الفاتحة حمد الله، والثناء عليه، وتمجيده على سؤاله الهداية إلى الصراط المستقيم. وهذا أدب قرآني ينبغي أن يحتذى.
- ٨- استجابته عز وجل لأيوب عليه السلام، وإزالته ما به من ضر بسبب صبره ودعائه وتضرعه إلى ربه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ﴾.
- ٩- تعويض الله تعالى أيوب ما فقد من أهل ومثلهم معهم في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَائِلَتَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾.
- ١٠- رحمته عز وجل لأيوب رحمة خاصة من عنده عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِنَّنَا عِنْدَنَا﴾.

١١- تذكير المؤمنين العابدين بما جرى لأيوب عليه السلام من الابتلاء العظيم، وما قابل به ذلك من التسليم والرضا، والصبر الجميل، والابتهاال والدعاء، ورفع الشكوى إلى الله وحده الذي يسمع النجوى، ويكشف الضر والبلوى؛ ليعلموا أن أشد الناس بلاء الرسل والأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، وليتأسوا به عليه السلام عند الابتلاء بالصبر والتسليم والرضا، وصدق الابتهاال والدعاء أو اللجأ إلى ربه جل وعلا؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَى لِلْعَالَمِينَ﴾.

١٢- أن العابدين هم الذين ينتفعون بالذكرى؛ لهذا خصهم بالذكر.

١٣- التذكير بإسماعيل وإدريس وذو الكفل، والثناء عليهم بكونهم من الصابرين، وما من الله به عليهم من النبوة وإدخالهم في رحمته لأنهم من الصالحين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْمِعِمْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكُفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

١٤- الترغيب في الصلاح والالحاق بالصالحين، والتخلق بأخلاقهم.

١٥- التذكير بقصة ذي النون «يونس» عليه السلام، ومغاضبته لقومه لما لم يؤمنوا، واستعجاله وعدم صبره وخروجه من بينهم، وما جرى له من الابتلاء بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا﴾ الآية.

١٦- ظنه عليه السلام أن الله لن يقدر ويضيق عليه بجعله من المدحضين لما ساهم في السفينة، وبالتقام الحوت له؛ لقوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾.

١٧- نداؤه عليه السلام ربه، واستغاثته به بعد أن أحاطت به الظلمات، وتوسله بوحدانيتها عز وجل، وتنزيهه له، واعترافه بظلمه، وتوبته؛ ودعاؤه بتلك الدعوات العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَادَى فِي الظُّلْمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

١٨- إثبات أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه.

١٩- تنزيه الله تعالى عن النقائص والعيوب، وعن الشريك والولد، وعن مشابهة المخلوقين، ونحو ذلك؛ لقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾.

٢٠- أن مغاضبة يونس عليه السلام لقومه، وخروجه من بينهم ظلم اعترف به،

وليم عليه؛ كما قال تعالى في سورة الصافات: ﴿فَأَلْقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٤٢]؛ ولهذا قال تعالى لنبينا ﷺ: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾﴾ [القلم: ٤٨].

٢١- أن العبد إذا اعترف بالذنب ثم تاب، تاب الله عليه؛ كما قال ﷺ (١).

٢٢- أن الأنبياء غير معصومين من الوقوع في بعض الصغائر، لكنهم لا يقرون عليها، وسرعان ما يتوبون منها.

٢٣- استجابة الله عز وجل ليونس عليه السلام، وقبول توبته مما فرط منه، وإنجاؤه من الغم، والامتنان عليه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ﴿١٠١﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُهُ نِعْمَةٌ مِّنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿١٠٢﴾ فَأَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [القلم: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ﴿١٠٤﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ - ١٤٤].

٢٤- وعد الله تعالى للمؤمنين بإنجائهم من الغموم والكروب - إذا دعوه وتضرعوا إليه - كما أنجى يونس عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾﴾، وفي هذا بشارة للصحابة بأن الله سينجيهم من أذى المشركين.

٢٥- التذكير بزكريا عليه السلام؛ إذ نادى ربه ودعاه بألا يتركه فردًا، وأن يرزقه ولدًا يرث النبوة من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴿١٢٨﴾﴾.

٢٦- سمو أهداف الأنبياء عليهم السلام، فزكريا عليه السلام لم يسأل الولد ليتكثر به من قلة، ولا ليتقوى به من ضعف، وإنما ليطمئن على استمرار النبوة، وبقاء الدعوة.

٢٧- أن الله عز وجل هو خير الوارثين للأرض وما عليها؛ لقوله: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿١٢٩﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

٢٨- استجابته عز وجل لزكريا، وهبته له «يحيى»، وإصلاح زوجته له، فولدت

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤١٤١، ومسلم في فضائل الصحابة - فضل عائشة رضي الله عنها ٢٤٨٨، وأبو داود في النكاح ٢١٣٨، وابن ماجه في النكاح ١٩٧٠، وأحمد ١٩٤ / ٦ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

بعد أن كانت عقيماً؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، وَيَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، وَزَوْجَهُ﴾.

٢٩- ثناء الله عز وجل على زكريا وابنه يحيى وزوجه بمسارعتهم إلى الخيرات، ودعائهم إياه رغبة ورهبة، وخشوعهم له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾.

٣٠- الترغيب في المسارعة إلى الخيرات، ودعائه عز وجل رغبة ورجاء في ثوابه، ورهبة وخوفاً من عقابه، والخشوع له، والتذلل والخضوع.

٣١- ثناء الله عز وجل على مريم عليها السلام، وامتداحه إياها بإحصان فرجها وحفظه من الفواحش مع أنها لم تتزوج؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾.

٣٢- قدرة الله تعالى التامة في إيجاد عيسى عليه السلام من مريم من غير أب، بنفخه عز وجل فيها من روحه، وجعلها وابنها آية للعالمين على كمال قدرته عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا يَجْعَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقُولُونَ أَلَمْ نَكُنَّا قَدْ كُنَّا فِي عَقْلٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَتْ هَتُولَاءَ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا شَاءْتُمْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يُخْرَجُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَهِنَا يَجْعَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴿٩٤﴾.

قوله: ﴿إِن هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الخطاب للأنبياء المذكورين في الآيات السابقة، والأمة: الملة؛ كما في قول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢]، أي: إنا وجدنا آباءنا على ملة.

والمعنى: إن هذه ملتكم - أيها الأنبياء - ملة واحدة، هي العبودية لله تعالى لا شريك له، وتوحيده، ودينكم الإسلام، لا دين لكم سواه.

﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾، أي: وأنا ربكم وحدي، لا رب لكم غيري؛ ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾، أي: فاعبدوني دون سواي، وأخلصوا لي العبادة، وتذللوا واخضعوا لي دون غيري؛ كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «الأنبياء إخوة من علات؛

وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد»^(١).

أي: أن شرائعنا مختلفة؛ كما قال عز وجل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، وديننا واحد، وهو التوحيد، عبادة الله تعالى وحده لا شريك له. وجاءتهم به رسلهم، وتقطعوا أمرهم بينهم، واختلفوا في دينهم ففرقوا شيعًا وأحزابًا، كل يدعي أنه على الحق دون غيره؛ كما قال تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَرَّوْا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَأَسْتَمِمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾، أي: كل أولئك الأمم والأحزاب إلينا راجعون يوم القيامة، فنحاسبهم ونجازيمهم على أعمالهم خيرا وشرها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ الفاء: عاطفة، و«من»: شرطية، أي: فمن يعمل الأعمال الصالحات بجوارحه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الواو: حالية، أي: والحال أنه مؤمن، أي: مصدق بقلبه.

﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فلا جحود لعمله، بل هو مشكور على عمله، سيثاب ويمجىزى عليه أحسن الجزاء، ويضاعف له الثواب؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ [آل عمران: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قال ﷺ: «كل عمل ابن آدم يضاعف له، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف»^(٢). ﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾، أي: وإنا لعمله وسعيه كاتبون، فلا يضيع منه شيء؛ كما

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٤٣، ومسلم في الفضائل ٢٣٦٥.

(٢) سبق تخريجه.

قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

قوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿١٦﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْوِنُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾.

قوله: ﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: بكسر الحاء وإسكان الراء من غير ألف: «وَحِرْمٌ»، وقرأ الباقون بفتح الحاء والراء وألف بعدها: ﴿وَحَرَامٌ﴾.

والتحريم يكون كونياً، ويكون شرعياً، والمراد به هنا: التحريم الكوني، أي: ممتنع على أي قرية أهلكتها، من القرى المكذبة للرسول، أنهم لا يرجعون إلينا بالبعث، بل لا بد من رجوعهم إلينا؛ لنحاسبهم ونجازيهم على أعمالهم.

ويؤكد هذا المعنى قوله قبل هذا: ﴿كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنبياء: ٩٣]، فيكون إثباتاً للبعث لنفي ضده.

وقيل: المعنى: أنهم لا يرجعون عن الكفر، وتكون «لا»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وحرام على قرية أردنا إهلاكها أنهم يرجعون عن الكفر ويتوبون منه.

وقيل: المعنى: أنهم لا يرجعون إلى الدنيا قبل يوم القيامة؛ ليستدرکوا ما فرط منهم.

والأظهر القول الأول.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾، أي: إذا فتح السد الذي بينهم وبين الناس، الذي بناه ذو القرنين.

وهما أمتان من بني آدم؛ كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ؛ أن الله يقول: «يا آدم، فيقول: لبيك، فيقول: ابعث بعث النار من ذريتك. فيقول: وما بعث

النار؟ فيقول: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعون إلى النار، وواحد إلى الجنة. فحينئذٍ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، فيقال: إن فيكم أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتا: يأجوج ومأجوج»^(١).

قال ابن كثير^(٢): «بل هم من نسل نوح أيضًا، من أولاد يافث أبي الترك، والترك شرذمة منهم، تركوا وراء السد الذي بناه ذو القرنين».

﴿وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ﴾، أي: مرتفع من الأرض، ﴿يَنسِلُونَ﴾، أي: يأتون ويسرعون المشي للفساد.

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل... الحديث، وفيه ذكر خبر الدجال وما يجري منه، ثم ذكر نزول عيسى ابن مريم عليه السلام، إلى أن قال: «فيينا هم كذلك؛ إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادًا من عبادي، لا يدان لأحد بقتالهم، فحرّز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون»... إلى أن قال: «فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النّغف في رقابهم، فيصبحون فرّسى، كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض شبرًا إلا وقد ملأه زهمهم ومنتهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله»^(٣).

﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ «اقترب» أبلغ من «قرب»، ﴿الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ يوم القيامة، أي: فإذا وجدت هذه العلامات والأهوال: من نزول عيسى عليه السلام، وخروج يأجوج ومأجوج، وغير ذلك، اقترب الوعد الحق، أي: القيامة والبعث؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٥ / ٣٦٧.

(٣) أخرجه مسلم في الفتن ٢٩٣٧، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٣٢١، والترمذي في الفتن ٢٢٤٠، وأحمد

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا، أي: مفتوحة لا تكاد تطرف من شدة ما تشاهد من الأهوال العظام.

﴿يَلْوِيكُنَّا﴾، أي: يا حسرتنا! ويا هلاكنا!

﴿قَدْ كُنَّا﴾، أي: في الدنيا ﴿فِي عَقَلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾، أي: في غفلة من هذا الأمر الذي توعدنا به، ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: كنا في غفلة عن هذا الأمر، وكنا ظالمين بسبب غفلتنا وإعراضنا وكفرنا وشركنا.

وقيل: «بل»: للإضراب الإبطالي، أي: ما كنا في غفلة من هذا؛ لأننا قد وعينا وحثرنا وأذرننا، بل كنا ظالمين بمكابرتنا وإعراضنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿١٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ ءِإِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ «إن»: حرف توكيد، و«ما»: موصولة، أي: إنكم والذي تعبدون غير الله، والخطاب للمشركين من أهل مكة وغيرهم. ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، أي: وقود جهنم وحطبها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحریم: ٦].

﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾، أي: أنتم ومعبوداتكم من دون الله لجهنم واردون، أي: داخلون فيها.

﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ ءِإِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾، أي: لو كان هؤلاء الأصنام والأنداد الذين عبدتموهم من دون الله آلهة صحيحة حقاً ما وردوا النار وما دخلوها، ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، أي: وكل من العابدين ومعبوداتهم في جهنم خالدون.

﴿لَهُمْ فِيهَا﴾، أي: لهم في جهنم ﴿زَفِيرٌ﴾، أي: يعانون مشقة شديدة في إخراج النفس من بين الضلوع؛ لشدة ما هم فيه من عذابها.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ لما في آذانهم من الصمم والوقر؛ كما قال تعالى: ﴿صُمُّوا﴾ ﴿بُكُّوا﴾ [البقرة: ١٨، ١٧١].

وفي هذا إبطال لتأليههم لهذه الأصنام، وبيان لكذبهم، وإذلال لهم ولآلهتهم؛ كما قال تعالى: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [النحل: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٣١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٣٢﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

لما توعد المشركين بكونهم وقود جهنم وما يعبدون من دون الله، وورودهم لها وخلودهم فيها، أتبع ذلك ببيان أن الذين سبقت لهم منه الحسنى مبعدون عنها كل البعد، وهم فيما اشتتهت أنفسهم خالدون.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾. عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ قال المشركون: فالملائكة وعيسى وعيسى والعزير يعبدون من دون الله! قال: فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ (١).

وسواء صح هذا أو لم يصح فإن الآية نزلت خطاباً لأهل مكة في عبادتهم الأصنام التي هي جمادات لا تعقل؛ ليكون ذلك تقييداً وتوبيخاً لعبادها، فلا يرد على هذا من عبد الملائكة أو عبد المسيح والعزير ونحوهم ممن لهم عمل صالح، ولم يرض بعبادة من عبده.

وأيضاً: فإن «ما» لما لا يعقل، فلا يدخل فيها الملائكة والمسيح وعزير. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾، أي: إن الذين سبقت وقدرت في الأزل قبل وجودهم لهم منا الحسنى، أي: المنزلة الحسنى، بالتوفيق للإيمان بالله ورسوله والعمل الصالح، والثبوت الحسنى والجنة؛ كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» ٢ / ٣٨٤ - ٣٨٥، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

﴿أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾، أي: أولئك عن جهنم مبعدون غاية البعد، وأشار إليهم بإشارة البعيد: «أولئك» تنويهاً بهم، ورفعاً لمنزلتهم.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ تأكيد لمعنى «مبعدون»، أي: فهم من شدة بعدهم عنها لا يسمعون حسيستها، أي: لا يسمعون حريقها في الأجساد وأصواتها، فيفزعهم ذلك.

﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ الواو: حالية، و«ما»: موصولة، أي: وهم في الذي اشتتهه وتشوقت إليه أنفسهم والتذت به من المأكّل والمشارب والمناجح والمناظر وغير ذلك.

﴿خَالِدُونَ﴾ مقيمون إقامة أبدية، لا يموتون ولا يخرجون منها، ولا يفنى نعيمهم.

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾، أي: لا يحزنهم ولا يزعجهم الفزع والخوف الأعظم يوم القيامة، حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الأخرى للبعث، وخروج الناس عن قبورهم وحشرهم إلى الموقف؛ كما قال: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنُزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوَّهٍ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [النمل: ٨٧].

﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ إذا خرجوا من قبورهم، تبشرهم وتقول لهم: ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بمجيئه، وتوعدون فيه بالجزاء العظيم، والثواب الجزيل.

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات وتأكيد أن ملة الرسل كلهم ملة واحدة، هي: التوحيد وعبادة الله تعالى وحده، ودينهم الإسلام، وإن اختلفت شرائعهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾.
- ٢- أن رب الخلق كلهم هو الله عز وجل، لا رب لهم غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾.
- ٣- الاستدلال بتوحيد الربوبية على وجوب توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.
- ٤- تفرق الأمم واختلف فهم على رسلهم، وإعراضهم عما دعواهم إليه من عبادة الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾.

٥- رجوع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، ومحاسبته ومجازاته إياهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ إِلَهٍ آتِنَا رِجْعُونَ﴾.

٦- أن من عمل الأعمال الصالحات بجوارحه، وهو مؤمن ومصدق بقلبه، يجازى على عمله ويشكر، ولا يكفر سعيه؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾.

٧- لا بد من الجمع بين العمل بالجوارح والإيمان بالقلب، ولا بد من كون العمل صالحاً؛ خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه.

٨- كتابة أعمال العباد وضبطها وإحصاؤها، وعدم ضياع شيء منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُو كَاتِبُونَ﴾.

٩- لا محالة ولا بد من رجوع أي قرية أهلكتها الله في الدنيا لموافاة الحساب والجزاء يوم القيامة كسائر الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ (١٥).

١٠- فتح سد يأجوج ومأجوج، وذلك من علامات الساعة، وسرعة انتشارهم، وفسادهم في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (١٦).

١١- اقتراب الوعد الحق بالبعث والقيامة بعد خروج يأجوج ومأجوج، وتتابع علامات الساعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ﴾.

١٢- شخوص أبصار الذين كفروا من شدة أهوال القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

١٣- دعاؤهم بالويل والثبور، وندمهم على غفلتهم، واعترافهم على أنفسهم بالظلم؛ لقولهم: ﴿يَوَيْلُنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

١٤- الوعيد والتهديد للمشركين وما يعبدون من دون الله؛ بأنهم وقود جهنم وواردون لها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ (١٨).

١٥- إبطال زعم المشركين إلهية الأصنام التي يعبدونها من دون الله؛ لأنهم لو كانوا

آلهة لما وردوا النار، ولدافعوا عن أنفسهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَتْ هَؤُلَاءِ آلهةَ مَا وَرَدُواهَا﴾.

١٦- خلود المشركين ومعبوداتهم من دون الله في جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١٧- معاناة المشركين في جهنم مشقة شديدة في الزفير وإخراج النفس؛ لشدة عذابها، وصممهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾.

١٨- إبعاد من كتب الله لهم الحسنی والسعادة غاية البعد عن جهنم، فلا يرونها فتروعهم، ولا يسمعون حسيستها وصوتها فيزعجهم ويؤذيمهم ويقلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٨﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾.

١٩- عظم ما أعد الله للمؤمنين بالله ورسله من النعيم الحسي مما تشتهيهم أنفسهم، ومن النعيم المعنوي من أمنهم من الفزع الأكبر، وتلقي الملائكة لهم بالبشارة بما وعدوا به يوم القيامة من الأجر والثواب العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٢٠- خلود أهل الجنة فيما هم فيه من النعيم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا أُشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾.

٢١- إثبات القدر، وأن الله عز وجل قدر ما الخلق عاملون، وما هم صائرون إليه في الأزل قبل خلقهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ الآية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٢١﴾﴾ [القمر: ٤٩].

٢٢- إثبات وجود الملائكة، وأن من أعمالهم بشارة المؤمنين، وتهنئتهم، والترحيب

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
تُبِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ
الْأَرْضَ يَرِيهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٣٧﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَلِيمِينَ ﴿١٣٨﴾ وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٣٩﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ
فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ
بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٤١﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٤٢﴾ وَإِنْ
أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٣﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ
الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٤٤﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ
تُبِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْهَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾:

قوله: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ قرأ أبو جعفر: «تَطْوِي السَّمَاءَ»
بالتاء مضمومة على التانيث، وفتح الواو، ورفع السماء.

وقرأ الباقون بالنون مفتوحة، وكسر الواو، ونصب السماء: ﴿نَطْوِي السَّمَاءَ﴾.
كما قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم: ﴿لِلْكُتُبِ﴾ بضم الكاف والتاء من غير
ألف على الجمع.

وقرأ الباقون: «لِلْكِتَابِ» بكسر الكاف وفتح التاء مع الألف على الأفراد.
أي: إن ما سبق من الوعيد والوعد كائن يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ
السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

و«السجل»: الصحيفة والورق المكتوب فيه، أي: يوم تطوي السماء كطي
الصحيفة، أي: كما تطوى الصحيفة والورقة على ما كتب فيها.

وفي هذا من الدلالة على عظم قدرة الله تعالى ما لا يخفى، ولهذا قال تعالى في الآية
الأخرى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «يقبض الله الأرض يوم

القيامة، وتكون السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»^(٢).

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ استدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني، أي: كما بدأنا الخلق أول مرة نعيده مرة أخرى، أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا له. ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا﴾ «وعدًا»: مفعول مطلق منصوب، أي: وعدًا علينا حقًا كائنًا لا محالة. ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ «إن»: حرف توكيد، أي: إنا فاعلين لما وعدنا به؛ لكمال قدرتنا على ذلك، فهو كائن لا محالة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة، فقال: «إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلاً، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وذكر تمام الحديث^(٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عٰبِدِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِينَ ﴿١٧﴾

قوله: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ﴾ «الزبور»: جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام؛ كصحف إبراهيم، والتوراة، والإنجيل، وزبور داود، والقرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسَئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ يَا بَيِّنَاتٍ وَالزُّبُورِ﴾ [النحل: ٤٣-٤٤].

﴿مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ المراد بالذكر هنا: الكتاب الأول: «اللوح المحفوظ»، «أم

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٨٢، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٨٧، وابن ماجه في المقدمة ١٩٢.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٦٠، والنسائي في الجنائز

٢٠٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٣.

الكتاب».

قال ﷺ: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض»^(١).

أي: كتبنا في الكتب المنزلة على الأنبياء من بعد أن كتبنا في اللوح المحفوظ الذي كتب فيه كل شيء: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ في الدنيا والآخرة، فهم المستحقون لخلافة الأرض في الدنيا، وهم الوارثون لأرض الجنة في الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨].
وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

وأخص من يوصف بالعبودية لله تعالى والصلاح هي هذه الأمة، ونبينا الكريم محمد ﷺ؛ ولهذا ذهب ابن عباس رضي الله عنهما وبعض المفسرين إلى أن المراد بقوله: ﴿يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾: أمة محمد ﷺ.

قال ابن القيم: «والأرض: الدنيا. وعباده الصالحون: أمة محمد ﷺ. هذا أصح الأقوال في هذه الآية، وهي علم من أعلام نبوة رسول الله ﷺ؛ فإنه أخبر بذلك وأهل مكة كفار، وأعداء له ولأصحابه، والمشركون قد أخرجوهم من ديارهم ومسكنهم، وشتتوهم في أطراف الأرض، فأخبرهم ربهم تبارك وتعالى أنه كتب في الذكر الأول: أنهم يرثون الأرض من الكفار، ثم كتب ذلك في الكتب التي أنزلها على رسله»^(٢).

وفي حديث ثوبان رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «وزويت لي الأرض،

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق، ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ٣١٩٢، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ١٩٦.

فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»^(١).
قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أخبر الله سبحانه في التوراة والزبور وسابق
علمه: أن تورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون»^(٢).
﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ القرآن الكريم الذي أنزلناه على محمد ﷺ.

﴿لَبَلَّغْنَا لِقَوْمِ عَالِيَيْنِ﴾ «البلاغ»: الكفاية والغنية والوصول إلى الغاية
والمبتغى؛ كما في حديث الأقرع والأبرص والأعمى، يقول الملك لكل واحد منهم: «لا
بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك ناقة أو بقرة أو شاة أتبلغ بها في سفري...»^(٣)،
أي: أستعين بها وأصل بها في سفري إلى بلدي.

ومعنى: ﴿لَبَلَّغْنَا لِقَوْمِ عَالِيَيْنِ﴾، أي: لكفاية وغنية ﴿لِقَوْمِ عَالِيَيْنِ﴾ لله
تعالى، يبلغون ويصلون به إلى مبتغاهم من معرفة الله عز وجل وما يجب له، والوصول
إلى مرضاته وإلى دار كرامته.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ «إلا» أداة حصر، و«رحمة» مفعول
لأجله، أي: وما أرسلناك إلا لأجل رحمة العالمين، أي: وما أنت إلا رحمة عامة للعالمين
كلهم؛ إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، ورحمة خاصة لمن آمن منهم بك واتبعك.
عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قيل: يا رسول الله، ادع على المشركين. قال: «لم
أبعث لعناً، إنما بعثت رحمة»^(٤).

فهو رحمة خاصة لمن آمن به واتبعه؛ لأن ما جاء من الوحي على لسانه ﷺ هو
سبب سعادتهم في دينهم ودنياهم وأخراهم.

وهو رحمة عامة للعالمين، رفع الله برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، كما في
حديث ثوبان رضي الله عنه، قال ﷺ: «وسألت ربي لأمتي ألا يهلكهم بسنة بعامة»...

(١) أخرجه مسلم في الفتن ٢٨٨٩، وأبو داود في الفتن، ذكر الفتنة ودالاتها ٤٢٥٢، والترمذي في الفتن

٢٦١٧، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦ / ٤٣٤.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في البر، النهي عن لعن الدواب ٢٥٩٩.

الحديث (١).

وهو رحمة عامة للعالمين، بما جاء به من الشرع العدل المستقيم، الذي به العدل بينهم، وإنصاف بعضهم من بعض، فعاش في كنف شريعة الإسلام الغراء المعاهدون، وأمنوا على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، ومنع من الاعتداء حتى على غير المسلمين، ولم ينه عن البر بهم والقسط إليهم ما لم يكونوا محاربين للمسلمين في دينهم، قال تعالى: ﴿لَا يَهْدِكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْتُلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَنُقَسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

وشرع الإحسان إلى كل ذات كبد رطبة من إنسان أو حيوان، قال ﷺ: «في كل كبد رطبة أجر» (٢).

بل حقن دماء المنافقين، وحفظ أموالهم، وصان أعراضهم، وأجرى عليهم أحكام المسلمين، بما أظهروا من الإسلام، مع أنهم أشد أعداء الإسلام! فهو رحمة عامة للعالمين، فمن قبلها انتفع بها في دينه ودنياه وأخراه، ومن ردها لم يخرجها رده لها عن كونها رحمة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحِيدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١٣٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٣٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١٤٠) وَإِنْ أَدْرَىٰ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١٤١) قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٤٢).

قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، أي: قل للمشركين وللناس عامة: إنها يوحى إلي من ربي.

﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحِيدٌ﴾ «أنما»: أداة حصر، أي: ما إلهكم ومعبودكم إلا إله ومعبود واحد، هو الله وحده لا شريك له.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة ٢٣٦٣، ومسلم في السلام ٢٢٤٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥٥٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، و«هل»: للاستفهام ومعناه: الأمر والتحضيض، أي: فهل أنتم مستسلمون منقادون لما يوحى إليّ من وجوب توحيد الله؟ أي: أسلموا وانقادوا وابدعوا الله تعالى وحده لا شريك له.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾، أي: فإن أعرضوا عما دعوتهم إليه من توحيد الله تعالى بقلوبهم وجوارحهم.

﴿فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ﴾، أي: أعلمتكم ما أمرت به.

﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾، أي: أنا وأنتم مستوون في العلم بذلك، وأنا بريء منكم وأنتم بريئون مني؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلَةٌ أَنْتُمْ بِرِئُوسٍ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

وأيضاً: أذنتكم وحذرتكم من العقاب الواقع بكم لا محالة؛ ولهذا قال: ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: نافية بمعنى: «ما»، و«أم»: عاطفة، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: وما أدري أقرب أو بعيد وعدكم، أو الذي تُوعَدتم به من العذاب، لكنه لا بد واقع بكم.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾، أي: إن الله عز وجل يعلم ما تجهرون به من الأقوال، ويعلم الذي تكتُمونه وتسرونه من المضمرات أنتم وجميع الخلق، وسيحاسبكم جميعاً على ذلك ويجازيكم.

﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [٣٣] «إن»: نافية، أي: وما أدري لعل تأخير العذاب الذي تستعجلونه.

﴿فِتْنَةٌ لَكُمْ﴾، أي: ابتلاء واستدراج لكم.

﴿وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾، أي: وتمتيع لكم، ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ في الدنيا، أي: إلى أجل مسمى؛ لتزدادوا إثماً؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ قرأ عاصم: ﴿قَالَ﴾ بالألف على الخبر، وقرأ الباقون: ﴿قُلْ﴾ من غير ألف على الأمر.

وقرأ أبو جعفر: «رَبُّ» بضم الباء، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿رَبِّ﴾.

أي: قال: يا رب ﴿أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ الباء للملاسة، أي: يا رب افصل بيننا وبين قومنا المكذبين بالقضاء الحق؛ كما قال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩].

فاستجاب الله دعاءه، فحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة بما أوقعه بالكفار في بدر. ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ﴾، أي: ذو الرحمة الواسعة، التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي. ﴿الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾، أي: المستعان به على الذي تصفون، أي: على الذي تقولون وتفترون من الكذب على الله عز وجل وعلى دينه ورسله.

الفوائد والأحكام:

١- طيُّ الله عز وجل السموات يوم القيامة بيمينه؛ كما تطوى الصحيفة على ما كتب فيها، وإثبات عظمته، وكمال قدرته، وتمام قوته؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾.

٢- الاستدلال بالنظير على النظير، أي: الاستدلال ببدء الخلق أول مرة على قدرته عز وجل على إعادته مرة أخرى؛ لقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾.

٣- صدق وعده عز وجل في إعادة الخلق مرة أخرى؛ لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وأن ذلك كائن لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾.

٤- حكم الله عز وجل، وكتابته في كتبه المنزلة على رسله، وقبل ذلك في اللوح المحفوظ: أن الأرض يرثها عباده الصالحون، فهم المستحقون للخلافة عليها في الدنيا، وهم الوارثون لها في الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

٥- إثبات القدر، وكتابة كل شيء مما يجري في هذا الكون في اللوح المحفوظ.

٦- تكريم الله تعالى لعباده الصالحين، بتوريثهم الأرض في الدنيا والآخرة، وفي هذا ترغيب في الصلاح.

٧- إثبات عبودية الصالحين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.

٨- تعظيم شأن القرآن الكريم وما فيه من الهداية، وتأكيد أن فيه الكفاية والغنية

لقوم عابدين لله تعالى؛ لمعرفة الله عز وجل، وما يجب له، والوصول إلى مرضاته، وإلى دار كرامته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عٰبِدِيْنَ ﴿١٠٤﴾﴾.

٩- إثبات رسالة النبي ﷺ وعمومها، وأن الله إنما أرسله رحمة للعالمين عامة؛ لبيان ما فيه السعادة لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، في معاشهم ومعادهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿١٠٥﴾﴾.

١٠- الرد على من يسعون لتشويه صورته ﷺ، وتشويه ما جاء به من رسالة الإسلام والسلام.

١١- أنه ﷺ إنما جاء بها أوحاه الله تعالى إليه من إعلان وحدانية الله تعالى في الإلهية لجميع الخلق، والأمر بالاستسلام والانقياد، والحض على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوْحِيٓ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌُ وَحِدٌۭ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٦﴾﴾.

١٢- التحذير من التولي والإعراض عما دعا إليه ﷺ من توحيد الله تعالى، والاستسلام والانقياد له، والوعيد والتهديد بالعقاب العاجل أو الآجل لمن تولى؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

١٣- الرد على المستعجلين للعذاب، وبيان أنه ﷺ لا يعلم الغيب، ولا يدري هل قريب أو بعيد ما يوعدون به من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن أَدْرِيٓ أَقْرَبُٓ أَمْ بَعِيْدُۭ مَا تُوعَدُونَ ﴿١٠٨﴾﴾.

١٤- إثبات علم الله تعالى بما يجهر به الناس من القول وما يكتُمونه؛ لإحاطة علمه عز وجل بكل شيء مما غاب أو ظهر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

١٥- أنه ﷺ لا يدري ما الحكمة في عدم معاجلة المكذابين بالعذاب، وأنه قد يكون ابتلاء واستدراجاً لهم ليزدادوا إثماً فيزدادوا عقوبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن أَدْرِيٓ لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١٠﴾﴾.

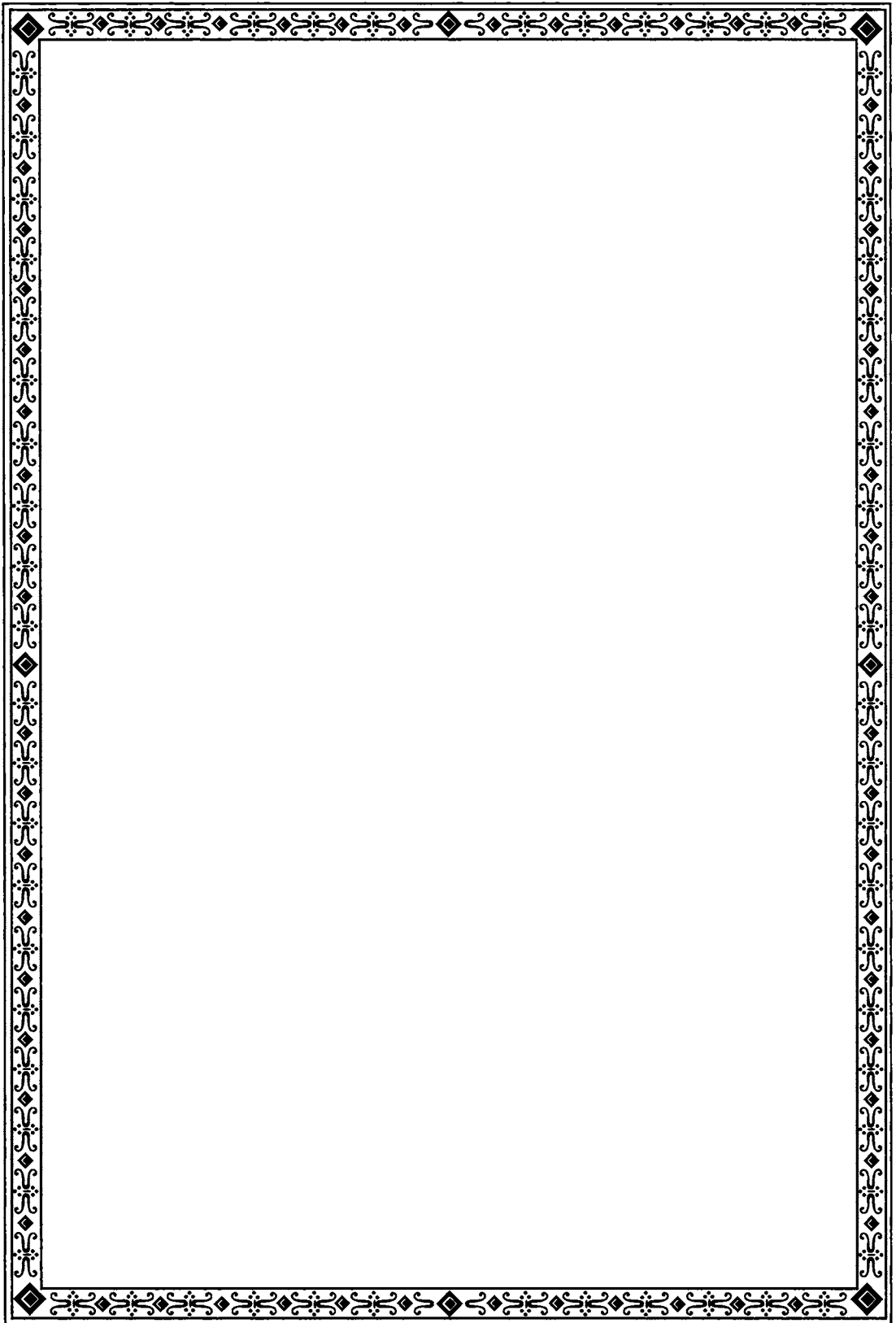
١٦- سؤاله ﷺ الحكم والفصل بينه وبين قومه بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ﴿١١١﴾﴾.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبِّ ﴿١١٢﴾﴾، ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمٰنُ ﴿١١٣﴾﴾.

- ١٨- إثبات اسم الله: «الرحمن»، وصفة الرحمة الواسعة له عز وجل.
- ١٩- استعانه ﷻ بربه على ما يلقاه من المكذبين من قومه من الافتراء على الله تعالى وعلى دينه ورسله، وثقته بعون الله ونصره؛ لقوله: ﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.
- ٢٠- أن الذي ينبغي الاستعانة به في الملهمات والشدائد في جميع الأمور، والذي بيده العون والنصر؛ هو الله تعالى وحده.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْحَجِّ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت «سورة الحج» بهذا الاسم؛ لأن الله ذكر فيها أمره إبراهيم عليه السلام أن يؤذن بالحج، وذكر فيها بعض أحكامه؛ قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُوَكَّلُ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: ٢٧]، والآيات بعدها.

والحج إنما شرع في الآيات في سورة البقرة وآل عمران.

ب- مكان نزولها:

سورة الحج منها ما هو مكّي، كأولها وآخرها، ويغلب عليها طابع السور المكيّة في تناولها لتوحيد الله تعالى، وإثبات الساعة ومشاهد القيامة والتخويف منها، وإنكار الشرك وذم أهله، وذكر آيات الله ودلائل قدرته ونعمه.

ومنها ما هو مدني، كالأيات في ذكر بعض أحكام الحج والنسك، والآيات في الإذن بالقتال، والأمر بالجهاد في سبيل الله، والوعد بنصر الله، ونحو ذلك.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: فأنزل الله عز وجل: ﴿أُذِّنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ يَأْتَهُمْ ظُلْمًا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]، فعرفت أنه سيكون قتال، قال ابن عباس: فهي أول آية نزلت في القتال»^(١).

عن أبي ذر رضي الله عنه؛ أنه كان يقسم قسمًا أن هذه الآية: ﴿هُدَايَٰنِ حَضَمَانَ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبيه وعتبة وصاحبيه، يوم برزوا في يوم بدر»^(٢).

وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «سورة نزلت بمكة سوى ثلاث آيات منها؛ فإنهن نزلن بالمدينة، وهن: ﴿هُدَايَٰنِ حَضَمَانَ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ إلى تمام

(١) أخرجه النسائي في الجهاد (٣٠٨٥)، والترمذي في تفسير سورة الحج (٣١٧١)، وأحمد (٢١٦/١)، والطبري في «جامع البيان» (٥٧٤/١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٩٦/٨)، وقال الترمذي: «حديث حسن»، وأخرجه الحاكم (٦٦/١) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤٣، ومسلم في التفسير، قوله تعالى: ﴿هُدَايَٰنِ حَضَمَانَ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ ٣٠٣٣، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٣٥.

الآيات الثلاث»^(١).

وقد روى مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن سورة الحج نزلت بالمدينة»^(٢).

قال ابن تيمية: «سورة الحج فيها مكّي ومدني»^(٣).

وقال الزركشي: «سورة الحج مدنية، وفيها أربع آيات مكية، قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا

مِن قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ إلى قوله: ﴿عَقِيمٍ﴾»^(٤).

وقد قيل: إنها كلها مكية. وقيل: كلها مدنية.

والأظهر أن منها ما هو مكّي، وما هو مدني، وهو قول الجمهور.

ج- فضلها:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، أفضلت سورة الحج على

سائر القرآن بسجدين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجد لهما فلا يقرأهما»^(٥).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بخطاب الناس جميعاً وأمرهم بتقوى ربهم، وإثبات الساعة

والقيامة، وبيان عظمتها وشدة أهوالها، والتخويف منها؛ للاستعداد لها، والذم لمن يجادل

في الله بغير علم منكرًا قدرة الله تعالى على البعث، متبعًا كل شيطان مريد، يضلّه عن الحق

ويهديه إلى عذاب السعير، وبيان تمام قدرته تعالى على البعث بالاستدلال بالخلق الأول،

وبإحياء الأرض بعد موتها: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ

عَظِيمٌ﴾^(٦) إلى قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن

تُرَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾^(٧).

٢- بيان أن من الناس من يجادل في الله وفي قدرته على البعث بلا علم، متكبرًا

ساعيًا في الإضلال عن سبيل الله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ إلى قوله:

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٨).

(١) أخرجه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٥٠٩/٢) (٦٦٨).

(٢) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٧/ ١٤٤.

(٣) انظر «دقائق التفسير» ٣/٤/ ٣٧١.

(٤) «البرهان» ١/ ١٩٤.

(٥) سيأتي تخريجه.

٣- بيان أن من الناس صنفاً يعبد الله على حرف، سرعان ما ينقلب على وجهه إذا أصابته فتنة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ إلى قوله: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ ﴿١٣﴾.

٤- وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ ﴿١٤﴾.

٥- تخيب ظن من يظن أن الله لن ينصر رسوله ودينه، وامتنانه عز وجل بإنزال القرآن وبيانه، وأنه يهدي من يريد: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ﴾ ﴿١٥﴾ وكذلك أنزلته آيَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾.

٦- الإخبار بفصله عز وجل بين الأمم والطوائف يوم القيامة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿١٧﴾.

٧- سجود جميع المخلوقات وانقيادها لله تعالى سوى كثير من الناس: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿١٨﴾.

٨- تشبيه المؤمنين الذين يريدون نصر دين الله، والكافرين الذين يريدون إطفاء نور الله بالخصمين، وبيان عاقبة كل منهما: ﴿هَذَا نَحْصَمَانِ أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ ﴿١٩﴾.

٩- ذم المشركين الذين يصدون عن المسجد الحرام، الذي جعله الله للناس سواء العاكف فيه والباد، والوعيد لمن يريد فيه بإلحاد بظلم: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِن عَذَابِ إِلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

١٠- التذكير بما امتن الله به على إبراهيم عليه السلام وعلى الناس كافة؛ إذ بوأه مكان البيت لعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وتطهيره للطائفين والعاكفين والركع السجود، والتأذين في الناس بالحج؛ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام

معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، وتعظيم حرمان الله وشعائره، والإخلاص له، وذكر اسمه وتكبيره: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ إلى قوله: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الآيات: ٢٦-٢٧].

١١- دفاع الله تعالى عن الذين آمنوا، وإذنه لهم بالقتال لمن ظلموهم وأخرجوهم من ديارهم بغير حق، ووعدهم بالنصر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

١٢- تسليته ﷺ وتثبيت قلبه بذكر تكذيب الأمم قبله لرسولهم وإهلاكهم: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَبْرُؤُا مُّعَظَلَةً وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾.

١٣- توبيخ المشركين والمكذبين وتقريعهم لما لم يؤمنوا بما يرون ويسمعون من آثار ما حل بالمكذبين قبلهم، ودمهم على استعجالهم بالعذاب، وبيان أن الله يملئ ويمهل ولا يهمل: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمَلَّتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾.

١٤- بيان أن النبي ﷺ ما هو إلا نذير للناس بين النذارة والوعد لمن آمن به، والوعيد لمن كذبه: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ إلى قوله: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والذين سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

١٥- بيان أنه ما أرسل الله عز وجل من رسول إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فتنة وابتلاء للظالمين، وتثبيتاً للمؤمنين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

١٦- فضيلة المهاجرين في سبيل الله، ووعد الله تعالى لهم بالرزق الحسن، وإدخالهم مدخلاً يرضونه: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُمُ مَّدْخَلًا يَرْضُونَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾.

١٧- وعد الله تعالى لمن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه بنصره: ﴿إِنَّ اللَّهَ

لَعَفُوْهُ عَفُوْرٌ ﴿١٨﴾

١٨- بيان دلائل قدرة الله تعالى ونعمته على أنه الإله الحق: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُوْرٌ ﴿١٨﴾﴾.

١٩- امتنانه عز وجل بأن جعل لكل أمة منسكاً هم ناسكوه، وتشبته ﷺ في الدعوة: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيْرٌ ﴿١٩﴾﴾.

٢٠- ذم المشركين وتجهيلهم في عبادتهم من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِيْنَ مِنْ نَّصِيْرٍ ﴿٢٠﴾﴾.

٢١- إنكار المشركين لآيات الله، وشدة عدائهم لمن يتلو عليهم آيات الله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوْهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُوْنَ بِالَّذِيْنَ يَتْلُوْنَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرْكِيْ مِنْ ذَلِكَ الْتَارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَسَّ الْمَصِيْرُ ﴿٢١﴾﴾.

٢٢- ضرب المثل لبيان ضعف ما يدعوه المشركون من دون الله، وأنهم لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له، ضعف الطالب والمطلوب، وبيان أنهم ما قدروا الله حق قدره حين دعوا آلهة من دونه: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوْهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ ﴿٢٢﴾﴾.

٢٣- بيان أنه عز وجل يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس، والرد على من يزعمون أن الرسل لا يكونون من البشر: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ يَشَاءُ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَصْطَفِيْ مِنَ الْبَشَرِ﴾ إلى قوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِيْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمَنْ يَشَاءُ﴾.

٢٤- إحاطة علم الله عز وجل بالخلائق، ورجوع الأمور إليه سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُوْرُ ﴿٢٤﴾﴾.

٢٥- ثم ختم عز وجل السورة بأمر المؤمنين بالركوع والسجود، وعبادته سبحانه وفعل الخير، والجهاد في الله حق جهاده، والتنويه باصطفائه إياهم، ورفع الحرج عنهم في الدين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٥﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيْرُ ﴿٢٥﴾﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرْوَنَهَا تَدَّهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ② وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ③ كَتَبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآنَهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ④ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّئَلَّيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُؤْتَىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَبْتَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَهْبِجُ ⑤ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ⑥ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَإِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ⑦﴾.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ① يَوْمَ تَرْوَنَهَا تَدَّهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ②﴾:

قوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب؛ لأن المنادى مفعول به، و«ها» للتنبيه، وتصدير الخطاب بالنداء للعناية والاهتمام، والتعظيم والتنبيه لما بعده من الخبر والطلب.

و«الناس»: صفة لـ«أي»، أو بدل منها، أو عطف بيان، مشتق من «النوس» وهي الحركة.

أو من «الأنس»، أو من «الإناس» وهي المشاهدة، أو من ذلك كله. والمراد بهم: البشر، بنو آدم عليه السلام.

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أو امره واجتناب نواهيه.

و«التقوى» في الأصل مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل الإنسان بينه وبين الشيء المخوف وقاية، فيتقي الشوك بلبس النعلين؛ ويتقي البرد بالملابس، وهكذا.

والمعنى: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية باتباع أوامره واجتناب نواهيه.
﴿رَبِّكُمْ﴾ «الرب»: هو الخالق المالك المدبر، أي: اتقوا خالقكم ومالككم ومدبركم.
وفي اقتران الأمر بالتقوى باسم «الرب» ترغيب؛ لأن فيه تذكير الناس بنعمة ربوبيته
عز وجل لهم؛ خلقهم ورزقهم وأنعم عليهم بسائر النعم؛ مما يوجب تقواه شكرًا له على
نعمه.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ الجملة في موضع التعليل للأمر بالتقوى.
وهذا- والله أعلم- هو السبب في ربط الإيمان باليوم الآخر بالإيمان بالله في
مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وهو أن الإيمان بالقيامة وأهوالها واليوم الآخر من
أعظم الحوافز على العمل؛ لأن فيه الحساب والجزاء على الأعمال.
و«الزلزلة»: حركة الأرض واضطرابها الشديد، وما يحصل للنفوس من الفزع
والرعب.

و«الساعة»: القيامة وبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء على الأعمال،
وسميت القيامة بالساعة؛ لأنها أكبر حدث، وآتية لا محالة، ومحددة الوقوع.
قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَالَهَا ۝ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ۝
يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝ فَمَن
يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝﴾ [الزلزلة: ١-٨].

وقال تعالى: ﴿وَجُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكْدَاكَةً وَوَحْدَةً ۝ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝﴾ [الحاقة: ١٤-١٥]،
وقال تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۝ وَسُتَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ۝ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًا ۝﴾ [الواقعة: ٤-٦].

﴿شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، أي: أمر كبير، وخطب جليل، وحادث فظيع، لا يقدره قدر
عظمته، ولا يعلم كنه ذلك إلا من وصفه بأنه عظيم، وهو العظيم سبحانه وتعالى،
وذلك؛ لما فيه من الأهوال العظام والأخطار الجسام.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ
حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾.
بيان وتفسير لقوله: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا﴾ «يوم» منصوب على الظرفية، أي: يوم تشاهدونها وما فيها من
الأهوال.

﴿تَذْهَلُ﴾، أي: تغفل وتنشغل من شدة الهول، ﴿كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾، أي: التي في حال الإرضاع قد ألقمت ثديها رضيعها، وهي أبلغ من «مرضع»، قال ابن القيم: «المرضع: من لها ولد ترضعه. والمرضعة: من ألقمت الثدي للرضيع. وعلى هذا فقوله: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ أبلغ من «مرضع» في هذا المقام؛ لأن المرأة قد تذهل عن الرضيع إذا كان غير مباشر للرضاعة، فإذا التقت الثدي واشتغلت برضاعه لم تذهل عنه إلا لأمر هو أعظم عندها من اشتغالها بالرضاع، وأكد هذا بقوله: ﴿عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ فعلم أن المراد بالمرضعة: التي ترضع بالفعل، لا بالقوة والتهيؤ، فأتى في المرضعة بالتاء التي تحقق فعل الرضاعة»^(١).

﴿وَوَضِعَ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾، أي: وتُسقط من شدة الفزع والهول كل ذات حمل حملها قبل تمامه.

﴿ذَاتِ حَمَلٍ﴾، أي: صاحبة حمل، وهي المرأة التي قد ظهر حملها وتحقق، وصلاح للوضع كاملاً أو سقطاً.

فذهلت لشدة ذلك اليوم المرضعات قبل الفطام، وألقت ذوات الحمل حملها قبل التمام.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «سَكْرَى» بفتح السين وإسكان الكاف من غير ألف في الموضعين، وقرأ الباقون: ﴿سُكْرَى﴾ بضم السين وفتح الكاف وألف بعدها في الموضعين.

والخطاب لكل من تتأتى منه الرؤية، أي: وترى الناس تحسبهم سكارى من الخمر من شدة ما هم فيه من الخوف والفزع والانزعاج واندهاش العقول؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۗ﴾ [القارعة: ٤]، وذلك من شدة الاضطراب والحيرة والذهول.

﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَى﴾ الجملة حالية، أي: والحال أنهم ليسوا بسكارى على التحقيق. ﴿وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، أي: ولكن الذي أذهب عقولهم وأدهشهم خوفهم من عذاب الله؛ لأن عذاب الله شديد.

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣ / ٢٠١.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك ربنا وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار. قال: يا رب، وما بعث النار؟ قال: من كل ألف - أراه قال - : تسعمئة وتسعة وتسعين، فحينئذ تضع الحامل حملها، ويشيب الوليد، ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾» (١).

وعن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ، قال: «تحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً». قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء، ينظر بعضهم إلى بعض! قال: «يا عائشة، إن الأمر أشد من أن يهتمهم ذلك» (٢).

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾﴾.

بعدما أخبر بعظم زلزلة الساعة، ووجوب الاستعداد لها، ذكر حال المنكرين لها. قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ الواو: استثنائية، أي: وبعض الناس وفريق منهم ﴿مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ «من»: موصولة، أي: الذي يجادل، أي: يخاصم في قدرة الله تعالى، فينكر قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، ويكذب بالبعث.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بغير علم يعتمد عليه في جداله، بل بالباطل، وعلى جهل وتقليد أعمى لأئمة الضلال من أهل الكفر والأهواء والبدع؛ ولهذا قال: ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ﴾، أي: ويتبع في جداله وكفره وإنكاره البعث ﴿كُلَّ شَيْطَانٍ﴾ من شياطين الإنس والجن، ﴿مَّرِيدٍ﴾ متمرد خارج عن طاعة الله تعالى ورسوله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ١٢١].

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ الضمير يعود إلى ﴿شَيْطَانٍ﴾، أي: قضي وحكم على هذا الشيطان كوناً وقدراً.

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان ٢٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، كيف الحشر ٦٥٢٧، ومسلم في الجنة، فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ٢٨٥٩، والنسائي في الجنائز ٢٠٨٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٧٦.

﴿أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ﴾ الضمير في «أنه» ضمير الشأن، و«من»: اسم شرط جازم ﴿تَوَلَّاهُ﴾، أي: اتخذه وليًا واتبعه وقلده من الناس.
﴿فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ جملة جواب الشرط، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

أي: فإنه يضلّه عن الحق، ويبعده عنه في الدنيا، ويسلك به طريق الضلال والباطل.
﴿وَيَهْدِيهِ﴾ في الآخرة ﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ إلى عذاب النار المستعرة المتوقدة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِيْمَانًا يَدْعُونَ حِرْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].
و﴿السَّعِيرِ﴾ «فعليل» بمعنى «مفعول»، أي: النار المسعورة المتوقدة.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُّخَلَّقَةٍ لِّئُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِيج ﴿٥﴾.

لما ذكر تعالى المكذب بالبعث، المنكر للمعاد، المجادل في ذلك بغير علم، ذكر الأدلة على قدرته التامة على ذلك، من بدئه للخلق الأول، وإحيائه الأرض بعد موتها.
قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ أعاد خطاب الناس للتأكيد والعناية والاهتمام.
﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾، أي: إن كنتم في شك من البعث، أي: من قدرة الله تعالى على بعث الناس وإخراجهم من قبورهم، وإعادة الأرواح إلى الأجساد.
﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُّرَابٍ﴾ الآية، أي: فإننا أوجدناكم وأنشأناكم النشأة الأولى من تراب، وذلك بخلق أبيكم آدم عليه السلام.

ثم نقلناكم في مراحل خلقكم من نطفة، إلى علقة، إلى مضغة، إلى تمام خلقكم وأطوار حياتكم.

وفي قدرتنا على هذا دليل على كمال قدرتنا على بعثكم، فكيف ترتابون فيه؟ وليس بعثكم وخلقكم ثانيًا بأصعب من خلقكم الأول؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ

هُمَّ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشَأَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٦﴾ [الواقعة: ٦٢].

أي: أفلا تذكرون وتتعظون وتعلمون أن من أنشأكم من العدم قادر على إعادتكم خلقاً آخر بعد موتكم؟

﴿ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾ وهي مني الرجل، وهي الماء المهين، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٨]، وهي بداية التخليق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠].

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾، أي: ثم تتحول النطفة إلى علقة، وهي: قطعة من دم أحمر غليظ تعلق بالرحم، كما قال تعالى: ﴿الزَّيْبُكُ نُطْفَةٌ مِّنْ مَّيِّ يُتَمَّى ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾ [القيامة: ٣٧، ٣٨].

﴿ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ﴾، أي: تتحول العلقة إلى مضغة، وهي قطعة لحم صغيرة على قدر ما يمضغ، لا شكل فيها ولا تخطيط.

﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ صفة لـ ﴿مُضْغَةٍ﴾، ومعنى ﴿مُخَلَّقَةٍ﴾، أي: مصورة ظاهر منها خلق الأدمي.

﴿وَعَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، أي: غير ظاهر منها خلق آدمي، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، وهو السقط، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ - وهو الصادق المصدوق - قال: «وإن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم علقة مثل ذلك، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب عمله، وأجله، ووزقه، وشقي أو سعيد»^(١).

وعن حذيفة بن أسيد رضي الله عنه يبلغ به النبي ﷺ قال: «يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة، فيقول: يا رب، أشقي أو

(١) سبق تحريجه.

سعيد؟ فيكتبان، فيقول: أي رب، أذكر أو أنسى؟ فيكتبان، ويكتب عمله وأثره وورقه وأجله، ثم تطوى الصحف، فلا يزداد فيها ولا ينقص»^(١).

﴿لَبَّيْنَ لَكُمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نبين لكم، أي: نظهر لكم أصل نشأتكم، وعظيم قدرتنا في خلقكم أولاً، ولنظهر لكم كمال قدرتنا على بعثكم بعد الموت ثانياً.

﴿وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ «ما»: موصولة، أي: ونبقي في الأرحام الذي نشاء من الحمل.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت محدد، وهو مدة الحمل، أي: إلى وقت ولادته. ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾، أي: ثم نخرجكم من بطون أمهاتكم حال كونكم طفلاً. وأفرد «طفلاً»؛ لأن المراد به: الجنس، فهو بمنزلة الجمع، والطفل: يطلق على الولد من الانفصال إلى البلوغ.

وفي قوله: ﴿طِفْلاً﴾ إشارة إلى ضعفه في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وعقله وجميع قواه، ثم بلطفه عز وجل يحنن عليه والديه، ويعطيه القوة شيئاً فشيئاً، وينقله من طور إلى طور؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

﴿ثُمَّ لِيَتَّبِعُوا أَسْدَكُمْ﴾ كمال عقولكم وقواكم وعنفوان شبابكم؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ [الأحقاف: ١٥]. ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَىٰ﴾، أي: ومنكم الذي يموت قبل بلوغ الأشد؛ كما قال تعالى في سورة غافر: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ [غافر: ٦٧].

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ﴾، أي: ومنكم الذي يُرجع ﴿إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾، أي: إلى أرداد العمر، وهو سن الهرم والشيخوخة وضعف القوة وزوال العقل والتخريف. ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ﴾ اللام: لام العاقبة، أي: لتكون العاقبة ألا يعلم ولا يعقل ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ «من»: للتوكيد؛ ولهذا لم تذكر في آية سورة النحل: ﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ

(١) أخرجه مسلم في القدر، كيفية خلق الآدمي ٢٦٤٤.

عِلْمٍ شَيْئًا ﴿النحل: ٧٠﴾.

ومعنى ﴿مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾، أي: من بعد ما كان يعلم أصبح لا يعلم شيئاً من الأشياء، ولا شيئاً من العلم.

فقوة ابن آدم مخفوفة بضعفين: ضعف الطفولة، وضعف الهرم؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤].

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ هذا دليل آخر على قدرة الله تعالى على البعث، وإحياء الناس بعد موتهم، وهو إحياء الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيٍ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

قوله: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾، أي: ميتة يابسة قاحلة دارسة الآثار، لا نبات فيها ولا زرع. ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾، أي: فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها.

﴿وَرَبَّتْ﴾ قرأ أبو جعفر: «وَرَبَّاتٌ» بهمزة مفتوحة بعد الباء، وقرأ الباقون: «وَرَبَّتْ» بحذف الهمزة، أي: زادت وارتفعت وانتفخت.

﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾، أي: وأنبتت من كل صنف من أصناف النبات.

﴿بَهِيجٍ﴾ حسن المنظر يسر الناظرين.

عن لقيط بن عامر رضي الله عنه، أنه قال: يا رسول الله، أكلنا يرى ربه عز وجل يوم القيامة؟ وما آية ذلك في خلقه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أليس كلكم ينظر إلى القمر مخلياً به؟» قلنا: بلى. قال: «فالله أعظم». قال: قلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك في خلقه؟ قال: «أما مررت بوادٍ أُهْلِكُ مَحَلًّا؟» قال: بلى. قال: «ثم مررت به يهتز حَضْرًا؟» قال: بلى. قال: «فكذلك يحيي الله الموتى، وذلك آية الله في خلقه» (١).

(١) أخرجه أبو داود في السنة ٤٧٣١، وابن ماجه في المقدمة ١٨٠، وأحمد ٤/ ١١.

وفي رواية عنه رضي الله عنه، قال: أتيت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، كيف يحيي الله الموتى؟ قال: «أمرت بأرض من أرضك مجدبة، ثم مررت بها مخصبة؟» قال: نعم. قال: «كذلك النشور»^(١).

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾﴾.

قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من خلق الإنسان من تراب وأطواره، وإحياء الأرض بعد موتها بالنبات، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك، فهذان دليلان قاطعان على هذه الخمسة المذكورة في الآية بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَاللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ الباء للسببية، أي: بسبب أن الله هو الحق؛ ربًّا ومعبودًا، فهو الرب الحق، الخالق المالك المدبر، وهو الإله الحق، الذي تجب عبادته وحده، ولا تجوز العبادة لغيره، فعبادته حق، وعبادة غيره باطلة.

وقيل: الباء ليست للسببية، بل متعلقة بمحذوف يقتضيه المقام، والتقدير: ذلك المذكور شاهد بأن الله هو الحق.

﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ معطوف على ما قبله، أي: ذلك بسبب أن الله هو الحق ربًّا ومعبودًا، وبسبب أنه يحيي الموتى، فيبعث الأجساد، ويعيد إليها الأرواح كما خلقكم بعد العدم من تراب، وكما أحيا الأرض الميتة فأخرج منها النبات.

﴿وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وبسبب أنه على كل شيء قدير، أي: لا يعجزه شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿١١﴾﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ معطوف على ما قبله، أي: وبسبب أن الساعة آتية لا ريب فيها، أي: واقعة وكائنة لا محالة، لا شك فيها ولا مرية.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾، أي: وبسبب أن الله يبعث من في القبور، أي: يخرج الذي في القبور من الأجساد بعد أن كانت رميًّا، ويرد إليها الأرواح والحياة؛ كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾ قُلْ

يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ [يس: ٧٨-٧٩].

قال ابن القيم: «جعل الله إحياء الأرض بعد موتها نظير إحياء الأموات، وإخراج النبات منها نظير إخراجهم من القبور، ودل بالنظير على نظيره، وجعل ذلك آية ودليلاً على خمسة مطالب:

أحدها: وجود الصانع، وأنه الحق المبين، وذلك يستلزم إثبات صفات كماله وقدرته وإرادته وحياته وعلمه وحكمته ورحمته وأفعاله.

الثاني: أنه يحيي الموتى.

الثالث: عموم قدرته على كل شيء.

الرابع: إتيان الساعة، وأنها لا ريب فيها.

الخامس: أنه يخرج الموتى من القبور؛ كما أخرج النبات من الأرض» (١).

الفوائد والأحكام:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا﴾، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾.

٢- عموم رسالة النبي ﷺ، وخطاب القرآن الكريم للناس جميعاً؛ لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

٣- وجوب تقوى الرب عز وجل؛ لقأوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكُمْ﴾.

٥- إثبات الساعة والقيامة، وأن زلزلتها وأهوالها وأخطارها شيء عظيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

٦- أن القيامة وما فيها من أهوال وحساب وجزاء من أعظم ما يحفز الناس على العمل؛ لتعليل الأمر بتقوى الرب بذكر زلزلة الساعة وعظم أمرها.

٧- عظم كرب ذلك اليوم على الناس، وفزعهم وقلقهم وذوولهم فيه، واندهاش عقولهم بسبب عظم أهواله وشدة عذاب الله تعالى، فالمرضعة تذهل عن رضيعها، وذات الحمل تضع حملها، والناس أشبه بالسكران وما هم بسكارى؛ لقوله تعالى:

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/٢٠٦.

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾﴾.

٨- أن عذاب الله شديد لا يطاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١٠﴾﴾.

٩- النعي على فريق من الناس، ودمهم من المكذبين من المشركين وغيرهم ممن يجادلون في وحدانية الله وفي قدرته على البعث وإحياء الموتى بغير علم، بل بجهل واتباع لأئمة الضلال من شياطين الإنس والجن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿١٠﴾﴾.

١٠- التحذير من اتباع شياطين الإنس والجن ومردتهم؛ لأن من اتبعهم وتولاهم فإنهم يضلونه في الدنيا ويهدونه إلى النار في الآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾.

١١- إقامة الدليل والحجة على الناس على قدرة الله تعالى التامة على بعثهم، وإعادةهم أحياء بعد موتهم؛ بخلقهم الأول من التراب وأطواره، وإحياء الأرض بعد موتها بإنزال الماء عليها؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ...﴾ الآية.

١٢- أن من أعظم دلائل قدرة الله تعالى على البعث والمعاد الخلق الأول، وإحياء الأرض بعد موتها.

١٣- أن أصل خلق الإنسان من التراب، ثم انتقل في أطوار خلقه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن تم خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَعَيْرٍ مُّخَلَّقَةٍ ﴿١٤﴾﴾.

١٤- في التأمل في أطوار خلق الإنسان بخلق آدم من التراب، ثم خلق نسله من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم إقراره في الرحم إلى أجل مسمى، ثم إخراجها من بطن أمه طفلاً إلى أن يبلغ أشده، ثم يكون شيخاً، فيما أن يتوفى أو يرد إلى أرذل العمر حتى لا يعلم من بعد علم شيئاً، كل هذا يدل على عظمة الخالق عز وجل وكمال قدرته وعلمه وحكمته ورحمته وعنايته بخلقه: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

١٥- أن الإنسان خلق من ضعف، ثم أعطي من بعد ضعف قوة، ثم يعود إلى الضعف والشيبة والهزم والتخريف ثم الفناء، مما يوجب عليه أن يعرف قدر نفسه، فلا يطغى ولا يتجبر ولا يتكبر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

١٦- إحياء الله عز وجل الأرض الميتة بإنزال المطر عليها، فتتحرك وترتفع وتنبت من أصناف النبات الحسن ما يسر الناظرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

١٧- أن في خلق الإنسان من التراب وأطوار خلقه، وفي إحياء الأرض بعد موتها وتمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ دلالة قاطعة على أن الله عز وجل هو الحق رباً ومعبوداً، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة كائنة لا شك فيها، وأنه عز وجل يخرج من في القبور؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ٨﴾
 ثَانِي عَظْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ٩
 ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ١٠ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ
 أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
 الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ١١ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ
 الْبَعِيدُ ١٢ يَدْعُوا لَمَن ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلِبَشِّ الْعَشِيرِ ١٣﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ٨﴾
 ثَانِي عَظْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ
 الْحَرِيقِ ٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ١٠﴾:

ذكر في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ
 مَّرِيدٍ ٣﴾ المجادلين بالجهل والتقليد والاتباع للشياطين ولأئمة الضلال، ثم ذكر في هذه
 الآية المجادلين بالجهل والباطل بمجرد الرأي والهوى من رؤساء الكفر ودعاة الضلال.

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾، أي: وبعض الناس، أي: فريق من المكذبين من المشركين
 وغيرهم.

﴿مَن يُجَادِلُ﴾، أي: الذي يجادل، أي: يخاصم ﴿فِي اللَّهِ﴾، أي: في وحدانية الله
 تعالى في إلهيته، وفي إحيائه عز وجل الموتى، وبعثه من في القبور، وقدرته تعالى على
 ذلك، مع وضوح الأدلة والبراهين على ذلك.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، أي: بلا علم صحيح منه بما يجادله فيه.
 ﴿وَلَا هُدًى﴾ «لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي في الموضعين، أي: ولا هدى يهديه
 ويسترشد به في جداله.

﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾، أي: ولا كتاب نير واضح، نير ويبين له الحق من الكتب الشرعية.
 قال ابن كثير^(١): «أي: بلا عقل صحيح صريح، بل بمجرد الرأي والهوى».
 ﴿ثَانِي عَظْفِهِ﴾ «الثني»: لِيُ الشيء، و«العطف»: العنق والجانب، أي: لاويًا عنقه
 استكبارًا عن الحق، وإعراضًا عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ

اللَّهُ لَوْوًا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ [المنافقون: ٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَآلَىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بِعَذَابِ آلِيمٍ﴾ [لقمان: ٧].

﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يضل الناس ويبعدهم عن سبيل الله، أي: عن دين الله وشرعه وصراطه المستقيم.

﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾، أي: لهذا المجادل بالباطل في الدنيا ذل وهوان؛ لخسرانه الصفقة في مجادلته، وظهور الحق، وبطلان حجته، ومن هذا ما أصاب المشركين يوم بدر من القتل والأسر.

﴿وَيُنذِفُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، أي: عذاب النار المحرقة، و«فَعِيل» بمعنى «مُفَعِّل».

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾، أي: يقال له تقريعاً وتوبيخاً: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ الآية.

والإشارة في «ذلك» تعود إلى ما ذكر من الخزي الدنيوي؛ وعذاب يوم القيامة بالحريق، أي: ذلك المذكور. وفي الإشارة إليهما بإشارة البعد «ذلك»: تعظيم وتهويل لهما، أي: ذلك الخزي الدنيوي العظيم، وعذاب يوم القيامة بالحريق الشديد.

﴿بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة، أي: بسبب الذي ﴿قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾، أي: بسبب الذي عملته وكسبته من الكفر والمجادلة بالباطل، والاستكبار والإعراض عن الحق، والسعي لإضلال الناس عن سبيل الله.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ الجملة معطوفة على «ما» الموصولة، فهي في محل جر. أي: ذلك الخزي والعذاب بسبب الذي قدمت يداك، وبسبب أن الله ليس بظلام للعبيد، بل يجازي كلا بعمله، من غير زيادة في سيئاتهم، ولا نقص من حسناتهم، ولا تعذيب أحد منهم بغير ذنب، أو بذنب غيره.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا

مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَفْعَ لَهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ .

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴿١٣﴾»، قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلامًا، وتنجت خيله، قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله، قال: هذا دين سوء»^(١).

قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴿١٣﴾﴾ «حرف الشيء»: طرفه وجانبه، ومنه حرف الجبل، أي: طرفه، أي: ومن الناس من دخل في الدين على طرف، أي: على ضعف وشك وتردد. و«من»: تبعية، أي: وبعض الناس.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ ﴿١٤﴾﴾ من صحة وسعة رزق في نفسه وأهله وماله، أي: حصل له ما يحبه.

﴿أَطْمَأَنَّ بِهِ ﴿١٥﴾﴾، أي: استقر وسكن في مكانه، أي: استمر على الإيمان وعبادة الله، فرحًا بالخير الذي أصابه.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴿١٦﴾﴾، أي: ابتلاء بمكروه وشدة، وهو مقابل الخير. ﴿أَنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ ﴿١٧﴾﴾، أي: انكب على وجهه وارتد ورجع إلى ما كان عليه من الكفر، كمن يمشي على حرف الجبل وجانبه، وانكب على وجهه، وسقط إلى أسفله.

قال ابن زيد^(٢): «هذا المنافق إن صلحت له دنياه أقام على العبادة، وإن فسدت عليه دنياه وتغيرت انقلب، ولا يقيم على العبادة إلا لما صلح من دنياه، وإن أصابته شدة أو فتنة أو اختبار أو ضيق ترك دينه ورجع إلى الكفر».

وعن جابر رضي الله عنه: أن أعرابياً أسلم وبايع النبي ﷺ، فأصابه وعك بالمدينة، فجاء إلى النبي ﷺ يستقبله بيعته، فأبى أن يقبله، فخرج من المدينة، فقال النبي ﷺ: «المدينة كالكير: تنفي خبثها، وينصع طيبها»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٦ / ٤٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في فضائل المدينة (١٨٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٨٣)، والنسائي في البيعة (٤١٨٥)، والترمذي في المناقب (٣٩٢٠).

فهذه حال من لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه، وإنما دخل فيه إما خوفاً، أو عادة على وجه لا يثبت عند المحن.

﴿حَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فلم يحصل فيهما على خير، ففي الدنيا خاب مسعاه برده وعوده في الكفر، ولم يحصل له منها إلا ما قسم له، وفي الآخرة خسر الجنة بسبب كفره، واستحق النار والعذاب الأليم.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُمِينُ﴾، أي: البين الواضح، الذي لا خسران أبين منه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَلَّا ذٰلِكَ هُوَ الْخُسْرٰنُ الْمُمِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

فالخسارة العظمى والمصيبة الكبرى هي: الخسارة في الدين، التي لا تعدها ولا تشبهها خسارة، ولا جبران لها، وقد أحسن القائل:

وكل كسرف إن الله جابره وما لكسر قناة الدين جبران^(١)
 ﴿يَدْعُوا﴾، أي: يدعو هذا العابد الله على حرف ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله.
 ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي لا يضره والذي لا ينفعه، عبده أو لم يعبده، أي: يدعو من دون الله آلهة لا تستطيع ضره ولا نفعه؛ لأن كل ما عبد من دون الله لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وإنما المالك لذلك كله هو الله تعالى وحده.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٦].

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الإشارة تعود إلى عبادة ما لا يضر ولا ينفع، و«الضلال»: التيه عن طريق الحق، وعن طريق القصد، قال الشاعر:

ألم تسأل فتخبرك الديار عن الحي المضلل أين ساروا؟^(٢)
 ﴿الْبَعِيدُ﴾، أي: البعيد كل البعد عن الطريق الحق، وأي ضلال أبعد من ضلال من عدل عن عبادة الله تعالى الذي بيده الأمر والنفع والضر، إلى عبادة ما لا ينفع ولا يضر؟!!

(١) البيت لأبي الفتح البستي. انظر: «ديوانه» (ص ٨٠).

(٢) البيت بلا نسبة. انظر: «خزانة الأدب» (٨/٥٢٦)، «الدر المصون» (١/٧٦).

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَوْ قَرَّبٌ مِنْ نَفْعِهِ﴾ اللام: لام الابتداء، و«من»: موصولة، أي: يدعو ويعبد الذي ﴿ضَرُّهُ﴾، أي: ضر عبادته ﴿أَقْرَبٌ مِنْ نَفْعِهِ﴾.

فنفى أولاً ضره ونفعه بقوله: ﴿مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾ لأنه جمد لا يستطيع الضر ولا النفع، ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَوْ قَرَّبٌ مِنْ نَفْعِهِ﴾ لأن مآل عبادته الضر لا النفع؛ لأن عبادته شرك بالله يوجب لصاحبه النار.

﴿لَيْسَ الْمَوْلَى﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أو لام التوكيد، أي: لبس هذا المعبود ﴿الْمَوْلَى﴾، أي: الولي والناصر، من لا يملك ضراً ولا نفعاً، بل ضره أقرب من نفعه.

﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾، أي: ولبس المعاشر المخالط، والقرين والملازم؛ كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَكَلِّتُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينُ﴾ ﴿٣٨﴾ [الزخرف: ٣٨].

الفوائد والأحكام:

١- ذم فريق من الناس من المكذبين من المشركين وغيرهم يجادلون ويخاصمون في وحدانية الله تعالى، وفي قدرته على البعث، وإحياء من في القبور، بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير، بل بالباطل وبمجرد الرأي والهوى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ مَنَّ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرَ عِلْمَهُ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ ﴿٣٨﴾.

٢- أن المجادلة بالعلم والهدى وأدلة الشرع لبيان الحق أمر جائز بل مشروع؛ لمفهوم الآية، وكما قال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

٣- ذم هذا الفريق بالاستكبار، والإعراض عن الحق، والسعي لإضلال الناس عن دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿ثَانِي عَظِيمُهُ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

٤- تهديدهم ووعيدهم بالخزي والإذلال في الدنيا، وبعذاب النار المحرق يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَذَيْقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾.

٥- إثبات القيامة، والدار الآخرة، والنار وحريقها.

٦- تقرير وتوبيخ من سلك هذا المسلك وعوقب بما ذكر؛ بأن هذا بسبب عمله وكسبه، وعلى نفسها جنت براقش؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾.

٧- تمام عدل الله تعالى في مجازاته الخلائق، وتنزيهه عن الظلم؛ لقوله تعالى:

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فلا يزيد في سيئات أحد منهم، ولا ينقص من حسناته؛ كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظَلَمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧].

٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾، أي: لعبيده.

٩- ذم فريق من الناس يعبد الله على حرف، أي: على ضعف وشك وتردد، فإن أصابه خير اطمأن به واستقر على دينه، وإن ابتلي بمكروه ارتد ورجع إلى الكفر، وخسر ديناه وأخراه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾.

١٠- أن الله يتلى العباد بالشر والخير؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

١١- لا ينبغي أن يربط ما يتلى به الإنسان من خير أو شر بأمر دينه، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب؛ كما جاء في الحديث^(١)؛ كما أن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وأن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم^(١).

١٢- أن الخسارة الكبرى والمصيبة العظمى خسارة الدين، فهي الكسر الذي لا ينجر، والخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

١٣- يجب على المؤمن الثبات أمام الفتن والابتلاء، والشكر في السراء، والصبر في الضراء، وعدم الجزع، والحذر من ضعف الإيمان.

١٤- تسفيه المشرك وذمه لدعائه غير الله آلهة لا تضره ولا تنفعه، وبيان بلوغه الغاية في الضلال؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾.

١٥- أن ضر عبادة آلهة من دون الله أقرب من نفعها؛ لأن ذلك شرك موجب

(١) سبق تحريجه.

لدخول النار؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾.
١٦- أن المعبود من دون الله بئس المولى والناصر، وبئس القرين والمعاشر؛ لقوله
تعالى: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْمُجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَبِيرٌ حَتَّىٰ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾﴾:

لما ذكر أهل الضلال والشرك، وتوعدهم بالخزي والعذاب والخسران المبين، أتبع ذلك بالوعد بإدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات، يتمتعون بها فيها من الأنهار والنعيم.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: الذين آمنوا وصدقوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، وحذف الموصوف وهو الأعمال؛ لأن المهم في العمل كونه صالحاً، أي: خالصاً لوجه الله تعالى، موافقاً لشرعه.

﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها وغرفها الأنهار، من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن خمر لذة للشاربين، ومن عسل مصفى، تجري في غير أهدود، يصرفها أهل الجنة حيث شاؤوا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، أي: يفعل الذي يريد ويشاؤه، فيضل من يشاء بعدله، ويهدي من يشاء بفضله، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾﴾ [البروج: ١٦].

لأن الخلق خلقه، والملك ملكه، والأمر أمره: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].
قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ ﴿١٥﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ ءَايَاتٍ يَبَيِّنَاتٍ

وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ ﴿٥١﴾.

قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ «من»: شرطية، أي: من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة، كما وعد عز وجل بقوله: ﴿إِنَّا لَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: ٥١].

وقيل: الضمير في قوله: ﴿أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ﴾ عام، أي: من ظن من المؤمنين أن الله لن ينصره؛ كما وعد عز وجل بقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].
﴿فَلْيَمْدَدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي: فليمدد بحبل إلى العلو يربطه في سقف بيته.
﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ قرأ ابن عامر وأبو عمرو وورش ورويس بكسر اللام: «ثُمَّ لِيَقْطَعْ»، وقرأ الباقر بن ياسكانها، أي: ثم ليقطع الحبل ليختنق، أو ليقطع نفسه ويموت انتحاراً وقهراً؛ لأن نصر الله لرسوله وللمؤمنين أمر محقق، وهكذا وقع، نصر الله رسوله والمؤمنين، وأرغم أنوف أعدائهم من الكفرة والمشركين والمنافقين، ووعده بنصر أوليائه باقٍ إلى يوم الدين.

وقيل: المعنى: من كان يظن أن الله لن ينصر رسوله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء، ليقطع عنه ما يأتيه من الوحي، والنصر من السماء^(١).
وقيل: ليقطع ما عنده من الشك بالخبر اليقين من السماء.
قال ابن كثير^(٢): «وقول ابن عباس وأصحابه - يعني: القول الأول - أولى وأظهر في المعنى، وأبلغ في التهكم؛ فإن المعنى: من ظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه، فليذهب فيقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة».
﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ الْفَاءَ عَاطِفَةً﴾، أي: ما يكيد به للرسول ﷺ لإبطال دينه ومحاربتة، وما يعمله من الأسباب لذلك.

﴿مَا يَغِيْظُ﴾ «ما» موصولة، أي: الشيء الذي يغیظه، أي: فلينظر هل يذهب كيده، ويشفى الشيء الذي يجد في صدره من الغيظ والغضب الشديد بسبب نصره الله تعالى

(١) انظر: «جامع البيان» ١٦ / ٤٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٥ / ٣٩٧.

لرسوله وللمؤمنين؟

والاستفهام: للإنكار والنفي، أي: لن يذهب كيده ما في صدره من الغيظ؛ لأنه لا يستطيع إطفاء نور الله، ومنع نصره لرسوله والمؤمنين.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾، أي: أنزلنا القرآن العظيم ﴿ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، أي: علامات ودلالات واضحة في ألفاظها ومعانيها وأحكامها؛ منة على العباد، وإقامة للحجة على الخلق.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ﴾، أي: يوفق ﴿مَنْ يُرِيدُ﴾، أي: من يشاء، أي: يوفق بفضلته الذي يريد ويشاء توفيقه من عباده؛ كما يضل بعدله من يشاء منهم، وله الحكمة التامة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصْرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾. قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهم: أمة محمد ﷺ، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم: اليهود، ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ وهم من لا دين لهم، أو عبدة الملائكة، أو الكواكب، ﴿وَالنَّصْرَى﴾ وهم: أتباع عيسى عليه السلام، ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ وهم: عباد النار، ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وهم: عباد الأصنام والأوثان.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: يحكم بينهم بالعدل يوم القيامة ويجازيهم بأعمالهم، فيدخل من آمن منهم الجنة، ويدخل من كفر منهم النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصْرَى وَالصَّالِحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [البقرة: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصْرَى مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ٦٩].

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: لأنه على كل شيء شهيد، أي: مطلع على كل شيء، عالم به علم مشاهدة، يرى أفعالهم، ويسمع أقوالهم، ويعلم سرائرهم وما تكنه ضمائرهم.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ

وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ وَالْجِبَالَ وَالشَّجَرَ وَالْدَوَابَّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الاستفهام للتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ألم تر وتعلم.

﴿أَتَى اللَّهُ يَسْجُدَ لَهُ﴾ سجود عبادة وتذلل وخضوع، وسجود طاعة وانقياد.
﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كل الذي في السموات والذي في الأرض من المخلوقات والعوالم من الملائكة والإنس والجن، والحيوان والطيور والجماد، وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَتَنُونَ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٤٨ - ٥٠].

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَبَّحَتْ كُلُّ قَدِّعِلْمٍ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٤١].

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَوَابُّ﴾ هذا من عطف الخاص على العام، وفي التنصيص على هذه المخلوقات تأكيد لسجودها لله عز وجل؛ لأن منها ما عبده من دون الله كالشمس والقمر والنجوم وغيرها.

فبين عز وجل أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

وعن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال النبي ﷺ لأبي ذر حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب حتى تسجد تحت العرش، فتستأذن فيؤذن لها، ويوشك أن تسجد فلا يقبل منها، وتستأذن فلا يؤذن لها،

يقال لها: ارجعي من حيث جئت، فتطلع من مغربها، فذلك قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾^(١).

وقال ﷺ: «إن الشمس والقمر خلقان من خلق الله، لا ينكسفان لموت أحد ولا
لحياته، ولكن الله إذا تجلى لشيء من خلقه خشع له»^(٢).

وعن سهل بن معاذ، عن أبيه رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: أنه مر على قوم
وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: «اركبوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي
لأحاديثكم في الطرق والأسواق، فرب مركوبة خير من راكبها، وأكثر ذكراً لله تبارك
وتعالى منه!»^(٣).

﴿وَكثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾، أي: ويسجد له عز وجل كثير من الناس طوعاً منهم
واختياراً، وتعبداً لله عز وجل بذلك.

﴿وَكثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، أي: وكثير من الناس حق عليه العذاب، فلم يسجد
لله طائعاً، ولم يؤمن بالله ورسله وشرعه، بل امتنع وأبى واستكبر.
﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾، أي: ومن يهينه الله ويذله بالكفر وترك
السجود له.

﴿فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط «من»، ﴿مِن مُّكْرِمٍ﴾ «من» زائدة
من حيث الإعراب، مؤكدة لعموم النفي من حيث المعنى، و«مكرم» نكرة في سياق
النفي، فتعم أيضاً، أي: فما له من أي مكرم يكرمه، وقد هان على ربه بترك السجود له.
﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ﴾ «ما»: موصولة، أي: يفعل عز وجل الذي يشاءه،
لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، يهدي من يشاء ويعزه بفضله، ويضل من يشاء ويذله
بعده ﴿لَا يَسْتَعْلَمُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلَوْنَ﴾^(٣٣) [الأنبياء: ٢٣].

(١) أخرجه البخاري في بد الخلق، صفة الشمس والقمر بحسبان ٣١٩٩، ومسلم في الإيمان، الزمن الذي لا
يقبل فيه الإيمان ١٥٩.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، صلاة الكسوف ١١٧٧، والنسائي في الكسوف ١٤٨٥، وابن ماجه في إقامة
الصلاة، ما جاء في الكسوف ١٢٦٢، وأحمد ٤/ ٢٦٧، ٢٦٩، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٤٣٩.

الفوائد والأحكام:

- ١- وعد الله تعالى الذي لا يتخلف بإدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات يتمتعون بما فيها من الأنهار والنعيم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.
- ٢- جمع القرآن الكريم بين الوعيد والوعد، والترهيب والترغيب، فبعد أن توعدهم أهل الضلال والشرك بالخزي والعذاب والخسران، أتبع ذلك بالوعد بإدخال الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنات.
- ٣- لا بد من الجمع بين الإيمان والتصديق بالقلب وعمل الصالحات بالجوارح.
- ٤- لا بد من كون العمل صالحاً، أي: خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه.
- ٥- أن من أعظم نعيم الجنان التمتع بما فيها من الأنهار المختلفة.
- ٦- إثبات صفة الفعل، وصفة الإرادة والمشية لله تعالى، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾.
- ٧- نصر الله المحقق لرسوله ﷺ ودينه وأوليائه المؤمنين في الدنيا والآخرة، وتخيب من ظن خلاف ذلك؛ ليخنتق ويموت قهراً وغيظاً بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ الآية.
- ٨- أنه مهما كاد من يريد إبطال دين الله وعدم نصره لرسوله وللمؤمنين، فإن كيده لن يذهب غيظه؛ لأن نصر الله لرسوله وللمؤمنين وعد محقق وكائن ولا بد؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيبُ﴾.
- وفي هذا تأييس لكل من يريد من الكافرين وغيرهم الكيد للإسلام وإطفاء نور الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].
- ٩- الامتنان بإنزال القرآن آيات بينات في ألفاظها ومعانيها وأحكامها ودلالاتها؛ لإقامة الحججة وإيضاح المحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾.
- ١٠- تعظيم القرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، أي: أنزلنا هذا الكتاب العظيم الذي هو أعظم وأفضل كتب الله تعالى.

١١- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾، والإنزال يكون من أعلى، فله عز وجل علو الذات وعلو الصفات وعلو القدر وعلو القهر.

١٢- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه، غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾.

١٣- أن الهداية والتوفيق بيد الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ فيهدي من يريد ومن يشاء بفضله، ويضل من يشاء بعدله.

١٤- أن من أراد الله تعالى وشاء هدايته، فلا سبيل إلى إضلاله؛ كما أن من أراد الله إضلاله فلا سبيل إلى هدايته.

١٥- فصل الله تعالى وحكمه وقضاؤه بين الأمم يوم القيامة، ومجازاتهم بأعمالهم، ففريق في الجنة وفريق في السعير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

١٦- علم الله تعالى الواسع، وإطلاعه وشهادته على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

١٧- إثبات وتقرير سجود كل من في السموات ومن في الأرض من المخلوقات والعوالم من الملائكة والإنس والجن، والحيوان والطير والجماد، وسائر المخلوقات لله تعالى؛ سجود عبادة وتذلل وخضوع، وسجود طاعة وانقياد؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

١٨- مشروعية السجود عند هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية، قال ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار»^(١).

١٩- في تخصيص الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب بالذكر بعد التعميم تأكيد سجودها لله تعالى، والرد على من عبدها أو بعضها، كالذين عبدوا

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، بيان إطلاق الكفر على من ترك الصلاة ٨١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٥٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الشمس والقمر والنجوم، وعبدوا الأشجار وبعض الدواب وغير ذلك.

٢٠- انقسام الناس خاصة من بين سائر المخلوقات إلى فريقين: فريق سجد لله تعالى طوعاً كسائر المخلوقات وآمن به، وفريق أبى وامتنع من السجود، فحق عليه العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ كما قال تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ [الأعراف: ٣٠].

٢١- عجب وأي عجب أن يضل كثير من الناس بترك السجود لله تعالى مع سجود جميع المخلوقات له عز وجل، ومع ما كرم الله به الإنسان على سائر المخلوقات من العقل وغير ذلك، فلله الحكمة البالغة، والحجة القاطعة الدامغة.

٢٢- أن من أهانه الله وأذله وكتب عليه الشقاء فلا مكرم له ولا سبيل إلى إبعاده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾.

٢٣- أن العزيز من أعزه الله وأكرمه بطاعته، وأن الذليل من أهانه الله وأذله بمعصيته، وأن العز بطاعة الله تعالى، وأن الذل كل الذل بمعصية الله.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ هَذَا نِ حَصَمَانِ اَحْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ
ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾
وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا ارَادُوا اَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ اُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ اِنَّ اللّٰهَ يَدْخُلُ الِذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْاَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ اَسْوَدٍ مِّنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾
وَهُدُوا اِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا اِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ .

قوله تعالى: ﴿ هَذَا نِ حَصَمَانِ اَحْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ
ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمْ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾
وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا ارَادُوا اَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ اُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ
الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ .

قوله: ﴿ هَذَا نِ حَصَمَانِ اَحْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ .

عن أبي ذر رضي الله عنه؛ أنه كان يقسم فيها قسماً: أن هذه الآية نزلت في الذين بارزوا
يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث وعتبة وشيبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة^(١) .
وعن علي رضي الله عنه قال: «فينا نزلت هذه الآية: ﴿ هَذَا نِ حَصَمَانِ اَحْتَصَمُوا فِي
رَبِّهِمْ ﴾^(٢) .

وعن قيس بن عباد، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ أنه قال: «أنا أول من
يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة، قال قيس: وفيهم نزلت: ﴿ هَذَا نِ حَصَمَانِ
اَحْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ قال: هم الذين بارزوا يوم بدر: علي وحمزة وعبيدة، وشيبة بن
ربيعة وعتبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة»^(٣) .

قوله: ﴿ هَذَا نِ حَصَمَانِ ﴾، أي: هذان فريقان، وهم المؤمنون، والكافرون؛ لقوله
تعالى في ذكر جزائهم: ﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ ﴾ الآية، وقوله:

(١) أخرجه البخاري في المغازي، قتل أبي جهل ٣٩٦٩، ومسلم في التفسير، قوله تعالى: ﴿ هَذَا نِ حَصَمَانِ

اَحْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ﴾ ٣٠٣٣، وابن ماجه في المبارزة والسلب ٢٨٣٥ .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي، قتل أبي جهل ٣٩٦٧ .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحج ٤٧٤٤ .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ﴾ الآية.

وهذا القول عام يشمل جميع الأقوال، فلا ينافي ما جاء في حديث أبي ذر وعلي رضي الله عنهما: أنها نزلت في المبارزة، ولا ما قيل: إنها بين المسلمين وأهل الكتاب، بل ولا ما قيل: إنها بين الجنة والنار.

﴿أَخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ فآمن به فريق وأطاعوه، وجاهدوا فيه وحاربوا أعداءه، وكفر به فريق، وخالفوا أمره وعصوه، وحاربوا أوليائه.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن تَارٍ﴾، أي: فُصِّلَتْ وقدرت لهم ثياب من نار يلبسونها، تُشعل بهم؛ ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم.

﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْق رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ليشمل جميع أبدانهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٨]، و«الحميم»: الماء المتناهي في الحرارة؛ كما قال تعالى: ﴿يَطْوِفُونَ فِيهَا وَيَبْنَونَ حَمِيمًا إِن﴾ [الرحمن: ٤٤]، أي: بالغ غاية الحرارة.

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾^(١)، أي: يذاب بهذا الحميم الذي يصب من فوق رؤوسهم، ويسقونه.

﴿مَا فِي بُطُونِهِمْ﴾ من الشحم واللحم والأمعاء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾^(١٥) [محمد: ١٥].

﴿وَالْجُلُودُ﴾، أي: وتصهر به وتذاب جلودهم.

﴿وَلَهُمْ مَّقْمَعٌ مِّن حَدِيدٍ﴾^(١١)، أي: مطارق عظيمة من حديد، تقمعهم بها الملائكة الغلاظ الشداد وتضربهم بها.

﴿كَلَّمَآ أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ عَمٍّ﴾ «كلما» تفيد التكرار، أي: أنهم كلما أرادوا أو حاولوا الخروج منها لشدة ما هم فيه من العذاب والغم ومنع النفس والكرب.

قال الفضيل بن عياض: «والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل مقيدة، وإن الأيدي موثقة، ولكن يرفعهم لها وتردهم مقامعها!»^(١).

﴿أَعِيدُوا فِيهَا﴾، أي: في دركها وأسفلها.

(١) «تفسير ابن كثير» ٥ / ٥٠٣.

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، أي: وقيل لهم تقريعًا وتوبيخًا، وإهانة لهم: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾، أي: أحسوا بشدته وكابدوه، وتجرعوا آلامه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

فيجمع لهم بين العذاب الحسي للأجساد بالحرق بالنار، والعذاب المعنوي بالتوبيخ والتقريع والإهانة لهم، الذي ينصب على القلوب فيحطم المعنويات، وهو لا يقل عن العذاب الحسي.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٧﴾ وَهُدُوءًا إِلَى الظَّيْفِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوءًا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٣٨﴾.

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ تقدم الكلام عليه قريبًا، وفي ذكر هذا الوعد للمؤمنين بعد وعيد الكافرين جمع بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾، أي: يجلون في الجنات، أي: يزينون ويلبسون فيها رجالهم ونسأؤهم.

﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ «من»: زائدة إعرابًا، مؤكدة من حيث المعنى، أي: يجلون فيها أساور، و«الأساور»: جمع «سوار»، وهو ما تسور وتزين به الأيدي، وفي الحديث: «تبلغ الحلية من المؤمن كما يبلغ الضوء»^(١).

﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾ «من»: لابتداء الغاية، أي: هذه الأساور من ذهب. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وعاصم ويعقوب بالنصب: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفًا على موضع ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، أي: ويجلون لؤلؤًا، وقرأ الباقون بالجر: ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفًا على ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾، أو على ﴿مِنْ ذَهَبٍ﴾. و«اللؤلؤ»: الدر والجمان والجوهر. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾، أي: ولباسهم في الجنات حرير. وهذا في مقابلة

(١) أخرجه مسلم في الطهارة، تبلغ الحلية حيث يبلغ الضوء ٢٥٠، والنسائي في الطهارة، حلية الضوء ١٤٩، وأحمد ٢ / ٣٧١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله في أهل النار: ﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن تَارٍ﴾.

أي: ولباس أهل الجنات فيها حرير؛ سندسه وإستبرقه؛ كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوءٌ مِّن فَضَّةٍ﴾ [الإنسان: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ [الكهف: ٣١].

ولهذا قال ﷺ محذراً من لبس الحرير في الدنيا للرجال: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة»^(١).

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِّنَ الْقَوْلِ﴾ هذا في مقابل ما يقال لأهل النار: ﴿وَدُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾.

أي: أرشدهم الله ووفقهم إلى الطيب والحسن من القول، وألهمهم إياه، من التسييح والتحميد والتهليل والتكبير، وإلى ما يكرمون به من التهنته والسلام، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ [الزمر: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [١٣] سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [١١] [الرعد: ٢٣ - ٢٤]، وقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦].

وقد جاء في الحديث أنهم يلهمون التسييح والتحميد كما تلهمون النفس^(٢).

كما هدوا ووفقوا إلى القول الطيب والحسن في الدنيا؛ من النطق بالإيمان والشهادتين، والتسييح والتحميد والتهليل والتكبير، وتلاوة القرآن والذكر؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠].

(١) أخرجه البخاري في اللباس، لباس الحرير وافتراشه للرجال وقدر ما يجوز منه ٥٨٣٤، ومسلم في اللباس والزينة ٢٠٦٩، من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٥ - من حديث جابر رضي الله عنه.

وفي الحديث: «أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا يضرك بأيمن بدأت»^(١).

وفي رواية: قال ﷺ: «أربع أفضل الكلام، لا يضرك بأيمن بدأت: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»^(٢).

وقال ﷺ: «ألا إن سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات»^(٣).

وقال ﷺ: «لأن أقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ أحب إلي مما طلعت عليه الشمس»^(٤).

﴿وَهَدُوا﴾، أي: أرشدوا ووقفوا، ﴿إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾، أي: إلى دينه القويم وصراطه المستقيم الموصل إليه عز وجل وإلى السعادة في الدنيا والآخرة، وإلى جنته. كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بَالِغًا يُلَاقِي وَيُودُوا أَنْ تَلَكُّوا الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣].

و«الحميد»: اسم من أسمائه عز وجل، أي: المحمود سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته، في خلقه وقدره وشرعه، في أقواله وأفعاله، وفي كل شيء؛ كما أنه سبحانه حميد شكور، يجازي على العمل القليل بالأجر العظيم، والفضل الكبير.

ويحتمل أن يكون «الحميد» وصفاً لـ«صراط»، فيكون من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ويهدي إلى الصراط المحمود، أي: الطريق المحمود، طريق الإسلام الموصل إلى الله تعالى وإلى جنته.

الفوائد والأحكام:

١ - تحاصم المؤمنين والكفار في ربهم ودينه، فالمؤمنون آمنوا بربهم وانقادوا لأمره

(١) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٧، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب ٣٨١١.

(٣) أخرجه أحمد ٤ / ٢٦٨، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأطاعوه وجاهدوا فيه، وحاربوا أعداءه، والكفار كفروا بربههم، وخالفوا أمره وعصوه، وحاربوا أولياءه؛ لقوله تعالى: ﴿ هَذَا نِ حَصَمَانِ أَحْتَصَمُوا فِي رِيهِمْ ۖ ﴾ .

٢- إثبات ربوبية الله الخاصة لأوليائه المؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿ فِي رِيهِمْ ۖ ﴾ .

٣- عظم ما أعد للذين كفروا بربههم من صنوف العذاب، فثيابهم قطعت من نار، والحميم يصب من فوق رؤوسهم، يذيب ما في بطونهم والجلود، ولهم مقامع من حديد، تقمعهم بها الملائكة، وكلما علا بهم لهب النار أعيدوا فيها؛ لقوله تعالى: ﴿ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ۖ ۝١١ يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ۝١٢ وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ۝١٣ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا ۖ ﴾ .

٤- الجمع لأهل النار بين العذاب الحسي للأجساد، والعذاب المعنوي للقلوب، الذي لا يقل عن العذاب الحسي من التقرير والتوبيخ والإهانة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ۖ ﴾ .

٥- عظم ما أعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من الثواب، من دخول الجنات والتمتع بما فيها من النعيم؛ من الأنهار، والتحلي بأساور الذهب واللؤلؤ، ولباس الحرير، وهدايتهم إلى الطيب من القول، وهدايتهم إلى صراط الحميد؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝١٣ وَهُدًى إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدًى إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ۝١٤ ﴾ .

٦- لا بد من الجمع بين إيمان القلب وعمل الجوارح، ولا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

٧- أن من تمام نعيم أهل الجنة إباحة أشياء لهم كانت محرمة في الدنيا؛ كالذهب والحرير كان محرماً على الرجال فأبيح لهم في الجنة، ومثل ذلك: الخمر.

٨- أن من أعظم ما من الله به على المؤمنين أن هداهم إلى الطيب من القول، وإلى صراط الحميد في الدنيا والآخرة.

- ٩- إثبات اسم الله تعالى «الحميد»، وأنه سبحانه المحمود في ذاته وصفاته وخلقه وقدره وشرعه، وأمره ونهيه، وقوله وفعله، وفي كل شيء.
- ١٠- شتان ما بين الفريقين، وشتان ما بين الجزاءين، فالكفار يترددون بين صنوف العذاب في الجحيم، والمؤمنون يتمتعون في الجنات بألوان النعيم.

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعُرْكُفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يَرِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُظَلِّمِ نَفْسَهُ مِن عَذَابِ اللَّهِ﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: الكفر لغة: الستر والتغطية، ومنه سمي الزارع كافراً؛ لأنه يستر البذر، أي: يغطيه في الأرض ويدفنه فيها، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ﴾ [الحديد: ٢٠]، أي: أعجب الزارع.

أي: إن الذين كفروا بالله، فجحدا ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته وشرعه، وما أوجب الإيمان به. والكفر: ضد الإيمان.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الواو: عاطفة، وفي عطف المضارع على الماضي بيان استمرارهم على الصد، فكان ذلك صفة لهم، أي: ومن صفة هؤلاء الكفار أنهم يصدون عن سبيل الله.

ويحتمل كون الواو: حالية، أي: والحال أنهم يصدون عن سبيل الله. والصد عن الشيء: المنع من الوصول إليه والدخول فيه، أي: ويمنعون عن سبيل الله والمسجد الحرام.

﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾: هو دينه وطريقه المؤدي إليه وإلى مرضاته وجناته، كما قال عز وجل: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]، فصدوا بأنفسهم وأعرضوا عن دين الله، ويصدون ويمنعون غيرهم من الدخول فيه.

﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: ويصدون عن المسجد الحرام، بيت الله العتيق وكعبته المشرفة وحرمة المعظم، ومشاعره المقدسة؛ الصفا والمروة ومنى وعرفة ومزدلفة وغيرها، أي: يصدون عن المسجد الحرام من قصده من المؤمنين لقضاء مناسكهم، والتعبد والصلاة فيه، بدعوى أنهم سدنة الحرم وأوليأؤه، كما فعلوا عام الحديبية، وقد رد الله عليهم ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُٗٓ إِن أَوْلِيَاءُؤُهُٗٓ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ولهذا أباح الله - عز وجل - قتالهم في الحرم، فقال تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الشَّهِرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ - وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ - مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعُرْكُفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ قرأ حفص: ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب، مفعول

ثان لـ ﴿جَعَلْتَهُ﴾، وقرأ الباقون بالرفع: (سواءً) على أنه مبتدأ وخبره ما بعده.
 ﴿الَّذِي﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة ثانية لـ «المسجد الحرام» وما بعده صلة الموصول، و«جعل» هنا بمعنى: «صير» تنصب مفعولين: الأول ضمير الهاء في ﴿جَعَلْتَهُ﴾ والثاني ﴿سَوَاءً﴾، أو الجملة: ﴿سَوَاءً أَلْعَكِيفُ فِيهِ﴾. و«جعل» تنقسم إلى قسمين: شرعية، وكونية، وهي هنا شرعية، أي: الذي جعلناه شرعاً.

﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: للناس الذين آمنوا بالله كافة لا فرق بينهم.
 ﴿سَوَاءً أَلْعَكِيفُ فِيهِ﴾ أي: يستوي فيه ﴿أَلْعَكِيفُ فِيهِ﴾ أي: المعتكف الملازم له المقيم فيه لطاعة الله تعالى.

﴿وَالْبَادِ﴾ أي: القادم من خارجه البعيد النائي عنه، سواء كان من أهل الحاضرة أو البادية، كما قال تعالى: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠].
 فهما فيه سواء في العبادة والاعتكاف فيه، فلا يُخرج منه المعتكف فيه، ولا يُمنع منه القادم إليه، وهما يستويان فيه في إقامة المناسك؛ من الطواف بالبيت والسعي بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة والمبيت بمزدلفة ومنى ورمي الجمار وغير ذلك. ولهذا رُوِيَ أن النبي ﷺ امتنع أن يُبنى له بيت بمنى، وقال: «منى مناخ من سبق»^(١).

وهما سواء في فضل الصلاة فيه والطواف به، وفي وجوب تعظيم الحرم واحترامه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يَبْطِرْ نُدْفَةً مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾.
 وقال بعض المفسرين: المراد بالمسجد الحرام الحرم كله، ومعنى التسوية أن المقيم والبادي سواء في النزول فيه، قال ابن عباس - رضي الله عنهما: «ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام»^(٢) والأظهر القول الأول.

(١) أخرجه أبو داود في المناسك - تحريم مكة (٢٠١٩)، والترمذي في الحج، ما جاء أن منى مناخ من سبق

(٨٨١)، وقال: «حديث حسن صحيح» وأخرجه ابن ماجه في المناسك - النزول بمنى (٣٠٠٦)، وأحمد

(٢٠٦/٦ - ٢٠٧) - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥٠٢/١٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٨٣/٨).

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ يُظَلِّمِ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾: عن عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ يُظَلِّمِ﴾ قال: «نزلت في عبدالله بن أبي أنيس، وذلك أن رسول الله ﷺ بعثه مع رجلين، أحدهما مهاجر، والآخر من الأنصار، فافتخروا في الأنساب، فغضب عبدالله بن أنيس، فقتل الأنصاري ثم ارتد عن الإسلام، وهرب إلى مكة، فنزلت فيه: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَايمِ يُظَلِّمِ﴾» يعني من لجأ إلى الحرم ﴿بِالْحَكَايمِ﴾ يعني بميل عن الإسلام»^(١).

قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ﴾: الواو: استئنافية، ﴿وَمَنْ﴾ شرطية، و﴿يُرِدْ﴾ فعل الشرط وجوابه ﴿نُذِقْهُ﴾ وكلاهما مجزوم بحذف حرف العلة الباء، أي: ومن يقصد وينوي في المسجد الحرام ﴿بِالْحَكَايمِ﴾.

وعُدي الفعل ﴿يُرِدْ﴾ بالباء؛ لأنه ضُمن معنى: «يهم»، فالباء: للتعدية، أو هي زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، والتقدير: «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ إِحَادًا»، كقوله تعالى: ﴿تَبَّتْ بِالدَّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، أي: تبت الدهن، وكقول الشاعر:

هن الحرائر لا ربات أخمرة
أي: لا يقرآن السور.

وكقول الآخر:

نحن بنو جعدة أصحاب الفلج
أي: ونرجو الفرج.

وقيل: ﴿بِالْحَكَايمِ﴾ متعلق بحال من مفعول ﴿يُرِدْ﴾، والباء: للملابسة، أي: يرد التعدي متلبسًا بإحاد.

والإحاد: الميل والعدول عن الحق والقصد إلى الظلم، ونكر «إِحَادٍ»؛ ليعم كل إحاد وميل عن الحق أيًا كان.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/ ٢٤٨٤).

(٢) انظر: «لسان العرب» مادة «الحَد».

(٣) البيت في «معجم ياقوت» بلا نسبة.

﴿يُظْلِمُ﴾ بدل من «إِلْحَادٍ» بإعادة الجار، أو حال ثانية، والباء للملابسة، أي: متلبسًا بظلم، أو متعلق بـ ﴿يُرِدُّ﴾ والباء للسببية، أي: بسبب الظلم.

والظلم لغة: النقص، ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي.

وأظلم الظلم: الشرك بالله، كما قال تعالى فيما حكاه عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان: ١٣]، وقال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا ءِيمَنَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ ءَآمَنٌ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (٨٢) [الأنعام: ٨٢]. أي: بشرك.

والمعنى: ومن يقصد وينو في المسجد الحرام بميل وعدول عن الإسلام وعن الحق ﴿يُظْلِمُ﴾ أي: بشرك أو استحلال حرمة الحرم، وصد عن سبيل الله والمسجد الحرام، وارتكاب للمعاصي فيه من القتل أو الاحتكار وغير ذلك.

رُوي أن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - كان له فسظاطان: أحدهما في الحل، والآخر في الحرم، فإذا أراد أن يصلي صلى في الذي في الحرم، وإذا أراد أن يعاتب أهله عاتبهم في الذي في الحل، فقيل له، فقال: كنا نحدّث أن من الإلحاد فيه أن يقول الرجل: «كلا والله، وبلى والله»^(١).

ورُوي عن يعلى بن أمية - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «احتكار الطعام بمكة إلحاد»^(٢).

ورُوي أن عبدالله بن عمر أتى عبدالله بن الزبير، فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله - تبارك وتعالى - فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه سيلحد فيه رجل من قريش، لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لرجحت، فانظر لا تكن هو»^(٣).

﴿نَذِقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾: ﴿نَذِقُهُ﴾ جواب الشرط.

﴿مِنْ عَذَابٍ﴾: ﴿مِنْ﴾ تبعيضية، و﴿أَلِيمٍ﴾ «فعليل» بمعنى «مفعل» أي: مؤلم موجه حسًا ومعنى.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥١٠/١٦)، وأخرجه ابن أبي شيبه (٢٨٥/٤)، وفيه «عبدالله بن عمرو» بدل «ابن عمر».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٨٤/٨).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٦/٢)، وروى نحوه أيضًا (٢١٩/٢)، من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

والمعنى: نعذبه عذاباً شديداً مؤلماً موجعاً، يذوقه ويتجرع ألمه نفسياً وبدنياً في الدنيا والآخرة.

وهذا الوعيد لمن همَّ بالإلحاد فيه بظلم، وهو لمن ارتكب ذلك أكد وأشد وأعظم.
عن عبدالله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: «لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بـ«عدن أبين»^(١) أذاقه الله من العذاب الأليم»^(٢).

وعنه- رضي الله عنه- قال: «ما من رجل يهيم فيه بسيئة فتكتب عليه، ولو أن رجلاً بـ«عدن أبين» همَّ أن يقتل رجلاً بهذا البيت لأذاقه الله من العذاب الأليم»^(٣).

ولهذا لما همَّ أبرهة الأشرم بهدم الكعبة هو ومن معه من أصحاب الفيل عذبهم الله- عز وجل، فأرسل عليهم طيراً أبابيل ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَعَلَّهُمْ كَعْصِفٍ مَّاكُولٍ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: ٤، ٥] فصاروا عبرة ونكالاً لغيرهم.

وقال ﷺ: «يغزو هذا البيت جيش، حتى إذا كانوا بيداء من الأرض خسف بأولهم وآخرهم...»^(٤).

الفوائد والأحكام:

- ١- الإنكار على الكافرين الذين أعرضوا بأنفسهم عن دين الله، ويصدون الناس عن الدخول فيه، ويصدون عن المسجد الحرام القاصدين له لقضاء المناسك والتعبد فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. الآية.
- ٢- جمع كفار مكة بين الكفر والصد عن دين الله وعن المسجد الحرام، وهكذا يعمد الطغاة والمكابرون كزعيمهم إبليس- لعنه الله- إلى جر الناس إلى الكفر والهلاك

(١) «أبين» موضع في جبل عدن، يقال: إنه سمي بأبين بن زهير بن حمير- انظر: «معجم البلدان» (١/١٠٩-١١٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/٤٢٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٤٨٣، ٢٤٨٥).

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/٥٠٨)، والحاكم (٢/٣٨٧).

(٤) أخرجه البخاري في البيوع- ما ذكر في الأسواق (٢١١٨)، من حديث عائشة- رضي الله عنها- وأخرجه مسلم في الفتن- الخسف بالجيش الذي يؤم البيت (٢٨٨٣)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٧٩)، وابن ماجه في الفتن (٤٠٦٣)، من حديث حفصة- رضي الله عنها.

وكبهم في النار، بل إن بعض الفساق ومرضى القلوب يحبون ويعجبهم أن يجروا الناس إلى ما هم عليه من الفسق والمعاصي لغرض في أنفسهم ومرض في قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧].

٣- إثبات الإلهوية لله - عز وجل؛ لأن معنى ﴿الله﴾ المألوه المعبود بحق محبة وتعظيمًا.
٤- إثبات حرمة الكعبة والبيت العتيق؛ لأن الله - عز وجل - سماه المسجد الحرام؛ ولهذا قال ﷺ: «إن هذا البلد حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضد شوكة ولا يُختلى خلاه، ولا يُنفر صيده، ولا تُلقت لقطته إلا لمنشد...» الحديث^(١).

٥- أن الناس سواء في المسجد الحرام في أداء المناسك والصلاة؛ المعتكف منهم والبادي، فلا يُخرج منه المعتكف فيه، ولا يُمنع عنه القادم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَنَّهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَادُ﴾.

وذهب بعض المفسرين إلى أن معنى قوله: ﴿الَّذِي جَعَلَنَّهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَكْفُ فِيهِ وَالْبَادُ﴾ أي: في السكن والنزول في الحرم، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما: «ينزل أهل مكة وغيرهم في المسجد الحرام»^(٢).

ولهذا اختلف الفقهاء رحمهم الله - في حكم تملك رباة مكة وتوريثها وبيعها وتأجيرها، فذهب جمع من السلف منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وجمع من الفقهاء إلى أن رباة مكة تملك وتورث وتباع وتؤجر.

وحملوا الآية على أن الناس سواء في المسجد الحرام في قضاء المناسك والاعتكاف والتعبد، وفي وجوب احترامه وتعظيمه، واستدلوا بأدلة منها: قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَتَلُوا فِي الدِّينِ وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ [المتحنة: ٩].

ففي هذه الآيات ونحوها أضاف الديار إليهم إضافة تملك.

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٨٣٤)، ومسلم في الحج (١٣٥٣)، وأبوداود في المناسك (٢٠١٧)، والترمذي في السير (١٥٩٠)، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٣) - من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما.

(٢) سبق تحريجه.

وعن أسامة بن زيد- رضي الله عنه- قال: قلت: يا رسول الله، أتزل غداً في دارك بمكة؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور» وكان عقيل ورث أبا طالب هو وطالب، ولم يرث جعفر ولا علي- رضي الله عنهما- شيئاً؛ لأنها كانا مسلمين، وكان عقيل وطالب كافرين.. ثم قال: «لا يرث الكافر المسلم، ولا المسلم الكافر»^(١).

وعن أبي سفيان- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن ألقى السلاح فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن»^(٢).

فنسب دار أبي سفيان إليه، وهي نسبة تملك، وكذا قال: «من أغلق بابه فهو آمن» وهذا يفيد أيضاً معنى التملك للباب وللدار.

وأيضاً فإن جميع أهل مكة بقيت لهم ديارهم بعد الفتح، يتصرفون بها بما شاؤوا من بيع وإجارة ويتوارثونها.

وقد ثبت أن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- «اشترى من صفوان بن أمية داراً بمكة فجعلها سجنًا بأربعة آلاف درهم»^(٣).

وقياساً لأرض مكة على غيرها من الأرض.

ويستثنى من جواز البيع بقاع المناسك بالإجماع.

وذهب طائفة من الفقهاء إلى أن رباع مكة لا تملك ولا تورث ولا تؤجر، منهم إسحاق بن راهويه وهو مذهب طائفة من السلف^(٤).

وحملوا قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنَكَفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ على أن المراد به السكنى في الحرم، قالوا: فالناس فيه سواء.

واستدلوا بما رواه علقمة بن نضلة- رضي الله عنه- قال: «توفي رسول الله ﷺ

(١) أخرجه البخاري في الحج- توريث دور مكة وبيعها وشرائها (١٥٨٨)، ومسلم في الفرائض (١٦١٤)، وأبو داود في الفرائض (٢٩٠٩)، والترمذي في الفرائض (٢١٠٧)، وابن ماجه في الفرائض- ميراث أهل الإسلام من أهل الشرك (٢٧٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في الجهاد- فتح مكة (١٧٨٠)، وأبوداود في الخراج والإمارة والفيء (٣٠٢٤).

(٣) أخرجه البخاري معلقاً في الخصومات- الربط والحبس في الحرم، وأخرجه موصولاً عبدالرزاق في «المصنف» (١٤٧/٥)، (٩٢١٣)، والبيهقي في «سننه» (٣٤/٦ - ٣٥).

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤٠٦/٥).

وأبوبكر وعمر، وما تدعى رباع مكة إلا السوائب^(١)، من احتاج سكن، ومن استغنى أسكن^(٢).

وعن عطاء: «أن عمر بن الخطاب كان ينهى أن تبوب دور مكة؛ لأن ينزل الحاج في عرصاتها، فكان أول من بَوَّب داره سهيل بن عمرو، فأرسل إليه عمر بن الخطاب في ذلك، فقال: أنظرني يا أمير المؤمنين، إني كنت امرأً تاجرًا، فأردت أن أتخذ بابين يجلسان ظهري^(٣). قال: فذلك إذا^(٤)».

وعن مجاهد أن عمر بن الخطاب قال: «يا أهل مكة، لا تتخذوا لدوركم أبوابًا لينزل البادي حيث شاء^(٥)».

وعن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: «لا يحل بيع دور مكة ولا كراؤها^(٥)».

وقال بعض الفقهاء: تملك بيوت مكة وتورث ولا تؤجر - جمعًا بين الأدلة.
٦- الوعيد الشديد لمن ألد بظلم في الحرم، أو أراد ذلك بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة.

٧- عظم حرمة الحرم؛ لأن الله - عز وجل - رتب على الإلحاد فيه بظلم العذاب الأليم.

* * *

(١) السوائب: جمع سائبة، كأنها سيبت وتركت لله - عز وجل.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المناسك - أجر بيوت مكة (٣١٠٧).

(٣) الظهر: الإبل التي يُحمل عليها وتركب. أي: يجلسان لي إيلي.

(٤) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (١٤٦/٥ - ١٤٧) (٩٢١٠، ٩٢١١).

(٥) أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (١٤٨/٥) (٩٢١٤).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكُم مِّنْ كُلِّ فَجٍّ عَبِيقٍ ﴿١٢٦﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُتَوْفَّؤا نَدْوَاهُمْ وَلِيَبْتَغُوا بِآلِ بَيْتِ الْعَرِيقِ ﴿١٢٨﴾﴾.

أنكر الله - عز وجل - على الكفار صدهم عن سبيل الله وعن المسجد الحرام وتوعد من أراد الإلحاد فيه والظلم بالعذاب الأليم، ثم أتبع ذلك بالتذكير بنعمة الله - عز وجل - ببناء البيت، وبيان عظمة المسجد الحرام وما بني له، وهو عبادة الله - عز وجل - والصلاة والحج وذكر الله - عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ فِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتَ الْبَيْتِ﴾ الواو: استئنافية، و«إذ» ظرف في محل نصب مفعول به لفعل محذوف تقديره «اذكر».

﴿بَوَّأْنَا﴾ أي: هيأنا ووطأنا لإبراهيم مكان البيت وأسكنناه فيه، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ [العنكبوت: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ٤١].

قال الشاعر:

كَم مِّنْ أَخٍ لِي مَاجِدٍ بَوَّأَنَّهُ بِيَدِي لِحَدَا^(١)

﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ هو إبراهيم الخليل - عليه السلام - أبو الأنبياء، وأفضل أولي العزم بعد محمد ﷺ.

﴿مَكَاتَ الْبَيْتِ﴾ أي: موضع بناء البيت العظيم والكعبة المشرفة.

والمعنى: وإذ هيأنا ووطأنا لإبراهيم مكان البيت الحرام، وأرشدناه إليه، وأسكنناه فيه، وأذن له في بنائه.

(١) البيت من قصيدة لعمر بن معد يكرب الزبيدي. انظر: «ديوانه» ص ٨١.

فإبراهيم - عليه السلام - هو أول من بنى البيت العتيق.

وهو أول بيت بُني للناس لعبادة الله - تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران: ٩٦، ٩٧].

وعن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس»، قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»^(١).

﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾ ﴿أَنْ﴾ تفسيرية. أي: وعهدنا إليه وأمرناه ووصيناه بأن لا تشرك بي شيئاً، أي: لا تشرك بي شيئاً من الشرك؛ لا شركاً أكبر ولا أصغر، ولا جلياً ولا خفياً، ولا تشرك بي شيئاً من الأشياء أياً كان؛ لا شيئاً صغيراً ولا كبيراً، ولا قليلاً ولا كثيراً، كما قال تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: ١٢٥].

وفي قوله: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا﴾ إشارة إلى أن القصد من بناء البيت هو عبادة الله - عز وجل - وعدم الإشراف به. قال ابن كثير^(٢): «أي: ابنه على اسمي وحدي». والشرك: دعوة غير الله وإشراكه مع الله، وتسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله كالعبادة والنذر والذبح والتوكل والاستغاثة ونحو ذلك، قال تعالى حكاية لقول المشركين: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٦-٩٧].

وفي ذكر نهيه - عز وجل - إبراهيم - عليه السلام - عن الشرك - وهو إمام الخنفاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٦)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢٠)، والنسائي

في المساجد (٦٩٠)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٥٣)، وأحمد (٥/١٥٠، ١٦٦، ١٦٧).

(٢) في «تفسيره» (٤٠٩/٥).

الْمُشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ [آل عمران: ٦٧]، فيه إنكار على المشركين من قريش، وتقريع وتوبيخ لهم على شركهم بالله، وبيان أن البيت إنما أُسس من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له وعلى تقواه.

﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ كما قال في سورة البقرة: ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، أي: وطهر بيتي من الشرك وعبادة الأوثان والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس المعنوية والحسية، ومن الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على الطائفين والمصلين وغير ذلك.

ولهذا نهى الله - عز وجل - عن القتال فيه، قال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْتُلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١]. ونهى المشركين من قربه، فقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة: ٢٨].

وأضاف عز وجل البيت إليه لأنه رب البيت؛ خالقه وواضعه ومالكة والمتصرف فيه، وفي ذلك تشريف وتعظيم للبيت وترغيب في تطهيره وتعظيمه.

﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: طهره من الشرك والمعاصي وغير ذلك للطائفين والقائمين والركع السجود، الذين يعبدون الله وحده لا شريك له.

و«الطائفين» جمع طائف، والطواف بمعنى الدوران على الشيء والتردد عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨]، وقوله تعالى: ﴿طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النور: ٥٨].

وقوله ﷺ في الهرة: «إنها ليست بنجس، إنما من الطوافين عليكم والطوافات»^(١). والمعنى: والطائفين بالبيت وعلى الكعبة المشرفة.

والطواف خاص بالبيت الحرام الذي بناه إبراهيم - عليه السلام - بأمر ربه - عز

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة (٧٥)، والنسائي في الطهارة (٦٨)، والترمذي في الطهارة (٩٢)، وابن ماجه في الطهارة وسننها (٣٦٧) - من حديث أبي قتادة - رضي الله عنه.

وجل، والذي جعله الله قبلة للمسلمين في صلاتهم ومثابة للناس وأمنًا، وقيامًا للناس، كما قال تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكعبةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

فلا يجوز التعبد لله - عز وجل - بالطواف على غير الكعبة والبيت الحرام، سواء كان المطوف به مسجدًا أو قبرًا، أو غير ذلك.

ولكون الطواف خاصًا بالبيت الحرام قدّمه على القيام والركوع والسجود، فقال: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ ﴿عَلِمَا أَن الصَّلَاةَ أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ.﴾ ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ جمع قائم، أي: القائمين في الصلاة؛ لقوله بعده: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾، وقدّم القيام؛ لأنه في الأصل مقدّم في الصلاة، فهو أول أركان الصلاة، ولأنه موضع قراءة الفاتحة وهي ركن أيضًا من أركان الصلاة، وموضع قراءة القرآن مطلقًا في الصلاة، وهو أفضل الذكر.

﴿وَالرُّكَّعِ﴾ جمع راعع. والركوع: هو الركن الثالث من أركان الصلاة، وهو محل تعظيم الرب؛ لقوله ﷺ: «أما الركوع فعظّموا فيه الرب»^(١).

﴿السُّجُودِ﴾ جمع ساجد. والسجود: هو الركن الخامس من أركان الصلاة، وهو السجود على الأعضاء السبعة: الوجه، واليدين، والركبتين، وأطراف القدمين، وتعفيرها بالتراب تعظيمًا لله - عز وجل.

وأصل السجود: التظامن والتواضع والخضوع لله - عز وجل. ويطلق على الانقياد لله - عز وجل - عمومًا، ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة، ويطلق على الصلاة كلها، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَّرَائِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٢]، لأنه من أعظم أركان الصلاة، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد - كما قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(٢).

(١) سيأتي تحريجه قريبًا.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبوداود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧) - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «وأما السجود فاجتهدوا فيه في الدعاء، فَمَنْ أَنْ يَسْتَجَابَ لَكُمْ»^(١). والقيام والركوع والسجود من أعظم وأهم أركان الصلاة، ولهذا خصها بالذكر؛ لأن في القيام قراءة القرآن أفضل الكلام، وفي الركوع والانحناء تعظيم الرب، وفي السجود القرب من الله عز وجل.

وقرن بين الطواف والصلاة في الآية؛ لأن الطواف لا يصح إلا بالبيت الحرام، والصلاة لا تصح إلا إليه. وقدم الطواف على الصلاة لاختصاصه بالبيت.

وفي آية البقرة: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الآية: ١٢٥]، قدم أيضاً الطواف على الاعتكاف والصلاة لاختصاصه بالحرم، كما قدم الاعتكاف على الصلاة لاختصاص الاعتكاف بالمساجد.

قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^(٢٧).

قوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ الأمر لإبراهيم - عليه السلام، والأذان هو الإعلام والنداء، والإخبار، أي: وناد في الناس وأخبرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ [التوبة: ٣]، أي: وإعلام من الله ورسوله. قال الشاعر:

أَذْنَتْنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ ثَاوِي مَلٍ مِنْهُ الثَّوَاءُ^(٢)
أَي: أَعَلَّمْتَنَا.

﴿النَّاسِ﴾ يعم كل البشر، أي: كل ما أمكنه أن يبلغ إليه ذلك. والمعنى: وأعلم الناس وأخبرهم وناد بهم بأن يحجوا بيت الله الحرام، أو بوجوب الحج عليهم.

والحج لغة: القصد. وشرعاً: قصد بيت الله الحرام لأداء مناسك الحج.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٩) - من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما.

(٢) البيت للحارث بن حلزة. انظر: «ديوانه» ص ١٩.

وقد رُوي أن إبراهيم - عليه السلام - قال: «يا رب، وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعليّ البلاغ». فقام إبراهيم - عليه السلام - على الحجر، أو على المقام، وقيل: على الصفا، أو على أبي قبيس، فنادى ألا إن ربكم قد اتخذ بيتاً، وأمركم أن تحجوه، أو إن الله كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فحجوا، فخفضت له الجبال رؤوسها فسمعه ما بين السماء والأرض، فأجابه كل من سمعه «لييك اللهم لييك» هكذا روي عن جمع من السلف^(١). وهكذا قال محمد ﷺ لأمته: «أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا»^(٢).

﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ ﴿رِجَالًا﴾ حال، وهي: جمع راجل، والراجل: هو الذي يمشي على رجليه، أي: يأتوك للحج حال كونهم ماشين على أرجلهم.
﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الجملة في محل نصب معطوفة على قوله: ﴿رِجَالًا﴾، أي: ويأتوك حال كونهم راكبين على كل ضامر.

وكلمة ﴿كُلِّ﴾ تدل على الكثرة، أي: وعلى ضوامر كثيرة.
والضمور: الضعف والهزال بسبب الركوب وطول السير وبعد الشقة. والضمور أيضاً قلة لحم البطن، وهو من محاسن الرواحل والخيل؛ لأنه يعينها على السير والحركة. والمعنى: يبيئك الناس للحج منهم الماشي على رجليه، ومنهم الراكب على الإبل والخيل الضوامر، التي أضمرها السير والركوب وبعد الشقة.

وفي تقديم قوله: ﴿رِجَالًا﴾ إشارة إلى أن الحج يجب على من قدر عليه ولو ماشياً، إذا كان يستطيع ذلك بلا مشقة شديدة، فليس من شرطه أن يجد مركباً. وفيه إشارة أيضاً إلى عظم أجر الحج ماشياً؛ لأن الأجر على قدر المشقة، ولا شك أن الحج على الأقدام أشق، فهو أفضل إذا لم يجد مركباً، أما إذا وجد مركباً فالسنة أن يركب كما فعل الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد أخذ من هذا بعضهم أن الحج ماشياً أفضل؛ لأن الله قدمه، ولما فيه من المشقة والدلالة على علو الهمة وقوة العزيمة. وقالوا: إنها حج الرسول ﷺ ركباً رفقا بأمته،

(١) انظر: «جامع البيان» (١٦/٥١٤-٥١٧)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٤٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وطاف راكبًا ليرى الناس هيئة الطواف.

وأكثر أهل العلم على أن الحج راكبًا أفضل؛ لأن الرسول ﷺ حج راكبًا، بل وطاف بالبيت وتنقل بين المشاعر ورمى الجمار وهو راكب ﷺ - مع قوته وقدرته على المشي، وهو الأسوة ﷺ والقُدوة للأمة، وما خَيْرُ ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا - كما قالت عائشة - رضي الله عنها^(١).

وليس المقصود من الحج ولا من غيره من العبادات المشقة، وإنما المهم أداء العبادة كما شرعها الله - عز وجل - وبينها رسوله ﷺ؛ ولهذا قال ﷺ: «خذوا عني مناسككم»^(٢)، وقال في أمر الصلاة: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٣).

﴿يَأْتِينَ﴾ هذه الضوامر.

﴿مِنْ كُلِّ فَجٍّ﴾ الفج: الشق بين جبلين تسير فيه الركاب، وغلب على الطريق أي: من كل طريق ومسلك وسبيل، وجمعه «فجاج»؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿عَمِيقٍ﴾ أي: بعيد، يقال: بئر عميقة، أي: بعيدة القعر، أي: يأتين هذه الضوامر من كل طريق ومسلك بعيد، استجابة لنداء إبراهيم - عليه السلام، ودعائه في قوله: ﴿فَأَجْعَلْ آفِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

فالمسلمون في جميع أقطار الأرض على اختلاف لغاتهم ومشاربهم كلهم يحجون إلى البيت العتيق، ويحجونه، ويزورونه، ولا يكاد أحد منهم يسلو عنه، أو يشبع منه مهما حج وتردد إليه.

وقد أحسن القائل:

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبوداود في الأدب (٤٧٨٥) - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٦)، وأبوداود في المناسك (١٧٨٥)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٦٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٠٠٨) - من حديث جابر - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٣١)، والدارمي في الصلاة (١٢٥٣) - من حديث مالك بن الحويرث - رضي الله عنه.

يا سائرين إلى البيت العتيق لقد سرتم جسومًا وسرنا نحن أرواحا
إننا أقمنا على عذر نكابده ومن أقام على عذر كمن راحا^(١)

قوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾﴾.

قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾، اللام للتعليل، ونكرت ﴿مَنَافِعَ﴾ للتعظيم والتكثير، أي: لأجل أن يحضروا ويحصلوا على منافع عظيمة كثيرة لهم في دينهم ودنياهم وأخراهم، فيستفيدوا من الحج وأداء مناسكه كما شرع الله - عز وجل - وفي التعبد في تلك البقاع الطاهرة تكفير السيئات ورفعة الدرجات والفوز بالجنت.

كما قال ﷺ: «من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه»^(٢)، وقال ﷺ: «الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٣).

ويستفيدوا من منافع البدن والهدى وطلب الفضل والريح بالتجارة؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨]. ويستفيدوا من الحج أيضًا منافع أخرى دينية ودنيوية بتعلم أمور دينهم وأحكام حجهم، وتقوية الألفة والترابط بينهم، والتعاون على البر والتقوى، ودراسة مصالحهم المشتركة، اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا وأمنيًا.

وهذا لن يتأتى إلا بالنظرة الجدية في الحكمة من مشروعية الحج، والصدق مع الله في طلب هذه المنافع، والاستزادة من الخير، أما في غياب هذه النظرة، وغياب الصدق مع الله في طلب هذه المنافع، كما هو حال كثير من الحجاج اليوم فلن تدرك هذه المنافع، بل إن مما يؤسف له أن من الحجاج من ليس له من حجه إلا اللغو والفسوق والجدال

(١) البيتان لأبي العباس أحمد بن العريف الأندلسي. انظر: «نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب» (٤/٣٣١).

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١)، ومسلم في الحج (١٣٥٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٧)، والترمذي في الحج (٨١١)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٩) - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٧٧٣)، ومسلم في الحج (١٣٤٩)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦٢٢)، والترمذي في الحج (٩٣٣)، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٨) - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

وأذية الآخرين ومزاحمتهم ونحو ذلك.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

أي: ويتقربوا إلى الله - عز وجل - بنحر وذبح الهدي والأضاحي^(١) ويذكروا اسم الله عليها عند النحر والذبح، بقولهم: بسم الله والله أكبر، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩]، وقال تعالى في صيد الجوارح: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤]، وقال ﷺ: «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوا»^(٢).

﴿فِي آيَاتٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ أي: في أيام محددة بوقتها وعددها، وهي يوم النحر، وأيام التشريق الثلاثة بعده، وفي هذا إشارة إلى أنه يجب الاهتمام بحسابها لما فيها من النسك وأعمال الحج وذكر الله.

﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ أي: على الذي أعطاهم من بهيمة الأنعام، من الإبل والبقر والضأن والمعز، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَبِئْنَاكَ أَنَّهُ لَحْمٌ مِّنَ الضَّيْحِ وَمِنَ الضَّيْحِ مِمَّا رَزَقْنَاكَ وَمَا كَانَ لِكَافِرِيكَ أَن يَأْكُلُوا مِمَّا رَزَقْنَاكَ مَا حَتَّاهُ اللَّهُ لَكُمُ الْيَوْمَ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهَا كَمَا كَفَرْتُمْ﴾ [الحج: ١٣١].

وسميت بهيمة لما في نطقها من الإبهام، وسميت بالأنعام لما في مشيها من اللين والنعومة، وقيدها بالأنعام لأن غيرها من البهائم لا يتقرب إلى الله بذبحه كالخيل والبغال والحمير وغيرها.

والمجزئ في الهدي واجباً كان أو تطوعاً وكذا في الأضحية شاة، أو سبع بدنة أو

(١) الهدي: ما يهدى للحرم من بهيمة الأنعام، والأضاحي: ما ينحر ويذبح من بهيمة الأنعام يوم النحر وأيام التشريق، سميت بذلك لأنها تذبح ضحى بعد صلاة العيد.

(٢) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٨٨)، ومسلم في الأضاحي (١٩٦٨)، وأبوداود في الضحايا (٢٨٢١)، والنسائي في الصيد والذبايح (٤٢٩٧)، والترمذي في الأحكام والفوائد (١٤٩١)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٧) - من حديث رافع بن خديج - رضي الله عنه.

سبع بقرة^(١)، ما عدا إفساد الحج ففيه بدنة كاملة، وتجزئ البدنة عن سبعة، وكذا البقرة. والشاة أفضل من سبع البدنة وسبع البقرة.

ويجزئ في الأضحية عن الواحد وأهل بيته شاة؛ لأن النبي ﷺ ضحى بكبشين أقرنين أحدهما عنه وعن أهل بيته، والآخر عمن لم يضح من أمته^(٢).

والسن المجزئ في الهدي والأضحية جذع من الضأن، وهو ما له ستة أشهر، وثني من غيرها، وهو من الإبل ما كان له خمس سنوات، ومن البقر ما له ستان، ومن المعز ما له سنة؛ لحديث: «لا تذبحوا إلا مسنة، فإن تعسر عليكم فتذبحوا جذعة من الضأن»^(٣).

ويشترط سلامتها من العيوب البيّنة، قال ﷺ - فيما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه: «أربع لا تجزئ في الأضاحي: العوراء البيّن عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والعجفاء التي لا تُنقي»^(٤).

وفي قوله: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ دون الأمر بالنحر والذبح إشارة إلى أن المقصود من ذلك هو ذكر اسم الله - عز وجل - عليها والتقرب إليه بها.

وفي قوله: ﴿أَيَّامٍ﴾ ما يشمل الليل والنهار فيجوز ذبح الهدي والأضاحي نهارًا وليلاً لكن النهار أولى وأفضل، وقيل: لا يجوز الذبح ليلاً.

كما أن في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ما يوجب استشعار أنها من الله، ينبغي شكره عليها بالإخلاص له بالعبادة، ولهذا يشرع أن يقول بعد التسمية

(١) هذا بخلاف العقيقة فلا يجزي فيها سبع بدنة أو سبع بقرة، ولا يجوز الاشتراك فيها.

(٢) سيأتي تحريجه.

(٣) أخرجه مسلم في الأضاحي - سن الأضحية (١٩٦٣)، وأبوداود في الضحايا (٢٧٩٧)، والنسائي في الضحايا (٤٣٧٨)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤١)، من حديث جابر - رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أبوداود في الضحايا (٢٨٠٢)، والنسائي في الضحايا (٤٣٦٩)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٧)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٤) - من حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه. وقال

الترمذي: «حسن صحيح».

والتكبير «اللهم هذا منك ولك»^(١).

ومن ذكر اسم الله - عز وجل - ومما يشرع في هذه الأيام صلاة العيد وخطبته يوم النحر، والتكبير والتهليل والتحميد، وأداء بقية مناسك الحج من المبيت بالمزدلفة وبمنى والطواف والسعي ورمي الجمار وغير ذلك.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن المراد بالأيام المعلومات عشر ذي الحجة التي أقسم الله - عز وجل - بها في قوله: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ٢]، فهي أفضل أيام السنة؛ لمشروعية الأعمال الصالحة كلها فيها وفضلها، واختصاصها بأداء فريضة الحج فيها. وقال بعض أهل العلم: العشر الأواخر من رمضان أفضل لوجود ليلة القدر فيها ورجح ابن القيم أن أيام عشر ذي الحجة أفضل للحديث الوارد في فضلها، وأن ليالي عشر رمضان أفضل لوجود ليلة القدر فيها جمعاً بين الأدلة.

فهذه الأيام العشر أيام معلومات مفضلة، والعمل فيها أفضل من غيرها. فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله، فلم يرجع بشيء»^(٢).

ومن أفضل الأعمال وأكدها في هذه الأيام الحج والعمرة، والتكبير والتهليل والتحميد، فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «ما من أيام أعظم عند الله، ولا أحب إليه العمل فيهن من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد»^(٣).

وقد ثبت عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما: «أنهما كانا يخرجان إلى السوق فيكبران ويكبر الناس بتكبيرهما»^(٤).

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٦٩)، وأبوداود في الصوم - صوم العشر (٢٤٣٨)، والترمذي في الصوم - ما جاء في العمل في أيام العشر (٧٥٧)، وابن ماجه في الصوم - صيام العشر (١٧٢٧).

(٣) أخرجه أحمد (٧٥ / ٢، ١٣١، ١٣٢).

(٤) أخرجه البخاري معلقاً - في كتاب العيدين - فضل العمل في أيام التشريق (٤٥٧ / ٢).

كما أن من أفضل الأعمال وأكدها في هذه الأيام العشر صيام يوم عرفة؛ لما رواه أبو قتادة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله، والسنة التي بعده»^(١).

وهو من أفضل أيام العشر، قال ﷺ: «ما رئي الشيطان يوماً هو فيه أصغر ولا أذحر ولا أحقر ولا أغيظ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلا لما رأى من تنزل الرحمة، وتجاوز الله عن الذنوب العظام، إلا ما أرى يوم بدر. قيل: وما رأى يوم بدر يا رسول الله؟ قال: أما إنه قد رأى جبريل يزع الملائكة»^(٢).

كما أن من أفضل هذه الأيام يوم النحر وهو يوم الحج الأكبر - فيه تؤدى كثير من مناسك الحج من الرمي والذبح والحلق والطواف.

ولا مانع من حمل الأيام المعلومات على عشر ذي الحجة، وعلى أيام التشريق، فكلها أيام معلومات مفضلة.

قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ كقوله فيما يأتي: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ [الحج: ٣٦].

والخطاب في قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾: للمهدي، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب؛ لتأكيد مشروعية الأكل والإطعام من هذه الذبائح، والامتنان عليهم بذلك، أي: فكلوا مما ذبحتم من بهيمة الأنعام من الهدى والأضحية.

وظاهر قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وجوب الأكل من الهدى والأضحية، وهذا الظاهر غير مراد؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ [المائدة: ٢]، وقوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

وأكثر أهل العلم على عدم وجوب الأكل من الهدى والأضحية؛ لأن هذا الأمر لرفع ما كان عليه أهل الجاهلية من التحرج من الأكل منها.

(١) أخرجه مسلم في الصيام - استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر (١١٦٢)، وأبو داود في الصوم (٢٤٢٥).

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» - كتاب الحج (٩٦٢) - من حديث طلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه.

فالأمر بالأكل محمول على الرخصة أو الاستحباب، وهكذا قوله ﷺ بالنسبة للأضحية: «كلوا وأطعموا وادخروا»^(١)، وفي رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا»^(٢). وقد أهدى النبي ﷺ مائة بدنة، نحر منها ثلاثاً وستين بيده الشريفة، ونحر بقيتها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه، ثم أمر ﷺ من كل بدنة ببضعة فطبخت، فأكل من لحمها وشرب من مرقها^(٣). ويستحب جعلها أثلاثاً، يأكل ثلثاً، ويهدي ثلثاً، ويتصدق بثلث؛ لقوله - ﷺ: «كلوا وأطعموا وتصدقوا»^(٤).

وإن أكل أكثرها أو تصدق به جاز ذلك. ويتنفع بجلودها وأوبارها وأشعارها، أو يدفع ذلك لمن ينتفع به، ولا يبيع منها شيئاً، ولا يعطي الجزار أجرته منها؛ لما رواه علي - رضي الله عنه - قال: أمرني النبي ﷺ أن أقوم على بدنه، فقال: «اقسم جلودها وجلالها، ولا تعط الجزار منها شيئاً»^(٥). لكن لو أعطى الجزار منها على سبيل الإهداء، أو تصدق عليه منها لفقره جاز ذلك.

﴿وَأَطْعَمُوا الْفَقِيرَ﴾ معطوف على قوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وهو محمول على الاستحباب عند أكثر أهل العلم، وقيل بوجوبه.

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي (٥٥٦٩)، ومسلم في الأضاحي (١٩٧٤) - من حديث سلمة بن الأكوع - رضي الله عنه. وأخرجه النسائي في الضحايا (٤٤٢٩)، والترمذي في الأضاحي (١٥١٠) - من حديث بريدة - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧١)، وأبوداود في الأضاحي (٢٨١٢)، والنسائي في الضحايا (٤٤٣١) - من حديث عبدالله بن واقد - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الحج - حجة النبي ﷺ (١٢١٨)، وأبوداود في المناسك - صفة حجة النبي ﷺ (١٩٠٥)، والترمذي في الحج - حج النبي ﷺ (٨١٢)، وابن ماجه في المناسك - حجة رسول الله ﷺ (٣٠٧٤) - من حديث جابر - رضي الله عنه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه البخاري في الحج (١٧١٦)، ومسلم في الحج (١٣١٧)، وأبوداود في المناسك (١٧٦٩)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٩٩).

﴿الْبَاسِ﴾ الذي عليه آثار البؤس وشدة الحاجة والفقر في حاله وهيئته.

﴿الْفَقِيرِ﴾ الذي لا شيء عنده، أو عنده أقل من نصف الكفاية.

وقيل: البائس الذي أصابه البؤس، وهو ضيق المال وهو الفقير، ولهذا لم يعطف أحد الوصفين على الآخر؛ لأنه كالبيان له، وفي وصفه بهما معاً تأكيد شدة حاجته، وتحريك المشاعر للعطف عليه.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ وَلِيَطَّوِقُوا بِأَبْئَتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ قرأ أبو عمرو وهشام عن ابن عامر، وورش عن نافع وقنبل عن ابن كثير ورويس عن يعقوب بكسر اللام «ليقضوا» وقرأ الباقون بإسكانها: ﴿لِيَقْضُوا﴾.

﴿ثُمَّ﴾: عاطفة، واللام: للأمر، وهي كذلك في قوله: ﴿وَلِيُوفُوا﴾، ﴿وَلِيَطَّوِقُوا﴾ ولام الأمر تأتي غالباً ساكنة بعد الحروف الثلاثة: ثم، والواو، والفاء، كما في قوله: ﴿فَلْيَسْتَقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ٩].

والتفت: الوسخ من طول الشعر والأظفار والشعث، أي: ثم ليزيلوا درنهم ووسخهم بإزالة هذه الأشياء، وذلك بإتمام مناسك الحج من الطواف والرمي وغير ذلك، والخروج من الإحرام؛ بالحلقة وقص الشارب وشف الإبط والاستحداد وتقليم الأظافر ولبس الثياب.

قال أمية بن الصلت^(١):

حَقَّوْا رُؤُوسَهُمْ^(٢) لَمْ يَنْزَعُوا تَفَثًا وَلَمْ يَسْلُوا لَهُمْ قَمَلًا وَصَبَّانَا

وقال بعض المفسرين: التفت: مناسك الحج كلها، وهو مروى عن ابن عباس

وابن عمر - رضي الله عنهما، ويقويه قوله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا﴾.

﴿وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ وَلِيَطَّوِقُوا بِأَبْئَتِ الْعَتِيقِ﴾ الواو في الموضعين عاطفة.

(١) انظر: «ديوانه» ص (٦٢).

(٢) يقال: حف رأس الإنسان، أي: شعث وبعد عهده بالدهن. انظر: «لسان العرب» مادة: «حفف».

قرأ ابن ذكوان عن ابن عامر بكسر اللام من قوله: ﴿وَلْيُوفُوا﴾، ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾^(١) وقرأ الباقون بإسكان اللام منها.

وقرأ أبو بكر عن عاصم بفتح الواو وتشديد الفاء من (وليوفوا) والباقون بإسكان الواو وضم الفاء بدون تشديد.

والنذور: جمع نذر، والنذر: ما ألزم الإنسان به نفسه وأوجهه عليها مما لم يكن واجبا عليه في الأصل، أي: وليوفوا نذورهم التي أوجبوها على أنفسهم من الحج والعمرة والهدي وغير ذلك بإتمامها وقضائها، وأيضا وليتموا ما أحرموا به من حج أو عمرة؛ لأن مجرد الإحرام بهما يوجب إتمامهما، حتى ولو كانا غير واجبين.

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ الأمر: للوجوب، والطواف بالبيت: الدوران عليه. أي: وليطوفوا بالكعبة المشرفة طواف الحج، الذي هو ركن من أركان الحج، ويسمى طواف الإفاضة، وطواف الزيارة، وبه يحصل التحلل الأول، وبه يحصل قضاء التفث، كما صح أنه ﷺ لما رجع إلى منى بدأ برمي جمرة العقبة فرماها بسبع حصيات، ثم نحر هديه وحلق رأسه، ثم أفاض فطاف بالبيت^(١).

وقيل: المراد بالطواف في الآية ما يشمل طواف الحج، وطواف الوداع. عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: «أمر الناس أن يكون آخر عهدهم بالبيت، إلا أنه خفف عن المرأة الحائض»^(٢).

وعن أبي جمرة قال: قال لي ابن عباس: «أتقرأ سورة الحج؟ يقول الله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فإن آخر المناسك الطواف بالبيت»^(٣).

وسمي البيت بـ﴿الْعَتِيقِ﴾؛ لأنه أفضل وأكرم وأقدم بيت وضع للناس، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾^(١٦) [آل عمران: ٩٦].

(١) أخرجه مسلم في الحج (٢١٨)، وأبوداود في المناسك (١٩٠٥)، والنسائي في مناسك الحج (٣٠٥٤)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٧٤) - من حديث جابر - رضي الله عنه الطويل في صفة حجته ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٧٥٥)، ومسلم في الحج (١٣٢٨).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٩٠ / ٨).

ولأنه أعتق من تسلط الجبابرة وظهورهم عليه، فلم يرده أحد بسوء إلا هلك كما حصل لأبرهة الأشرم وغيره.

عن عبدالله بن الزبير - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما سمي البيت العتيق؛ لأن الله أعتقه من الجبابرة فلم يظهر عليه جبار قط»^(١).

قال السعدي^(٢) في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾: «وهذا أمر بالطواف خصوصاً بعد الأمر بالمناسك عموماً لفضله وشرفه، ولكونه المقصود وما قبله وسائل إليه، ولعله - والله أعلم - أيضاً: لفائدة أخرى، وهو أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعاً لنسك أم مستقلاً بنفسه».

الفوائد والأحكام:

١ - تذكير الله - عز وجل - بما منّ به على إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وأتباعه المؤمنين، في إرشاده إلى مكان البيت، وتهيئته له لعبادة الله وحده لا شريك له، وحج بيته والصلاة فيه، وهي نعمة ومنة على نبينا محمد ﷺ وأمته، لهذا ذكره - عز وجل - بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾.

٢ - عظم منزلة نبي الله إبراهيم الخليل - عليه السلام، فهو خليل الرحمن، وأبو الأنبياء، وثاني أولي العزم من الرسل بعد محمد - عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام.

٣ - عظم مكانة البيت الحرام الذي بناه إبراهيم - عليه السلام، وأنه أعظم وأقدم، بل وأول بيت وضع للناس؛ لقوله تعالى في أول الآية: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أي: البيت العظيم، ولقوله في آخر الآية: ﴿وَلَيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾؛ ولهذا أضافه الله - عز وجل - إلى نفسه، فقال تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ تشرifaً وتعظيماً له.

٤ - عهد الله - عز وجل - إلى إبراهيم - عليه السلام - بتطهير البيت الحرام من الشرك

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الحج (٣١٧٠)، والطبري في «جامع البيان» (٥٣١/١٦)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وهكذا روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٩٠/٨).

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢٩٠/٥).

والمعاصي والأنجاس المعنوية والحسية؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكَ بِى شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

٥- عظم خطر الشرك؛ لأن الله بدأ بالنهي عنه، ونهى عنه إبراهيم - عليه السلام - إمام الحنفاء - وإذا كان إبراهيم - عليه السلام - إمام الحنفاء منهيًا عن الشرك فغيره منهي عن ذلك من باب أولى وأحرى.

٦- أن المقصود من بناء البيت الحرام توجيه الناس إلى عبادة الله وتوحيده والبعد عن الشرك.

٧- وجوب تطهير البيت الحرام من جميع الأرجاس والأدناس المعنوية والحسية.

٨- التنويه بمكانة المؤمنين الطائفين بالبيت والمصلين فيه والعناية بهم؛ لقوله تعالى:

﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

٩- عظم منزلة الطواف والصلاة في الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِىَ لِلطَّائِفِينَ

وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

١٠- تقديم ذكر الطواف في الآية على أركان الصلاة - القيام والركوع والسجود - مع أن الصلاة أفضل وأهم العبادات البدنية؛ لأن الطواف مختص بالبيت الحرام، إذ لا يجوز الطواف بغيره.

١١- أن من أعظم أركان الصلاة القيام والركوع والسجود؛ لهذا خصها بالذكر من بين أركان الصلاة وحالاتها.

١٢- فرض الحج على الناس منذ عهد إبراهيم عليه السلام وأمر الله عز وجل لإبراهيم

عليه السلام بالنداء والإعلام بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾.

وهكذا دل القرآن الكريم والسنة النبوية على وجوب الحج على هذه الأمة، قال

تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

وقال ﷺ: «إن الله فرض عليكم الحج فحجوا»^(١).

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٣٧)، والنسائي في مناسك الحج (٢٦١٩)،

والترمذي في العلم (٢٧٦٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢، ١)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً»^(١).

١٣- التنويه بشأن المجيبين داعي الله لحج البيت الحرام، وكثرتهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

١٤- جواز الحج رجالاً وركباً على الإبل وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

١٥- في تقديم قوله: ﴿رِجَالًا﴾ إشارة- والله أعلم- إلى أنه ليس من شرط الحج وجود المركب إذا استطاعه الإنسان ماشياً بلا مشقة شديدة.

وليس فيه دلالة على فضل الحج ماشياً لمن لم يجد المركب، كيف وقد حج ﷺ ركباً، وقد قال ﷺ: «خذوا عني مناسككم».

لكن من لم يجد مركباً وحج ماشياً أعظم أجراً؛ لأن الأجر على قدر المشقة، وإلا فالأفضل الحج ركباً تأسياً بالنبي ﷺ، وعلى هذا أكثر أهل العلم.

١٦- أن الحج كما يجب على القريب من البيت يجب على البعيد إذا استطاعه، والأجر على قدر المشقة.

١٧- أن من حكمة مشروعية الحج شهود المنافع الدينية والدينية والأخروية، وذكر اسم الله بالتلبية وأداء مناسك الحج والتكبير والتهليل والتحميد والتسمية على نحر وذبح الهدى والأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

وينبغي للمسلمين أن يتأملوا هذا المقصد الأسمى من فرضية الحج فيستغلوا هذا الموسم العظيم لما يعود عليهم بالنفع في دينهم وديناهم وأخراهم.

١٨- مشروعية الهدى في هذه الأيام المعلومات؛ هدي التطوع، أو الهدى الواجب

(١) أخرجه البخاري في الإبان (٨)، ومسلم في الإبان (١٦)، والنسائي في الإبان وشرائعه (٥٠٠١)، والترمذي في الإبان (٢٦٠٩)- من حديث ابن عمر- رضي الله عنهما.

كهدي التمتع والقران وغير ذلك، وهي: يوم النحر وأيام التشريق الثلاثة بعده، ويبدأ ذبح الهدي بعد رمي جمرة العقبة يوم النحر؛ لأن النبي ﷺ لم ينحر هديه ولا هدي أزواجه إلا بعد أن رمى جمرة العقبة، وكذا فعل أصحابه - رضي الله عنهم. كما تشرع في هذه الأيام المعلومات الأضحية، وهي سنة مؤكدة عند أكثر أهل العلم، وقال بعضهم بوجوبها منهم شيخ الإسلام ابن تيمية، قال تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ۗ ﴾ [الكوثر: ٢]، أي: وانحر أضحيتك، وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ ﴾ [الحج: ٣٤]. وقد أقام النبي ﷺ في المدينة عشر سنوات يضحى^(١).

ويقوي القول بعدم وجوبها قوله ﷺ: «إذا رأيتم هلال ذي الحجة وأراد أحدكم أن يضحى فليمسك عن شعره وأظفاره»^(٢). فقوله: «وأراد أحدكم أن يضحى» يدل على عدم وجوبها.

وهي من أفضل الأعمال، قال تعالى: ﴿ لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ ۗ ﴾ [الحج: ٣٧].

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض فطيبوا بها نفساً»^(٣).

ووقت ذبحها من بعد صلاة العيد وخطبته إلى غروب شمس اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، عن البراء بن عازب - رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا أن نصلي، ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا،

(١) أخرجه الترمذي في الأضاحي (١٥٠٧) من حديث ابن عمر - رضي الله عنها - وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٧٧)، وأبو داود في الضحايا (٢٧٩١)، والنسائي في الضحايا (٤٣٦١)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢٣)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٩)، من حديث أم سلمة رضي الله عنها.

(٣) سيأتي تحريجه.

ومن نحر قبل الصلاة فإنما هو لحم قدمه لأهله، ليس من النسك في شيء»^(١).
فإن كان في مكان لا تقام فيه صلاة العيد ذبح بعد ارتفاع الشمس قدر رمح
ومضى وقت كاف لصلاة العيد وخطبته.

وقيل: أيام الذبح فقط يومان بعد العيد، وقيل بل يوم واحد بعد العيد، والأصح
أن أيام التشريق الثلاثة مع يوم العيد كلها وقت للذبح، وفي الحديث: «وأيام
التشريق كلها ذبح»^(٢).

فهذه الأيام كلها ذبح، وهي سواء في حرمة صيامها، وفي التكبير فيها، ورمي
الجمار، وغير ذلك.

١٩- مشروعية ذكر اسم الله على الهدي والأضاحي وغيرها من الذبائح عند ذبحها؛
لقوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ
الْأَنْعَامِ﴾.

وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى وجوب التسمية عند الذبح؛ لقوله تعالى:
﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾ [الحج: ٣٦]، وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾
[الأنعام: ١١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام:
١١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾ [الأنعام: ١٢١]،
وقوله تعالى في الجوارح: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤].

وقوله ﷺ في حديث رافع بن خديج رضي الله عنه: «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله
عليه فكلوه»^(٣).

وذهب بعض أهل العلم إلى أن التسمية عند الذبح سنة.

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٦٥)، ومسلم في الأضاحي - وقتها (١٩٦١).
(٢) أخرجه أحمد (٨٢/٤)، من حديث جبير بن مطعم - رضي الله عنه، وكذا رواه ابن حبان في صحيحه
(٣٨٤٣)، والبزار في «الكشف» (١٢٠٦)، وصحح البيهقي إرساله، وضعفه الزيلعي في «نصب الراية»
(٣/٦١، ٤/٢١٣)، وقال ابن القيم في «زاد المعاد» (٢/٣١٨): «متقطع لا يثبت وصله» وذكر أنه ورد
من وجهين مختلفين يشد أحدهما الآخر، واختار العمل به.
(٣) سبق تخريجه.

وذهب الجمهور إلى أنها تجب عند الذكر، وتسقط عند النسيان.
والصحيح القول بوجوب التسمية عند الذبح، وقد ذكرت تحقيق القول في هذا
في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَ لَعَيْرٍ أَلَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]، في تفسير سورة
المائدة.

٢٠- أن الرزق كله من الله - عز وجل - من بهيمة الأنعام وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿عَلَى
مَا رَزَقْتَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾؛ ولهذا شرع أن يقول عند ذبح الأضحية والهدي
بعد التسمية والتكبير: «اللهم هذا منك ولك»^(١).

٢١- أن مكان ذبح الهدي البيت الحرام، كما قال تعالى: ﴿هَذَا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]،
وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِفُوا رُهُ وَسُكْرًا حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦].
وقال ﷺ: «كل عرفة موقف، وكل منى منحرج، وكل مزدلفة موقف، وكل فجاج
مكة طريق ومنحرج»^(٢).

ويفرق لحمه على مساكين الحرم.

٢٢- أن الهدي والأضحية لا تجزئ إلا من بهيمة الأنعام: الإبل والبقر والضأن والمعز؛
لقوله تعالى: ﴿مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وأفضلها الإبل، ثم البقر، ثم الغنم؛ لأن
الإبل أكبر وأنفع للفقراء، وكذا البقر أنفع من الغنم.

٢٣- استحباب الأكل من الهدي والأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وبخاصة ما
كان منها تطوعاً، أو واجباً بسبب تمتع أو قران، وقيل بوجوب الأكل منها.
وقد ثبت أن النبي ﷺ أهدى مائة ناقة وأمر بكل منها ببضعة فطبخت وأكل منها
وحسا من مرقها^(٣)، وفيها دم قران لأنه ﷺ كان قارناً.
أما ما كان منها واجباً بسبب ترك واجب أو ارتكاب محظور، أو فوات الحج أو

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك (١٩٣٧)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٤٨)، وأحمد (٣/٣٢٦)، من حديث
جابر رضي الله عنه، وأخرجه أحمد أيضاً (٨٢/٤)، من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

إفساده أو إفساد العمرة، أو الإحصار فلا يجوز لصاحبه الأكل منه.
وقيل: يجوز له الأكل منه ما لم يكن جزاء صيد أو فدية أذى. وقيل: يجوز الأكل من ذلك كله.

والصحيح القول الأول؛ لأنه دم جبر.
بخلاف هدي التمتع والقران فأكثر أهل العلم على جواز الأكل منه، بل على استحبابه؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾، ولأنه دم شكر لله حيث مكَّنه من الجمع بين نسكي الحج والعمرة في سفر واحد.
وقيل: لا يجوز الأكل منه واعتبروه دم جبر.

والصحيح القول الأول، ويشهد له ظاهر الآية، فإن فيها- مع الأمر بالأكل- ترتيب قضاء التفث على الذبح والطواف، ولا دم تترتب عليه هذه الأفعال إلا دم المتعة والقران، فإن سائر الدماء يجوز ذبحها قبل هذه الأفعال وبعدها، وقد ذبح ﷺ عن أزواجه بقراً وكن قارنات ودخل عليهن يوم النحر بلحم من ذلك^(١).

٢٤- استحباب إطعام البائس الفقير من لحوم الهدي والأضاحي، وعدم جواز بيع شيء منها؛ أو إعطاء الجزار أجرته منها، وقيل بوجوب الإطعام منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

٢٥- وجوب إكمال مناسك الحج وإتمامها كما شرع الله والتحلل من الإحرام وإزالة التفث بالحلق وقص الشارب وبتف الإبط وتقليم الأظافر ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

٢٦- وجوب الوفاء بالنذر من حج وغيره.
٢٧- وجوب طواف الإفاضة، وهو ركن من أركان الحج لا يصح الحج بدونه، ووجوب طواف الوداع، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ وأهمية الطواف بالبيت وفضله.

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٧٢٠)، ومسلم في الحج (١٢١١)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

٢٨- أن البيت الحرام أفضل وأقدم وأول بيت وضع للناس، لقوله تعالى: ﴿يَا بَيْتِ
الْعَتِيقِ﴾.

٢٩- فضل هذه الأيام المعلومات، واستحباب الإكثار فيها من الأعمال الصالحة، من
الحج والتكبير والتهليل والتحميد وصيام يوم عرفة وصلاة العيد وخطبته وذبح
الهدى والأضحية، وغير ذلك من الأعمال الصالحة، وأعمال البر والخير، وأهم
ذلك وأعظمه أداء الواجبات، والبعد عن المنهيات.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُجِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُقِّقَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَانَ اللَّهُ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُجِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾.

قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة لما سبق ذكره من مناسك الحج، من شهود المنافع وذكر اسم الله على الهدي والأضاحي، والأكل منها والإطعام، وقضاء التفت والوفاء بالنذور، والطواف بالبيت العتيق، وأشار إليها بإشارة البعيد تعظيماً لها، والقصد من الإشارة- مع تعظيم المشار إليه- التنبيه على الاهتمام بما سيذكر بعده، كما في قوله تعالى: ﴿هَذَا وَابْتَغِ الْوَعْدَ لِلظَّالِمِينَ لَشَرِّ مَثَابٍ ﴿٥٥﴾﴾ [ص: ٥٥].

﴿وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ ﴿الواو: عاطفة، و«مَنْ» شرطية. يُعْظِمُ﴾ فعل الشرط، وجوابه جملة ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ و اقترن الجواب بالفاء؛ لأنه جملة اسمية.

﴿حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ ﴿حُرْمَتِ﴾ جمع حُرْمَةٍ.

و﴿حُرْمَتِ اللَّهِ﴾ كل ما أوجب الله احترامه وحرم استحلاله، كالحرم والإحرام ومحظورات الإحرام، والمناسك كلها من الهدايا وغيرها، وكذا ما أمر الله به من العبادات، وتعظيمها بإجلالها بالقلب ومحبتها والقيام بها كما شرعها الله. وكذا كل ما نهى الله عنه، وتعظيمها باجتنابها والبعد عنها.

عن النعمان بن بشير- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن، وبينهما أمور مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى

يوشك أن يرتع فيه، ألا إن لكل ملك حمى، ألا إن حمى الله محارمه»^(١).

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي: فتعظيمه حرمت الله - تعالى؛ فعلاً لما أمر الله به وانتهاءً عما نهى الله عنه ﴿خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

ونكر ﴿خَيْرٌ﴾ وأطلقه؛ ليشمل كل أنواع الخير، أي: فهو خير له مطلقاً عند ربه في دينه ودنياه وأخراه، يجازيه عليه بالخير الكثير، والثواب الجزيل، في الدنيا، والآخرة مما لا يقدر قدره إلا العلي الكبير.

وفي إضافة ضمير هذا المعظم لحرمت الله إلى ﴿رَبِّهِ﴾ خالقه ومالكة ومدبره ومربيه الربوبية العامة والخاصة تشريف وتكريم له، وإشارة إلى عظمة هذا الخير، وتكفله - عز وجل - به.

﴿وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾ أي: وأحللنا لكم جميع الأنعام، وبني الفعل «أحلت» لما لم يسم فاعله؛ لأن المحلل معلوم وهو الله - عز وجل - وحده.

أي: وأحللنا لكم أكل جميع الأنعام إذا ذكيتموها على اسم الله - عز وجل، والمراد بالأنعام ما يشمل بهيمة الأنعام وهي الأزواج الثمانية الإبل والبقر والضأن والمعز وغيرها.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء متصل، و﴿مَا﴾ موصولة في محل نصب على الاستثناء.

﴿يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي: يُقَصُّ ويُقْرَأُ عليكم، والمعنى: إلا الذي يقرأ ويقص عليكم تحريمه في كتاب الله - عز وجل، وسنة رسوله ﷺ في المستقبل، وما سبق تلاوة تحريمه عليكم فيها، فقوله: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ يشمل ما تلي عليهم تحريمه قبل نزول هذه الآية، وما يتلى عليهم بعد ذلك في الكتاب والسنة، وإنما عبر بالمضارع للتنبية على أن ذلك المتلو ينبغي استحضاره في الذهن، والتنبه له، وذلك يشمل: الميتة، وما لم يذكر اسم الله عليه، والصيد في الحرم وحال الإحرام، وكل ذي ناب من السباع، وكل

(١) أخرجه البخاري في الإبان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبوداود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥).

ذي مخلب من الطير والفواشق، وغير ذلك مما حرمه الله.

قال تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مِجْلِي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حَرَمٌ مَوْجِدٌ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفِقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

وقال ﷺ: «يحرم كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير»^(١).

قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ هذا من تعظيم حرمان الله عز وجل، و﴿الرِّجْسَ﴾ النجس الخبيث القذر حسًا ومعنى وحكمًا، والمراد به هنا: النجس معنى وحكمًا من الأعمال والأقوال الباطلة والمحرمة، وسماها رجسًا تقييحًا لها وتنفيرًا منها.

﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾، ﴿مِنَ﴾ لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو عبادة الأوثان.

و﴿الْأَوْثَانِ﴾: جمع وثن، وهي الأصنام والأنداد والمعبودات من دون الله، فهي رجس وعبادتها رجس، وهي سبب الرجز والعذاب.

أي: ابتعدوا كل البعد عن عبادة الأوثان وتعظيمها وعمًا يقرب إليها، والأمر بالاجتناب أبلغ في التحريم والنهي من الأمر بالترك.

وقال السعدي^(٢): «والظاهر أن ﴿مِنَ﴾ هنا ليست لبيان الجنس كما قاله أكثر المفسرين، وإنما هي للتبعيض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهيًا عنها عمومًا، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصًا».

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وابتعدوا كل البعد عن قول

(١) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٩٣٤)، وأبوداود في الأطعمة (٣٨٠٣)، والنسائي في الصيد والذبائح (٤٣٤٨)، وابن ماجه في الصيد (٣٢٣٤) - من حديث ابن عباس - رضي الله عنها.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٢٩٢/٥).

الكذب والباطل وشهادة الزور والشرك، وهو رأس الزور وأعظمه.
والزور مأخوذ من الإزورار، وهو الانحراف عن الحق، والميل والعدول عن
الصواب، وليس هناك أشد انحرافاً وميلاً وبعداً عن الحق والصواب ممن زعم أن الله
شريكاً، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ
تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].
وفي قرن الأمر باجتنب قول الزور بالأمر باجتنب الأوثان دليل على عظم شهادة
الزور.

عن أيمن بن خريم رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ قام خطيباً فقال: «يا أيها الناس،
عدلت شهادة الزور إشراكاً بالله» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ
الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾» (١).

وعن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «تُعَدُّ شهادة الزور بالشرك، وقرأ
هذه الآية...» (٢).

وعن أبي بكر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟
قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «الإشراك بالله وعقوق الوالدين - وكان متكئاً فجلس، فقال:
ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور. فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت» (٣).
ولهذا ذكر الله - عز وجل - أن من صفات عباد الرحمن عدم شهادة الزور. قال
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٣﴾﴾ [الفرقان: ٧٢].

قوله تعالى: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَتْهُ
الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٣١﴾﴾.

(١) أخرجه الترمذي في الشهادات (٢٢٩٩)، وأحمد (١٧٨/٤، ٢٣٣، ٣٢٢)، وقال الترمذي: «حديث
غريب».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (٥٣٦/١٦).

(٣) أخرجه البخاري - في الشهادات (٢٦٥٤)، ومسلم في الإيثار - بيان الكبائر وأكبرها (٨٧)، والترمذي
في البر والصلة (١٩٠١).

قوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ﴾ حال، أي: فاجتنبوا الشرك وقول الزور حال كونكم حنفاء لله، أي: مخلصين له العبادة.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ قال: «حجاجاً لله غير مشركين به، وذلك أن الجاهلية كانوا يحجون مشركين، فلما أظهر الله الإسلام قال الله للمسلمين: «حجوا الآن غير مشركين بالله»^(١).

وعن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - قال: «كان الناس يحجون وهم مشركون، فكانوا يسمونهم: حنفاء الحجاج، فنزلت: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ يقول: حجاجاً غير مشركين به»^(١).

و﴿حُنَفَاءَ﴾: جمع حنيف، وهو المائل عن الشرك إلى التوحيد، وعن الباطل إلى الحق، ولهذا بيّنه بقوله: ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ أي: حال كونكم غير مشركين به، أي: غير مشركين معه غيره، كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَوْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]، وكما قال إبراهيم - عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنعام: ٧٩].

والمعنى: مائلين إلى توحيد الله - عز وجل - مستقيمين عليه غير مشركين به شيئاً.

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ

سَجِيٍّ﴾.

بعدما أمر باجتنب الشرك والميل عنه إلى توحيد الله ضرب مثلاً في فظاعة حال المشرك وشدة هلاكه وضلاله وبعده عن ربه، وعن الحق والهدى، كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانًا لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أَتَيْنَا قُلُوبًا هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [الآية: ٧١].

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٤٩١).

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ الواو عاطفة، و«من» شرطية، ﴿يُشْرِكْ﴾ فعل الشرط، ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة، أي: فكأنها سقطت من السماء.

﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بفتح الخاء وتشديد الطاء: «فَتَخَطَّفَهُ».

وقرأ الباقر بإسكان الخاء وتخفيف الطاء: «فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ».

أي: فتخطفه الطير في الهواء، وتأخذه بسرعة، وتمزقه قطعاً في حواصلها.

﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ﴾ قرأ أبو جعفر: «الرياح»، وقرأ الباقر: «الرَّيْحُ».

أي: أو تعصف به الريح وتلقيه وترمي به.

﴿فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ﴾ أي: في مكان بعيد كل البعد، مهلك لمن هوى وسقط فيه.

والمعنى: أن من أشرك بالله فقد أهلك نفسه غاية الإهلاك، حيث استبدل بالتوحيد وأعلى عليين الشرك وأسفل سافلين، وفي هذا أعظم التخويف، وأبلغ التنفير عن الشرك، فشتان بين من وحد الله - عز وجل - فهو يترقى في مصاعد السموات إلى أعلى عليين، وبين من أشرك بالله فهبط بنفسه إلى أسفل سافلين، وشتان بين من عبد الله وحده واتبع سبيله، وبين من تفرقت به السبل واحتوشته الشياطين من كل جانب فصار بينهم شذر مذر، كما قال تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (٣٢).

قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الذي أمرتكم به من تعظيم حرمات الله واجتناب الشرك وقول الزور وغير ذلك، وتعظيم شعائر الله بفعل المأمورات وترك المحظورات، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له.

﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبِيرَ اللَّهِ﴾ الواو: عاطفة، و«من»: شرطية، ﴿يُعْظِمِ﴾ فعل الشرط،

وجوابه جملة ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾، والفاء رابطة لجواب الشرط؛ لأنه جملة اسمية.

و﴿شَعْبِيرَ﴾ جمع شعيرة، وهي: المعالم الظاهرة للدين مما أمر الله بتعظيمه وإجلاله

واحترامه من الهدى والأضحية، من البدن وغيرها، ومن الصفا والمروة، وغير ذلك من

مشاعر الحج ومناسكه مما أمر الله به، فكل ذلك من شعائر الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَصْفَاءَ وَالْمُرُوءَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ومنه سمي إشعار البدن، أي: إعلامها؛ ليعلم أنها هدي، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوْا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشُّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ [المائدة: ٢].

وتعظيم شعائر الله عموماً بإجلالها واحترامها ومحبتها والقيام بها كما شرعها الله - عز وجل - وكما أمر.

وخص بعض أهل العلم ﴿شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ هنا بالهدي، ولا شك أنه من أعظم الشعائر، ومن أول ما يدخل في عموم الآية؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

وتعظيم الهدي والأضاحي باستحسانها واستسائها وتما صفتها وأوصافها، وعدم التعرض لها أو تحميلها ما يضر بها، أو التقصير في طعامها وشرابها، وبذل الثمن الغالي فيها، وعدم المماكسة في شرائها، وأن يتولى نحرها أو ذبحها بنفسه، أو يحضرها، ونحو ذلك.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «تعظيمها: استحسانها واستسائها»^(١).
وعن أبي أمامة بن سهل بن حنيف - رضي الله عنه - قال: «كنا نسمن الأضحية بالمدينة، وكان المسلمون يسمنون»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكيشين أملحين أقرنين»^(٣).
وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبش أقرن

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري معلقاً في الأضاحي - أضحية النبي ﷺ بكيشين أقرنين ويذكر سمينين - قال: «وقال يحيى بن سعيد: سمعت أبا أمامة بن سهل - وذكره». انظر: «فتح الباري» (١٠/٩).

(٣) أخرجه البخاري في الحج - باب التحميد والتسييح والتكبير (١٧١٢)، ومسلم في الأضاحي - استحباب التضحية (١٩٦٦)، وأبوداود في الأضاحي (٢٧٩٣)، والنسائي في الضحايا (٤٣٨٧)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٢٠).

فحيل يأكل في سواد، وينظر في سواد، ويمشي في سواد^(١)»^(٢).
وعن أبي رافع رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ ضحى بكبشين عظيمين سمينين
أقرنين أملحين موجوئين خصيين»^(٣).
وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «دم عفراء»^(٤) أحب إلي
من دم سوداوين»^(٥).

﴿فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ الضمير ﴿فَإِنَّهَا﴾ يعود إلى ﴿شَعْرَ اللَّهِ﴾ وتعظيمها،
أي: فإن تعظيم شعائر الله ﴿مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ أي: برهان ودليل على تقوى القلوب لله-
عز وجل، وإجلالها له، وخشيتها منه- عز وجل، التي تحمل على فعل أو امره وترك نواهيه.
وخص القلوب بالتقوى؛ لأنها موضع التقوى والصلاح كما قال ﷺ: «التقوى
ههنا- ويشير إلى صدره»^(٦).

وقال ﷺ: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت
فسد الجسد كله ألا وهي القلب»^(٧).

وفي إضافة الشعائر إليه- عز وجل، والإخبار بأن تعظيمها من تقوى القلوب
حث وترغيب في تعظيم شعائر الله واحترامها، والقيام بها كما شرعها الله- عز وجل.

(١) أقرن: ذي قرنين، فحيل: كامل الحلقة، لم تقطع أثنياء، يأكل في سواد: أي في بطنه سواد، ويمشي في
سواد، في رجليه سواد، وينظر في سواد: أي: مكحول في عينيه سواد.

(٢) أخرجه أبو داود في الأضاحي- ما يستحب من الضحايا (٢٧٩٦)، والنسائي في الضحايا (٤٣٩٠)،
والترمذي في الأضاحي- ما يستحب من الأضاحي (١٤٩٦)، وابن ماجه في الأضاحي- ما يستحب
في الأضاحي (٣١٢٨).

(٣) أخرجه أحمد (٨/٦، ٣٩١)- ومعنى «موجوئين» أي: خصيين، أي: قد قطعت خصيتيها أو رضتا.

(٤) العفراء: البيضاء بياضاً ليس بناصع، فالبيضاء أفضل من غيرها؛ لأن دمه أحب إليه ﷺ من دم
سوداوين.

(٥) أخرجه أحمد (٤١٧/٢).

(٦) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٦٤)- من حديث أبي هريرة- رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وأبو داود في البيوع (٣٣٢٩)، والنسائي
في البيوع (٤٤٥٣)، والترمذي في البيوع (١٢٠٥)- من حديث النعمان بن بشير- رضي الله عنه.

وعن علي - رضي الله عنه - قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، وأن لا نضحى بمقابلة، ولا مدابرة، ولا شرقاء، ولا خرقاء».

وفي رواية عن علي - رضي الله عنه - قال: «المقابلة: ما قطع طرف أذنها، والمدابرة: ما قطع من جانب الأذن، والشرقاء: المشقوقة، والخرقاء: المثقوبة»^(١).

وعنه - رضي الله عنه - قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يضحى بأعضب القرن والأذن»^(٢) (٣).

وعن البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع لا تجوز في الأضاحي: العوراء البين عورها، والمريضة البين مرضها، والعرجاء البين ضلعها، والعجفاء^(٤) التي لا تنقي»^(٥).

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾^(٦).

قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: لكم في الهدى من البدن وغيرها منافع دنيوية من ركوبها وشرب لبنها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها، وهذه المنافع الدنيوية عون على المنافع الدينية والأخروية.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت محدد، وهو وقت نحرها وذبحها، وهو يوم النحر وأيام التشريق، الأيام المعدودات.

والمعنى: أنهم ينتفعون بالهدى من البدن وغيرها عند الحاجة قبل نحرها وذبحها في هذه الأيام.

(١) أخرجه أبو داود في الأضاحي - ما يكره من الضحايا (٢٨٠٤)، والنسائي في الضحايا (٧٢، ٤٣)، والترمذي في الأضاحي - ما يكره من الأضاحي (١٤٩٨)، وابن ماجه في الأضاحي - ما يكره من الأضاحي (٣١٤٢)، وأحمد (١/٨٠، ١٠٨). وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أعضب القرن: مكسور القرن، وأعضب الأذن: مقطوع الأذن.

(٣) أخرجه أبو داود في الأضاحي (٢٨٠٥)، والنسائي في الضحايا (٤٣٧٧)، والترمذي في الأضاحي (١٥٠٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٤٥)، وأحمد (١/٨٣، ١٠٩)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أي: الهزيلة.

(٥) سبق تخريجه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً كان يسوق بدنة، قال: «اركبها» قال: إنها بدنة. قال: «اركبها ويحك» في الثانية أو الثالثة»^(١).

وعن أبي الزبير قال: سمعت جابر بن عبد الله سئل عن ركوب الهدي فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: «اركبها بالمعروف إذا أُلجئت إليها حتى تجد ظهراً»^(٢).

وذهب طائفة من السلف منهم ابن عباس - رضي الله عنهما، وجمع من التابعين إلى أن معنى قوله: ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ما لم تُسم وتُعيّن بدناً أو هدياً، فإذا عينت فلا يجوز الانتفاع منها بشيء، لا لبنها ولا صوفها وشعرها وأوبارها ولا تركب. والأظهر القول الأول، وهو جواز الانتفاع منها عند الحاجة، شريطة ألا يُضَرَّ ذلك بها.

﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا﴾ أي: ثم محل الهدي من البدن وغيرها وانتهاءها ﴿إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي إلى الكعبة والحرم. والمحل مكان الحلول، أي: ثم محل الهدي، والبدن، أي: المكان الذي تنحر وتذبح فيه الحرم، كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥]، أي: أن يبلغ الحرم.

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «نحرت ههنا ومنى كلها منحر، فانحروا في رحالكم»^(٣).

وأيضاً: محل النسك والشعائر كلها الطواف بالبيت يوم النحر، وكان ابن عباس - رضي الله عنهما - يقول: «من طاف بالبيت فقد حل، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ

(١) أخرجه البخاري في الحج - ركوب البدن (١٦٨٩)، ومسلم في الحج - ركوب البدنة المهداة لمن احتاج إليها (١٣٢٢)، وأبوداود في المناسك (١٦٧٠)، والنسائي في مناسك الحج (٢٧٩٩)، وابن ماجه في المناسك (٣١٠٣).

(٢) أخرجه مسلم في الحج - ركوب البدن (١٣٢٤)، وأبوداود في المناسك (١٧٦١)، والنسائي في مناسك الحج (٢٨٠٢).

(٣) أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨).

الْعَتِيقِ ﴿١﴾.

كما أن مناسك الحج وشعائره؛ من الوقوف بعرفة والمبيت بمنى ومزدلفة ورمي الجمار والطواف والسعي كلها تنتهي بانتهاء وقتها وبالطواف بالبيت العتيق.

الفوائد والأحكام:

١- الحث على تعظيم حرمت الله من مناسك الحج وغيرها، والقيام بما أوجبه الله والبعد عما حرّمه من محظورات الحج وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

٢- عظم ما أعده الله - عز وجل - لمن يعظم حرماته من الخير الكثير من عنده - عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

٣- إثبات الربوبية الخاصة لله - عز وجل - التي يربي بها أوليائه ويسددهم ويوفقهم ويشيهم؛ لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

٤- امتنان الله - عز وجل - على العباد بتحليل جميع الأنعام، إلا ما دل الدليل على تحريمه، فالحلال منها بفضل الله غير محصور، والمحرم منها محدود محصور معدود؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَعَامُ إِلَّا مَا يَتَلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾.

٥- أن مما حرم الله - عز وجل - ما ذكر في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّبَةُ وَالنَّطِیْحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣].

كما حرم ﷺ كل ذي ناب من السباع، وكل ذي مخلب من الطير، والفواسق ونحو ذلك، مما تلي تحريمه في الكتاب والسنة.

٦- وجوب اجتناب الرجس والشرك وعبادة الأوثان؛ لقوله تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾.

٧- وجوب اجتناب قول الزور وشهادة الزور، وأن ارتكاب ذلك من أكبر الكبائر حيث قرن بالشرك؛ لقوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٩٦) - من حديث عطاء عن ابن عباس - رضي الله عنهما.

٨- وجوب توحيد الله - عز وجل - وإخلاص العبادة له بلا شريك؛ لقوله تعالى: ﴿حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾.

٩- عظم خطر الشرك وسوء عاقبة ومآل صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.

١٠- بلوغ القرآن الغاية في التنفير عما يريد التنفير منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فمثل المشرك بالله بأبشع صورة وأقبح مثال.

١١- مشروعية إشعار البدن والهدي ليعلم أنها هدي.

١٢- الترغيب في تعظيم شعائر الله وأعلام دينه، من مناسك الحج وغيرها، بالقيام بها وإتمامها، وتعظيم البدن والهدي باستحسانها واستسماها، وعدم التعرض لها ومنعها أو إلحاق الضرر بها، ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.

١٣- أن تعظيم شعائر الله من أعظم الدلائل على تعظيم القلوب لله - عز وجل - وتقواه.

١٤- أن مدار صلاح الأعمال وفسادها على القلوب.

١٥- جواز الانتفاع بالبدن والهدي بركوبها وشرب لبنها ونحو ذلك عند الحاجة من غير إضرار بها إلى وقت نحرها وذبحها؛ لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

١٦- أن محل ذبح البدن والهدي هو الحرم كله؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

١٧- أن مناسك الحج وأعماله ومشاعره فيها المنافع والأجور أيام الحج، فإذا انتهت أيامه انتهت تلك المنافع فالوقوف بعرفة والمبيت بالمزدلفة ومنى ورمي الجمار كل هذا ينتهي بانتهاء أيام الحج وأعماله التي تنتهي بالطواف بالبيت العتيق للإفاضة ثم الوداع؛ لقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْكُرًا وَإِن كَانُوا لَشَاكِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَبَشِّرِ الْمُخْسِتِينَ ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَحَمَلِي رِزْقَهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة أنه شرع الحج والمناسك والشعائر ونحر البدن وذبح الهدي لهذه الأمة، ثم ذكر أنه - عز وجل - جعل لكل أمة منسكًا، فشرع لكل أمة التبعد لله - عز وجل - والتنسك له بذبح الهدي والقرابين، وإراقة الدماء باسمه - عز وجل -.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَشْكُرًا وَإِن كَانُوا لَشَاكِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَبَشِّرِ الْمُخْسِتِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ أي: ولكل أمة من الأمم، والأمة: الجماعة، والمراد لكل أتباع دين من الأديان السماوية.

﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾، قرأ حمزة والكسائي وخلف: «منسكًا» هنا وفي الموضع الذي بعده بكسر السين على معنى الاسم كالمسجد والمطلع، أي: ولكل أمة جعلنا وشرعنا موضعًا للنسك والعبادة، ومكانًا لذبح الهدي، وهو الحرم.

وقرأ الباقون بفتح السين على المصدر: ﴿مَنْسَكًا﴾، أي: نسكًا يتعبدون به من الحج والعمرة وغير ذلك، ونسكًا يتقربون بذبحه إلى الله - عز وجل - من الهدي والأضحية.

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يذكروا اسم الله على الذي أعطاهم من بهيمة الأنعام؛ الإبل والبقر والغنم عند نحرها وذبحها، فيقولوا: «بسم الله والله أكبر»؛ كما في حديث أنس رضي الله عنه قال: «أتى رسول الله ﷺ بكبشين أملحين أقرنين، فسَمَّى وكَبَّرَ، ووضع رجله على صفاحهما»^(١).

وعن زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: قلت: أو قالوا: يا رسول الله، ما هذه

(١) أخرجه البخاري في الأضاحي - من ذبح الأضاحي بيده (٥٥٦٥)، ومسلم في الأضاحي - استحباب الضحية وذبحها مباشرة (١٩٦٦)، وأبو داود في الأضاحي (٢٧٩٤)، والنسائي في الضحايا (٤٣٨٧)، والترمذي في الأضاحي (١٤٩٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣٢١٠).

الأضاحي؟ قال: «سنة أبيكم إبراهيم» قالوا: وما لنا منها؟ قال: «بكل شعرة حسنة» قالوا: فالصوف؟ قال: «بكل شعرة من الصوف حسنة»^(١).

وعن جابر - رضي الله عنه - قال: «ذبح النبي ﷺ يوم النحر كبشين أقرنين أملحين موجوعين، فلما وجهها قال: «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً مسلماً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك وعن محمد وأمته، ثم سمي الله، وكبرّ وذبح»^(٢).

وفي رواية عنه: «أن رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بكبش فذبحه هو بنفسه، وقال: «بسم الله والله أكبر، هذا عني وعمن لم يضح من أمتي»^(٣).

﴿فَالنَّهْكَمُ لِلَّهِ وَحْدَهُ﴾ أي: فمعبودكم معبود واحد أنتم وجميع الأمم، وإن اختلفت الشرائع ونسخ بعضها بعضاً، فالأنبياء كلهم يدعون إلى عبادة الله - عز وجل - لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء أولاد علات، أو إخوة من علات أمهاتهم شتى ودينهم واحد»^(٤).

﴿فَلَهُ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، و«له» متعلق بـ﴿أَسْلِمُوا﴾ قدم عليه لإفادة الحصر، أي: فله وحده دون غيره. ﴿أَسْلِمُوا﴾ أي: استسلموا بالتوحيد

(١) أخرجه أحمد (٣٦٨/٤)، وابن ماجه - في الأضاحي - ثواب الأضحية (٣١٢٧).

(٢) أخرجه أبو داود في الأضاحي (٢٧٩٥)، وابن ماجه في الأضاحي - أضاحي رسول الله ﷺ (٣١٢١)، والدارمي في الأضاحي (١٩٤٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٩٣/٨).

(٣) أخرجه أبو داود في الأضاحي (٢٨١٠)، والترمذي في الأضاحي (١٥٢١)، وأحمد (٣/٣٥٦، ٣٦٢)، وقال الترمذي: «حديث غريب»..

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٤٤٢)، ومسلم في الفضائل (٢٣٦٥)، وأبو داود في السنة (٣٦٧٥).

والإخلاص والانقياد والطاعة.

فإله جميع الخلق إله واحد وهو الله - عز وجل، ودينهم واحد وهو الإسلام.

﴿وَيَشِرُّ الْمُخْبِتِينَ﴾ التبشير والبشارة: الإخبار بما يسر القلوب ويبهج النفوس مأخوذ من البشرة؛ لأن الخبر السار إذا ورد على القلب سر وفرح وظهرت آثار ذلك على الوجه والبشرة فيستنير الوجه وتنبسط البشرة.

عن كعب بن مالك - رضي الله عنه - قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه»^(١).

والإخبات: سكون الجوارح على وجه الخشوع والخضوع والتواضع لله - عز وجل، والخبُّب في الأصل: المكان المنخفض المطمئن من الأرض.

﴿الْمُخْبِتِينَ﴾: الخاشعين لله - عز وجل - الخاضعين المتواضعين له، المطمئنين المخلصين لله، الوجلين عند ذكره، كما وصفهم الله - عز وجل - بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٢٥) فهذا تفسير لما قبله، ولم يذكر المبشِّر به وأطلقه لتعظيمه وتعميمه، وليذهب فيه الفكر كل مذهب.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٢٥).

قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ﴾ عندهم، أو ذكروه بأنفسهم ﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الوجل: الخوف الشديد المقرون بهيبة ومحبة، أي: خافت قلوبهم هيبة منه وتعظيمًا ومحبة له وإجلالًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٢٦) [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٦)، ومسلم في التوبة (٢٧٦٩)، وأبوداود في الطلاق (٢٢٠٢)، والنسائي في الأيمان والنذور (٣٨٢٤)، والترمذي في التفسير (٣١٠٢).

﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ الصَّابِرِينَ: جمع صابر، والصبر لغة: الحبس والمنع، وشرعاً: حبس النفس عن الجزع واللسان عن التشكي والجوارح عما حرم الله. وهو أنواع الثلاثة: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة. والمعنى: والصابرين على الذي يصيبهم في ذات الله عند القيام بأمره، والصبر عن نبيه، وعلى ما يصيبهم من المصائب في أنفسهم وأهلهم وأموالهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

والصبر من أعظم صفات المؤمنين وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وقد قال ﷺ: «وما أعطي أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر»^(١).

﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ قرأ أبو عمرو في رواية: «وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ» بنصب الصلاة، وعليه يكون حذف النون من «وَالْمُقِيمِي» للتخفيف.

وقرأ بقية القراء بجر ﴿الصَّلَاةِ﴾ على الإضافة، وعليه يكون حذف النون من «وَالْمُقِيمِي» بسبب الإضافة.

أي: والذين يقيمون الصلاة إقامة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها، ولهذا جاء التعبير بالإقامة هنا، وفي أكثر المواضع في القرآن الكريم والسنة النبوية دون أن يقول: «يصلون» تنبيهاً على أن المهم، أن تكون الصلاة تامة كاملة مستقيمة. وهي هنا تشمل الفرائض وغيرها من النوافل.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ «من»: تبعيضية، و«ما» موصولة أو مصدرية. أي: ومن بعض الذي رزقناهم، أو من بعض رزقنا ينفقون. فالمطلوب إنفاق البعض مما رزقناهم.

ويحتمل أن تكون «من» بيانية، أي: ومن الذي رزقناهم، أو من رزقنا ينفقون، بعضه

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٩)، ومسلم في الزكاة (١٠٥٣)، وأبو داود في الزكاة (١٦٤٤)، والنسائي في الزكاة (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٤) - من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه. وانظر في تفصيل الكلام على الصبر وبيان فضله: الكلام في تفسير قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ [الآية: ٣٥].

أو كله، وعلى هذا فيجوز أن ينفق الإنسان جميع ماله - كما فعل أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - حسب قوة إيمانه واعتياده على الله وثقته بها عند الله - ما لم يحتج لغيره فلا يجوز.

وقوله: ﴿رَزَقْنَهُمْ﴾، أي: أعطيناهم من الأموال وغير ذلك، وفيه إشارة إلى أن المال مال الله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

﴿يُنْفِقُونَ﴾ أي: يخرجون المال ويصرفونه في مصارفه الشرعية من النفقات الواجبة من الزكاة، والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، ومن النفقات المستحبة والصدقات في وجوه البر والخير، شكرًا لله - عز وجل - واعترافًا وإقرارًا بفضلته، فجمعوا بين الخوف من الله وإقامة الصلاة، وهذا إحسان في عبادة الله - عز وجل، وبين الإنفاق مما رزقهم الله من الأموال، على أولادهم وأهلبيهم، وعلى الفقراء والمساكين، وفي وجوه البر والخير، وهذا إحسان إلى عباد الله، فجمعوا بين الإحسانين وهذا غاية الإحسان، والله يحب المحسنين.

الفوائد والأحكام:

١- امتنان الله - عز وجل، وفضله على العباد بجعله لكل أمة منسكًا يتقربون إلى الله - عز وجل - بنحره وذبحه وذكر اسمه - عز وجل - عليه، وجعله لهم نسكًا وعبادات يتعبدون لله - عز وجل - بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقْنَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

٢- وجوب ذكر اسم الله - عز وجل - عند الذبح والنحر؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقْنَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾.

٣- أن الأضحية والهدي لا تجزئ إلا من بهيمة الأنعام، الأزواج الثمانية: الإبل والبقر والضأن والمعز.

٤- أن إله الخلق ومعبودهم واحد، وهو الله - عز وجل، لا معبود لهم غيره ولا رب لهم سواه؛ لقوله تعالى: ﴿فَالذِّكْرُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾.

٥- وجوب الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَهُ اسْلِمُوا﴾.

٦- البشارة للمخبتين الخائفين الوجلين عند ذكر الله، الخاضعين له، المتذللين لعظمته؛

لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾.

٧- في إطلاق بشارة المخبتين إشارة لعظمة ما أعد لهم، أي: وبشر المخبتين بما لا يعلم كنهه وكيفه وكمه من ألوان النعيم، وفي هذا ما فيه من الترغيب في الخشوع والخضوع لله - عز وجل.

٨- مدح المخبتين الخاشعين بذكر صفاتهم العظيمة، وهي وجل قلوبهم عند ذكر الله، والصبر على ما أصابهم، وإقام الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُصِيبِ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣٥).

٩- الترغيب والحث على الخوف من الله - عز وجل، وذكره، والصبر على أقداره، وإقام الصلاة والإنفاق من رزق الله، والتنبيه على فضل هذه الأعمال.

١٠- أن الرزق كله من الله - عز وجل، من بهيمة الأنعام وغيرها من الأموال، وغير ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَآؤِهَا وَلَكِنْ يَبَالُهُ النَّفْسُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكْبِرُوا لِلَّهِ عَلَى مَا هَدَىٰكُمْ وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

حض عز وجل في الآيات السابقة على تعظيم الشعائر والنسك، وذكر اسم الله - عز وجل - عليها، وامتن على العباد بأنه جعل لكل أمة منسكاً ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، ثم أتبع ذلك بالتنويه بشأن البدن وتعظيمها، من بين الشعائر، ومن بين بهيمة الأنعام هدياً كانت أو أضحية.

قوله تعالى: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَأَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافً فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعْتِيرِ اللَّهِ﴾ البدن: جمع بدنة، وهي الإبل، ذكراً كانت أو أنثى، وسميت بدناً لبدانتها وضخامتها وكبرها، وقد اشتهر إطلاقها في الشرع على ما يهدى منها للحرم.

فالبदन في الأصل هي الإبل خاصة، وهي المرادة في الآية بدليل قوله: ﴿فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا﴾ أي: سقطت وهذا وصف خاص بالإبل فإنها تنحر قائمة.

ولكن اسم البدن صار يطلق على البقر عند بعض أهل العلم؛ لأن الشرع جعلها سواء في الإجزاء كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ مهلين بالحج فأمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك في الإبل والبقر كل سبعة منا في بدنة»^(١). وفي رواية: «كنا ننحر البدنة عن سبعة. فقيل: والبقرة؟ قال: وهل هي إلا من البدن»^(٢).

(١) أخرجه مسلم في الحج - الاشتراك في الهدى (١٣١٨)، وأبوداود في الأضاحي (٢٨٠٧)، والنسائي في

الضحايا (٤٣٩٣)، والترمذي في الحج (٩٠٤)، وابن ماجه في الأضاحي (٣١٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في الموضوع السابق.

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: «لا نعلم البدن إلا من الإبل والبقر». ومن أهل العلم من قال: لا تطلق البدنة على البقرة لما ورد في بعض روايات حديث جابر المتقدم: «نحرننا مع رسول الله ﷺ البدنة عن سبعة، والبقرة عن سبعة». قالوا: فالعطف يقتضي المغايرة بين البدنة والبقرة.

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن»^(١).

قالوا: فتفريقه ﷺ بين البقرة والبدنة يدل على أن البقرة لا يقال لها بدنة، وقسم الشيء لا يكون قسيمه ومقابلاً له. قالوا: وعلى هذا لو أن رجلاً نذر أن ينحر بدنة لم تجزئه البقرة.

وخص البدن بالذكر - وهي الإبل - دون غيرها من بين بهيمة الأنعام مع أنها كلها مما يشرع في الهدى؛ لبيان أن البدن أفضل الهدى؛ لعظمتها وشرفها ومكانتها عند الناس، ولكبرها وكثرة لحمها، ولما لها من صفات عظيمة اختصها الله بها من بين سائر البهائم، ولهذا وجه الله - عز وجل - الأنظار للتأمل في عظيم خلقها، والاستدلال بذلك على ربوبيته وعظيم قدرته، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]، وقرن عز وجل خلقها بخلق السماء والجبال والأرض.

وذكر عز وجل أن من علامات القيامة وأهوالها الشديدة إهمال الإبل العشار، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: ٤]، أي: أهملت وتركت بلا راع وسيبت من شدة هول ذلك اليوم مع أنها من أنفس الأموال عند العرب. هذه خلقتها العظيمة وهذه مكانتها وقيمتها الرفيعة من حيث الأصل، فكيف إذا عُينت هدياً للبيت الحرام أو أضحية، فلا تسأل عن عظيم فضلها وشرفها وبركتها وكثرة خيرها، وجزيل ثوابها؛ لأن الله نوه بها وامتنَّ على عباده بجعلها من شعائره عز وجل.

(١) أخرجه البخاري في الجمعة - فضل الجمعة (٨٨١)، ومسلم في الجمعة - الطيب والسواك يوم الجمعة (٨٥٠)، وأبوداود في الطهارة (٣٥١)، والنسائي في الإمامة (٨٦٤)، والترمذي في الجمعة (٤٩٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٩٢).

﴿جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾.

﴿شَعَائِرٍ﴾ جمع شعيرة، وهي العلامة، أي: جعلناها لكم جعلاً شرعياً من أعلام دين الله وشريعته التي شرعها لعباده، ومن مناسك حج بيته الحرام. ولهذا يسن إشعارها بطعنها في صفحة سنامها بحديدة ونحو ذلك؛ ليعلم أنها هدي، فلا يتعرض لها بأذى تعظيماً لها.

والمعنى: والبدن جعلناها شرعاً لكم من شعائر الله التي يتقرب بها إلى الله - عز وجل، وتهدى إلى بيته الحرام، وهي أفضل الهدى، ويجب احترامها وتعظيمها، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلْجَأُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ﴾ [المائدة: ٢].

﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْجَاهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]، أي: لكم فيها خير كثير ومنافع عظيمة، في دينكم ودنياكم وأخراكم، ففيها خير في الدين من حيث إنها شعائر ونسك يتقرب إلى الله - عز وجل - بنحرها وإهراق دمه.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أنفقت الورق في شيء أفضل من نحيرة في يوم عيد»^(١).

وفيهما خير كثير ومنافع في الدنيا؛ من ركوبها وشرب ألبانها، والانتفاع بأوبارها وأشعارها من غير إضرار بها، وأكل لحومها والتصدق بها والإهداء منها، والإفادة من جلودها.

وفيهما خير كثير وثواب عظيم في الآخرة، فهي من أعظم الشعائر والقربات. عن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها، وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان، قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً»^(٢).

(١) أخرجه الدارقطني في الأشربة وغيرها - الصيد والذبائح والأطعمة ونحو ذلك (٢٨٢/٤) حديث (٤٣).
(٢) أخرجه الترمذي في الأضاحي - ما جاء في فضل الأضحية (١٤٩٣)، وابن ماجه في الأضاحي - ثواب الأضحية (٣١٢٦). وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾ أي: فاذكروا اسم الله على هذه البدن عند نحرها بقولكم: «باسم الله»، والأمر للوجوب.

﴿صَوَافٍ﴾ حال، وهي: جمع صافة، والمعنى: حال كون البدن قائمة على ثلاث قوائم معقولة اليد اليسرى.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله: ﴿صَوَافٍ﴾ قال: «قائمة على ثلاث قوائم معقولة إحدى يديها»^(١).

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما: «أنه أتى رجل قد أناخ بدنة وهو ينحرها، فقال: ابعثها قيامًا مقيدة سنة أبي القاسم ﷺ»^(٢).

وعن جابر - رضي الله عنه - «أن رسول الله ﷺ وأصحابه كانوا ينحرون البدن معقولة اليسرى - قائمة على ما بقي من قوائمها»^(٣).

وتذبح البقر والغنم على جنبها الأيسر موجهة إلى القبلة، ويضع رجله على صفحة رقبته ليكون أثبت له وأمكن؛ لئلا تضطرب فلا يتمكن من إتمام ذبحها فتأذى بذلك وتؤذيه.

ويستحب أن يكبر بعد التسمية ويدعو بها ورد، فيقول: بسم الله، والله أكبر، اللهم هذا منك ولك، اللهم تقبل مني ونحو ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ وَذَرَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: «صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال: «بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عني وعمن لم يضح من أمتي».

وعنه - رضي الله عنه - قال: «ضحى رسول الله ﷺ بكبشين في يوم عيد، فقال

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/٥٥٦)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٤٩٤).

(٢) أخرجه البخاري في الحج - نحر الإبل مقيدة (١٧١٣)، ومسلم في الحج - نحر البدن مقيدة (١٣٢٠)، وأبوداود في المناسك (١٧٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود في المناسك - كيف تنحر البدن (١٧٦٧).

حين وجهها: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين، اللهم منك ولك، وعن محمد وأمة ثم سمي الله وكبّر، وذبح»^(١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله ﷺ: «أمر بكبش أقرن، يطاء في سواد، ويبرك في سواد، وينظر في سواد، فأتى به ليضحى به، فقال لها: يا عائشة هلمي المدينة، ثم قال: اشحذها بحجر، ففعلت، ثم أخذها وأخذ الكبش فأضجعه، ثم ذبحه، ثم قال: باسم الله، اللهم تقبل من محمد وآل محمد ومن أمة محمد، ثم ضحى به»^(٢).

كما يستحب أن يتولى الإنسان بنفسه نحر وذبح ما يتقرب به إلى الله - عز وجل - من أضحية أو هدي، كما كان ﷺ ينحر أضحيته بنفسه^(٣)، ونحر ثلاثاً وستين بدنة من هديه ﷺ بيده الشريفة^(٤). فإن لم يتمكن من ذلك فيستحب له حضور نحرها أو ذبحها.

وعن أبي رافع رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ كان إذا ضحى اشترى كبشين سميين أقرنين أملحين، فإذا صلى وخطب الناس أتى بأحدهما وهو قائم في مصلاه فذبحه بنفسه بالمدينة، ثم يقول: «اللهم إن هذا عن أمتي جميعاً، من شهد بالتوحيد، وشهد لي بالبلاغ» ثم يؤتى بالآخر فيذبحه بنفسه ويقول: «هذا عن محمد وآل محمد» فيطعمهما جميعاً المساكين، ويأكل هو وأهله منها»^(٥).

قوله: ﴿فَإِذَا وَجِئْتَ جَنَّوِبَهَا﴾ أي: سقطت جنوبها، والجنوب: جمع جنب، وهو الشق، أي: إذا ماتت بعد نحرها وذبحها وسكنت حركتها، عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: «ولا تُعْجَلُوا النفوس أن تزهد»^(٦).

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله كتب الإحسان

(١) سبق تخريجها.

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (١٩٦٧)، وأبو داود في الضحايا (٢٧٩٢).

(٣) كما سبق في حديث ابن عباس وجابر وعائشة - رضي الله عنهم.

(٤) سبق تخريجه من حديث جابر - رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد (٨/٦، ٣٩١).

(٦) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٥/٤٢٥).

على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليُحدِّ أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»^(١).

وعن أبي واقد الليثي - رضي الله عنه - قال: قدم النبي ﷺ المدينة وهم يَجْبُون أسنمة الإبل، ويقطعون إليات الغنم، فقال: «ما قطع من البهيمة وهي حية فهي ميتة»^(٢).

﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ كقوله: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨].

وفي ترتيب الأكل والإطعام على وجوب جنوبها، أي: سقوطها ترتيب الجزاء على الشرط إشارة إلى المبادرة بالأكل منها والإطعام، ولهذا كان من السنة أن يكون أول ما يأكله الإنسان يوم النحر من هديه وأضحيته.

والخطاب للمُهْدِي والمُضْحِي، والأمر في الموضوعين للاستحباب، أي: فإذا نحرنا فسقطت ميتة بعد النحر، فكلوا منها وأطعموا، وقيل: للوجوب، وقيل: للإباحة.

و﴿الْقَانِعَ﴾ الذي يقتنع بها أعطي، أو بما عنده، ويتعفف ولا يسأل، مأخوذ من القناعة، وهي الرضى بما قُسم له.

﴿وَالْمُعْتَرَّ﴾ الذي يتعرض للناس ويسألهم.

قال زهير^(٣):

على مكثريهم رزق من يعترهم وعند المقلين الساحة والبذل

وقال الآخر:

يعطي ذخائر ماله معتره قبل السؤال^(١)

(١) أخرجه مسلم في الصيد- الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة (١٩٥٥)، وأبوداود في الأضاحي (٢٨١٥)، والنسائي في الضحايا (٤٤٠٥)، والترمذي في الديات (١٤٠٩)، وابن ماجه في الذبائح (٣١٧٠).

(٢) أخرجه أبوداود في الصيد- باب في صيد قطع منه قطعة (٢٨٥٨)، والترمذي في الصيد- ما قطع من الحي فهو كميت (١٤٨٠)، وأحمد (٢١٨/٥)- وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وأخرجه ابن ماجه في الصيد- ما قطع من البهيمة وهي حية (٣٢١٦) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) انظر: «ديوانه» ص (١١٤).

وقيل: القانع الذي يسأل بتدلل، والمعتز: الذي يتعرض ولا يسأل. وقيل غير ذلك. وقد استحَب بعض أهل العلم - لهذه الآية - تجزئة الأضحية ثلاثة أجزاء، يُهدي ثلثًا، ويتصدق بثلث، ويأكل ثلثًا.

وعلى هذا يدل قوله ﷺ: «إني كنت نهيتكم عن ادخار لحوم الأضاحي فوق ثلاث، فكلوا وادخروا ما بدا لكم» وفي رواية: «فكلوا وادخروا وتصدقوا» وفي رواية: «فكلوا وأطعموا وادخروا»^(٢).

ولا يجوز بيع شيء منها ولا إعطاء الجزار أجرته منها، ولا بيع جلدها ووبرها وصوفها، بل يتنفع به أو يتصدق به أو يهديه.

﴿كَذَلِكَ سَخَرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: هكذا جعلناها مسخرة لكم مذلة منقادة، تركبونها وتشربون من ألبانها، وتنحرونها وتأكلون لحومها، وتتفتعون من أصوافها وأشعارها وأوبارها وجلودها وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾^(٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ^(٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾^(٧٣) [يس: ٧١-٧٣].

قال الزمخشري^(٣): «ولولا تسخير الله لم تُطَق، ولم تكن بأعجز من بعض الوحوش التي هي أصغر منها جرماً وأقل منها قوة، وكفى بما يتأبد من الإبل شاهداً وغيره».

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ تعليل لما قبله، أي: لأجل أن تشكروا الله - عز وجل، أو لكي تشكروا الله - عز وجل، اعتقاداً بقلوبكم، وإقراراً بألستكم، وعملاً بجوارحكم، على ما أنعم به عليكم من تسخير البدن وغير ذلك بالاستعانة بذلك على طاعة الله - عز وجل، والقيام بما أوجب الله، والبعد عن ما نهى الله عنه. وفي هذا تعريض بالمشركين الذين جعلوا الكفر مكان الشكر.

وكل نعمة تتجدد على العبد تحتاج إلى شكر، وتوفيق الله العبد للشكر هو أيضاً

(١) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي ٣/ ٢٩٧.

(٢) سبق تخريجها.

(٣) في «الكشاف» (٣/ ٣٤).

نعمة تحتاج إلى شكر، ولهذا يقر العبد ويعترف أنه لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره؛ كما قال ﷺ: «سبحانك لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»^(١).

وقد أحسن القائل:

إذا كان شكري نعمة الله نعمةً عليّ له في مثلها يجب الشكرُ
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضلله وإن طالت الأيام واتصل العمر^(٢)

قوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِشُكْرِ اللَّهِ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَيَشِرَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٣٧).

قوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ قرأ يعقوب بالتاء على التأنيث: «تنال»، «تنال». وقرأ الباقون بالياء على التذكير.

هذه الجملة فيها معنى التعليل والتأكيد للجملة قبلها، أي: سخرناها لكم لأجل أن تشكروا الله - عز وجل - بتقواه؛ لأنه لن يناله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم.

أي: ليس المقصود ذبحها فقط أو نحرها، وتقطيع لحمها، فلن ينال الله ولن يصل إليه لحم هذه البدن ولا دماؤها؛ لأنه - عز وجل - هو الغني عما سواه، كما قال - عز وجل: ﴿وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤]، وقال تعالى: ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(٥٨) [الذاريات: ٥٧، ٥٨].

وفي الآية إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية حيث كانوا ينضحون الكعبة بدماء البدن والهدي، ويلطخونها بدمائها ويضعون لحومها هنا وهناك حول الكعبة. ويذبحون على النصب، ولها، ويهدون إليها القرابين، ويضعون عليها لحومها وينضحونها بدمائها.

﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، أي: ولكن يناله التقوى منكم بامثال أو امره

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٦)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٩)، والنسائي في التطبيق (١١٠٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٩٣)، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٤١) - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٢) البيتان لمحمود الوراق. انظر: «الفاضل» (ص ٩٥).

واجتناب نواهيه، وإخلاص التعبد له بنحر وذبح الهدى والأضاحي، وذكر اسمه - عز وجل - عليها، والتقرب إليه - عز وجل - بذلك، وبالأكمل منها والتصدق والإهداء.

فشرع الله - عز وجل - هذه النسك لذكره - عز وجل - وتقواه؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ كما قال تعالى في مشروعية الصيام: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، وقال ﷺ: «إنما شرع الطواف والسعي ورمي الجمار لإقامة ذكر الله»^(١).

وفي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»^(٢).

﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كرر هذا امتناناً عليهم، وتذكيراً لهم بعظيم نعمة الله عليهم فيها، أي: هكذا سخر الله - عز وجل - البدن وذلها لكم، تنتفعون بها منافع كثيرة، وتتقربون إلى الله - عز وجل - بنحر ما شئتم منها هدياً وأضحية وذكر اسم الله - عز وجل - عليها.

﴿لِشُكْرِ وَاللَّهِ﴾، اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تكبروا الله وتعظموه ﴿عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُمْ﴾ وهذا من أعظم الشكر المذكور بقوله قبل هذا: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ومن أعظم التقوى المذكورة بقوله: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ ففي الآية تأكيد وبيان لما قبلها.

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿عَلَىٰ مَا هَدَيْتَكُمْ﴾ مصدرية، أي: على هدايته إياكم، هداية دلالة وإرشاد وبيان، وهداية توفيق.

وقد تكون ﴿مَا﴾ موصولة والعائد محذوف.

والمعنى: لأجل أن تكبروا الله وتعظموه بقولكم: «الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر والله الحمد»، ونحو ذلك. وبالتسمية والتكبير عند الذبح، وغير ذلك، شكراً لله

(١) أخرجه أبو داود في المناسك (١٨٨٨)، والترمذي في الحج (٩٠٢) - من حديث عائشة - رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في البر - تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره (٢٥٦٤)، وابن ماجه في الزهد - باب القناعة (٤١٤٣)، وأحمد (٢/٢٨٥، ٥٣٩).

تعالى على هدايته إياكم وتوفيقه لكم لهذا الدين القويم والشرع المستقيم، ولأداء النسك. ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ الخطاب والأمر للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له الخطاب، أي: بشر يا محمد المحسنين، وليشرهم بذلك كل مبشر ممن هو أهل لذلك. والبطارة: الإخبار بما يسر ويفرح القلب، ويبهج النفس، مأخوذة من البشارة؛ لأن الإنسان إذا ورد على قلبه الخبر السار استنار وجهه واتسعت بشرته، و«كان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهه كأنه قطعة قمر»^(١).

و﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ جمع محسن، والإحسان نوعان: إحسان في عبادة الله - عز وجل - بالإخلاص له - عز وجل، ومتابعة الرسول ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، أي: أخلص العمل لله وهو متبع رسوله ﷺ.

وقال ﷺ: «الإحسان أنك تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢). والقسم الثاني: الإحسان إلى عباد الله، بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، بوجوه الإحسان كلها؛ قولاً وفعلاً وبذلاً.

أي: بشر المحسنين في عبادة الله - عز وجل، إخلاصاً لله - عز وجل، ومتابعة لرسوله ﷺ، والمحسنين إلى عباد الله، بأداء حقوقهم والتصدق عليهم. ولم يذكر المبشر به، بل أطلقه؛ لتعظيمه وتعميمه ليذهب فيه الذهن كل مذهب، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٣، التوبة: ١١٢، الصف: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

أي: بشر المحسنين بشارة مطلقة، بشرهم بالسلامة من كل شر، والحصول على كل خير، بشرهم بخيري الدنيا والآخرة، بشرهم بالإحسان إليهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾^(٣) [الرحمن: ٦٠].

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الإبان (٥٠)، ومسلم في الإبان (٩)، والنسائي في الإبان وشرايعه (٤٩٩١)، وابن ماجه في المقدمة (٦٤) - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

بشرهم بالحسنى والزيادة، كما قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [يونس: ٢٦]، والحسنى: المثوبة الحسنة والجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله الكريم كما قال ﷺ (١).

بشرهم بالجنات وما فيها من ألوان النعيم، وبرحمة الله تعالى ورضوانه والأجر العظيم، كما قال تعالى: ﴿وَيَبِّرُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأْتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣٧﴾﴾ [التوبة: ٢١، ٢٢].

الفوائد والأحكام:

- ١- التنويه بشأن البدن والامتنان على العباد بخلقها، وجعلها شرعاً من شعائر الله، وما فيها من الخير للناس في دينهم ودنياهم، وأنها أعظم وأفضل ما يتقرب به إلى الله - عز وجل - من بهيمة الأنعام، هدياً أو أضحية؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾.
- ٢- استحباب إشعار البدن وإعلامها ليعرف أنها هدي؛ لأن الله سماها وجعلها من الشعائر.
- ٣- وجوب ذكر اسم الله عند نحر البدن؛ لقوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾.
- ٤- استحباب نحر البدن قائمة صافية على قوائمها معقولة يدها اليسرى؛ لقوله تعالى: ﴿صَوَافٍ﴾.
- ٥- لا يجوز سلخ البدن ولا غيرها من بهيمة الأنعام ولا تقطيعها ولا الأكل منها حتى تموت وتسكن حركتها تماماً؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجِئَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا﴾.
- ٦- استحباب الأكل من الهدي إن كان هدي تطوع، أو هدي تمتع وقران، ومن الأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾.

(١) سبق تخريجه.

- فإن كانت فدية ترك واجب، أو فعل محظور، أو فوات الحج، أو إفساده، أو إحصار فلا يجوز الأكل منها عند أكثر أهل العلم وهو الصحيح.
- وقيل يجوز الأكل منها ما عدا فدية الصيد والأذى.
- ٧- استحباب إطعام المحتاج من البدن والهدي سأل أو لم يسأل، وقيل بوجوب الإطعام؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾.
- ٨- أن من استعف عن السؤال مع حاجته ينبغي أن يطعم ولا ينسى، بل هو أولى بالإطعام ممن يسأل الناس؛ لهذا قُدم ﴿الْقَانِعَ﴾ على ﴿المُعْتَرَّ﴾.
- ٩- امتنان الله - عز وجل - على العباد - بتسخير البدن - هذه المخلوقات العظيمة، يسيرونها كيف شاءوا، ويركبونها، ويشربون ألبانها ويستفيدون من أصوافها وأوبارها وغير ذلك، وينحرونها ويتقربون بها إلى الله - عز وجل، ويأكلون لحمها وينتفعون بجلودها، وغير ذلك، وتأكيد ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾.
- ١٠- أن الحكمة من تسخير البدن للعباد؛ ليشكروا الله - عز وجل - على ذلك بالقيام بطاعته والبعد عن معاصيه، وذكر الله - عز وجل - وتكبيره وتعظيمه على هدايته لهم إلى دينه القويم وشرعه المستقيم، وحج بيته العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ﴾.
- ١١- أن الله - عز وجل - إنما شرع البدن وغيرها من الهدي والأضاحي لأجل التقرب إليه - عز وجل، وذكر اسمه، وتقواه إذ لا يناله - سبحانه - شيء من لحومها ولا دمائها؛ لأنه - عز وجل - الغني عما سواه؛ لقوله تعالى: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤها وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّفْوَىٰ مِنكُمْ﴾.
- ١٢- التأكيد على وجوب الإخلاص لله - عز وجل - في ذبح القرابين من الهدي والأضاحي؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ النَّفْوَىٰ مِنكُمْ﴾.
- ١٣- البشارة المطلقة للمحسنين الذين أحسنوا في عبادة الله - عز وجل - إخلاصاً لله - عز وجل، واتباعاً لرسوله ﷺ، وأحسنوا إلى عباده بأداء حقوقهم الواجبة

والمستحبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾.

١٤- استحباب الأضحية؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُم فِيهَا خَيْرٌ﴾ الآيتين.

ولما ثبت أنه ﷺ «ضحى بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمّى وكبّر ووضع رجله على صفاحهما»^(١).

وعن عائشة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق الدم، وإنه ليؤتى يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وإن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع على الأرض، فطيبوا بها نفساً»^(١).

وعن زيد بن أرقم قال: قلت- أو- قالوا: «يا رسول الله، ما هذه الأضاحي؟ قال: سنة أبيكم إبراهيم. قالوا: ما لنا منها؟ قال: بكل شعرة حسنة. قالوا: فالصوف؟ قال: بكل شعرة من الصوف حسنة»^(١).

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- قال: «أقام رسول الله ﷺ في المدينة عشر سنين يضحى»^(٢).

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى وجوب الأضحية على من ملك نصاباً، واستدلوا بها زوي عن أبي هريرة مرفوعاً: «من كان له سعة فلم يضح فلا يقربن مصلانا»^(٣).

وأكثر أهل العلم على أن الأضحية سنة وليست بواجبة؛ لأن النبي ﷺ «ضحى عن نفسه بكبش وضحى عن من لم يضح من أمته بكبش»^(٤) وبهذا سقط وجوبها عليهم. وقد قال أبوسريجة: «كنت جاراً لأبي بكر وعمر- رضي الله عنهما- فكانا لا

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في الأضاحي (١٥٠٧)- وقال: «حديث حسن».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأضاحي (٣١٢٣)، وأحمد (٣٢١/٢). وقال ابن كثير في «تفسيره» (٤٢٨/٥):

«على أن فيه غرابة واستنكره أحمد بن حنبل».

(٤) سبق تخريجه.

يضحيان خشية أن يقتدي الناس بهما»^(١).
وعن أبي أيوب - رضي الله عنه - قال: «كان الرجل على عهد رسول الله ﷺ
يضحي بالشاة عنه وعن أهل بيته، فيأكلون ويطعمون، حتى تباهى الناس، فصار
كما ترى»^(٢).

* * *

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٤٢٩/٥).

(٢) أخرجه الترمذي في الأضاحي - ما جاء في أن الشاة الواحدة عن أهل البيت (١٥٠٥)، وابن ماجه في الأضاحي - من يضحي بشاة عن أهله (٣١٤٧)، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُوذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَلَئِن ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَئِن لَّمْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ لَكُنَّا لَأُولَئِكَ لَئِيمِينَ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَحَقُّوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِقَابُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾.

ذكر الله - عز وجل - في الآيات السابقة صد الكفار للمسلمين عن البيت الحرام وأتبعه بذكر الحج وأداء المناسك والشعائر، فكان قائلاً قال: كيف القيام بهذا مع صد المشركين للمسلمين عن البيت الحرام، وإخراجهم لهم من ديارهم؟ فوعده الله - عز وجل - ووعدته حق - بالمدافعة عن الذين آمنوا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾﴾.
قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء وإسكان الدال وفتح الفاء من غير ألف: «يُدْفِعُ»، وقرأ الباقون بضم الياء وفتح الدال وألف بعدها مع كسر الفاء: ﴿يُدْفِعُ﴾.

وهذا والله أعلم - توطئة وتمهيد لمشروعية الجهاد.

والمدافعة: مفاعلة من الدفع ومبالغة، أي: إن الله - عز وجل - يدافع عن الذين آمنوا بشدة وقوة، ومرة بعد أخرى، أي: يدافع عنهم من بغى عليهم من المشركين والكفرة الخائنين؛ لقوله تعالى بعد هذا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾، كما يدافع عنهم شر النفس والشيطان وشر الأشرار وكيد الفجار وشر طوارق الليل والنهار، وكل سوء ومكروه.

وهذه بشارة من الله - عز وجل - للمؤمنين، ووعد منه لا يتخلف؛ لأنه - عز وجل - لا يخلف الميعاد؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [إِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾] [الطلاق: ٣]، وقال تعالى عن النساء الصالحات القانتات: ﴿حَفِظَتْهُنَّ لِئَلَّا يَكْفُرَ بِمَا حَفِظْنَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤]، أي:

يحفظ الله لمن.

وقال عليه السلام في حديثه لابن عباس - رضي الله عنهما: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك»^(١).

قال قتادة: «والله ما يُضَيِّعُ الله رجلاً قط حفظ له دينه»^(٢).

وقال ابن القيم^(٣): «دفعه ودفاعه عنهم بحسب قوة إيمانهم وكماله. ومادة الإيمان وقوته بذكر الله - تعالى، فمن كان أكثر إيماناً وأكثر ذكراً كان دفع الله - تعالى عنه ودفاعه أعظم، ومن نقص نقص، ذكراً بذكر ونسياناً بنسيان».

عن جندب بن عبدالله - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صلى الصبح فهو في ذمة الله فلا يطلبنكم الله من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ثم يكبه على وجهه في نار جهنم»^(٤).

فما أعظم سعادة من دافع الله - عز وجل - عنه وحفظه فلا يضيره أحد، ويا خيبة من تخلى الله - عز وجل - عن الدفاع عنه وعن حفظه، فهو عرضة لجميع الشرور والبلايا والآفات. فانتبه لهذا.

وما أصاب المسلمين ما أصابهم من الوهن والضعف وتسلب الأعداء عليهم إلا بسبب ضعف إيمانهم واختلافهم وتفرقهم، وتخليهم عن الأخذ بأسباب القوة المعنوية والمادية التي يدافع الله بها عنهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(١) تعليل لمدافة الله الكافرين عن المؤمنين، فهو - عز وجل - يدفع الكافرين لخيانتهم وكفرهم، ويدافع عن المؤمنين لأمانتهم وإيمانهم.

و﴿خَوَّانٍ﴾ على وزن «فعال» و﴿كَفُورٍ﴾ على وزن «فعلول» كل منهما صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، لبيان الواقع الذي هم عليه، فقد بلغوا غاية الخيانة والكفر.

و﴿خَوَّانٍ﴾ كثير الخيانة للأمانات، والنقض للعهود والمواثيق، وعدم الوفاء بها،

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٩٥/٨).

(٣) انظر: «بدائع التفسير» (٢١١/٣).

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٥٧).

شديد الغدر، مخالف لأمر الله، مرتكب لنهيه في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا
اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا ءَمَنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧].

﴿كْفُورٍ﴾ شديد الجحود لربوبية الله - عز وجل - وألوهيته وأسمائه وصفاته
ونعمه، لا يعترف بها ولا يشكرها.

والمعنى: إن الله - عز وجل - لا يحب من كان خوائناً للأمانات، ناقضاً للعهود
والمواثيق، لا يحفظ أمانة، ولا يرضى ذمته، ولا يفي بعهد، كفور بربه وبدينه ونعمه،
والكفر أشد الخيانة وأعظمها، بل يكره عز وجل من هذه صفته ويبغضه، وإذا كان
الله - عز وجل - لا يحب من هذه صفته فهو - عز وجل - يحب من كان أميناً وافيّاً
بالأمانات والعهود مؤمناً بالله معترفاً بنعمه - عز وجل .

قوله - تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنْهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [٢٩].
عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر:
أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. قال ابن عباس: «فأنزل الله - عز وجل:
﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنْهُمْ ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ قال أبو بكر - رضي الله
تعالى عنه: فعرفت أنه سيكون قتال. قال ابن عباس: وهي أول آية نزلت في القتال»^(١).

فهذه أول آية نزلت في القتال، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما، وبه قال جمع
من السلف - وقد استدل بعضهم بهذه الآية على أن سورة الحج مدنية.

قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنْهُمْ ظَلِمُوا﴾ قرأ نافع وأبوجعفر ويعقوب
وأبو عمرو وعاصم بضم الهمزة ﴿أُذِنَ﴾. وقرأ الباقون بفتحها «أذن».

وقرأ نافع وأبوجعفر وابن عامر وحفص بفتح التاء من ﴿يُقْتَلُونَ﴾ بالبناء
للمفعول، وقرأ الباقون بكسرها: «يُقَاتِلُونَ».

والإذن ينقسم إلى قسمين: إذن كوني، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِصَّارِيَيْنَ بِهِ مِنْ
أَحَدٍ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِلنَّفْسِ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

(١) سبق تخريجه.

[آل عمران: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَقَى الْجَمْعَانَ فَيَاذَنُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٦٦].
 وإذن شرعي، كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنُ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وكما في هذه الآية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ﴾.
 والفرق بين الإذن الشرعي والإذن الكوني: أن المأذون به شرعاً لا بد أن يكون محبوباً لله - عز وجل، ولا يلزم وقوعه، كالأمر الشرعي والإرادة الشرعية.
 والإذن الكوني لا يلزم أن يكون محبوباً لله، ولا بد من وقوعه، كالأمر الكوني والإرادة الكونية.

والمراد بالإذن في الآية الإذن الشرعي، أي: أذن الله - عز وجل - شرعاً للنبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين الذين يقاتلهم المشركون والكفار بالقتال، أو أذن الله بالقتال للمؤمنين الذين يُقاتلون في سبيل الله.

﴿يَأْتِيهِمْ ظُلْمًا﴾ الباء: للتعليل، أي: لأجل أنهم ﴿ظَلِمُوا﴾ والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان أو على سبيل التعدي، وهو النقص، كما قال تعالى: ﴿كَلْنَا الْجَنَيْنَ ءَأَنْتَ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف: ٣٣]، أي: ولم تنقص منه شيئاً.

ومعنى ﴿يَأْتِيهِمْ ظُلْمًا﴾ أي: لأجل أنهم ظلموا واعتدى عليهم الكفار وأذوهم، في أنفسهم وأمواهم وقاتلوهم وأخرجوهم من ديارهم.

فأذن الله - عز وجل - شرعاً للمؤمنين بالقتال للكفار بسبب ظلم الكفار لهم، ومقاتلتهم إياهم بغير حق، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وفي هذا أعظم الرد على من يقولون: إن الإسلام قام على السيف والإكراه. فقد ذكر الله - عز وجل - أن سبب الإذن في الجهاد هو دفع الظلم عن المسلمين، وقد قال - عز وجل - في سورة البقرة: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدَّبَتِ الرَّسُدُ مِنَ النَّعِيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن الظلم للمسلمين أيضاً منعهم من الدعوة إلى الله - عز وجل، ونشر دينهم الذي أوجب الله عليهم نشره والدعوة إليه؛ لإخراج الناس من الكفر، وإنقاذهم من النار؛ ولهذا أوجب الله - عز وجل - على المسلمين قتال من يقف عائقاً في سبيل الدعوة

إلى الله ونشر الإسلام.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينَ أَبِي بَكْرٍ الَّذِي هُوَ عَلَى الدِّينِ الْقَامِلِ﴾ [التوبة: ٥]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

فالْمَقْصُودُ مِنَ الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَفِي غَيْرِهَا إِقَامَةُ دِينِ اللَّهِ وَشَرْعِهِ، وَدَفْعُ الظُّلْمِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا تَكُونُونَ لَهُمْ فَتْنَةً وَكُونَ الَّذِينَ اللَّهُ فَإِنَّ اللَّهَ أَنَّهُمْ أَقْلًا عُدُوْنَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوا الَّذِينَ لَا تَكُونُونَ فَتْنَةً وَيَكُونُونَ الَّذِينَ كُفَرُوا لِلَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأَنْفَالُ: ٣٩].

قال السعدي^(١): «وهذا يدل على حكمة الجهاد، فإن المقصود منه إقامة دين الله، أو ذب الكفار المؤذنين للمؤمنين البادئين لهم بالاعتداء عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة».

وقال- أيضًا: «فلولا دفع الناس بعضهم ببعض لاستولى الكفار على المسلمين فخرّبوا معابدهم وفتنّوهم في دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره».

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الجملة معطوفة على جملة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُوا﴾ أي: وإن الله- عز وجل- على نصر المؤمنين على من ظلمهم من الكفار وقاتلهم ﴿لَقَدِيرٌ﴾.

واللام في قوله: ﴿لَقَدِيرٌ﴾ للتوكيد، فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: كون الجملة اسمية، و«إن»، ولام التوكيد.

و«قدير» على وزن فعيل «صفة مشبهة أو صيغة مبالغة» أي: إنه عز وجل ذو قدرة تامة على نصر المؤمنين على الكفار من غير قتال، ولكنه عز وجل يريد ابتلاء المؤمنين وامتحانهم بفرض القتال عليهم، وقد تكفل بنصرهم، ففي الآية بيان لقدرته على نصر

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» (٥/٢٩٩، ٣٠٠).

المؤمنين على الكفار بغير قتال لو شاء ذلك، ووعد منه - عز وجل - للمؤمنين بنصرهم على الكفار في قتالهم وجهادهم لهم، وحث وترغيب لهم على الصدق مع الله - عز وجل - وطلب النصر منه، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ لِبِجَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلْيَبْلُواكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَبَلِّوْا أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَنْصُرَكَ اللَّهُ مِنْ نِصْرَتِهِ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وقد نصر الله - عز وجل - رسوله ﷺ وأوليائه وأذل أعداءهم في بدر وحنين وغيرهما من الغزوات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة: ٢٥].

قال ابن كثير^(١): «وإنما شرع تعالى الجهاد في الوقت الأليق بهم؛ لأنهم لما كانوا بمكة كان المشركون أكثر عددًا فلو أمر المسلمين - وهم أقل من العشر - بقتال الباقيين لشق عليهم ذلك، ولهذا لما بايع أهل يثرب ليلة العقبة رسول الله ﷺ، وكانوا نيفًا وثمانين قالوا: يا رسول الله، ألا نميل على أهل الوادي - يعنون أهل منى - ليالي منى فنقتلهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني لم أؤمر بهذا»^(٢) فلما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من بين أظهرهم، وهما يقتله، وشردوا أصحابه شذر مذر، فذهب طائفة منهم إلى الحبشة، وآخرون إلى المدينة، فلما استقروا بالمدينة، ووافاهم رسول الله ﷺ، واجتمعوا عليه، وقاموا بنصره، وصارت لهم دار إسلام ومعقلًا يلجؤون إليه - شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ

(١) في «تفسيره» (٥/٤٣١-٤٣٢).

(٢) أخرجه أحمد (٣/٤٦٢) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه. وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/٤٤٨).

ظَلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴿٣٩﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَدَمَتِ صَوَائِعُ وَبَيْعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من «الذين» في قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ﴾ وهذا من أعظم الظلم الذي وقع على المسلمين؛ لأن إخراج الإنسان من بلده، ومسقط رأسه ليس بالأمر السهل عليه، ولهذا قال ﷺ مخاطباً مكة: «والله إني لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجت منك» (١).

أي: الذين أخرجهم المشركون من مكة، أي: اضطروهم للخروج منها، فهاجر منهم من هاجر إلى الحبشة، وإلى المدينة، فراراً بدينهم بعد أن لقي كثير منهم صنوف الأذى والاضطهاد من المشركين.

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ حال، أي: حال كون إخراجهم بغير حق يستوجب إخراجهم، وبلا ذنب ولا مبرر، بل ظلماً وعدواناً، وهذا يدل على أن الإذن بالقتال إنما كان في المدينة بعد الهجرة، وإخراج المسلمين من ديارهم. وهذه السورة فيها المكى والمدني.

﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء، والاستثناء منقطع، و﴿أَنْ﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب على الاستثناء، والتقدير: إلا قولهم ربنا الله.

أي: فلا ذنب لهم إلا أنهم قالوا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾، فآمنوا بربوبية الله - عز وجل، وعبدوه وحده لا شريك له، وهذا من تأكيد الشيء بما يوجب نقضه، فقولهم: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ لا يبرر إخراجهم وظلمهم، كيف وهذا مما يجب عليهم وعلى الناس أجمع أن يقولوه.

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الممتحنة: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ [الآية: ١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٥٩]، وقوله تعالى عن سحرة فرعون أنهم قالوا له: ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنَّا إِلَّا﴾

(١) سبق تخرجه.

أَنْ ءَامَنَّا بِبَايَعَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا ﴿٨﴾ [الأعراف: ١٢٦]، وقوله تعالى في قصة أصحاب الأندلس: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ [البروج: ٨].

عن ابن عباس - رضي الله عنهما: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ «أي: من مكة إلى المدينة ﴿بِغَيْرِ حَقِّ﴾ يعني محمداً ﷺ» (١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما: «لما خرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون ليهلكن. وفي رواية أنه قال: أخرج رسول الله ﷺ والله ليهلكن جميعاً، فأنزل الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٢١﴾﴾ إلى قوله: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ قال أبو بكر: فعرفت أنه سيكون قتال.. وهي أول آية نزلت» (٢).

وعن عثمان بن عفان - رضي الله عنه، قال: «فيما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ والآية بعدها، أخرجنا من ديارنا ﴿بِغَيْرِ حَقِّ﴾ ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، فهي لي ولأصحابي» (٣).

﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الواو: استثنائية، و«لولا»: حرف امتناع لوجود ﴿دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب: «دفاع»، وقرأ الباقر: ﴿دَفَعُ﴾. أي: ولولا أن الله يدفع الناس بعضهم ببعض، بإقامة الجهاد في سبيل الله والحدود، فيدفع الله - عز وجل - المشركين بالمسلمين، ويدفع الله الشر والاعتداء عن قوم بسبب قوم آخرين ولو كانوا غير مسلمين، وهذا كما قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيُؤَيِّدَ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ» (٤).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٩٦/٨).

(٢) سبق تحريجه.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٤٩٦-٢٤٩٧).

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٦٢)، ومسلم في الإيمان (١١١)، وأحمد (٣٠٩/٢) - من حديث أبي

هريرة - رضي الله عنه.

﴿لَهَدَمْتَ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ اللام في قوله: ﴿لَهَدَمْتَ﴾ واقعة في جواب «لولا».

قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير: «لهدمت» بتخفيف الدال، وقرأ الباقون بتشديدها ﴿لَهَدَمْتَ﴾ مبالغة في الهدم، أي: هدمت بشدة وقوة، أو هدمت مرة بعد مرة. والهدم: تقويض البناء وإسقاطه.

﴿صَوْمِعُ﴾ جمع صومعة، وهي صوامع الرهبان ومعابدهم.

﴿وَيَبِعُ﴾ جمع بيعة، وهي كنائس اليهود ومعابدهم، وقيل: كنائس النصارى.

﴿وَصَلَوْتُ﴾ كنائس اليهود، مُعَرَّبَةٌ عن كلمة «صلوتا»، وقيل: كنائس النصارى، وقيل: صلوات المسلمين.

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «الصوامع التي تكون فيها الرهبان، والبيع مساجد اليهود، وصلوات كنائس النصارى، والمساجد مساجد المسلمين»^(١).

﴿وَمَسْجِدُ﴾ جمع مسجد، وهي ممنوعة من الصرف؛ لأنها على وزن صيغة منتهى الجموع «فعال»، وهي بيوت الله، وأماكن الصلاة والعبادة للمسلمين، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمَهُ، يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [٣١] رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

وإنما بدأ - والله أعلم - بالصوامع والبيع مراعاة للسبق الزمني؛ لأن عبادة وصلاة من تقدم من أهل الكتاب كانت فيها، وكذا «صلوات» على اعتبار أن المراد بها أيضًا مواضع عبادتهم.

قال الزجاج والأزهري: أي: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدم في كل شريعة نبي من الأنبياء - عليهم السلام - المكان الذي يصلي فيه هو وأتباعه، أي: هدمت متعبدات كل فريق.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٤٩٧).

وقال الحسن: «يدفع عن مصليات أهل الذمة بالمؤمنين»^(١).
قال ابن القيم^(٢) - بعد ذكره هذين القولين: «وعلى هذا القول - يعني قول الحسن - لا يحتاج إلى التقدير الذي قدره أصحاب القول الأول. وهذا ظاهر اللفظ ولا إشكال فيه بوجه، فإن الآية دلت على الواقع، ولم تدل على كون هذه الأمكنة - غير المساجد - محبوبة مرضية له، لكنه أخبر أنه لولا دفعه الناس بعضهم ببعض لهدمت هذه الأمكنة التي كانت محبوبة له قبل الإسلام، وأقر منها ما أقر بعده - وإن كانت مسخوطة له، كما أقر أهل الذمة - وإن كان يبغضهم ويمقتهم، ويدفع عنهم بالمسلمين مع بغضه لهم، وهكذا يدفع عن مواضع متعباتهم بالمسلمين - وإن كان يبغضها، وهو سبحانه يدفع عن متعباتهم التي أقرها عليها شرعاً وقدرًا، فهو يجب الدفع عنها - وإن كان يبغضها، كما يجب الدفع عن أربابها - وإن كان يبغضهم، وهذا القول هو الراجح إن شاء الله تعالى».

﴿يَذْكُرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ أي: في المساجد بالصلاة فيها وقراءة القرآن والتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والاعتكاف فيها وغير ذلك من أنواع الذكر والعبادة. و«كثيرًا» صفة لمصدر محذوف، أي: ذكرًا كثيرًا، أو وقتًا كثيرًا. ويحتمل عود الضمير إلى كل ما ذكر من أماكن عبادة أهل الكتاب من الصوامع والبيع والصلوات، وأماكن عبادة المسلمين المساجد.

قال الطبري^(٣): «الصواب لهدمت صوامع الرهبان، وبيع النصراني، وصلوات اليهود، وهي كنائسهم. ومساجد المسلمين التي يذكر فيها اسم الله كثيرًا؛ لأن هذا هو المستعمل المعروف في كلام العرب المستفيض فيهم».

﴿وَلْيَنْصُرِكُ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ الواو: استئنافية، واللام: واقعة في جواب قسم محذوف، و«من»: موصولة، أي: والله لينصرن الله الذي ﴿يَنْصُرُهُ﴾ أي: ينصر دينه وأوليائه، ويقاتل في سبيله؛ لتكون كلمة الله هي العليا.

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/٢١٣).

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/٢١٣ - ٢١٤).

(٣) في «جامع البيان» (١٦/٥٨٦).

وقد أكدت الجملة بالقسم ولام القسم ونون التوكيد، وهذا وعد من الله - عز وجل - لا يتخلف إذا وجد مقتضاه، وهو صدق النية والعمل في نصره دين الله، دون وجود مخالفة تمنع تحقيق ذلك، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٤٧] [الروم: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذه الجملة تعليل وتوكيد لما قبلها، واللام في قوله: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ للتوكيد.

أي: إنه - عز وجل - ذو القوة الشديدة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٥٢]. و«القوي»: الذي يفعل الشيء بلا ضعف، كما أن «القدير»: الذي يفعل الشيء بلا عجز.

﴿عَزِيزٌ﴾ أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع. وحيث اجتمع في هذه الآية وصفه - عز وجل - بـ«القوي» و«العزیز» فالأولى حمل قوله: «عزیز» على عزة القهر، وعزة الامتناع؛ لدلالة قوله: ﴿لَقَوِيٌّ﴾ الظاهرة على معنى «القوة».

أي: إن الله لقوي على نصر من ينصره، ويقاوم في سبيله، منيع لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب، فبقوته - عز وجل - الشديدة وعزته التامة ينصر من ينصره؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ [٧١] ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ [٧٢] ﴿وَأَن جُنَدَانَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [٧٣] [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتْلَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ﴾ [٤١].

قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا مَكَتْلَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. بدل من «مَنْ» في قوله: ﴿مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ وفيها حث وإغراء على الاتصاف بالصفات المذكورة.

عن عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال: «فيما نزلت ﴿الَّذِينَ إِِنْ مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق، إلا أن قلنا: ﴿رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ثم مكنا في الأرض، فأقمنا الصلاة وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر، والله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي»^(١).

ولا شك أن أول من يدخل تحت هذه الآية هم صحابة رسول الله ﷺ؛ كما قال عثمان - رضي الله عنه، لكنها - أيضًا - عامة لكل من اتبعهم وعمل بها، وهي كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

ويدخل تحت الوصف المذكور في الآيتين كل من الراعي والرعية.

ومعنى ﴿مَكَنْتَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا لهم السلطة والتمكين فيها والاستخلاف عليها بلا منازع ولا معارض ولا مدافع ولا ممانع.

﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أقاموا الصلاة المفروضة، التي هي الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عموده وأعظم العبادات البدنية وأهمها، أي: أقاموها بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها إقامة تامة؛ ولهذا جاء التعبير بقوله: ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ دون أن يقول: «الذين يصلون» ونحو ذلك.

والمراد بالصلاة: الصلوات الخمس المفروضة التي يجب أداؤها في المساجد، وغيرها من النوافل.

﴿وَأَتَوُا الزَّكَاةَ﴾ أي: أعطوا الزكاة المفروضة التي هي الركن الثالث من أركان الإسلام، وهي أعظم العبادات المالية وأهمها، وغيرها من النفقات والصدقات.

﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ المعروف: ما أمر به الشرع وتعارف المسلمون على حسنه، ويشمل الأمر بتوحيد الله وطاعته وفعل الواجبات والمستحبات.

(١) سبق تخريجه.

﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ المنكر ما أنكره الشرع، وعرف المسلمين، ويشمل النهي عن الشرك والمعاصي، وعن ارتكاب المحرمات. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم وأعظم وأخص صفات هذه الأمة، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وهو حصن الإسلام المنيع، ومن أعظم وأهم واجبات الدين؛ ولهذا عدّه بعض أهل العلم الركن السادس من أركان الإسلام. قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وقال ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلمه، وذلك أضعف الإيمان»^(١).

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [٧٨] ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٧٨] [المائدة: ٧٨، ٧٩].

وعن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه، ثم تدعونني فلا يستجاب لكم»^(٢).

وعن أبي بكر - رضي الله عنه - أنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ وإنا سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر لا يغيرونه

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٤٩)، وأبوداود في الصلاة (١١٤٠)، والنسائي في الإيمان وشرائعه (٥٠٠٨)، والترمذي في الفتن (٢١٧٢)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢٧٥) - من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩). وقال: «حديث حسن»، وأحمد (٣٨٨/٥).

أوشك أن يعمهم الله بعقابه»^(١).

وعن زينب بنت جحش - رضي الله عنها - قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ فرعاً مرعوباً يقول: «لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه»، وحلق بإصبعيه الإبهام والتي تليها، فقلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»^(٢).

وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: مَنْ مَيّت الأحياء؟ فقال: «الذي لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكراً»^(٣).

﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾

أي: أن مرد الأمور ومرجعها ونهايتها إلى الله - عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿الْأَمْرُ إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، فإليه - عز وجل - مرد جميع الأمور ونهايتها، وإليه مرد الخلائق في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم، وإليه مصيرهم وإيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٥٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قال ابن كثير^(٤): «وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨، القصص: ٨٣].»

الفوائد والأحكام:

- ١- وعد الله - عز وجل - وتكفله بالمدافعة عن الذين آمنوا أذى الكفار وشور الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٢- التشويق والإغراء بالدخول تحت حفظ الله - عز وجل - ودفاعه بالإيمان به - عز وجل - والعمل الصالح.

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٨٨٠)، والترمذي في الفتن (٢١٨٧)، وابن ماجه (٣٩٥٣).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٢٧/٢٨).

(٤) في «تفسيره» (٤٣٤/٥).

- ٣- قوة الله - عز وجل - التي لا تقهر وقدرته التامة في دفاعه عن أوليائه المؤمنين.
- ٤- لا حول ولا قوة لأحد من المؤمنين ولا غيرهم على دفع الشرور إلا بالله عز وجل.
- ٥- نفي محبة الله - عز وجل - لمن كان خواناً كفوراً، وإثبات بغضه له؛ لقوله تعالى:
- ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾.
- ٦- إثبات محبة الله - عز وجل - لمن كان أميناً مؤمناً؛ لأنه - عز وجل - إذا كان لا يجب من كان خواناً كفوراً، فمفهوم الآية أنه يجب من كان بضده.
- ٧- التحذير والتنفير من الخيانة والكفر؛ لأن ذلك سبب بغض الله - عز وجل - ومقتته وانتقامه.
- ٨- إذن الله - عز وجل - الشرعي للرسول ﷺ والمؤمنين بالقتال لَمَّا وجد سببه، وجاءت مناسبته واكتملت أدواته؛ لقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾ وكان المشركون بمكة يؤذون المؤمنين أذى شديداً، فيتظلمون إلى رسول الله ﷺ فيأمرهم بالصبر؛ لأنه لم يؤمر بالقتال.
- ٩- أن سبب الإذن للمؤمنين بالقتال ظلم المشركين لهم بأذيتهم وقتالهم لهم وإخراجهم لهم من ديارهم بغير حق؛ وذلك أشد الظلم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا﴾. وفي هذا رد على من يقول: إن الإسلام قام على السيف والإكراه. فالجهاد شرع لدفع الظلم عن المسلمين، وقاتل من يقاتلهم، أو يقف في طريق الدعوة إلى الله وإقامة شرعه، ونشر دينه الحق.
- ١٠- قيام الدين الإسلامي على العدل ورفع الظلم.
- ١١- قدرة الله - عز وجل - التامة على نصر المؤمنين، وتحقيقه لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ
- أَللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.
- ١٢- أن نهاية الظلم الخسار والبوار والهزيمة.
- ١٣- شدة بغض الكافرين للمؤمنين، فقاتلوهم وأذوهم، وأخرجوهم من ديارهم، لا شيء، وبغير حق، إلا أنهم آمنوا بالله؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾.

- ١٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين.
- ١٥- تأكيد الشيء بما يوجب نقضه.
- ١٦- حفظ الله- عز وجل- للناس حياتهم الدينية والدينية وأماكن عباداتهم بدفع بعضهم ببعض، بالجهاد في سبيل الله وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ كُلُّ فِتْنَةٍ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٌ وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.
- ١٧- أن الجهاد في سبيل الله هو الحصن المنيع الحامي بإذن الله لبيضة الإسلام ودولته وحرية الدعوة إلى الله- عز وجل- وعبادته.
- ١٨- دفع الله- عز وجل- عن مواضع عبادة أهل الكتاب وغيرهم بالجهاد في سبيل الله، إذا دخلوا تحت حكم الإسلام ودفعوا الجزية، وإن كان يبغضهم ومواضع عبادتهم.
- ١٩- الإشارة إلى أن الله- عز وجل- قد يدفع عن المؤمنين بالكافرين وقد يدفع عن الكافرين بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾.
- ٢٠- الترغيب في إقامة المساجد، وذكر الله فيها كثيرًا بالصلاة وأنواع العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَسْجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾.
- ٢١- وعد الله- عز وجل- الذي لا يتخلف- بنصر من ينصر دينه وأوليائه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾.
- ٢٢- إثبات صفتي القوة والعزة التامتين لله- عز وجل، وتأكيد قدرته التامة على نصر المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.
- ٢٣- ثناء الله- عز وجل- على المؤمنين الذين إن مكنهم الله في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.
- ٢٤- الإغراء والحث على الاتصاف بها ذكر في الآية من الصفات؛ لأن الله- عز وجل- رتب نصره الذي وعد به المؤمنين وتمكينه لهم على قيامهم بذلك شكرًا له- عز وجل- على نعمة النصر والتمكين في الأرض.

- ٢٥- عظم مكانة الصلاة والزكاة في الإسلام؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين العبادات، فالصلاة عمود الإسلام وقاعدته العظيمة التي يدور عليها رحاه، وأعظم العبادات كلها بعد الشهادتين، من حفظها وأقامها كما شرع الله - عز وجل - حفظ دينه، وربح دنياه وأخراه، ومن أضاعها خسر دينه ودنياه وأخراه.
- والزكاة أعظم العبادات المالية، وأهم العبادات بعد الصلاة، فيها يتجلى مظهر الإحسان إلى عباد الله - كما يتجلى في الصلاة مظهر الإحسان في عبادة الله.
- ٢٦- عظم منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله ذكره بعد الصلاة والزكاة، ولا غرو في هذا فهو حصن الإسلام الحصين وسيوجه المتين.
- ٢٧- أن عاقبة الأمور كلها ومصيرها ومرجعها ومردّها إلى الله - عز وجل، إليه إياب الخلائق، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١٤﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٥﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٦﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُا مِعْطَلَةً وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿١٧﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١٨﴾ وَيَسْتَعْمِلُونَكَ بِالْعَدَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿١٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَاهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٢٠﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢١﴾ فَأَلْزِمُوا آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١٤﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٥﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٦﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْنَؤُا مِعْطَلَةً وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿١٧﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾ الواو: استثنائية، و«إن»: شرطية، و﴿يُكَذِّبُوكَ﴾ فعل الشرط، والخطاب للنبي ﷺ، أي: وإن يكذبك هؤلاء المشركون، وجواب الشرط قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾.

ويجوز كون جواب الشرط محذوفًا دل عليه قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾، والتقدير: فلا عجب في تكذيبهم لك، أو فلا تبالهم، فإن ذلك عادة أمثالهم. أي: فلست بأول رسول كُذِّب، وليسوا بأول أمة كُذِّبَتْ.

﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ أول الرسل عليهم السلام، مع لبثه فيهم يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا.

﴿وَعَادٌ﴾، أي: وكذبت عاد، وهم قوم هود عليه السلام.

﴿وَتَمُودٌ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام.

﴿وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ﴾، أي: وكذب قوم إبراهيم عليه السلام، وهم الكلدان.

﴿وَقَوْمُ لُوطٍ﴾، أي: وكذب قوم لوط عليه السلام.

﴿وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾، أي: وكذب أصحاب مدين، وهم قوم شعيب عليه السلام.
 ﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ﴾ كليم الرحمن مع ما جاء به من الآيات البينات، والمعجزات
 الواضحات.

﴿فَأَمَلَيْتُ لِّلْكَافِرِينَ﴾، أي: أنظرتهم وأمهلتهم، ولما أعاجلهم بالعقوبة، استدرأجاً
 لهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾
 [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣، القلم: ٤٤، ٤٥].

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: فأملت لهم؛ للإيحاء أن علة الإملاء لهم ثم
 أخذهم هو الكفر بالرسول، وفي هذا تعريض بالندارة والوعيد لمشركي قريش.
 ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾، أي: أخذتهم بالعقوبة، أي: ثم عاقبتهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَتْ تَكْبِيرُ﴾، أي: فكيف كان إنكاري عليهم، وعقابي لهم، بسبب
 تكذيبهم وكفرهم؟ والاستفهام للتعجب، أي: ما أعظم عقابي لهم، وما أشد إنكاري
 عليهم!

قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ
 الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَسَفْنَا بِهِ الْآرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانُ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن
 كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «إن الله
 ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ
 إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٣﴾ [هود: ١٠٢] (١).

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «أهْلَكْنَاهَا» بالتاء
 مضمومة من غير ألف، وقرأ الباقون بالنون مفتوحة وألف بعدها: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾.

و«كأين» للتكثير، أي: فكم من قرية، أي: وكثير من القرى المكذبة أهلكتناها.
 ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونها ظالمة بالشرك والكفر والتكذيب
 لرسولها.

(١) سبق تحريجه.

﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾، أي: متهدمة، قد سقطت حيطانها على سقوفها، وصارت خراباً بعد العمران، وموحشة بعد أن كانت أهلة بالسكان.
 ﴿وَيَبُرُّ مُعْطَلَةً﴾، أي: وكم من بئر معطلة لا يستقي منها أحد، ولا يردها أحد، بعد أن كانت مزدحمة بالواردين والصادرين.

﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾، أي: وكم من قصر مشيد، مرفوع البنيان، مبيض ومزين بالحص وغيره، تعب عليه أهله، وشيدوه وحصنوه وزخرفوه، قد تعطل وصار موحشاً بعد خلوه من السكان، فصار ذلك كله عبرة وعظة لمن تفكر ونظر، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: أفلم يسيروا في الأرض بأقدامهم وأبدانهم، ويتأملوا ببصائرهم؟ والاستفهام للأمر؛ ولهذا قال: ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فتكون لهم قلوب يعقلون بها آيات الله في الكون، وفي عقوباته للمكذبين، فيعتبروا ويتعظوا.

﴿أَوَءَاذَانُ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ «أو»: حرف عطف بمعنى الواو، أي: وأذان يسمعون بها أخبار القرى والأمم المكذبة، وما حل بهم من العقوبات والنكال، فيعتبرون ويتعظون؟

﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ الفاء: تعليلية، والضمير في «إنها»: ضمير الشأن، أي: فالشأن أنها لا تعمي الأبصار الحسية عن المشاهدة والنظر، ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ عن التفكير والتدبر والتأمل والاتعاض والاعتبار، فما ينفع مع ذلك مجرد الإبصار.
 وقوله: ﴿الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ صفة لـ«القلوب».

قال ابن كثير^(١): «أي: ليس العمى عمى البصر، وإنما العمى عمى البصيرة، وإن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر».
 قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعِجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَنَّ

(١) في «تفسيره» ٥ / ٤٣٥.

سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَكَأَنَّ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ نُتِرَ أَخَذْتُمَا إِلَيْهَا الْمَصِيرُ ﴿٥٨﴾.

قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾، أي: ويستعجلك يا محمد هؤلاء الكفار المكذوبون بالعذاب؛ لجهلهم وعنادهم وشدة تكذيبهم وإنكارهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْعَانًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾﴾ [ص: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلِيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [العنكبوت: ٥٣ - ٥٤].

﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ الذي وعده؛ من تعذيب الكافرين في الدنيا والآخرة والانتقام منهم، وإكرام المؤمنين، أي: أن ذلك واقع لا محالة، وفي هذا تهديد للكافرين، ووعد للمؤمنين.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ قرأ ابن كثير وحزمة والكسائي وخلف بالغيب: «يَعُدُّونَ»، وقرأ الباقون بالخطاب: ﴿تَعُدُّونَ﴾.

أي: وإن يوماً عند ربك يا محمد من طوله وشدته وهوله كألف سنة مما تعدون من أيام الدنيا وسنيها، فمقدار يوم واحد عنده كألف سنة عند خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأُمُورَ السَّمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ يُرْسِلُ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥٥﴾﴾ [السجدة: ٥].

وهو سبحانه حلیم لا يعجل؛ لتام علمه وكمال قدرته، وكونه لا يفوته شيء وإن أجل وأنظر وأمهل.

وسواء عجل لهم العذاب في الدنيا أو أجل؛ فإن أمامهم هذا اليوم العظيم، وهو آتٍ لا محالة فلا يستعجلوه، قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَحْزِنُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبا: ٢٩ - ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة: ٢٨ - ٢٩]، وقال: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

﴿وَكَأَنَّ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا﴾، أي: وكم من قرية أمهلتها وأنظرتها مدة طويلة، ولم أعاجل أهلها بالعقوبة استدراجاً لهم.

﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾، أي: حال كونها ظالمة بالشرك والكفر والمعاصي.

﴿ثُمَّ أَخَذْتَهَا﴾ بالعقوبة، أي: ثم عاقبتها.

﴿وَالْيَوْمَ الْمَصِيرُ﴾، أي: وإلي مصير الأمور ومآلها، ومرجع الخلق يوم القيامة فأحاسبهم وأجازيهم على أعمالهم.

قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١١﴾ ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَّرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿١٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ ﴿١٣﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١١﴾.

لما استعجل المشركون والكفار والمكذبون منه ﷺ العذاب؛ أمره الله عز وجل أن يبين لهم أن مهمته الإنذار البين لهم، وليس إليه أمر تعجيل العذاب، فذلك إلى الله عز وجل.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين لك، المستعجلين بالعذاب، ولغيرهم من الناس.

﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿١١﴾ «إنها» أداة حصر، أي: ما أنا إلا نذير لكم بين وواضح النذارة، وليس إليّ تعجيل العذاب.

و«النذير»: المنذر المخوف من الشر والعذاب قبل وقوعه، ولهذا قال ﷺ: «أنا النذير العريان، فالنجاه النجاه»^(١).

وخص الإنذار بالذكر في الآية؛ لأن السياق مع المكذبين، وإلا فهو نذير وبشير؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فاطر: ٢٤].

ولهذا قال مبشراً:

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ﴾ خاصة ﴿مَغْفِرَةٌ﴾ ﴿لذُنُوبِهِمْ بَسْتَرَهَا عَنْ﴾ الخلق، والتجاوز عنها، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾، أي: وعطاء واسع من فضل الله عز وجل في الدنيا، وفي الآخرة الجنة.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ ﴿١٣﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «مُعْجِزِينَ» بتشديد

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، الانتهاء من المعاصي ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل، شفقتة ﷺ على أمته ٢٢٨٣، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الجيم من غير ألف، وقرأ الباقون بالتخفيف والألف: ﴿مُعْجِزِينَ﴾، أي: مغالين لإطفاء نور الله، وتثييط الناس عن اتباع القرآن، ظانين أنهم يعجزوننا. ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، أي: ساكنوها وملازموها، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم عذابها.

الفوائد والأحكام:

١- تسلية النبي ﷺ تجاه من كذبه من قومه، بإخباره بتكذيب كثير من الأمم قبلهم لرسلمهم؛ ليعلم أنه ليس بأول رسول كذبه قومه؛ تقوية لقلبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى﴾.

٢- أن المصائب إذا عمت خفت؛ كما أن التكاليف إذا عمت خفت.

٣- عناية الله تعالى برسوله ﷺ وتثييته له، وتشريفه عز وجل له بخطابه له بقوله: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ﴾، وقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾.

٤- إثبات رسالة من ذكر من الرسل في هذه الآية، وتكذيب أقوامهم لهم.

٥- الإشارة إلى عظم ما جاء به موسى عليه السلام من الآيات والمعجزات؛ لقوله تعالى: ﴿وَكُذِّبَ مُوسَى﴾، أي: مع ما جاء به من الآيات البيّنات، والدلائل والمعجزات.

٦- إملة الله تعالى للذين كفروا وللقري الظالمة، وإمهالمهم استدراجاً لهم، ثم أخذهم بالعقوبة الشديدة أخذ عزيز مقتدر، وإنكاره عليهم أعظم الإنكار؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ أَتَى مِنَ الْقَرْيَةِ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾.

٧- أن الله عز وجل يمهل ويُنظر ولا يهمل، وإذا أخذ فإن أخذه أليم شديد؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ الآية، وقوله: ﴿أَمَلَيْتُ لَهَا﴾ الآية، وقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٨- إهلاك كثير من القرى المكذبة للرسول، وتهدمها بعد العمران، وسقوط حيطانها على سقوفها، وتعطل آبارها من الوارد والصادر، وخلو قصورها المشيدة من السكان.

٩- التهديد والإنذار للمكذبين له ﷺ من مشركي قريش؛ أن يحل بهم ما حل

بالمكذبين قبلهم.

١٠- التعجب من حال المكذبين والإنكار عليهم؛ كيف وهم يسرون في الأرض بأبدانهم لا يتأملون بعقولهم، ولا ينتفعون بأسماعهم وأبصارهم فيما يسمعون ويشاهدون من آيات الله في الكون، وفي آثار عقوباته للمكذبين، فيعتبروا ويتعظوا؟! لقوله تعالى: ﴿أَقَلَّ مَن يَسِيرُ فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

١١- أن العمى الحقيقي ليس هو عمى الأبصار، وإنما هو عمى القلوب والبصائر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾.

١٢- أن السير في الأرض دون تأمل في آيات الله ونظر، وانتفاع بما منح الله الإنسان من عقل وسمع وبصر لا يفيد شيئا، بل قد يكون حجة عليه.

١٣- أن القلوب محلها الصدور، وكذا العقول؛ فإن العقل دائر بين القلب والمخ.

١٤- استعجال المكذبين النبي ﷺ بالعذاب؛ لجهلهم وظلمهم وعنادهم وشدة تكذيبهم به؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾.

١٥- إثبات أن عذاب المكذبين آتٍ لا محالة، ولا بد من وقوعه؛ لأن الله لا يخلف وعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾.

١٦- إثبات يوم القيامة وطوله وشدة أهواله، والتحذير من ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَوْمَ عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾.

١٧- أن مصير الأمور كلها، ومرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالِإِلَى الْمَصِيرِ﴾.

١٨- أن الرسول ﷺ رسول الناس عامة، نذير بين النذارة؛ كما أنه مبشر لمن آمن منهم، وليس إليه أمر تعجيل العذاب أو تأجيله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

١٩- وعد الله تعالى للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والرزق الكريم والجنة؛ لقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

٢٠- أنه إنما يثاب بالمغفرة والجنة الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات

الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعهم بجوارحهم.

٢١- الوعيد والتهديد للذين سعوا في آيات الله معاجزين، ظانين أنهم سيفلتون من عذاب الله، ومثبطين للناس عن الإيمان بالله وآياته بدخول الجحيم وملازمتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

الواو: استثنائية، و«ما»: نافية، ﴿أَرْسَلْنَا﴾ أي: بعثنا ووجهنا.

﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ الخطاب للنبي - محمد ﷺ، وهو خاتم النبيين، فيعم قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ جميع الأنبياء والمرسلين من لدن آدم - عليه السلام - إلى بعثته ﷺ.

﴿مِنْ رَسُولٍ﴾ ﴿مِنْ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لاستغراق العموم في النفي، أي: ما أرسلنا قبلك أي رسول ولا نبي ﴿إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

والرسول من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه.

﴿وَلَا نَبِيٍّ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: مؤكدة للنفي.

وفي عطف النبي على الرسول: دلالة على أن النبي غير الرسول، فالرسول عند أكثر أهل العلم: من أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، والنبي من أوحى إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه، فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

قال مجاهد: «النبي الذي يُكلم ويُنزل عليه، ولا يرسل»^(١).

وقال البغوي^(١): «الرسول الذي يأتيه جبريل بالوحي عياناً. والنبي: الذي تكون

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٥٠٠).

نبوته إلهامًا».

وقال بعض أهل العلم: «الرسول من أوحى إليه بشرع جديد، والنبي هو المبعوث لتقرير شرع من قبله»^(٢).

﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ﴾ ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر، أو استثناء، ﴿إِذَا﴾ ظرفية شرطية غير عاملة.
﴿تَمَنَّيَ﴾ فعل الشرط، وجوابه ﴿أَلْقَى﴾.

ومعنى ﴿تَمَنَّيَ﴾ أي: تلا وقرأ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ [البقرة: ٧٨]، أي: إلا قراءة، أي: يقرؤون ولا يكتبون^(٣).
﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: ألقى الشيطان في قراءته وتلاوته في مسامع الناس ما لم يقرأه.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «﴿إِذَا تَمَنَّيَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ يقول: إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه»^(٤).

ومراد ابن عباس - رضي الله عنهما، أي: إذا تكلم وقرأ وتلا، ومن هذا قول حسان - رضي الله عنه - في رثاء عثمان بن عفان رضي الله عنه.

تمنى كتاب الله أول ليله وأخره لاقى حمام المقادر^(٥)
وقال الآخر:

تمنى كتاب الله أول ليله تمنى داود الزبور على رسل^(٦)
أي: تلا كتاب الله.

(١) في «معالم التنزيل» (٣/٣٩٣).

(٢) انظر: «روح المعاني» (١٧/١٥٧)، «الرسل والرسالات» ص (١٤، ١٥).

(٣) انظر: «صحيح البخاري مع الفتح» (٨/٤٣٨)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/٥٣٢). وانظر مادة «مني» في «لسان العرب».

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٦/٦٠٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨/٢٥٠٢)، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» (٢/٥٣٠)، وأخرجه البخاري - معلقًا - في تفسير سورة الحج (٨/٤٣٨).

(٥) انظر: «لسان العرب» مادة «مني».

(٦) البيت لحسان بن ثابت - رضي الله عنه. انظر: «البحر المحيط» (٧/٥٢٧)، «روح المعاني» (٩/١٦٤).

وهذا قال أكثر المفسرين^(١).

والمعنى: وما أرسلنا قبلك يا محمد من رسول ولا نبي إلا إذا حدث وقرأ وتلا ألقى الشيطان في حديثه وقراءته وتلاوته، مما لم يقرأه الرسول وإنما ألقاه الشيطان في مسامع الناس.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت لقلبه بذكر ما حصل للرسول والأنبياء قبله - عليه وعليهم الصلاة والسلام.

﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: فيزيل الله - عز وجل - ويبطل ما يلقيه الشيطان، يريد به التلبس على الناس وخلط الحق بالباطل.

وقد روي أنه لما كان ﷺ يقرأ في سورة النجم: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]، ألقى الشيطان في تلاوته: «تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن لترجى» ولما سجد النبي ﷺ في آخر السورة سجد معه المسلمون والمشركون، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ إلى آخر ما جاء في هذه القصة، المسماة: قصة الغرائق.

وقد رويت هذه القصة مطولة ومختصرة عن جمع من السلف منهم ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة والحارث بن هشام والزهري ومحمد بن قيس والضحاك وأبو العالية والمطلب بن عبدالله والسدي وغيرهم^(٢).

وفي أكثر روايات هذه القصة ما لا يليق بمقامه ﷺ، وهي باطلة من وجهين: أولاً: أن هذه القصة لم ترد من وجه صحيح، بل كل طرقها ما بين منكر وضعيف ومرسل ومنقطع، وقد سئل عنها محمد بن إسحاق، فقال: «هذا من وضع الزنادقة»

(١) انظر: «جامع البيان» (١٦/٦٠٩ - ٦١٠)، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٥٠٠)، «معالم التنزيل» (٣/٢٩٣).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٦/٦٠٣) وما بعدها، «تفسير ابن أبي حاتم» (٨/٢٥٠٠)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/٥٢٧ - ٥٢٨، ٥٣٣)، «معالم التنزيل» (٣/٢٩٢).

وقد صنف فيها كتاباً^(١).

وقال البيهقي: «هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، رواها مطعون عليهم، وليس في الصحاح ولا التصانيف الحديثية شيء مما ذكره، فواجب اطراحه، ولذلك نزهت كتابي عن ذكره فيه»^(٢).

وقال القاضي عياض^(٣): «هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة، ولا رواه بسند صحيح سليم متصل ثقة، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون والمولعون بكل غريب والمتلفون من الصحف كل صحيح وسقيم».

وقال القرطبي^(٤): «الأحاديث الواردة في نزول هذه الآية ليس منها شيء صحيح».

وقال ابن كثير^(٥): «قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرائق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طرق كلها مرسلة، ولم أرها مسندة من وجه صحيح - ثم ساق بعض روايات هذه القصة عن سعيد بن جبير وابن عباس والسدي وقتادة وابن شهاب الزهري - ثم قال: قلت: وقد ذكرها محمد بن إسحاق في السيرة بنحو من هذا، وكلها مراسلات ومنقطعات».

ثانياً: أن ما جاء فيها من أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ تلك المقالة مستحيل وقوعه شرعاً؛ لأنه ﷺ معصوم من الخطأ في تبليغ ما أوحاه الله إليه، محفوظ عن الشياطين بحفظ الله - عز وجل - لوحيه. قال - عز وجل: ﴿وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿١١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الحجر: ٩١]، وقال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ

(١) انظر: «البحر المحيط» (٦/٣٨١ - ٣٨٢).

(٢) انظر: «المصدر السابق».

(٣) في «الشفاء» (٢/١٢٤).

(٤) في «الجامع لأحكام القرآن» (١٢/٨٠).

(٥) في «تفسيره» (٥/٤٣٨ - ٤٤٠).

مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت: ٤٢].

قال ابن الجوزي^(١) عما ورد في هذه القصة: «قال العلماء المحققون: وهذا لا يصح؛ لأن رسول الله ﷺ معصوم عن مثل هذا».

ومما ينبغي أن يُعلم أن نص الآية يدل على أن الرسل والأنبياء قبل رسولنا ونبينا محمد- عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام- كان الواحد منهم إذا قرأ وتلا ألقى الشيطان في قراءته وتلاوته، وهذا ظاهر الدلالة من الآية.

وأيضاً فإن الحكمة من ذكر ما حصل للرسل والأنبياء وهي تسليته ﷺ وتثبيت قلبه، وكذا سياق الآيات ومعناها- كل ذلك قد يدل على وقوع شيء من ذلك له ﷺ؛ ولهذا قال عز وجل مخاطباً له ﷺ: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ، فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤].

لكن يجب القطع بأن ما حصل من إلقاء الشيطان إنما هو في مسامع المشركين، لا أن الرسول ﷺ قال ذلك وتكلم به، فذلك مستحيل شرعاً؛ لعصمته ﷺ عن مثل هذا وحفظ الله- عز وجل- لوحيه- كما سبق بيانه- وعلى هذا يجب تنزيل ما رُوِيَ في هذه القصة على فرض صحتها- علماً أن كل أسانيدنا مرسلة ومنقطعة، وضعيفة ومنكرة^(٢).

وعلى هذا أيضاً ينزل سبب سجود المشركين مع المؤمنين لما سجد النبي ﷺ في آخر السورة، كما ثبت في حديث ابن عباس- رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قرأ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس^(٣).

قوله: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: ثم يثبت الله آياته ويجررها ويقررها ويحفظها ويبينها، كما قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَحْكَامَ آيَاتِهِ، ثُمَّ فَصَّلْنَا﴾ [هود: ١]، فتبقى خالصة

(١) في «زاد المسير» (٥/ ٤٤١).

(٢) انظر: «جامع البيان» (١٦/ ٦١٠)، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس (٢/ ٥٢٨ - ٥٢٩، ٥٣٢ - ٥٣٣)، «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/ ١٣٠٢ - ١٣٠٣)، «الشفاء» (٢/ ١٤٢)، «زاد المسير» (٥/ ٤٤١)، «الروض الأنف» (١/ ٢٢٩)، «مجموع الفتاوى» (١٥/ ١٩١)، «فتح الباري» (٨/ ٤٣٩)، «أضواء البيان» (٥/ ٧٣٠)، «نصب المجانيق لنسف قصة الغرائق» للألباني.

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (١٠٧٠)، وفي تفسير سورة النجم (٤٨٦٢)، والترمذي في الجمعة (٥٧٥).

من مخالطة إلقاء الشيطان - تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَنَكْفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

قال ابن القيم^(١): «فالمحكم هنا هو المنزل من عند الله، أحكمه الله، أي: فصله من اشتباهه بغير المنزل، وفصل منه ما ليس منه بإبطاله».

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: إنه - عز وجل - ذو علم واسع محيط بالأشياء كلها في أطوارها الثلاثة؛ قبل الوجود، وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأعراف: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

ولما سئل موسى عن القرون الأولى قال: ﴿عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]، فلا يعتري علمه - عز وجل - جهل سابق، ولا نسيان لاحق، بخلاف المخلوق الضعيف فإنه عرضة للأمرين.

﴿حَكِيمٌ﴾ أي: ذو الحكم التام، بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية، الحاكم الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، المحكم المتقن في خلقه وقدره وشرعه. وبعلمه - عز وجل - الواسع، وحكمه التام، وحكمته البالغة - عصم رسله وأنبياءه من الخطأ في التبليغ، وحفظ وحيه من الشياطين، وأحكم آياته وهو العليم الحكيم.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [٥٣].

قوله: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ اللام في ﴿لِيَجْعَلَ﴾ للتعليل، أي: لأجل أن يجعل. والمراد بالجعل هنا: الجعل الكوني القدري. و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ موصولة أو مصدرية، أي: الذي يلقيه

(١) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢١٩).

الشیطان، أو إلقاء الشیطان، من الجن أو الإنس. ﴿فَتَنَّةٌ﴾ ابتلاءً وامتحاناً.

﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ مرض القلوب نوعان: مرض حسي، ومرض معنوي، وهو أشد، وينقسم إلى قسمين: مرض شهوة، وينقسم إلى ثلاثة أقسام: شهوة اتباع هوى، وشهوة فرج، وشهوة بطن، والقسم الثاني: مرض شبهة وشك ونفاق، وهو المراد هنا في الآية.

والمعنى: ومن علمه - عز وجل - الواسع - وحكمه التام، وحكمته البالغة أن قدر كوناً ما يحصل من إلقاء الشیطان في قراءة رسله وأنبيائه؛ ليجعل ما يلقيه الشیطان ابتلاءً وامتحاناً للذين في قلوبهم مرض شبهة وشك ونفاق.

﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ويجعل ما يلقيه الشیطان؛ ابتلاءً وامتحاناً للقاسية قلوبهم من المشركين واليهود وغيرهم من الكفار؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسَوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

قال ابن كثير (١): «﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وشرك وكفر ونفاق، كالمشركين فرحوا بذلك واعتقدوا أنه صحيح، وإنما كان من الشيطان».

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ من أهل الشرك والكفر والشك والنفاق من اليهود وغيرهم.

والظلم في الأصل: النقص، قال تعالى: ﴿كَلْنَا الْجِنِّينَ إِذْ نَزَّلْنَا الْكُتُبَ عَلَيْنَا أَعْتَدُوا لَنَا أَعْيُنًا مُغْمَضَةً وَالظَّالِمِينَ﴾ [الكهف: ٣٣]، وهو وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، ولا أظلم ممن عبد غير الله وأشرك معه غيره؛ لأن حق الله - عز وجل - هو أعظم الحقوق وأوضحها

(١) في «تفسيره» (٥/٤٤٢).

وأبينها؛ ولهذا قال تعالى حكاية عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَبْنِي لَأَتُشْرِكَ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (١٣) [لقمان: ١٣].

﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ أي: لفي مشاققة ومحادة ومخالفة وللدينه ورسوله ﷺ، والشقاق والمشاقة: المحادة والمخالفة والمعاندة، مأخوذ من الشق وهو الجانب والحد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٥، ٢٠].

﴿بَعِيدٍ﴾ أي: بعيد كل البعد عن الموافقة والمتابعة، بالغ الغاية في المخالفة؛ لتماذيمهم وإغراقهم في الظلم والكفر والضلال، فهم بعيدون كل البعد عن الرجوع إلى الحق بسبب زيغهم وضلالهم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَقَلِبْ أَوْدَانَهُمْ وَابْصُرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٠) [الأنعام: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٥٤).

قوله: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الواو: عاطفة، واللام للتعليل، أي: ولأجل أن يعلم الذين أعطوا العلم النافع؛ العلم بالله وشرعه، والذي يفرقون به بين الحق والباطل، أي: الذين جمع الله لهم بين العلم والإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ [الروم: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَبَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (٦) [سبأ: ٦].

﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: أن القرآن الكريم الذي أنزلناه إليك وأحكمنا آياته هو الحق الثابت من ربك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦].

﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي: فيصدقوا به. ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: فتلين وتخضع وترق وتذل له قلوبهم وتطمئن وتخضع

وتُسَلِّم؛ مما يكون سبباً في انقياد جوارحهم، كما قال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»^(١).

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هذا وعد من الله - عز وجل - للذين آمنوا بدلالته وإرشاده لهم وتوفيقهم إلى صراط مستقيم.

وهداية الله - عز وجل - للمؤمنين تنقسم إلى قسمين، هداية الدلالة والإرشاد والبيان - وهذه عامة لهم ولغيرهم، وهداية التوفيق والقبول - وهذه خاصة بالمؤمنين.

﴿إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى طريق معتدل لا اعوجاج فيه، بمعرفة الحق والعمل

به، وهو صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(١١٣) [البقرة: ٢١٣، النور: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وقال

تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥٦) [هود: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٤١) [الحجر: ٤١]، وقال عز وجل لنبيه - عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي

إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٥٢) صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ^(٥٣) [الشورى: ٥٢، ٥٣].

وهو صراط المنعم عليهم بالعلم النافع والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ^(٧) [الفاتحة: ٦، ٧].

ومن هداه الله وأرشده ووفقه للطريق المستقيم في الدنيا هداه إلى الطريق المستقيم في الآخرة، لجواز الصراط الحسي على متن جهنم ودخول الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيئَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ

عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾^(٥٥).

قوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيئَةٍ﴾ أي: ولا يزال الذين كفروا بالله وجحدوا

دينه وشرعه في شك وريب من الحق الذي أنزل إليك وهو القرآن الكريم.

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ حتى: لانتهاء الغاية، أي: حتى تأتيهم القيامة فجأة،

(١) أخرجه البخاري في الإبان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٥٩٩)، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٤) - من

حديث النعمان بن بشير - رضي الله عنه.

ويجال بينهم وبين الإيوان، وسميت القيامة بالساعة؛ لأنها محددة الوقوع، كما قال تعالى:

﴿قُلْ لَكُمْ مِعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٠) [سبأ: ٣٠].

﴿أَوْ يَأْتِيهِمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ﴾ ﴿أَوْ﴾ عاطفة بمعنى الواو، أي: ويأتيهم عذاب يوم عقيم، وهو يوم القيامة.

ومعنى ﴿عَقِيمٍ﴾ أي: شر محض عليهم لا خير فيه البتة، كما قال تعالى: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿١﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ سِيرٍ ﴿١٠﴾﴾ [المدثر: ٩، ١٠].

وهذا كما سمي الله - عز وجل «الريح الدبور» التي أهلك بها عادًا بالريح العقيم، لأنها شر محض لا خير فيها، أهلكت كل شيء أتت عليه كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿١١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرَّمِيمِ ﴿١٤﴾﴾ [الذاريات: ٤١، ٤٢]. وقيل: سمي عقيمًا لأنه لا ليل له.

ويحتمل كون ﴿أَوْ﴾ على معناها للتقسيم وهو الأصل، والمراد باليوم العقيم يوم بدر الذي قتل فيه سبعون من صناديدهم، فهو عقيم بالنسبة لهم لا خير لهم فيه البتة، ويقوي هذا ذكر الساعة قبله، أي: أو يأتيهم عذاب يوم عقيم وهو يوم بدر؛ فيقتلون على الكفر. ويقوي أن المراد به يوم القيامة: قوله تعالى بعد ذلك: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]، أي: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم تأتيهم الساعة.

الفوائد والأحكام:

- ١- تسلية النبي ﷺ تجاه ما يلاقه من أعدائه من شياطين الجن والإنس - بذكر ما حصل للرسل والأنبياء - قبله - عليهم الصلاة والسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَتَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.
- ٢- إثبات الرسائل والنبوات، وأنها جاءت من عند الله - عز وجل.
- ٣- الإشارة إلى كونه ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾.
- ٤- أن النبي غير الرسول، وكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رُسُلٍ وَلَا نَبِيِّ﴾ والعطف يقتضي المغايرة.

- ٥- حرص الشيطان- لعنه الله- على تشكيك الناس فيما جاءت به الرسل والأنبياء والتليس عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْوَقَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ﴾.
- ٦- حفظ الله- عز وجل- لوحه ورسله وما أنزله عليهم، وإبطال ما يلقي الشيطان وإزالته، وإحكام آياته- عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُمْ﴾.
- ٧- إثبات صفة العلم الواسع لله- عز وجل- والحكم التام بأقسامه الثلاثة، الكوني والشرعي، والجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.
- ٨- ابتلاء الله- عز وجل- وامتحانه لمرضى القلوب وقساتها من المنافقين والكفرة بما يلقيه الشيطان للتليس عليهم وتشكيكهم في الدين؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ٩- عظم مشاققة الظالمين، من مرضى القلوب وقساتها من المنافقين والكفرة وبعدهم كل البعد عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.
- ١٠- أن الظلم كل الظلم بمعصية الله- عز وجل- ومخالفة أمره وتكذيب رسله وعبادة غيره.
- ١١- تثبيت الذين أتوا العلم بمعرفتهم أن ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي من عند الله- عز وجل- هو الحق وإيمانهم به، وخضوع قلوبهم له، وعدم اغترارهم بما يلقيه الشيطان؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾.
- ١٢- فضل العلم وأهله؛ لأن الله- عز وجل- امتدحهم بمعرفة أن ما جاءت به الرسل هو الحق وإيمانهم به وإخبات قلوبهم له.
- ١٣- تعظيم ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي؛ لقوله: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ بالإضمار دون الإظهار.
- ١٤- تشريف الرسول ﷺ وتكريمه بإضافة اسم الرب- عز وجل- إلى ضميره ﷺ،

وربوبية الله تعالى الخاصة له؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾.

١٥- وعد الله - عز وجل - وتكفله للذين آمنوا بدلاتهم وإرشادهم وتوفيقهم إلى طريق مستقيم وهو معرفة الحق والعمل به، والذي يسعدون بسلوكه في الدنيا بالحياة الطيبة، ويسعدون في الآخرة بالنجاة من النار ودخول الجنة؛ لقوله تعالى:

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

١٦- استمرار الذين كفروا على ما هم عليه من المرية والشك والريب فيما جاءهم به الرسول ﷺ من الحق حتى تأتيهم القيامة وما فيها من العذاب الأليم والوعيد والتهديد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ

بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَخْضَعُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَالنَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾.

قوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَخْضَعُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٧﴾.

لما ذكر استمرار الذين كفروا في التشكيك في القرآن، وتوعدهم بالساعة وعذاب يوم القيامة، أتبع ذلك ببيان أن الملك في ذلك اليوم له وحده، يفصل بينهم. قوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾، أي: الملك في ذلك اليوم - يوم القيامة، يوم تزول مرتبهم وشكهم - لله وحده، لا لغيره، ﴿يَخْضَعُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: يفصل بينهم بحكمه العدل وقضائه الفصل.

والملك لله تعالى اليوم، وفي ذلك اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤ - ٥]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

ولكن في ذلك يتضح ويتبين ويظهر تمام الظهور تفرده وحده بالملك، ويخضع جميع ملوك الدنيا وما ملكوه له عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩]، وقال تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلْحَقِّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٦١﴾﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤٌ لَا يُخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنَ الْمَلِكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٦٢﴾﴾ [غافر: ١٦].

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله ورسله وما جاؤوا به، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الصلاة والزكاة وغير ذلك، فصدقوا إيمانهم بعملهم.

﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: كفروا بالله ورسله، واستكبروا عن الإيمان واتباع الحق، وأعرضوا عنه.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، أي: جحدوها وأنكروها.

﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم، أي: لهم خاصة عذاب يهينهم ويذلهم حسياً ومعنوياً، بسبب كفرهم واستكبارهم، واستهانتهم بأمر الله ورسله وآياته؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [غافر: ٦٠]، أي: صاغرين ذليلين.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

لما ذكر ما أعد للمؤمنين من جنات النعيم، ذكر في هذه الآية ما أعد للمهاجرين في سبيل الله خاصة من الرزق الحسن، والمدخل العظيم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾، أي: خرجوا من ديارهم وأوطانهم وهجروها وتركوا أولادهم وأموالهم.

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، أي: ابتغاء وجه الله ونصرة لدينه.

﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾، أي: في الجهاد في سبيل الله.

﴿أَوْ مَاتُوا﴾ من غير قتل، على فرشهم أو غير ذلك.

أي: فهم في أجر الهجرة سواء، لهم الأجر الجزيل والثناء الجميل؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: ١٠٠]،

ولهذا قال:

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: ليعطينهم الله

عطاء حسناً في البرزخ بنعيم القبر، وفي يوم القيامة في الجنة، رزقاً يجمع لهم بين الحسن

والإحسان، والروح والريحان، ونعيم القلب والروح والبدن.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزَاقِينَ﴾ اللام: للتوكيد، والمفاضلة لا تعني أن هناك رازقاً غير الله، بل إن الله تعالى هو الرازق وحده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [هود: ٦].

﴿لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يُرِضُونَهُ﴾ اللام لام القسم لقسم مقدر.

﴿مَدْخَلًا﴾ قرأ نافع: «مَدْخَلًا» بفتح الميم اسم مكان، وقرأ الباقون:

﴿مَدْخَلًا﴾ بضم الميم مصدرًا ميميًّا، أي: ليدخلنهم الجنة دار الرضوان؛ كما قال تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٦١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٦٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٦٣﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٦٤﴾﴾ [الحاقة: ٢١-٢٤].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٧٧﴾ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً ﴿٧٨﴾ فَأَدْخُلِي فِي

عِبَادِي ﴿٧٩﴾ وَأَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٨٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [التوبة: ٢١].

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لذو علم واسع لكل شيء، عليم بمن يهاجر

ويجاهد في سبيله، ويستحق ما ذكر من ليس كذلك.

﴿حَلِيمٌ﴾، أي: ذو حلم واسع، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهله لعله

يتوب، ولا يمهله.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ

إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ مُّقِيمٌ﴾:

قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: الأمر أو

الشان.

﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ﴾.

هذا- والله أعلم- من باب التهيئة والتوطئة للجهاد، والتأكيد للنصر الذي سبق

الوعد به بقوله: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَالِمُونَ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٦١﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ

دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّهَدَمَتِ صَوَامِعُ

وَبِعَ وَصَلَاتٍ وَمَسْجِدٍ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠]، قوله: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾، أي: ومن جازى ظالماً واستوفى حقه منه.

﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ﴾ «ما»: موصولة، أي: بمثل الذي عوقب به، أي: بمثل اعتداء هذا الظالم عليه، ولم يتعد في الاقتصاص وسمي الاعتداء معاقبة من باب المشاكلة؛ لقوله: ﴿عَاقَبَ﴾.

﴿ثُمَّ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ﴾، أي: ثم اعتدى عليه مرة أخرى بسبب أنه استوفى حقه. ﴿لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ﴾ اللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله لينصره الله. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ عَفُورٌ﴾ الجملة: استئنافية، واللام: للتوكيد، أي: أن من صفته عز وجل العفو والتجاوز، مع تمام قدرته على الانتقام؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوقًا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩].

﴿عَفُورٌ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة، والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عنه.

وحيث اجتمعت صفة العفو والمغفرة، فيحمل العفو على التجاوز عن الذنوب، ويحمل العفور على سترها عن الخلق.

وفي ختم الآية بهاتين الصفتين ترغيب في العفو والصفح والمغفرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَفُّواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التغابن: ١٤].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾، أي: ذلك النصر بسبب أن الله عز وجل ذو القدرة التامة والتصرف المطلق في خلقه بما يشاء: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾، أي: يدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، فيزيد في أحدهما ما ينقصه من الآخر، ثم العكس، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل، كما في الصيف.

قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ نُورِي الْمَلِكِ مَنْ نَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ يَمَنْ نَشَاءُ وَتَعَزُّ مَنْ نَشَاءُ وَتُذَلُّ مَنْ نَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦-٢٧].

ويترتب على ذلك اختلاف الفصول، وذلك من أجل نعم الله تعالى على العباد؛ لما في ذلك من المنافع للإنسان والحيوان والنبات، وغير ذلك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾، أي: ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات.

﴿بَصِيرٌ﴾، أي: ذو البصر الذي يبصر ويرى كل شيء، يرى النملة السوداء تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

فهو عز وجل سميع لأقوال عباده بصير بهم، لا تخفى عليه منهم خافية، قال تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ [الرعد: ١٠].

يا من يرى مد البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها والمخ من بين العظام النحل
امن علي بتوبة تمحوها ما كان مني في الزمان الأول^(١)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، أي: بسبب أن الله هو الحق الثابت، فذاته حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسمائه حق، وقدره حق، وشرعه حق، ووعدته حق، ولقاؤه حق، وجزاؤه حق، وهو الحق المبين؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَطْلُ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب وحزمة والكسائي وخلف وحفص بالغيب: ﴿يَدْعُونَ﴾.

(١) الأبيات تنسب للزنجشري، ولغيره، مع اختلاف فيها. انظر: «الكشاف» ١/١١٦، «ربيع الأبرار» ١/١٠، «المستطرف» ص ٣٥٢، «الكشكول» ٢/٢٩١، «التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة» ص ٤٦٤.

وقرأ الباقر بالخطاب: «تدعون»، والجملة والتي بعدها في محل جر عطفًا على قوله: ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾.

و«ما»: موصولة، أي: وأن الذي يدعونه ويعبدونه غير الله من الأصنام والأنداد والأوثان.

و«الباطل»: إما أن يكون في الطلب فيكون كذبًا، وإما أن يكون في الحكم فيكون جوراً، وقوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ يشمل الأمرين: دعواهم أن هذه آلهة، وهذه دعوى كاذبة، وعملهم لهذه الآلهة وعبادتهم لها، وهو جور وظلم، حيث يعدلون المخلوق بالخالق. فدعوى ألوهيتها كاذبة باطلة، وهي معبودات باطلة؛ لأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعًا ولا ضرًا، وعبادتها باطلة تبعًا لذلك.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، أي: وذلك بأن الله هو العلي الكبير؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

و«العلي»: اسم من أسماء الله عز وجل، يفيد أنه سبحانه ذو العلو المطلق على جميع خلقه، بذاته وصفاته، وقدره وقهره.

و«الكبير»: اسم من أسمائه عز وجل، يفيد أنه ذو الكبرياء والعظمة، الذي لا أعظم منه، ولا أكبر منه؛ كما قال عز وجل: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري»^(١).

فله عز وجل كل صفات العلو والعظمة والكبرياء والكمال والجلال، وله من كل صفة منها أكملها وأجلها.

الفوائد والأحكام:

١- أنه في يوم القيامة يتبين ويتضح ويظهر تمام الظهور تفرد الله عز وجل وحده بالملك؛ حيث يخضع له في ذلك جميع الملوك وما ملكوا وجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

٢- حكم الله تعالى في ذلك اليوم وقضائه بين الخلق جميعًا، وفصله بين أهل الحق وأهل الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾.

٣- إثابة الذين آمنوا وعملوا الصالحات بإدخالهم جنات النعيم، وعقاب الذين

(١) أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

كفروا وكذبوا بآيات الله بالعذاب المهين؛ لقوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٢﴾﴾.

٤- أن من شرط الإيمان أن يقرب بالعمل، وأن من شرط العمل أن يكون خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه.

٥- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، والترهيب من الكفر والتكذيب بآيات الله.

٦- الجمع للكفار والمكذبين بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي المذل والمهين لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥٢﴾﴾.

٧- فضيلة الهجرة في سبيل الله، والشهادة في سبيله؛ لعظم ما أعد الله لمن هاجروا في سبيله، ثم قتلوا أو ماتوا، من الرزق الحسن، والمدخل الذي يرضونه، وهو الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٣﴾ لِيَدْخُلَنَّهُمْ مَدْخَلًا يُرْضَوْنَهُ ﴿٥٤﴾﴾.

٨- أن الممدوح والمعتبر من الهجرة هو ما كان في سبيل الله، أي: لنصرة دين الله وإقامة شرعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٥٤﴾﴾.

٩- أن من هاجر في سبيل الله فله أجر هجرته سواء قتل، فاجتمع له أجر الهجرة وأجر الشهادة، أو مات بدون قتل فنال أجر الهجرة فقط.

١٠- أن الرزق من الله تعالى وحده، وأن الله تعالى هو خير الرازقين؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

١١- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل المحيط بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٦﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٥٧﴾﴾ [طه: ٩٨].

١٢- إثبات صفة الحلم الواسع لله عز وجل، وأنه عز وجل لا يعاجل من عصاه بالعقوبة، بل يمهل له ليتوب ولا يهمله؛ لقوله تعالى: ﴿حَلِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾.

١٣- جواز رد الظلم والاعتداء بمثله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ﴿٥٩﴾﴾.

١٤- وعد الله تعالى لمن استوفى حقه من ظلمه، ثم عاد ظلمه فاعتدى عليه؛ بنصره

تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْتَهُ اللَّهُ﴾.

١٥- إثبات صفتي العفو والمغفرة الواسعتين لله تعالى؛ فهو سبحانه عفو يتجاوز عن ذنوب عباده، غفور لهم، يستر ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غُورٌ﴾.

١٦- إثبات تمام قدرة الله تعالى على نصر من بُغِيَ عليه، وعلى تدبير الكون كله، وإدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، وترتيب المصالح العظيمة على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾.

١٧- إثبات صفتي السمع والبصر لله تعالى، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع لجميع الأصوات، وذو البصر النافذ يشاهد ويرى جميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

١٨- أن الله عز وجل هو الحق وحده، فربوبيته حق، وألوهيته حق، وأسمائه وصفاته حق، وشرعه حق، وقدره حق، ووعدته حق، ولقاؤه حق، وجزاؤه حق، وهو الحق المبين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾.

١٩- أن كل ما يعبد من دون الله فهو باطل زائل مضمحل؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾.

٢٠- إثبات اسم الله تعالى «العلي»، وأنه سبحانه ذو العلو المطلق بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾.

٢١- إثبات اسم الله تعالى: «الكبير»، وأنه لا أكبر منه ولا أعظم؛ لقوله تعالى: ﴿الْكَبِيرُ﴾.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴿١٧﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْفَيْصَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَفِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿١٦﴾﴾

ذكر عز وجل من دلائل تمام قدرته وعظيم سلطانه إدخال الليل بالنهار والنهار بالليل، وأنه الإله الحق، وبطلان ما يعبد من دونه، وكمال علوه وكبريائه وعظمته، ثم أكد ذلك بذكر إنزاله المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، وتسخير ما في الأرض للناس، والفلك تجري في البحر بأمره، وإمساكه السماء من السقوط، وإحياء الخلق ثم إمامتهم ثم إحيائهم مرة أخرى.

قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الاستفهام في الموضعين: للإخبار والتقرير، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك أن الله بقدرته التامة أنزل من السماء، أي: من العلو، ماءً وهو المطر، بعد أن أوجد أسبابه فأنشأ السحاب ولقحه بالرياح؟ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْلَتَ سَحَابًا نِثْقًا لَسُقْنَلَهُ لِيَكِدَّ مَيْتًا فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾ الفاء: للتعقيب، أي: فتصير الأرض مخضرة بأصناف النباتات بعد أن كانت جرزًا جرداء مجدبة يابسة قاحلة؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥٠﴾﴾ [الحج:

[٥]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِيعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ وَعَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ [فصلت: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [السجدة: ٢٧].

قال الشاعر:

وقولا له من ينبت الحب في الثرى فيصبح منه البقل يهتز رابيا
ويخرج منه حبه في رؤوسه ففي ذاك آيات لمن كان واعيا (١)
﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾، أي: ذو اللطف التام، يدرك أسرار الأمور وحكمها ودقائقها
وخفياتها، وذو اللطف والإحسان إلى عباده، والتيسير عليهم، والتخفيف عنهم.
قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام:
١٠٣]، وقال تعالى: ﴿يَبْجَتِ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي
الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ
اللطيفُ الخبيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْتَ مَا بَيْنَكَ فِي بَيْوتِكَ مِنْ
آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةَ إِنْ اللَّهُ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ
بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ [الشورى: ١٩].

قال ابن القيم (٢):

وهو اللطيف بعبده ولعبده واللطيف في أوصافه نوعان
إدراك أسرار الأمور بحكمة واللطيف عند مواقع الإحسان
﴿خَبِيرٌ﴾، أي: ذو الخبرة التامة الواسعة بدقائق الأشياء، وخفايا الأمور، وما
تكنه الصدور؛ كما قال تعالى: ﴿يَبْجَتِ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي
السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].
﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: له وحده خلقًا وملكًا وتدبيرًا جميع

(١) البیتان لأمية بن أبي الصلت، أو زيد بن عمرو بن نفيل. انظر «تفسير ابن كثير» ٥ / ١٦٦.

(٢) «النونية» ص ١٤٩.

الذي في السموات والذي في الأرض من المخلوقات والعوالم.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ «إن» واللام: للتوكيد. و«الغني» من أسماء الله عز وجل، أي: وإنه سبحانه ذو الغنى المطلق التام من جميع الوجوه، عن جميع خلقه؛ لسعة ملكه وعظيم قدرته وقوة سلطانه، وكثرة خزائنه وملاءتها وغير ذلك، والخلق كلهم محتاجون إليه.

﴿الْحَمِيدُ﴾ اسم من أسمائه عز وجل، أي: المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وقدره وشرعه، وغير ذلك، المحمود في غناه؛ لعظيم كرمه، وواسع جوده، يده سحاء الليل والنهار.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: سخر لكم جميع الذي في الأرض، مما على ظاهرها من حيوان ونبات وجماد، ومما في باطنها من معادن وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

﴿وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾، أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾، أي: تسير على ظهر الماء وتمخر عباب البحر بأمره الكوني وتسخره، تحملكم وتحمل أمتعتكم وتجاراتكم من بلد إلى آخر، ومن مكان إلى مكان.

﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ «أن» والفعل «تقع» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله، أي: لئلا تقع، أو خشية أن تقع.

أي: ومن لطفه ورأفته ورحمته وتمام قدرته؛ يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه وأمره الكوني، وفي هذا تخويف للعباد بأنه لو شاء أسقط السماء على الأرض فهلك من فيها؛ إذ لا ممسك لها غيره؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١].

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وجملة: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ استئنافية، وفيها معنى التعليل للتسخير والإمسك، أي: لأن الله بالناس ﴿لَرُءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: ذو رأفة

ورحمة، والرأفة: شدة الرحمة؛ فهي أخص من الرحمة، فهو عز وجل ذو رأفة ورحمة عامة بجميع الناس، وذو رأفة ورحمة خاصة بالمؤمنين منهم، ومن رأفته ورحمته بالناس سخر لهم ما سخر من المخلوقات، وأمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ بإيجادكم وخلقكم من العدم بخلق أبيكم آدم من تراب؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنِى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى عليه وقت كان عدماً.

وأحياكم أيضاً: بخلقكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم كسا العظام لحماً، ثم أرسل إليه الملك فنفخ فيه الروح فصار خلقاً آخر.

﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد أن أحياكم.

﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ مرة أخرى وبيعتكم للحساب والجزاء على الأعمال؛ كما قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمَوتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجنات: ٢٦].

أي: فكيف تعبدون معه غيره وهو المستقل بالإحياء والإماتة؟ ولهذا يقول الكفرة والمكذبون معترفين حين لا ينفعهم الاعتراف: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَثْنَتَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١].

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾، أي: جنس الإنسان ﴿لَكَفُورٌ﴾ اللام: للتوكيد، أي: شديد الكفر والجحود لربه ولنعمه، إلا من هداه الله ووفقه، مع رأفة الله تعالى ورحمته به؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأُدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [٦٧] وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يُحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾.

قوله: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ﴾، أي: لكل أمة نبي، ﴿جَعَلْنَا﴾ جعلاً شرعياً، أي: شرعنا ﴿مَنسَكًا﴾، أي: عبادة ومتعبداً وشرعية؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً

وَمِنْهَا جَاءَ وَأَوْشَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَ كُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتِكُمْ ﴿[المائدة: ٤٨].

وقال ﷺ: «الأنبياء أولاد علات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد» (١).

ويحتمل أن يكون المعنى: ولكل أمة من الأمم جعلنا منسكاً جعلاً قدرياً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٍ هُوَ مَوْلَاهُ فَاَسْتَبِقُوا الْحَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

﴿هُم تَأْسِكُوهُ﴾، أي: متعبدون به شرعاً، أو قدرًا.

﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ﴾، أي: فلا ينازعك يا محمد هؤلاء المشركون المكذبون وبخاصمونك ويجادلونك.

﴿فِي الْأَمْرِ﴾، أي: في الأمر الذي أنت عليه، وتدعو إليه، وهو توحيد الله تعالى.

والمعنى: فلا تبالهم؛ فأنت على الحق، فلا يشبطونك ويشنونك عن دعوتك؛ ولهذا

قال: ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾، أي: واستمر على الدعوة إلى ربك.

كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [القصص: ٨٧].

﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ الجملة تعليل للأمر بالدعوة إلى ربه، أي: لأنك على

هدى مستقيم، أي: على طريق واضح معتدل موصل إلى المقصود، بالعلم النافع

والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

والمراد: إنك على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فاستمر في دعوتك؛ كما قال

تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

﴿وَإِنْ جَادَلُوكَ﴾، أي: وإن جادلوك المكذبون والمشركون وخاصموك فيما جئت به

من الحق.

﴿فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾، أي: فقل لهم: الله أعلم بعملكم، أو بالذي

تعملونه، وفي هذا تهديد شديد لهم ووعد أكيد؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَهَيِّ

بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٤٣، ومسلم في الفضائل ٢٣٦٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بَرِيْفُونَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيْفٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾ [يونس: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَدْلِكِ فَادْعُ
وَأَسْتَقْفِرْ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ هُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ
بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْتُمْ لِحُجَّةٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا
وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ [الشورى: ١٥].

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦﴾﴾، أي: يفصل بينكم
يوم القيامة في الذي كنتم فيه تختلفون في الدنيا، فيجازي كل فريق بما عمل؛ كما قال
تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُؤَمِّدُ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي
رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ
مُخْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم: ١٤-١٦].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾:

لما ذكر حكمه بين الخلائق يوم القيامة، أتبع ذلك بما يدل على كمال حكمه؛ وهو
إحاطة علمه بما في السماء والأرض، وكتابته ذلك في اللوح المحفوظ.

قوله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ﴾ الاستفهام للإخبار والتقرير، أي: اعلم ذلك، أو أنت تعلم بما
علمك الله.

﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: أن علمه محيط بجميع الذي في
السماء والأرض من المخلوقات.

﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾، أي: إن ذلك مكتوب عنده في كتاب عظيم، وهو اللوح
المحفوظ، الذي كتب فيه كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا
هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ
وَلَا يَأْسِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ
ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس: ٦١].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن
أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: يا رب، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير

كل شيء حتى تقوم الساعة، فجرى بها هو كائن إلى الأبد»^(١).
وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»^(٢).

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾، أي: إن ذلك المذكور؛ وهو علمه ما في السماء والأرض، وكتابة ذلك في اللوح المحفوظ، ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾، أي: سهل وهين عليه عز وجل؛ لأنه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات وتقدير كمال قدرة الله تعالى ورحمته ومنتته بإنزال المطر، وإحياء الأرض بعد موتها، وجعلها مخضرة زاهية بعد أن كانت يابسة جرداء، والاستدلال بذلك على وحدانيته وقدرته التامة على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿الْمُرْتَدَّ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَةً﴾.

٢- إثبات صفة اللطف لله عز وجل، فهو سبحانه ذو اللطف بعباده والرفق بهم والإحسان إليهم، وهو ذو اللطف بإدراك أسرار الأمور وخفياتها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾.

٣- إثبات أنه سبحانه ذو الخبرة التامة الواسعة بدقائق الأشياء وخفايا الأمور، وما تكنه الصدور، وذو العلم بالظاهر والمستور؛ لقوله تعالى: ﴿خَبِيرٌ﴾.

٤- إثبات سعة ملك الله عز وجل، وأن له جميع الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقاً وملكاً وتدبيراً؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٥- إثبات اسم الله «الغني»، وأنه عز وجل ذو الغنى المطلق التام من جميع الوجوه، خزائنه ملأى، لا تغنيها كثرة النفقة، وكل الخلق محتاجون إليه، لا غنى لهم عنه؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾.

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر، ٤٧٠٠، والترمذي في تفسير سورة «ن» ٣٣١٩، وقال: «حديث حسن صحيح غريب». وأحمد ٣١٧/٥.

(٢) أخرجه مسلم في القدر، حجاج آدم وموسى عليها السلام ٢٦٥٣.

٦- إثبات اسم الله «الحميد»، وأنه سبحانه المحمود في ذاته وأسمائه وصفاته وقدره وشرعه وجزائه، وغير ذلك، المحمود في غناه؛ لعظيم كرمه وواسع جوده؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمِيدُ﴾.

٧- الامتنان على العباد بتسخير الله لهم ما في الأرض، وتسخير الفلك تجري في البحر بأمره، وإمساكه عز وجل السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبيان تمام قدرته على ذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِي تَرَى أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

٨- إثبات إذن الله تعالى وأمره الكوني؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

٩- تخويف العباد بأنه عز وجل لو شاء أسقط السماء على الأرض فهلك من فيها.

١٠- إثبات صفة الرأفة لله تعالى، وأنه سبحانه رؤوف بالناس كلهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ﴾.

١١- إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل، وأنه عز وجل ذو الرحمة العامة لجميع الناس؛ لقوله تعالى: ﴿رَحِيمٌ﴾، وفي هذا دلالة على أن «الرحيم» لا يختص بالرحمة الخاصة بالمؤمنين، بل يدل على الرحمة العامة لجميع الناس، وعلى الرحمة الخاصة بالمؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

١٢- إثبات عظمة الله تعالى ووحدانيته، وتمام قدرته؛ لأنه سبحانه الذي خلق الخلق ثم يميتهم ثم يحييهم، والاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

١٣- أن الإنسان كفور بربه، جحود لنعمه، إلا من وفقه الله وهداه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾.

١٤- أن الله جعل شرعاً لكل أمة نبي منسكاً ومتعبداً وشرعية هم متعبدون به؛ كما جعل لكل أمة من الأمم منسكاً ومتعبداً هم متعبدون به؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾.

١٥- تقوية عزيمته ﷻ، ونهيه عن الالتفات إلى منازعة قومه، وأمره بالاستمرار بالدعوة إلى ربه؛ لأنه على هدى مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى

رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

١٧- أمره بالتحذير والتهديد للمجادلين له بالباطل بعلم الله عز وجل بعملهم، وأنه سيحاسبهم ويجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَدَلُواكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

١٨- إثبات علم الله تعالى بأعمال العباد وما يبدون وما يكتُمون، وأنه أعلم بذلك منهم ومن غيرهم.

١٩- فصل الله تعالى بين الخلائق يوم القيامة، وبين المؤمنين والكافرين، ومجازاة كل فريق بما عمل، وإدخال المؤمنين جنات النعيم، وسوق المجرمين إلى دار الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَخْتَرُ بَيْنَكُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

٢٠- إثبات يوم القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٢١- إثبات وتقرير علم الله تعالى بجميع ما في السماء والأرض، وكتابته ذلك باللوح المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴿٢١﴾﴾.

٢٢- إثبات اللوح المحفوظ، وأن الله تعالى كتب فيه كل شيء.

٢٣- أن إحاطة علمه عز وجل بما في السموات والأرض وكتابته ذلك كله في اللوح المحفوظ في الأزل، ووقوع ذلك كما علمه عز وجل وكتبه أمر عليه يسير؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنَ نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كَرِيمُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرِ الْمَصِيرِ ﴿٧٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ تَارَةً الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنَ نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كَرِيمُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرِ الْمَصِيرِ ﴿٧٢﴾

قوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: ويعبد هؤلاء المشركون المكذوبون غير الله.

﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، «ما»: موصولة، أي: الذي لم ينزل به حجة ولا برهانًا على جواز عبادته، بل أنزل الحجج والبراهين على بطلان عبادته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧].

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، أي: والذي ليس لهم به علم، بل عبوده على جهل وتقليد أعمى لأبائهم، مما سوله لهم الشيطان وزينه.

﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والشرك بالله ﴿مِن نَّصِيرٍ﴾ ينصرهم ويدفع عنهم عذاب الله. وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: وما لهم؛ لبيان أن سبب الوعيد لهم وانتفاء النصير عنهم هو ظلمهم بالشرك والكفر.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾، أي: وإذا تقرأ على هؤلاء المشركين آيات القرآن والحجج والدلائل الواضحات على وحدانية الله تعالى وصدق ما جاءت به الرسل عليهم السلام.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ الخطاب لكل من يصلح له، بدليل قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، أي: ترى الكراهة ظاهرة على وجوههم. ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَلَوْنَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾، أي: يكادون من شدة الغيظ والغضب من سماع القرآن، ﴿يَسْطُونَ﴾، أي: يبطشون بالذين يقرؤون عليهم آيات الله.

﴿قُلْ﴾، أي: قل هؤلاء الظالمين الكارهين لتلاوة القرآن عليهم. ﴿فَأَنْتُمْ كُرْهُمُ﴾ الهمزة للاستفهام، وفيه تهكم بهم، ﴿بِشَرِّ قَوْمٍ ذَلِكُمُ النَّارُ﴾ الإشارة إلى ما أثار نكرهم وغضبهم وحفيظتهم، أي: إذا كنتم تستأثرون عند تلاوة القرآن عليكم وتكرهون ذلك ويغضبكم، وتعدونه في نظركم الفاسد وقلوبكم القاصرة شرًا، فأخبركم بما هو شر لكم من ذلكم: النار وعذابها الشديد، فمآلكم ومصيركم إليها، وهي أشد وأعظم مما تخوفون به المؤمنون وتنالون منهم في الدنيا.

﴿وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لم يقل: وعدكم الله إياها، وإنما قال: ﴿وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ للدلالة على أن سبب توعدهم بها ومصيرهم إليها هو كفرهم. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ الواو: استئنافية، أي: وبئس المصير هي، أي: وبئس المآل والمنزل والمقام النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦].

قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [٧٦] ما قدروا الله حقَّ قدره وإنَّ الله لقويٌّ عزيزٌ [٧٦].

قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام. ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ «ضرب المثل»: تشبيه أمر معنوي لإيضاحه وبيانه وتقريبه بأمر حسي، وهو مما امتن الله به على العباد؛ كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿فَاَسْتَمِعُوا لَهُ﴾، أي: ألقوا له أسماكم، وأنصتوا إليه، وتفهموه وتدبروه. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: إن الذين تعبدون غير الله من الأصنام والأوثان، وترجون شفاعتهم، وتطلبون منهم الحاجات.

﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾، أي: لن يستطيعوا أن يخلقوا ذبابًا، الذي هو من أحقر

المخلوقات وأضعفها.

﴿وَلَوْ أَجْتَمَعُوا لَآتَىٰ﴾ الواو: حالية، أي: ولو اجتمع هؤلاء الذين تدعون من دون الله من الأصنام والأوثان والأنداد ما قدروا على خلق ذباب واحد.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟! فليخلقوا ذرة أو ذبابة أو حبة» (١).

وفي رواية: «فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة أو شعيرة» (٢).

﴿وَإِنْ يَسْأَلْهُمْ﴾، أي: وإن يسلب هذه المعبودات، أي: يأخذ منهم ﴿الذُّبَابُ شَيْئًا﴾، «شيئًا»: نكرة في سياق الشرط فتعم، أي: وإن يسلبهم الذباب أي شيء مهما قل أو صغر، مما يضعونه عليها من طيب ونحوه.

﴿لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾، أي: لا يستخرجوه ولا يسترده ولا ينقذوه منه، والسين والتاء للمبالغة.

فهم عاجزون عن مقاومته والامتناع منه، وعن الانتصار والانتصاف منه لو سلبهم شيئًا، وهم عن خلقه أشد عجزًا.

﴿ضَعْفَ الظَّالِمِ﴾ وهو: الصنم المعبود من دون الله، الذي سلب منه شيء، ﴿وَالْمَطْلُوبِ﴾ وهو: الذباب، وفيه تسوية بين السالب والمسلوب في الضعف والعجز. وقيل العكس: فالطالب الذباب، والمطلوب المعبود.

أو ضعف الداعي والمدعو، أي: ضعف العابد، وهو المشرك، والمعبود، وهو الصنم، فهو عاجز متعلق بعاجز.

قال ابن القيم: «والصحيح: أن اللفظ يتناول الجمع، فضعف العابد والمعبود، المستلب والمستلب» (٣).

فالذباب السالب ضعيف، وأضعف منه المسلوب المعبود من دون الله، وأضعف منهما من تعلق بالمعبود الضعيف وعبده من دون الله.

(١) أخرجه أحمد ٢/ ٣٩١.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥٥٩، ومسلم في اللباس، لا تدخل الملائكة بيتًا فيه صورة ٢١١١.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٢١.

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أي: ما عظموا الله حق تعظيمه، وما عرفوه حق معرفته، وما قدروه حق تقديره، حين عبدوا معه آلهة غيره، لا تملك لنفسها ولا لغيرها نفعاً ولا ضرراً، وسووها به، وهو الإله الحق، الخالق العظيم، وهذا غاية الجهل والضلال؛ كما قال تعالى: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لِنَظُنُّكَ لِئِنَّا ضَلَلْنَا لَأِنْ إِذْ لَسُوْا بِكُرْبٍ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٦ - ٩٨].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ تعليل لمضمون قوله: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾.

«إن» واللام: للتوكيد، أي: ذو القوة التامة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨].

﴿عَزِيزٌ﴾، أي: ذو العزة التامة بأنواعها: عزة القوة، وعز القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وحيث اجتمع في هذه الآية «قوي» و«عزيز»، فالأولى حمل قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ على عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وبقوته عز وجل وتما قدرته وكمال عزته خلق هذا الكون، واختص بملكه وتدبيره، ويعيده كما بدأه؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴿١٠٢﴾ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٣﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٢ - ١٣].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾.

قوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾، أي: يختار بعلمه وحكمته من الملائكة رسلاً؛ لتنفيذ أحكامه وأوامره الكونية وقدره، وتبليغ رسالاته إلى أنبيائه ورسله من البشر.

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ معطوف على «الملائكة»، أي: ويصطفى ويختار من الناس رسلاً؛ لتبليغ رسالاته إليهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ تعليل لقوله: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾.

أي: إن الله ذو سمع واسع يسمع أقوال عباده ودعاءهم وجميع الأصوات، وذو بصر واطلاع وعلم بهم وبأحوالهم وبجميع المخلوقات، يعلم من هو أهل للرسالة منهم؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ «ما»: موصولة، أي: يعلم الذي بين أيديهم والذي خلفهم، أي: يعلم ما بين أيدي الخلق كلهم من الملائكة والناس، والرسول من هؤلاء وهؤلاء، أي: يعلم أحوالهم كلها، وما يظهره وما يخفونه، وما سبق من أحوالهم وما يستقبل، وما قبلهم وما بعدهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧].

وقال تعالى: ﴿عَلِمُوا الْغَيْبَ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٦٧﴾ لِيَعْلَمَ أَنْ قَدِ ابْتَغُوا رِيسَالَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٦٨﴾﴾ [الجن: ٢٦-٢٨].

﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورَ﴾، أي: وإلى الله وحده ترجع الأمور كلها في الدنيا والآخرة، وإليه عز وجل مصير الخلائق كلهم وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَلْيَاءُ لِلَّهِ تُصِيرُ الْأُمُورَ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٥٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

الفوائد والأحكام:

١- تسفيه عقول المشركين في عبادتهم من دون الله ما لم ينزل به حجة ولا برهاناً، وما ليس لهم به علم، بل بجهل وضلال؛ تقليداً لأبائهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾.

٢- التهديد والوعيد للمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ تَصْوِيرٍ﴾، أي: أن الله سيعذبهم، ولا أنصار لهم يدفعون أو يمنعون أو يرفعون عنهم عذاب الله.

٣- أن عبادة آلهة من دون الله، والإشراك به ظلم عظيم، يوجب لصاحبه العذاب.

٤- تنكر الكفار لآيات الله، وكرهتهم لها، واستياؤهم من تلاوتها عليهم، واغتيالهم منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا

الْمُنْكَرِ ۖ

٥- شدة بغضهم لمن يقرأها عليهم، ومقاربتهم البطش به؛ لقوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ
يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ۖ﴾.

٦- انطماس عقول المشركين، وانقلاب الحقائق عندهم؛ لتنكرهم للآيات وما فيها
من الدعوة إلى الخير، واعتبارهم ذلك شرًّا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَأَنْتُمْ كُرَيْشٌ مِّنْ ذِكْرِ النَّارِ
وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ﴾.

٧- أن النار أشرف شيء يجب الحذر منها ومن موجبات دخولها.

٨- أن التنكر لآيات الله والكرهة لها والبغض لمن يتولاها كفر موجب للعذاب؛
لقوله تعالى: ﴿وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ﴾.

٩- أن النار بئس المصير والمآل؛ لقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۖ﴾.

١٠- ضرب الأمثال في القرآن الكريم؛ لتقريب المعاني، والامتثال لذلك على
الناس، والحث على الاستماع للمثل، والإنصات له بتدبر وتعقل؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا
النَّاسُ ضَرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ۖ﴾.

١١- عموم رسالته ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ۖ﴾.

١٢- بيان وتأکید شدة ضعف ما يعبده المشركون من دون الله من الأصنام
والأوثان، وأنهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابًا؛ وهو أحقر المخلوقات وأضعفها، ولو
اجتمعوا لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ
اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ﴾.

١٣- أن هؤلاء المعبودين من دون الله لا يستطيعون استنقاذ ما سلبه الذباب منهم
من شيء، فضلاً عن أن يخلقوا ذبابًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۖ﴾.

١٤- ضعف الذباب وحقارته، وأضعف منه المعبود من دون الله، وأضعف منها
من تعلق بالمعبود الضعيف وعبده من دون الله.

١٥- إثبات كمال عظمة الله تعالى، وذم المشركين الذين سواوا به غيره من
المعبودات الضعيفة الحقيرة، ولم يعظموه حق تعظيمه؛ لقوله تعالى: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ

قَدْرٍ ۞ .

- ١٦- إثبات صفة القوة التامة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ ۞﴾ .
- ١٧- إثبات صفة العزة التامة لله تعالى بأنواعها: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ ۞﴾ .
- ١٨- اصطفاء الله تعالى واختياره من يشاء من الملائكة رسلاً لتنفيذ أحكامه وأوامره الكونية القدرية، وتبليغ رسالاته الشرعية لأنبيائه ورسله من الناس، واختياره من الناس رسلاً لتبليغ رسالاته الشرعية إليهم؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۞﴾ .
- ١٩- إثبات أنه عز وجل ذو السمع الواسع، يسمع أقوال عباده وجميع الأصوات، وذو البصر والاطلاع والعلم بهم وبجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۞﴾ .
- ٢٠- علم الله تعالى المحيط بالخلائق كلهم، من الملائكة والرسل والناس وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۞﴾ .
- ٢١- أن مرد الأمور كلها إلى الله في الدنيا والآخرة، وأن مصير الخلائق كلهم إليه، فإليه إياهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۞﴾ .

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْعُلُوا
 الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٨﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ
 عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قَلِيلَةٌ أَيْكُمْ إِزْرَاهِيمَ هُوَ سَمَنَكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ
 شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ
 فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾.

خاطب الله - عز وجل - في مطلع هذه السورة وفي ثناياها عموم الناس بقوله:
 ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ في أربعة مواضع، ثم ختم السورة بخطاب المؤمنين خاصة؛ لأنهم
 صفوة الناس والممثلون لأمر الله - عز وجل.

قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْعُلُوا
 الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٨﴾.

قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يا أيها الذين صدقوا بقلوبهم وألستهم.
 ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ أي: انقادوا بجوارحكم للإيمان واركعوا واسجدوا لله -
 عز وجل - أي: صلوا. وعبر عن الصلاة بالركوع والسجود؛ لأنها من أعظم أركان
 الصلاة.

قال ﷺ: «فأما الركوع فعظموا فيه الرب - عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا فيه
 في الدعاء، فقم أن يستجاب لكم»^(١).

وقال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»^(٢).

﴿وَعَبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ من عطف العام على الخاص، أي: واعبدوا ربكم بأنواع
 العبادات كلها، من صلاة وزكاة وصيام وحج وجهاد وبر للوالدين وصلة للرحم وأمر
 بالمعروف ونهي عن المنكر وغير ذلك، وأخلصوا له فيها.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٧٩)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٦)، والنسائي في التطبيق (١٠٤٥)، وابن
 ماجه في تعبير الرؤيا (٣٨٩٩) - من حديث ابن عباس - رضي الله عنها.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٤٨٢)، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥)، والنسائي في التطبيق (١١٣٧) - من
 حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

وإنما خص الركوع والسجود أولاً؛ لعظم مكانة الصلاة بين سائر العبادات، فهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين، وهي عمود الإسلام، وأفضل العبادات كلها، ولهذا فهي أول ما يحاسب عنه العبد يوم القيامة، فإن قبلت قبل سائر عمله، وإن ردت رد سائر عمله كما جاء في الحديث^(١).

﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ بأنواع الإحسان التي ليست بواجبة، وبخاصة الإنفاق في وجوه الخير كلها، فبعد أن أمر الله - عز وجل - بالعبادة الواجبة بأنواعها، عطف عليه الأمر بفعل الخير بأنواع الإحسان المستحبة قولاً وفعلاً وبذلاً. وقد يكون هذا من عطف الأعم على العام. فيكون أولاً عطف العام على الخاص، ثم عطف على العام ما هو أعم منه. وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ عامّاً لأنواع البر كلها الواجب والمستحب من العبادات وغيرها. وقد يكون المراد بقوله: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ ما يتعدى نفعه إلى الناس من الزكاة والصدقات وحُسن المعاملة وصلة الأرحام ونحو ذلك.

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ أي: لأجل أن تفلحوا، أو راجين أن تفلحوا. والفلاح: الفوز والظفر والنجاح، الفوز بالمطلوب، والنجاة من المهوب، الفوز بالجنة والنجاة من النار.

ويشرع السجود عند قراءة هذه الآية، كما يشرع السجود عند الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَأَوْا أَنَّ اللَّهَ سَبْحًا مَدِينًا وَمِنَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَأَوْا أَنَّ اللَّهَ سَبْحًا مَدِينًا﴾ [الآية ١٨ من هذه السورة].

ويقول في سجود التلاوة مثل ما يقول في سجود الصلاة: «سبحان ربي الأعلى» والأولى أن يكررها ثلاثاً، ويقول: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»^(٢).

(١) أخرجه النسائي في الصلاة (٤٦٥)، والترمذي في الصلاة (٤١٣)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٢٥) - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٧١)، وأبو داود في الصلاة (٧٦٠)، والترمذي في الدعوات (٣٤٢١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٥٤)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: جاء رجل، فقال: يا رسول الله، إني رأيتني الليلة وأنا نائم كأني أصلي تحت شجرة فسجدت فسجدت الشجرة لسجودي، فسمعتها وهي تقول: «اللهم اكتب بها عندك أجرًا، وضع عني بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذخيرًا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود» قال ابن عباس: فقرأ النبي ﷺ سجدة ثم سجد، فسمعته وهو يقول مثل ما أخبره الرجل عن قول الشجرة»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۗ بَلَّةٌ أَيْكُمْ لِزَيْهِيمٍ ۗ هُوَ سَمَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ﴾ هذا أيضًا معطوف على ما قبله. من عطف الأعم على العام، فأمر أولاً بالركوع والسجود، ثم أمر بالعبادة وفعل الخير من عطف العام على الخاص، ثم أمر بالمجاهدة في الله حق جهاده بأنواع المجاهدة كلها من عطف الأعم على العام، توكيدًا لما قبله.

﴿فِي اللَّهِ﴾ ﴿فِي﴾ للسببية، أي: في ذات الله، ومن أجله، ونصرة لدينه.

﴿حَقَّ جِهَادِهِ ۗ﴾ مفعول مطلق، أي: الجهاد الحق الذي لا يشوبه تقصير.

والمجاهدة في الله حق جهاده: بذل الطاقة واستفراغ الوسع في طاعة الله - عز وجل - ومحبته ومرضاته - بالأنفس والأموال والأقوال والأفعال، وفي جهاد النفس والشیطان والمنافقين والكفار، وليس في هذا تكليف ما لا يطاق، بل هو كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۗ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، أي: حق تقاته مما تستطيعونه وتقدرون عليه؛ لقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله - ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»^(٢).

(١) أخرجه الترمذي في الجمعة - ما يقول في سجود القرآن (٥٧٩)، وابن ماجه في إقامة الصلاة - سجود القرآن (١٠٥٣)، وقال الترمذي: «حديث غريب من حديث ابن عباس».

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨)، ومسلم في الحج (١٣٧٧)، والنسائي في مناسك الحج

وجهاد النفس والشيطان واجب؛ جهاد النفس بمخالفة هواها وشهواتها، وحملها على طاعة الله تعالى، والبُعد عن معصيته، وجهاد الشيطان بمداخلة وساوسه وتسويله. وجهاد المنافقين ونحوهم من أهل البدع والمعاصي، وجهاد الكفار كل منهما واجب على الكفاية، وقد يتعين^(١). فجهاد المنافقين وأهل البدع والمعاصي بالحجة والبيان والبرهان، وجهاد الكفار المعاندين المعتدين بالسيف والسنان.

قال ابن القيم^(٢): «وأمرهم أن يجاهدوا فيه حق جهاده، كما أمرهم أن يتقوه حق تقاته، وحق تقاته أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، فحق جهاده أن يجاهد العبد نفسه لئسلم قلبه ولسانه وجوارحه لله، فيكون كله لله، وبالله، لا لنفسه، ولا بنفسه، ويجاهد شيطانه بتكذيب وعده، ومعصية أمره، وارتكاب نهيه، فإنه يعد الأمانيّ ويمني الغرور، ويعد الفقر، ويأمر بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفة والصبر، وأخلاق الإيثار كلها فجاهده بتكذيب وعده، ومعصية أمره، فينشأ له من هذين الجهادين قوة وسلطان، وعدة يجاهد بها أعداء الله في الخارج بقلبه ولسانه ويده وماله، لتكون كلمة الله هي العليا».

وقال أيضًا: «وحق تقاته وحق جهاده: هو ما يطيقه كل عبد من نفسه، وذلك يختلف باختلاف أحوال المكلفين في القدرة والعجز، والعلم، والجهل، فحق التقوى وحق الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالم شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء».

﴿هُوَ اجْتَبَأَكُمُ﴾ هذه الجملة كالتعليل لما قبلها، أي: وجاهدوا في الله حق جهاده شكرًا لله - عز وجل؛ لأنه هو اجتبأكم، أي: هو اختاركم واصطفاكم، وجعلكم أهله وخاصته وصفوته من خلقه - بعد النبيين والمرسلين، فخصكم بأفضل الرسل

(٢٦١٩)، وابن ماجه في المقدمة (٢) - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(١) يتعين جهاد المنافقين وأهل البدع ونحوهم بالحجة واللسان والبرهان إذا لم يقم به أحد، أو لم يقم به من يكفي، كما يتعين جهاد الكفار في مواضع منها إذا كان في الصف، وإذا استغفره الإمام، وإذا هاجم العدو بلد المسلمين.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢٢٤).

وسيدهم، وأعظم الكتب والمهيمن عليها، وأكمل الأديان، وفضلكم وشرفكم على الأمم. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

وقال ﷺ: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا»^(١).

﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ لما أمر عز وجل بالمجاهدة فيه حق جهاده ربها يتوهم متوهم أن في هذا تكليف ما لا يطاق أو ما فيه ضيق - احترز من ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

الواو عاطفة، و«ما» نافية، ﴿مِنْ حَرَجٍ﴾، ﴿مِنْ﴾ زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى؛ لاستغراق العموم في النفي.

أي: وما جعل عليكم في الدين الإسلامي أيّ ضيق أو مشقة، ولم يكلفكم ما لا تطيقون بل يسر لكم غاية التيسير، كما قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۗ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال تعالى في الحديث القدسي: «قد فعلت»^(٢).

وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَنَهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بِكُمْ عَسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ﴾ [الشرح: ٥، ٦]، أي: مع كل عسر يسر من الله - عز وجل، وقال تعالى: ﴿فَاقْنُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ ۗ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ولهذا رخص الله - عز وجل - للمسافر قصر الصلاة الرباعية، والجمع بين الظهر

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٦)، ومسلم في الجمعة (٨٥٥)، والنسائي في الجمعة (١٣٦٧) - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٦)، والترمذي في التفسير (٢٩٩٢) - من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما.

والعصر، والمغرب والعشاء، وعند الخوف تصلى رجلاً وركباً، وإذا مرض الإنسان ولم يستطع القيام فيها صلى قاعداً، فإن لم يستطع فعلى جنب، فإن لم يستطع أوماً بها إيماء. وشرع سجود السهو لجبر ما يحصل من سهو في الصلاة.
كما رخص في التيمم عن الحدث الأصغر والأكبر إذا لم يجد الإنسان الماء، أو لم يستطع استعماله.

ورخص بالمسح على الخفين يوماً وليلةً للمقيم وللمسافر ثلاثة أيام لبليالهن. ورخص للمسافر والمريض في الفطر في نهار رمضان والقضاء، وكذا المرضع والحامل، ورخص للكبير والمريض الذي لا يرجى برؤه بالفطر والإطعام.
وأوجب الحج على المستطيع دون غيره، ويسر في أحكامه، فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع فجعلوا يسألونه، فقال رجل: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح. قال: «اذبح ولا حرج». فجاء آخر، فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي. فقال: «أرم ولا حرج». فما سئل يومه عن شيء قدم ولا آخر إلا قال: «افعل ولا حرج»^(١).

كما جعل جميع التكاليف حسب الوسع والطاقة والاستطاعة، وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً»^(٢).
ولهذا فإن من قواعد الشريعة: «أن المشقة تجلب التيسير».

كما جعل عز وجل في التوبة والكفارات مخرجاً من الذنوب والمعاصي، وأباح في حال الاضطرار أكل الميتة واستعمال المحرم، وجعل الضرورات تبيح المحظورات، قال تعالى: ﴿عَيْرُ مُضْكَارٍ﴾ [النساء: ١٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قضى أن لا ضرر ولا ضرار»^(٣).

(١) أخرجه البخاري في العلم (٨٣)، ومسلم في الحج (١٣٠٦)، وأبو داود في المناسك (٢٠١٤)، والترمذي في الحج (٩١٦)، وابن ماجه في المناسك (٣٠٥١).

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦٠)، ومسلم في الفضائل (٢٣٢٧)، وأبو داود في الأدب (٤٧٨٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٠).

وعفا للأمة عن الخطأ والنسيان، وما استكروها عليه، كما دل على ذلك قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وقوله - عز وجل - في الحديث: «قد فعلت»^(١).

وفي الحديث: «إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان، وما استكروها عليه»^(٢). وأباح عز وجل جميع الطيبات وأحلها بلا حصر، وجعل الحرام محصوراً محدوداً معدوداً، قال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلًا لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [البقرة: ١٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْبَهِيمَةُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْبَهِيمَةُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٣٠].

وبهذا رفع الله - عز وجل - عن هذه الأمة الأغلال التي كانت على من قبلهم. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقال ﷺ لمعاذ وأبي موسى حين بعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا»^(٣).

وقال ﷺ: «وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»^(٤). قال ابن القيم^(٥) في كلامه على الآية ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾: و«الخرج»: الضيق، بل جعله واسعاً يسع كل أحد، كما جعل رزقه يسع كل حي، وكلف العبد بما يسعه العبد، ورزق العبد ما يسع العبد، فهو يسع تكليفه، ويسعه رزقه، وما جعل على

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطلاق (٢٠٤٣)، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد - ما يكره من الخلاف والتنازع في الحرب (٣٠٣٨)، ومسلم في الأشربة وفي الجهاد - الأمر بالتيسير وترك التنفير (١٧٣٣)، من حديث سعيد بن أبي بردة عن أبيه عن جده رضي الله عنه.

(٤) سبق تحريجه.

(٥) انظر: «بدائع التفسير» (٣/ ٢٢٥).

عبده في الدين من حرج بوجه ما، قال النبي ﷺ: «بعثت بالحنيفية السمحة»^(١) أي: بالملة، فهي حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، وقد وسع الله - سبحانه وتعالى على عباده غاية التوسعة في دينه، ورزقه، وعفوه، ومغفرته، وبسط عليهم التوبة مادامت الروح في الجسد، وفتح لهم باباً لها لا يغلقه عنهم إلى أن تطلع الشمس من مغربها، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مصيبة مكفرة، وجعل بكل ما حرم عليهم عوضاً من الحلال أنفع لهم منه وأطيب وألذ، فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يضيق عنه، وجعل لكل عسر يمتحنهم به يسراً قبله ويسراً بعده، «فلن يغلب عسر يسرين» فإذا كان هذا شأنه - سبحانه - مع عباده، فكيف يكلفهم ما لا يسعهم فضلاً عما لا يطيقونه ولا يقدرّون عليه». وقال السعدي^(٢): ويؤخذ من هذه الآية قاعدة شرعية، وهي: «أن المشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحظورات».

﴿مَلَّةَ أَيْبِكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿مَلَّةَ﴾ منصوب على الإغراء، أي: الزموا ملة أبيكم إبراهيم. وقيل: منصوب على المصدرية بفعل مقدر يدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: وسع عليكم في دينكم توسعة ملة أبيكم إبراهيم.

وفيه امتداح وثناء على ما جاء به محمد ﷺ، وإغراء وحث على اتباعه؛ لأنه جاء بالحنيفية السمحة ملة إبراهيم - عليه السلام، ولهذا علم ﷺ المؤمنين أن يقولوا إذا أصبحوا وإذا أمسوا: «أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد،

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦/٥) - من حديث أبي أمامة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية، ولكني بعثت بالحنيفية السمحة». وأخرجه أحمد (١١٦/٦) - من حديث عائشة رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «لتعلم يهود أن في ديننا فسحة، وإني أرسلت بحنيفية سمحة»، وأخرجه البخاري في الإبان - باب الدين يسر - معلقاً بلفظ: «وقول النبي ﷺ: أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة»، وأخرجه أحمد (٢٣٦/١) موصولاً من حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة»، قال ابن حجر في «فتح الباري» (٩٣/١، ٩٤): «إسناده حسن». وأخرجه أحمد (٤٤٢/٣) - من حديث التنوخي قال: قال رسول الله ﷺ: «هل لك في الإسلام الحنيفية ملة إبراهيم أبيك».

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» (٣٣٠/٥).

وملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين»^(١).

﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: الله - عز وجل - سماكم المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، ﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: وسماكم المسلمين ﴿فِي هَذَا﴾ أي: في القرآن الكريم، كما في حديث الحارث الأشعري - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله»^(٢).

فنوّه بهم عز وجل، وأثنى عليهم - في كتبه المتقدمة قبل وجودهم وسماهم المسلمين، ونوّه بهم وأثنى عليهم بذلك في القرآن الكريم بعد وجودهم.

وقيل: إن الضمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى إبراهيم، أي: إبراهيم سماكم المسلمين من قبل؛ لقوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].
أي: إبراهيم سماكم المسلمين من قبل، وفي هذا الكتاب وهذا الشرع مازال هذا اسمكم قديماً وحديثاً.

وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ مَا اجْتَبَاكُمْ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣)، وتذكير لهم بفضله وإنعامه عليهم، باختيارهم من بين الأمم، ورفع الحرج عنهم، وهدايتهم إلى ملة أبيهم إبراهيم، وتسميتهم المسلمين في الكتب السابقة، وفي القرآن الكريم.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ﴾ اللام: للتعليل، و«ال» في الرسول: للعهد الذهني، أي: ليكون الرسول المعهود في الأذهان محمد ﷺ.

والمعنى: أن الله - عز وجل - اجتباكم واصطفاكم واختاركم ورفع عنكم الحرج، ونوّه بكم وأثنى عليكم وسماكم المسلمين في الكتب المتقدمة، وفي القرآن الكريم لأجل

(١) أخرجه أحمد (٤٠٧/٣)، والدارمي (٢٠٢/٢) حديث (٢٦٩١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» ص (١٩) - من حديث سعيد بن عبد الرحمن بن أبزي الخزاعي عن أبيه - رضي الله عنه، وقال النووي في «الأذكار» ص (٦٨): «إسناده صحيح».

(٢) أخرجه الترمذي في الأمثال - ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة (٢٨٦٣) - وقال: «حديث حسن صحيح غريب»، وأحمد (١٣٠/٤، ٢٠٢)، وانظر: «كنز العمال» (٤٣٥٧٧).

أن يكون الرسول محمد ﷺ شهيداً عليكم ببلاغه لكم، وعلى استجابتكم واتباعكم له؛
 كما قال تعالى: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾
 [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ
 شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ ﴾ [النحل: ٨٩].

﴿ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ أي: ولأجل أن تكونوا أنتم ورسولكم شهداء على
 الناس بأن رسلهم قد بلغتهم رسالات الله إليهم، وذلك بما جاءكم من عند الله من
 الوحي على لسان رسوله محمد ﷺ؛ لأنكم أمة وسط عدول خيار، كما قال تعالى:
 ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾
 [البقرة: ١٤٣].

وقدمت شهادته ﷺ في الآية هنا لأنها في مقام التنويه بالدين الذي جاء به ﷺ بينا
 قدم في آية البقرة شهادة الأمة؛ لأن الآية صدرت بالثناء على الأمة.
 فهو ﷺ بما فضله الله به على سائر الرسل - عليهم الصلاة والسلام - يشهد على
 أمته أفضل الأمم. وهم بما فضلهم الله به وشرفهم على سائر الأمم يشهدون هم
 ورسولهم على الأمم قبلهم بأن الرسل عليهم الصلاة والسلام - بلغوهم رسالات الله.
 وبهذا تكون هذه الأمة المحمدية شاهدة على الأمم ومشهوداً عليها بشهادة
 الرسول ﷺ.

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يجيء النبي
 ومعه الرجلان، ويجيء النبي ومعه الثلاثة، وأكثر من ذلك وأقل، فيقال له: هل بلغت
 قومك؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال: هل بلغكم؟ فيقولون: لا. فيقال: من يشهد
 لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتدعى أمة محمد، يقال: هل بلغ هذا؟ فيقولون: نعم. فيقول:
 وما علمكم بذلك؟ فيقولون: أخبرنا نبينا بذلك أن الرسل قد بلغوا فصدقناه. قال:
 فذلكم قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ
 الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١).

(١) أخرجه الترمذي في التفسير (٢٩٦١)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).

وفي رواية عن أبي سعيد - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «يحيى نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلغت؟ فيقول: نعم، أي رب. فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبي. فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته. فنشهد أنه قد بلغ، وهو قوله - جل ذكره: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ والوسط العدل» (١).

﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: فقابلوا نعمة الله عليكم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله - عز وجل - حيث اصطفاكم واختاركم من بين الأمم ورفع الحرج عنكم بما شرعه لكم من الحنيفية السمحة ملة أبيكم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - وسماكم المسلمين في الكتب السماوية السابقة وفي القرآن الكريم، وجعل الرسول محمداً ﷺ شهيداً عليكم، وجعلكم شهداء على الناس، فكل هذا موجب لشكر الله - عز وجل - بطاعته، وفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وقوله: ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ أي: صلوها قائمة تامة بشروطها وأركانها وواجباتها وسننها. والأمر للوجوب.

والصلاة في اللغة: الدعاء، قال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]، أي: ادع لهم.

وفي الحديث: أن رجلاً سأل النبي ﷺ قائلاً: هل بقي من بر أبوي شيء أبرهما به بعد موتها؟ قال: «نعم، الصلاة عليهما» (٢). أي: الدعاء لهما.

قال الشاعر:

تقول بنتي وقد قرّبتُ مرتحلاً يا ربّ جنبّ أبي الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذي صليت فاغتمضي نوماً فإنّ لجنب المرء مضطجعاً (٣)

والصلاة في الشرع: التعبد لله - عز وجل - بأقوال وأفعال مفتوحة بالتكبير مختمة

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٣٩)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٨٤).

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٤٢)، وابن ماجه في الأدب (٢٦٦٤) - من حديث مالك بن ربيعة الساعدي - رضي الله عنه.

(٣) البيتان للأعشى، انظر: «ديوانه» ص (١٥١).

بالتسليم.

والمراد بالصلاة: الفرائض المكتوبات، وقد يحمل الأمر على ما هو أعم من الواجب، فيشمل الفرائض والنوافل.

﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي: وأعطوا الزكاة لمستحقيها من الفقراء والمساكين وغيرهم، والأمر للوجوب والمراد بالآية الزكاة الواجبة، وقد يحمل الأمر على ما هو أعم من الواجب، فيشمل الزكاة الواجبة وغيرها من النفقات الواجبة والمستحبة. والزكاة في اللغة: النماء والزيادة والتطهير.

وفي الشرع: حق مالي مخصوص، في مال مخصوص، لطائفة مخصوصة، في وقت مخصوص.

وسميت الزكاة بهذا الاسم؛ لأنها تزكي المال وتنميه وتزيده، وتقيه بإذن الله - عز وجل - الآفات، قال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال بل تزيده»^(١)، وقال ﷺ: «ما هلك مال في بر ولا بحر إلا بسبب منع الزكاة»^(٢).

كما أنها تزكي وتطهر نفس صاحب المال من رذيلة البخل والشح. وتطهر أيضاً أنفس من تدفع إليهم من الفقراء والمساكين وغيرهم من الحقد والضغينة على إخوانهم الأغنياء، ومن اللجوء إلى كسب المال من طرق محرمة من الغصب والسرقه، وارتكاب الأعمال المحرمة من أجل ذلك.

فهي تزكية وتطهير ونماء للمال، وتزكية وتطهير لنفس الغني والفقير والمساكين ونحوهما، وتزكية وتطهير ووقاية للمجتمع الإسلامي من الجرائم والفواحش.

ولهذا قال ﷺ: «واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم»^(٣).

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٨)، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢٩) - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - بلفظ: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه».

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤/١) - من حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه. وانظر: «كنز العمال» (٥٢٥/٦).

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٧٨) - من حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنه.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: التجئوا إلى الله وتمسكوا بحبله واستعينوا به وتوكلوا عليه، كما قال عز وجل: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، والاعتصام: افتعال من العَصَم، وهو: المنع من الضَّرِّ والنجاة، قال تعالى: ﴿قَالَ سَاءَ وِئَاءَ إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود: ٤٣].

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: هو - عز وجل - متوليكم وحافظكم وناصركم على أعدائكم. ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى﴾ أي: فنعمة الولي كامل الولاية عظيمها. و﴿الْمَوْلَى﴾ من يجلب النفع. ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي: عظيم النصرة والمعونة. و﴿النَّصِيرُ﴾ من يدفع الضر.

الفوائد والأحكام:

- ١- تصدير الخطاب بالنداء؛ للتنبيه والعناية والاهتمام.
- ٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تكريمًا وتشريفًا لهم وحثًا على الاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما بعده من الطلب يعد من مقتضيات الإيمان وعدم امتثاله يعد نقصًا في الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.
- ٣- وجوب الركوع والسجود لله - عز وجل - والصلاة له وعبادته وحده بأنواع العبادة كلها؛ لقوله تعالى: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾.
- ٤- الترغيب في فعل الخير عمومًا قولًا وفعالًا وبندلاً؛ لقوله - تعالى - ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ﴾.
- ٥- أن الإيمان بالله والركوع والسجود والصلاة له - عز وجل - وعبادته وحده، وفعل الخير كل ذلك سبب للفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، والفوز بالجنة والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾.

٦- مشروعية السجود عند قراءة هذه الآية، عن عقبه بن عامر - رضي الله عنه - قال: قلت: يا رسول الله، أفُضِّلَت سورة الحج على سائر القرآن بسجديتين؟ قال: «نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»^(١).

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة - تشريع سجود السهو (١٤٠٢)، والترمذي في الجمعة - السجدة في الحج

وعن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - «أن رسول الله ﷺ أقرأه خمس عشرة سجدة في القرآن، منها ثلاث في المفصل، وفي الحج سجدتان»^(١).
وعن أبي الجهم أن عمر - رضي الله عنه - سجد سجدتين في الحج، وهو بالجابية، وقال: «إن هذه فضلت بسجدتين»^(٢).

٧- وجوب المجاهدة في الله حق جهاده قدر الوسع والطاعة، بالأموال والأنفس والأفعال والأقوال، جهادًا عامًا، وجهادًا خاصًا؛ للشيطان والنفس والهوى، وللمنافقين والكفار وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾.

٨- نعمة الله - عز وجل - على هذه الأمة المحمدية حيث فضلهم واختارهم من بين الأمم، ورفع عنهم الحرج، وجعلهم على ملة أبيهم إبراهيم، وساهم المسلمين في الكتب المتقدمة، وفي القرآن الكريم، وجعل الرسول ﷺ شهيدًا عليهم، وهم شهداء على الناس، وفي ذلك تكريم وتشريف لهم على سائر الأمم؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّمَّا لَزِمَتْكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

٩- شهادة الرسول ﷺ على أمته، وشهادة أمته على الناس؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

١٠- تقرير قاعدة «المشقة تجلب التيسير» والأخذ بأيسر الأمرين ما لم يكن إثمًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾.

١١- وجوب شكر الله - عز وجل - على ما أنعم به على هذه الأمة بالمجاهدة فيه حق جهاده وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾، وقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ لَا يَكْفُرُ بِهَا الْكُفْرَانُ وَلَئِنِ اتَّخَذْتُمْ لِدِينِهِ سِجَاتٍ لَأَخَذْتُمُوهَا وَأَعْتَدْتُمُوهَا لَكُمْ فَاصْبِرُوا أَلْسِنَتِكُمْ وَالنَّاسُ يَكْفُرُونَ بِمَا كَفَرُوا وَلَمْ يُؤْمِرُوا بِاللَّهِ فَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ صَبِيرٌ فَصِيمٌ﴾.

(٥٧٨)، وأحمد (٤/١٥١-١٥٥)، وقال الترمذي: «حديث ليس إسناده بالقوي».

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة - تشريع سجود السهو (١٤٠١)، وابن ماجه في إقامة الصلاة - عدد سجود السهو (١٠٥٧).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٥/٤٠٠).

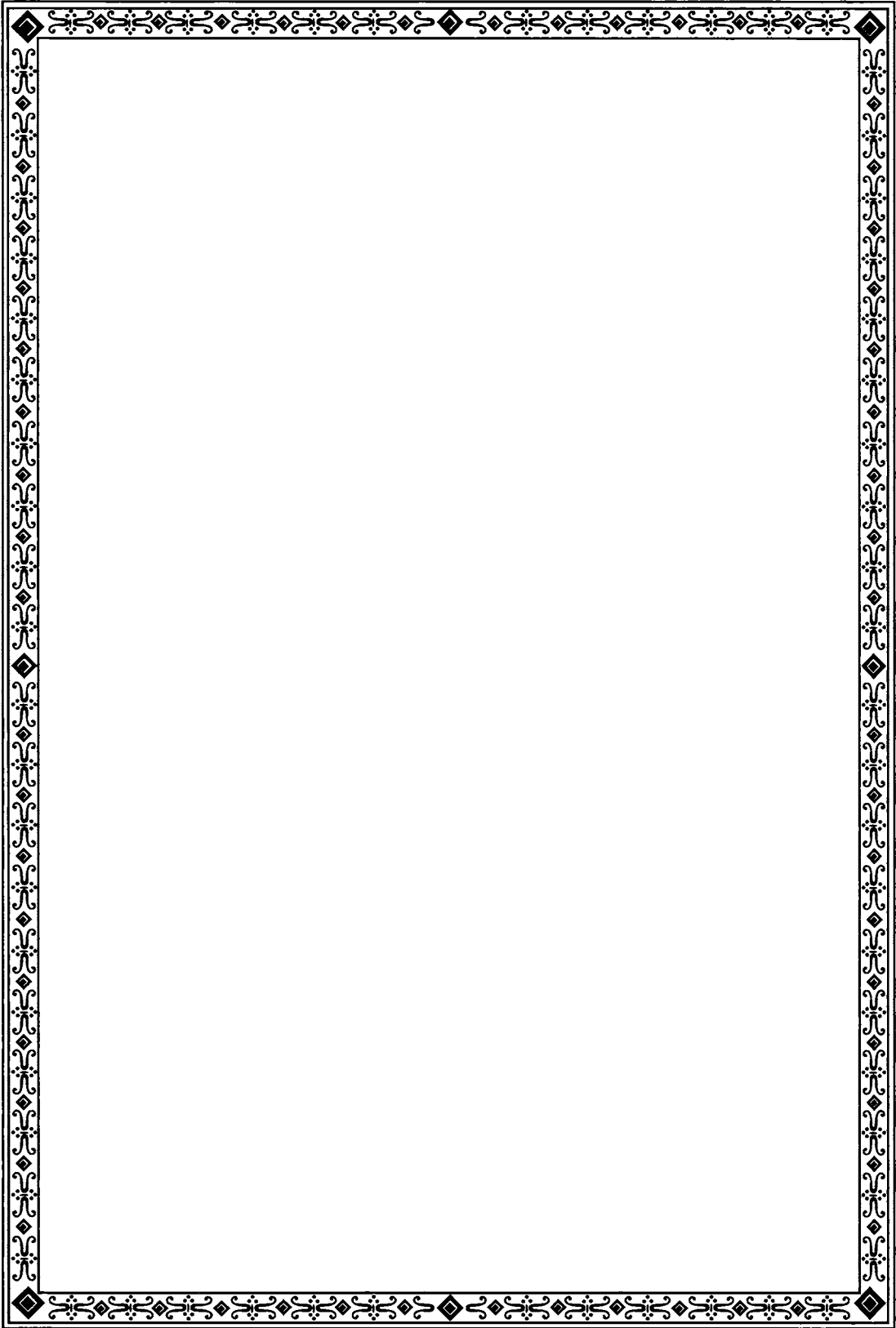
١٢- عظم مكانة الصلاة والزكاة بين العبادات؛ لأن الله خصهما بالذكر من بين سائر العبادات.

١٣- وجوب الاعتصام بالله واللجوء إليه وحده، والتوكل والاعتماد عليه وحده فلا ملجأ منه إلا إليه.

١٤- أن الله - عز وجل - هو مولى الذين آمنوا حافظهم وناصرهم ومتولي أمورهم، وجالب الخير لهم، ودافع الشر عنهم، فنعم المولى ونعم النصير؛ لقوله تعالى:
﴿هُوَ مَوْلَانَا فَتَنَعْنَا بِالْمَوْلَىٰ وَنَعْمَ النَّصِيرُ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمُؤْمِنُونَ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة المؤمنون»؛ لأن الله افتتحها بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١)، وذكر صفاتهم وسبب فلاحهم، وذكر ثوابهم. وقد وردت تسميتها في السنة: «سورة المؤمنين».

عن عبدالله بن السائب قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح بمكة، فاستفتح «سورة المؤمنين» حتى إذا جاء ذكر موسى وهارون، أو ذكر موسى وعيسى، أخذت النبي ﷺ سعدة فحذف وركع»^(١).

ومما جرى على الألسنة أن يسموها: «سورة قد أفلح»، ويسمونها أيضا «سورة الفلاح».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول: «كان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ يسمع عند وجهه كدوي النحل، فمكثنا ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه، فقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تمنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا»، ثم قال: «لقد أنزلت علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة»، ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(١) حتى ختم العشر»^(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت السورة بوعده المؤمنين بالفلاح، وذكر صفاتهم التي استحقوا بها هذا الوعد من ربهم؛ من كونهم في صلاتهم خاشعين، وعن اللغو معرضين، وللزكاة فاعلين، ولفروجهم حافظين عما حرم عليهم، ولأمانتهم وعهدهم راعين، وعلى صلواتهم يحافظون.

ثم فصل ما وعدهم به من الفلاح في قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾^(١) الَّذِينَ يَرِثُونَ

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٥٥، وأبو داود في الصلاة ٦٤٩، والنسائي في الافتتاح ١٠٠٧.

(٢) أخرجه أحمد ٣٤/١، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٧٣.

الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ .

٢- ثم ذكر دلائل قدرته ونعمته عز وجل في خلق الإنسان، فذكر أطواره منذ بداية خلقه من طين إلى اكتمال خلقه، وحياته إلى موته، ثم بعثه يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١١﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ بُعْثُوتَ﴾ ﴿١٢﴾ .

٣- ثم أتبع ذلك بذكر دلائل تمام قدرته في السماء والأرض، والماء والنبات والأنعام وغير ذلك: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ .

٤- ثم لما ذكر دلائل قدرته في خلق الإنسان والكون بها فيه من الآيات الدالة على كمال عظمتة ووحدانيته ووجوب عبادته وحده لا شريك له؛ أتبع ذلك بذكر نعمته على العباد بإرسال الرسل يدعون إلى عبادة الله تعالى دون غيره، وذكر ما جرى بينهم وبين المكذبين من أقوامهم، وانتهاء ذلك كله بإنجاء الرسل وإهلاك المكذبين من أقوامهم. بدأ ذلك بذكر رسالة نوح عليه السلام أول الرسل، ثم ذكر إنشاء عدد من القرون الذين جاءتهم رسلهم تترى، كلما جاء أمة رسولها كذبوه، فأهلكوا جميعاً، وأتبع الله بعضهم بعضاً، وجعلهم أحاديث، وأبعدهم لكفرهم وعدم إيمانهم. ثم ذكر إرساله موسى وهارون بآياته وسلطان مبين إلى فرعون وملئه فاستكبروا وكذبوهما فكانوا من المهلكين، ثم ذكر أنه جعل ابن مريم وأمه آية فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥١﴾﴾ .

٥- أمره عز وجل الرسل جميعاً بأن يأكلوا الطيبات ويعملوا صالحاً، وهو أمر لهم ولأتباعهم المؤمنين، وبيان وحدة الأمة، فدينها واحد وهو الإسلام وتوحيد الله تعالى، وهو عز وجل ربهم جميعاً يجب أن يتقوه ويعبدوه وحده.

٦- ذكر تقطع أمر الأمم واختلافهم على رسلهم من مصدق لهم ومكذب، ومؤمن بهم وكافر، وفرح كل حزب بما هم عليه من الضلال ظناً أنهم مهتدون، واغترارهم بما هم فيه من النعم، والوعيد والتهديد لهم.

٧- ثناء الله وامتداحه للمؤمنين ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٧٧﴾﴾ إلى قوله

تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِاتِ وَهُمْ لَهَا سَاقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

٨- حكمته عز وجل وكمال عدله، فلا يكلف نفساً إلا وسعها وطاقته، ويحصى على العباد أعمالهم ويجازي كلًّا بما عمل، وهم لا يظلمون.

٩- ذم الكافرين والمكذبين لأن قلوبهم في غمرة وضلالة وغفلة عن آيات الله وما جاءهم من الحق، وتهديدهم ووعيدهم بالعذاب، يصرخون فلا ناصر لهم، وتقريعهم وتوبيخهم على نكوصهم على أعقابهم وعدم تدبرهم القرآن، وإنكارهم معرفة رسولهم ﷺ ورميهم إياه بالجنون وكرهاتهم الحق؛ قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

١٠- بيان أن الحق لو اتبع أهواء أهل الضلال والكفر والاستكبار لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، أي: الكون كله بما فيه؛ لأن الله خلق الكون كله وأقامه على الحق والعدل.

١١- بيان قيام الحجة على المكذبين بما جاءهم من الذكر، لكنهم عنه معرضون، وانتفاء ما يمنعهم من الإيذان من سؤالهم خرجًا أو أجرًا، وأنه ﷺ إنما يدعوهم إلى صراط مستقيم، لكنهم بكفرهم بالآخرة عن الصراط ناكبون.

١٢- عدم شكرهم رحمة الله بكشف ما بهم من ضر، وعدم استكانتهم وخضوعهم له عند العذاب وتماديهم بالطغيان والعتو، وإبلاسهم عند شدة العذاب.

١٣- الامتنان على العباد بما منحهم عز وجل من السمع والإبصار والأفئدة، وقلة الشاكر منهم، وبيان تمام قدرته في ذرئهم في الأرض وإثبات حشرهم إليه وحده، وتفردة بالإحياء والإماتة وله اختلاف الليل والنهار ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

١٤- إنكارهم البعث ومقالهم كقول الأولين: ﴿قَالُوا أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا بَحْنٌ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

١٥- تقريرهم بوحدانية الله تعالى في ربوبيته وألوهيته، وعموم ملكه وشموله لكل شيء وسعته؛ الأرض وما فيها، وربوبية السموات السبع، وربوبية العرش العظيم، ويده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وإقرارهم بذلك، وتقريعهم لعدم تذكرهم وتقواهم: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ إلى قوله

تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَن تَسْحُرُون﴾ (١٨١).

١٦- إثبات أنه عز وجل أتاهم بالحق بأن لا معبود بحق سواه، وتأکید كذبهم في إشرافهم معه ونسبتهم الولد له، واستحالة أن يكون للخلق إلهان، وتنزيه نفسه عما يصفونه به، وبيان سعة علمه للغيب والشهادة وتعالیه عن شركهم ﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (١٩٠) إلى قوله تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يَشْرِكُونَ﴾ (١٩٣).

١٧- أمره عز وجل له ﷻ أن يدعوهم إن عاقبهم بسبب ظلمهم وهو شاهد ألا يجعله معهم، وبيان قدرته عز وجل بأن يريه ما توعدهم به. وأمره تعالى له أن يدفع السيئة بالحسنة، وأن يستعيد بالله من همزات الشياطين وحضورهم: ﴿قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تَرِيَّتِي مَا يُوعَدُونَ﴾ (١٩٣) إلى قوله: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ (١٩٦) وقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ (١٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (١٩٨).

١٨- بيان سوء حال المكذبين والكفار عند الموت، وطلب من حضره الموت منهم من ربه الرجعة ليعمل صالحاً فيما ترك وهيئات! ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ (١٩٠)، وانقطاع الأنساب بينهم فلا يتساءلون ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (١٩١)، ووعد من ثقلت موازينه بالفلاح، ووعد من خفت موازينه بخسران أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون، وتوبيخهم على تكذبيهم بآيات الله، واعترافهم على أنفسهم بغلبة الشقاء عليهم وضلالهم، وتوسلهم بربهم ليخرجهم منها وهيئات لهم ذلك، وتقريعهم وتبكيتهم بقوله تعالى: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ (١٩٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٩٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرًا حَتَّىٰ أَشْرَكْتُمْ بَيْنَهُمْ تَضْحَكُونَ (٢٠٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاكِرُونَ (٢٠١).

١٩- استقلالهم عند رؤيتهم العذاب لبثهم في الدنيا لعدم علمهم قيمة حياتهم وظنهم أنهم إنما خلقوا عبثاً وأنهم لا يرجعون إلى الله؛ ﴿قَتَلْتُمْ لَيْسَتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ (٢٠٢) إلى قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٢٠٥).

٢٠- إثبات علو الله تعالى وعظمته، وأنه الملك الحق لا إله، ولا معبود بحق إلا هو وحده وهو رب العرش الكريم، والتهديد والوعيد لمن يدعو مع الله إلهاً آخر لا برهان

له به، وإنما حسابه عند ربه وأنه لا يفلح الكافرون؛ ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٣١﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

٢١- أمره صلى الله عليه وسلم بأن يقول: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾، وهو أمر له ﷺ ولغيره من المؤمنين.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ٦﴾.

قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ «قد»: حرف تحقيق، و«الفلاح»: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المهوب، أي: قد فاز المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسله، وبكل ما أوجب الله الإيمان به، أي: فازوا وظفروا بمطلوبهم، ونجوا من مرهوبهم، بالسعادة في دنياهم وأخراهم، ونجاتهم من النار، ودخولهم الجنة، ووراثتهم لها؛ كما قال تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١﴾.

أي: قد أفلح غاية الفلاح، وفاز الفوز العظيم، المؤمنون بالإيمان المطلق، ويقدر ما يكون عليه الإنسان من الإيمان، والاتصاف بهذه الصفات يكون نصيبه من الفلاح. روي أنه لما خلق الله الجنة لبنة من ذهب ولبنة من فضة وغرسها، قال لها: «تكلمي». فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾^(١).

وروي أن عائشة رضي الله عنه سئلت: كيف كان خلق رسول الله ﷺ؟ قالت: كان خلق رسول الله ﷺ القرآن، فقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ١﴾ حتى انتهت إلى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩﴾ قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ^(٢).
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ٩﴾ «الذين» في محل رفع صفة لـ«المؤمنون»،

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥/ ٤٥٥.

(٢) أخرجه النسائي في «تفسيره»، فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٥٤.

والموصلات الثلاثة بعدها في محل رفع عطفاً عليها.

فالصفة الأولى من صفاتهم: أنهم في صلاتهم - فرضها ونفلها - خاشعون، أي: خاضعون لربهم، متذللون له، مستشعرون لعظمته، مستكينة ومنكسرة قلوبهم بين يديه، ساكنة جوارحهم.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾ هذه هي الصفة الثانية من صفات المؤمنين، و«اللغو»: الباطل وما لا خير فيه، ولا فائدة منه من الأقوال والأفعال، أي: والذين هم عن اللغو - وهو الباطل من الأقوال والأفعال - صادون، لا يقعون فيه، ولا يجالسون أهله؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَّمْ عَلَيْكُمْ لَأَنْتُمْ بِنَتْنِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾ [الفرقان: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣].

وعن معاذ رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له: «كف عليك هذا» وأخذ بلسان نفسه، فقال معاذ: يا نبي الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم؟» (١).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾، أي: يؤدون زكاة أموالهم لمستحقيها، وهذه هي الصفة الثالثة من صفات المؤمنين.

وهذا يدل على أن أصل فرض الزكاة كان بمكة؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام وهي مكة أيضاً: ﴿وَمَا أَتَوْا حَقَّهُ وَيَوْمَ حَصَادِهِ ﴿١٤١﴾﴾ [الأنعام: ١٤١].

وقد بينت أنصبتها ومقاديرها في المدينة في السنة الثانية من الهجرة.

ويحتمل أن يراد بالزكاة هنا: ما يشمل أيضاً النفس من الشرك والمعاصي؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿٢﴾﴾ [الشمس: ٩ - ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴿٢﴾﴾ [فصلت: ٦ - ٧].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾، أي: عن المحرم من الزنا واللواط وغير ذلك.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ ﴿٦﴾﴾ «إلا»: أداة حصر، إلا على أزواجهم التي أحلها الله لهم.

(١) أخرجه الترمذي في الإبان ٢٦١١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، «أو»: عاطفة، أي: والذي ملكته أيانهم من الإماء والسراري.

﴿فَأَيْتَهُمْ غَيْرَ مَلُومِينَ﴾ «اللوم»: الإنكار على الغير ما صدر منه من فعل أو قول لا يليق، أي: لا لوم عليهم شرعاً، ولا حرج ولا إثم في وطء أزواجهم وما ملكته أيانهم من الإماء، ومفهوم هذا: أن عدم حفظ الفروج عما سوى ذلك يوجب اللوم الشرعي، وهو ما صرح به بقوله:

﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ الفاء: عاطفة، و«من» طلب غير ذلك، أي: غير الأزواج والإماء.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، والجملة مؤكدة بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: فأولئك هم المعتدون المجاوزون الحلال إلى الحرام.

قال ابن القيم: «فمن لم يحفظ فرجه لم يكن من المفلحين، وكان من الملومين، ومن العادين، ففاته الفلاح، واستحق اسم العدوان، ووقع في اللوم»^(١).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ قرأ ابن كثير: «أَمَانَتَهُمْ» بالإفراد دون ألف، وقرأ الباقون بالألف جمعاً: ﴿أَمَانَاتِهِمْ﴾.

أي: والذين هم لما ائتمنوا عليه من أمانات، وما عقده من عهود فيما بينهم وبين الله، وفيما بينهم وبين العباد ﴿رَاعُونَ﴾، أي: حافظون لتلك الأمانات، مؤدون لها، وافون بتلك العهود امتثالاً لقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقوله ﷺ: «أدّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك»^(٢).

بخلاف صفات أهل النفاق، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٣١.

(٢) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٣٥، والترمذي في البيوع ١٢٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وعد أخلف، وإذا اتتمن خان»^(١).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾^(٦) قرأ حمزة والكسائي وخلف بالإفراد: «صَلَاتِهِمْ»، وقرأ الباقون بالجمع: «صَلَوَاتِهِمْ»، وهذه هي الصفة الخامسة من صفات المؤمنين.

ومعنى ﴿يُحَافِظُونَ﴾، أي: يواظبون ويدأومون عليها في أوقاتها وشروطها وأركانها وواجباتها؛ كما قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾^(٣٨) [البقرة: ٢٣٨].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصلاة على وقتها». قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين». قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»^(٢).

وقد افتتح الله عز وجل هذه الصفات الحميدة بصفة الخشوع في الصلاة، واختتمها بصفة المحافظة على الصلاة؛ لعظم مكانة الصلاة وفضلها، فهي أعظم العبادات مطلقاً بعد الشهادتين، قال ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن»^(٣).

ولأن الصلاة لا بد لصحتها وقبولها من الخشوع فيها، ومن المحافظة عليها. ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾^(١٠) أكد الجملة بكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنويهاً بشأنهم، ورفع لهم، أي: أولئك المؤمنون الموصوفون بتلك الصفات العظيمة ﴿هُمُ الْوَارِثُونَ﴾، وحذف معمول ﴿الْوَارِثُونَ﴾، ليحصل إبهام واحتمال يترقب السامع بيانه؛ قصداً لتفخيم هذه الورثة،

(١) أخرجه البخاري في الإبان ٣٣، ومسلم في الإبان ٥٩، والنسائي في الإبان وشرائعه ٥٠٢١، والترمذي في الإبان ٢٦٣١، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في المواقيت، فضل الصلاة على وقتها ٥٢٧، ومسلم في الإبان، كون الإبان بالله تعالى أفضل الأعمال ٨٥، والنسائي في المواقيت ٦١٠، والترمذي ١٧٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها، المحافظة على الوضوء ٢٧٧، وأحمد ٥/٢٧٦ - ٢٧٧، ٢٧٧، ٢٨٢، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

أي: أولئك هم الوارثون المستحقون لأعظم موروث، ثم بينه بقوله:
﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١١﴾ بيان وتفسير للموروث في قوله:
﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿١٢﴾، أي: الذين يستحقون الفردوس ويختصون به.
قال تعالى: ﴿وَوُودُوا أَنْ تُلَكُوا الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال
تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٧٢﴾ [الزخرف: ٧٢]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ
الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ ﴿٣٦﴾ [مريم: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
صَدَقَنَا وَعَدَّهُ، وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر:
٧٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وله منزلان: منزل في الجنة، ومنزل في النار، فإذا مات فدخل النار ورث أهل الجنة منزله، فذلك قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ﴿١١﴾» (١).

قال ابن كثير (٢): «فالمؤمنون يرثون منازل الكفار؛ لأنهم خلقوا لعبادة الله تعالى، فلما قام هؤلاء المؤمنون بما أوجب الله عليهم من العبادة، وترك أولئك ما أمروا به مما خلقوا له؛ أحرز هؤلاء نصيب أولئك لو كانوا أطاعوا ربهم عز وجل». و«الفردوس» اسم يطلق على الجنة، وعلى أعلى الجنة، وأوسطها.
عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة» (٣).
وفي حديث أم حارثة، قال رسول الله ﷺ: «إنها جنان في الجنة، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى» (٤).

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١١﴾ ضمير الفصل «هم» للتوكيد، أي: هم في الفردوس مقيمون إقامة أبدية، لا تحول ولا تزول.

(١) أخرجه ابن ماجه في الزهد، صفة الجنة ٤٣٤١.

(٢) في «تفسيره» ٥ / ٤٥٩.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٢٣.

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٠٩، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٧٤.

قال حسان رضي الله عنه^(١):

وإن ثواب الله كل موحد
جان من الفردوس فيها يخلد
الفوائد والأحكام؛

١- وعد الله المحقق للمؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة، والبشارة لهم بالفلاح والفوز والسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة، والنجاة من النار، والتنويه بهم وبصفاتهم، والثناء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ الآيات.

٢- أنه من لم يؤمن ولم يتصف بهذه الصفات فهو خاسر الخسران المبين.

٤- الترغيب والإغراء بالصفات المذكورة؛ لأنها من أعظم وأفضل صفات المؤمنين.

٥- أن لب الصلاة هو الخشوع لله تعالى، وتذلل القلب له، والخضوع وسكون الجوارح له؛ لأن الله امتدح المؤمنين بذلك، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾.

٦- فضيلة الإعراض عن اللغو قولاً أو فعلاً، والبعد عن مجالسه؛ لأن الله امتدح المؤمنين بذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾﴾.

٧- وجوب إخراج زكاة المال وتزكية النفس بالأعمال الصالحة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾﴾.

٨- وجوب حفظ الفروج عما حرم الله من الزنا واللواط والاستمنااء باليد والسحاق وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾﴾.

٩- إباحة وطء الزوجات، وملك اليمين، وأنه لا لوم على ذلك شرعاً؛ لأن الله أباحه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾﴾.

١٠- أن من طلب غير الأزواج وملك اليمين فهو من المعتدين المجاوزين الحلال إلى الحرام، الملوومين على فعلهم، غير المفلحين؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾.

(١) انظر: «ديوانه» ص (٣٣٩).

- ١١- حرمة نكاح المتعة؛ لأن المتمتع بها لا تسمى زوجة، وكذا نكاح المحلل.
- ١٢- وجوب أداء الأمانات، والوفاء بالعهد، مما بين العبد وبين ربه، ومما بين العبد وبين الناس؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ ٨.
- ١٣- امتداح المؤمنين بمحافظتهم على صلواتهم على أوقاتها وحدودها وأركانها وواجباتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ ٩.
- ١٤- فضيلة المواظبة والمداومة على الصلاة؛ لأن الله امتدح بها المؤمنين.
- ١٥- عظم مكانة الصلاة في الإسلام، والخشوع فيها، والمحافظة عليها؛ لأن الله ابتدأ بها هذه الصفات وختمها بها.
- ١٦- أنه لا بد لصحة الصلاة من أمرين: الخشوع فيها، والمحافظة عليها.
- ١٧- التنويه بشأن المؤمنين المتصفين بهذه الصفات، وعظيم أجرهم، وجزيل ثوابهم، وأنهم هم الوارثون حقاً للخير كله؛ لوراثتهم الفردوس وخلودهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ ١٠ الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ١١، فأين المشمرون؟
- ١٨- أن الجنة لا تفنى ولا يفنى نعيمها، ولا يبلى أهلها، ولا يخرجون منها، نسأل الله تعالى أن نكون من أهلها ووالدينا وذرياتنا وأهلونا وجميع المسلمين.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾﴾.

لما وعد المؤمنين المتصفين بالصفات المذكورة، وبشرهم بالفلاح ووراثة الجنة والخلود فيها، أتبع ذلك بذكر دلائل كمال قدرته وتمام نعمته على الإنسان، وعظم عنايته به في خلقه وأطوار حياته، وفي ذلك التذليل على وحدانيته عز وجل، وقدرته التامة على البعث.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الواو: استثنائية، واللام: لام القسم لقسم مقدر، و«قد»: حرف تحقيق، أي: ولقد أنشأنا الإنسان وابتدأنا خلقه بخلق آدم عليه السلام.

﴿مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ [الصفات: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَرْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا يُعْلِمُهُ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١].

والسلالة: الشيء المسلول، أي: المنتزع من شيء آخر، أي: خلاصة الشيء، والمعنى: أن خلقه استل، أي: أخذ من جميع أجزاء الأرض وأصنافها؛ ولهذا جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث، والسهل والحزن، وغير ذلك.

عن أبي موسى، عن النبي ﷺ، قال: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمر والأبيض والأسود، وبين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك» (١).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ الضمير في «جعلناه» يعود إلى جنس الإنسان؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ

(١) أخرجه أبو داود في السنة، باب في القدر ٤٦٩٣، والترمذي في تفسير سورة البقرة ٢٩٥٥، وأحمد

٤/٤٠٠، ٤٠٦، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

﴿مَاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧-٨].

والمراد بالنظفة: الماء الدافق، وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب؛ كما قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۗ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۖ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۗ﴾ [الطارق: ٥-٧].

﴿فِي قَرَارٍ﴾ وهو الرحم الذي تستقر فيه النطفة أعظم الاستقرار، وتنتقل فيه من طور إلى طور إلى تمام خلق الإنسان.

﴿مَكِينٍ﴾، أي: مصون محفوظ من الفساد والآفات، في أعدل الأجواء، دفع في الشتاء، وبرودة في الصيف، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ۖ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۙ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ۙ فَقَدَرْنَا فِعْمَ الْقَدَرُونَ ۙ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢٣].

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾، أي: ثم بعد مضي أربعين يوماً صيرنا النطفة علقة، أي: دماً أحمر، على شكل علقة مستطيلة، تعلق في جدار الرحم.

﴿فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ﴾، أي: صيرناها بعد أربعين يوماً ﴿مُضْغَةً﴾، أي: قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغ، لا شكل فيها ولا تخطيط.

﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا﴾ قرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم بالإفراد: «عِظْمًا»، وقرأ الباقون: «عِظْمًا» بالجمع، أي: فصيرنا المضغة عظاماً، أي: جعلناها ذات رأس ويدين ورجلين بعظامها وعصبها وعروقها، وصورناها على شكل الإنسان وهيئته.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب؛ منه خلق ابن آدم، ومنه يركب»^(١).

﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾، أي: فكسونا العظام وسترناها باللحم؛ لتشتد وتقوى.

فالعظام عماد اللحم، واللحم كسوة وسترة للعظام وتقوية لها.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾، أي: ثم نفخنا فيه الروح، فانتقل من كونه جماداً إلى أن صار خلقاً آخر، أي: حيواناً ذا روح وسمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب، إلى أن كمل نموه في بطن أمه، ثم ولد طفلاً صغيراً، ثم احتلم، ثم صار شاباً، ثم كهلاً، ثم

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «عم يتساءلون» ٤٩٣٥، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة، ما بين النفختين ٢٩٥٥، وابن ماجه في الزهد، ذكر القبر والبيلى ٤٢٦٦، وأحمد ٢ / ٣١٥، ٤٢٨، ٤٩٩.

شَيْخًا، ثُمَّ هَرَمًا، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَاِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَعَزَمُ مَخْلَقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَزْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [٧] ﴿[غافر: ٦٧].

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: «إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: رزقه، وأجله، وعمله، وهل هو شقي أو سعيد، فوالذي لا إله غيره، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيختم له بعمل أهل النار، فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها» (١).

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ لما ذكر دلائل كمال قدرته وحكمته وعنايته ونعمته في خلق الإنسان، ونقله من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، أتبع ذلك بالثناء على نفسه. أي: فتعالى الله وتعاضم وكثر خيره.

﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ الذي أحسن الخلق وأجمله وأتمه وأعظمه؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ [السجدة: ٧ - ٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [التغابن: ٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ﴾ ﴿٧﴾ فِي

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء، ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾ ٣٣٣٢، ومسلم في القدر، كيف خلق آدمي في بطن أمه ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

أَيُّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَبُّكَ ﴿٨﴾ [الانفطار: ٧ - ٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣].

وفي قوله: ﴿فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ بعد ذكر خلق الإنسان وأطواره؛ إشارة إلى أنه عز وجل خلق الإنسان على أحسن خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

﴿ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ﴾، أي: ثم إنكم بعد خلقكم وحياتكم ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لصائرون إلى الموت، أي: تنتهي أطواركم وتنقلاتكم بالموت، وكفى بالموت واعظاً، لكن ما بعده أشد؛ ولهذا قال:

﴿ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَبَعُونَ﴾ ﴿١٦﴾ أحياء، فتحاسبون وتجاوزون على أعمالكم، وليس خلقكم الثاني بأصعب من الأول.

كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَخْلٍ فَسْوَىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُمْحَىٰ الْمَوْتِ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيَّبْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿١٥﴾ [ق: ١٥].

الضوائد والأحكام:

١ - بيان قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته ومنتته على الإنسان، وعنايته به في خلقه، ونقله إياه في أطوار حياته، ودلالة ذلك على وحدانيته عز وجل، وتمام قدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ﴿٣٦﴾ الآية.

٢ - أن أصل خلق الإنسان من سلالة من طين، بخلق آدم عليه السلام أبي البشر. من ذلك.

٣ - أن من أسباب اختلاف ألوان البشر وطبائعهم وأشكالهم تأثرهم بما أخذت منه هذه السلالة من أصناف الأرض وأجزائها.

٤ - لا فخر لأحد من البشر على أحد في أصل الخلق؛ لأنهم خلقوا جميعاً من التراب والطين، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي، وقد أحسن القائل:

الناس من جهة التمثيل أكفاء أبوهم آدم والأم حواء

فإن يكن لهم من أصلهم نسب يفاخرون به فالطين والماء^(١) وإنما الفضل بتقوى الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٥- أن جنس الإنسان خلق من نطفة؛ وهي المني والماء الدافق الذي يخرج من بين الصلب والترائب؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً﴾.

٦- عناية الله تعالى التامة بالإنسان منذ كونه نطفة في بطن أمه، بجعله في هذا المستقر المكين المحفوظ المصون وهو الرحم؛ لقوله تعالى: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾.

٧- انتقال خلق الإنسان في الرحم من نطفة إلى علقة تعلق بالرحم، ثم إلى مضغة، أي: قطعة لحم صغيرة، ثم إلى عظام يتبين منها شكل الإنسان وهيئته؛ من رأس ويدين ورجلين وغير ذلك، ثم كسوة العظام لحماً تسترها وتشدها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا﴾.

٨- نفخ الروح فيه بعد تلك المراحل، وإنشأؤه خلقاً آخر، وانتقاله من جماد إلى حيوان ذي روح وسمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب، إلى اكتمال نموه في بطن أمه، ثم ولادته طفلاً إلى آخر مراحل حياته؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾.

٩- تعظيم الله تعالى، وثناؤه على نفسه بتعالیه وكثرة خيره وحسن خلقه وكماله؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

١٠- في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ بعد ذكر خلق الإنسان وأطواره؛ إشارة واضحة إلى نعمة الله على الإنسان في تسوية خلقه، وجعله من أحسن المخلوقات، بل أحسنها على الإطلاق.

١١- أن نهاية أطوار الناس في هذه الحياة الموت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾.

١٢- إثبات القيامة، وبعث الخلائق وحسابهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى:

(١) البيتان لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. انظر: «ديوانه» (ص ٧)، «نهاية الأرب في فنون الأدب» (٢/ ١٠٨).

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ (١٦).

١٣- دلالة الخلق الأول للإنسان، ونقله في أطواره المختلفة، ثم إمامته؛ على قدرة الله تعالى التامة على البعث والمعاد.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبْ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَبِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّذِي لَبِثَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ لِمُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾﴾:

لما بين عز وجل تمام قدرته، وعظيم منته ونعمته بخلق الإنسان، وما في ذلك من الدلالة على وحدانيته، وتمام قدرته على البعث، أتبعه بالاستدلال على ذلك بخلق السموات السبع الطباق.

وكثيراً ما يقرن عز وجل بين خلق الإنسان وخلق السموات والأرض؛ لأن خلقهما يدل على كمال قدرته وأكبر وأعجب، وإن كان خلق الإنسان إلى نظره أقرب، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧].

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾، أي: سبع سموات طباقاً، بعضها فوق بعض؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي تَرَى كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: ١٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٦﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها.

أي: وما كنا عن الخلق غافلين، بل كنا عالين به، محيط به علمنا وعنايتنا إحاطة تامة، قال تعالى: ﴿الَّذِي يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٤]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال

تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُقَدِّرُ فَأَسْكِنَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [١٣] فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَبٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١١﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيَّغُ لِلْأَكْلِيبِ ﴿٥﴾.

بعدما استدل على عظيم قدرته وامتته ووحدانيته وقدرته على بعث الخلائق، بخلق الإنسان ونقله في أطوار حياته حتى مماته، وبخلق السموات السبع الطباق فوق العباد، أتبع بالاستدلال على ذلك أيضاً: بإنزال المطر، وإنبات النبات، وإنشاء الجنات، وقرن بين خلق السموات وإنزال المطر؛ لأن المطر ينزل من جهة السماء.

قوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر، ﴿يُقَدِّرُ﴾، أي: بمقدار معلوم معين، وبقدر حاجة الخلق وكفائتهم، من غير زيادة فيضر بالمساكن، ويهلك الحروث والزرع، ولا نقص بحيث لا تحيا به الأرض، ولا ينبت النبات والأشجار؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُقَدِّرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ نُخْرِجُوتُ ﴿١١﴾﴾ [الزخرف: ١١].

﴿فَأَسْكِنَهُ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: جعلناه يسكن ويستقر في الأرض، فمنه ما ينتفع به وهو على سطح الأرض في الأودية والغدران، ومنه ما تشربه الأرض فيتغذى به ما يخرج منها من النبات والحب والنوى والأشجار وغير ذلك، ومنه ما ينزل ويتسرب إلى باطنها، فتكنزه وتخرج منه العيون والأنهار، أو يخرج بواسطة حفر الآبار؛ وكل ماء في الأرض فهو مما نزل من السماء.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: ٢١].

﴿وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنا على ذهاب بهذا الماء لو شئنا ذلك لقادرون، ونكر «ذهاب» للتفخيم والتعظيم، والإشارة إلى تعدد أسباب الذهاب به، من إمساك إنزاله زمناً طويلاً، أو تغويره في أعماق الأرض فلا يوصل إليه، أو غير

ذلك؛ كما قال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠].
﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾، أي: بذلك الماء، ﴿جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾، أي: بساتين من نخيل وأعناب، مما يقتات بثمره ويتفكه به رطبًا وياسًا.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَوْكٌ كَثِيرٌ﴾ الجملة في محل نصب صفة لـ ﴿جَنَّاتٍ﴾، أي: لكم في تلك الجنات فواكه كثيرة مما يتلذذ بطعمه، ويتفكه به من غير قصد القوت.
﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ الواو عاطفة، والجملة في محل نصب عطفًا على جملة: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوْكٌ﴾، أي: ومنها تأكلون طعامًا وقوتًا لكم.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو بكسر السين: «سيناء»، وقرأ الباقون: ﴿سَيْنَاءَ﴾ بفتحها.

﴿وَشَجَرَةً﴾، «شجرة» منصوبة بفعل مقدر تقديره: وأنشأنا لكم به شجرة، وهي شجرة الزيتون، التي هي من أطيب الأشجار وأفضلها، وأكثرها بركة، وأعظمها نفعًا.
﴿تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ﴾ هو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام بين مصر وأيلة من أرض فلسطين من أرض الشام المباركة، وشجرة الزيتون تخرج فيه وفي غيره، وإنما خص منها ما يخرج منه؛ لأن خروجها منه يزيدا بركة؛ لبركة أرضه وطيبها، أو لأن أول خروجها كان من تلك الأرض المباركة.

وخص هذه الأصناف الثلاثة: النخيل والأعناب والزيتون؛ لأنها أكرم الأشجار، وأكثرها بركة، وأنفعها ثمرًا، مما يقتات ويتفكه به، وإلا فإن المطر سبب حياة الأرض كلها، وخروج جميع النباتات المختلفة الثمرات؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرُجُ مِنْهُ حَبًّا مَّتْرَاجِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشْتَبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩].

وقال تعالى: ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنَ الشَّجَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [٥٣] ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [٥٤] [طه: ٥٣ - ٥٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْزَلَ اللَّهُ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [فاطر: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ

مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَمْ يَعْ اللَّهُ بِكُمْ قَوْمًا يَعْذِلُونَ ﴿ [النمل: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿ [لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿ [ق: ٩-١١].

﴿تَنْبُتُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ورويس بضم التاء وكسر الباء: «تَنْبُتُ».

وقرأ الباقر بفتح التاء وضم الباء: «تَنْبُتُ».

﴿بِالدَّهْنِ﴾ الباء للتعدية، أي: تنبت الدهن، أي: الزيت، وقيل: الفعل مضمن معنى: تخرج بالدهن، أي: تأتي بالدهن، وهو الزيت، الذي يدهن به ويستصبح به، ويتداوى به، وغير ذلك.

﴿وَصَبَّغَ لِلْأَكْلِيَّتِ﴾، أي: أدم لهم طعامهم من خبز وغيره.

عن أبي أسيد مالك بن ربيعة الساعدي الأنصاري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به؛ فإنه من شجرة مباركة»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لَسْتُمْ فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿ [الحشر: ٢٢] وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ لُحْمُونٌ ﴿ [الحشر: ٢٢]﴾.

ذكر عز وجل دلائل قدرته ومنتته في خلق الإنسان، وخلق السموات، وإنزال الماء من السماء وإنشاء الجنات به، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته في الأنعام التي خلقها وسخرها يشربون من ألبانها، ويتنفعون بها منافع كثيرة، ويأكلون منها، ويحملون عليها وعلى الفلك.

قوله: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ ﴿ [الحشر: ٢٢] الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد، أي: وإن لكم في الأنعام- الإبل والبقر والغنم- لعبرة تعتبرون بها، تدلكم على عظم نعمة الله تعالى عليكم، وعلى تمام قدرته، فاعتبروا بذلك واشكروا؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ ﴿ [الحشر: ٢٢].

﴿لَسْتُمْ فِي بُطُونِهَا﴾ قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر عن عاصم بفتح النون:

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٩٧، والترمذي في الأظعمة ١٨٥٢.

«نَسْقِيكُمْ»، وقرأ أبو جعفر بقاء التانيث مفتوحة: ﴿نَسْقِيكُمْ﴾ على أن الضمير للأنعام، وقرأ الباقون بالنون مضمومة: ﴿نُسْقِيكُمْ﴾.

أي: نسقيكم من الذي في بطونها لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّسُقِيكُمُ مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيرَةٌ﴾ من الحرث عليها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْلًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَمْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٥، ٦].

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: وتأكلون من لحومها وشحومها.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، أي: وعلى هذه الأنعام وعلى السفن تحملون، فتنقلون عليها من بلد إلى آخر، وتحملون عليها أمتعتكم وتجاراتكم من قطر إلى قطر، فالإبل سفن الصحراء والبر، والفلك سفن البحر؛ كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنفَعٌ وَمَشَارِبٌ أَفْلا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [يس: ٧١ - ٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلْغِيهِ إِلَّا شِقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ [النحل: ٧].

الفوائد والأحكام:

١- بيان كمال قدرة الله تعالى وعظمته في خلق السموات السبع الطباق، وحكمته، والامتنان بذلك على العباد؛ لما في ذلك من المصالح والمنافع، ودلالة ذلك على وحدانيته عز وجل، وقدرته التامة على بعث الخلائق يوم المعاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ﴾.

٢- علم الله تعالى التام بالخلق كله، وإحاطته وعنايته به؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

٣- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن؛ فإنه مطلع ورقيب عليهم وشهيد؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البروج: ٩].

٤- قدرة الله تعالى التامة على إنزال المطر من السماء، وإسكانه في الأرض، وحكمته ورحمته، والامتنان بذلك على العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنْتَهُ فِي الْأَرْضِ﴾.

٥- تحويف العباد بالذهاب بهذا الماء؛ ليشكروا الله تعالى عليه، وبيان تمام قدرته على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِنَّ لَقَادِرُونَ﴾.

٦- الامتنان على العباد بما أنشأ عز وجل لهم بهذا الماء من جنات النخيل والأعناب، لهم فيها فواكه كثيرة، يأكلون منها قوتًا وتفكها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاكِهِ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

٧- امتداح شجرة الزيتون التي تخرج من طور سيناء الأرض المباركة، ودهنها وأدمها، والامتنان على العباد بإنشائها لعظيم منافعها؛ لقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَيْغُ اللَّائِلِ﴾.

٨- تخصيص هذه الأصناف بالذكر: النخيل والأعناب والزيتون؛ لأنها من أكرم الأشجار، وأكثرها بركة، وأنفعها ثمرًا.

٩- تذكير العباد بما في الأنعام لهم من العبرة؛ ليشكروا، يُسقون لبنًا مما في بطونها، وينتفعون بأصوافها وأوبارها وأشعارها، ويأكلون من لحومها وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لِّتُنذِرُوا لِمَا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

١٠- الامتنان على العباد بحملهم وأمتعتهم في البر على الإبل، وحملهم في البحر على السفن؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَعَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ۝ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَضُّوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ۝ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي ۝ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَوَحِّينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَاطَبُ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ۝ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ۝ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَن كَانِ الْمُبْتَلِينَ ۝﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۗ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَعَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ ۝ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَضُّوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ۝﴾ .

بعدما ذكر عز وجل دلائل قدرته وحكمته ورحمته، ومتمته في خلق الإنسان والسموات السبع الطباق، وإنزال الماء من السماء، وإنشاء الجنات به، من النخيل والأعناب والزيتون، وغير ذلك، وفي خلق الأنعام لهم، يشربون من ألبانها، وينتفعون بها، ويأكلون من لحومها، وتحملهم هي والسفن في البر والبحر، أتبع ذلك، بذكر ما هو أعظم منة امتن بها على العباد، وهي: إقامته الحجة على الخلق بإرسال الرسل إليهم. وقد قص الله عز وجل أخبار الرسل وأممهم، وكررها في مواضع كثيرة من كتابه؛ للتأكيد على سلوك منهجهم في الدعوة إلى الله والتأسي بهم، والحذر من مسالك المكذبين لهم، ومن أكثر السور بسطاً لهذه القصص سورة هود والأعراف.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ «نوح» هو أول رسول أرسله الله تعالى إلى أهل الأرض؛ لينذر قومه ويحذرهم عذاب الله لما هم عليه من الشرك بالله وعبادة الأصنام.

﴿فَعَالَ يَلْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، أي: اعبدوا الله وحده، وأخلصوا له العبادة.

﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من

حيث المعنى، أي: ليس لكم معبود سواه.

﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، أي: أفلا تتقون الله وتحافونه،

وتتركون ما أنتم عليه من عبادة الأصنام والأوثان؟!

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾، أي: السادة والرؤساء والأكابر والأشراف منهم، على وجه المعارضة لنوح عليه السلام، والتحذير من اتباعه.

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ «إلا» أداة حصر، و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«يريد»، أي: يريد التفضل عليكم، أي: يريد أن يظهر أنه أفضل منكم، ويترفع ويتعظم عليكم بدعوى النبوة، وإلا فما الذي يفعله عليكم وهو بشر مثلكم ومن جنسكم؟! وكيف خص بالوحي دونكم؟

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، أي: ولو شاء الله أن يبعث رسولا لأنزل ملكا، ولم يبعث بشرا. وهذا من جهلهم؛ لأنه لو كان ملكا لم يقدروا على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَآ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلنَّسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وكانت هذه الدعوى الباطلة سبب ضلال كثير من الناس وكفرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]، وقال المشركون لنبينا محمد ﷺ: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابًا لَوَجَّعْنَا مَعَهُ وَمَلَكًا﴾ [هود: ١٢].

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾، أي: ما سمعنا ببعثة رسول من البشر.

﴿فِي آيَاتِنَا الْأُولَىٰ﴾، أي: في أجدادنا وأسلافنا السابقين، وفي الأمم الماضية.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» أداة حصر، أي: ما هو إلا رجل به مس من الجنون، أي: مجنون؛ كما قال تعالى عنهم في سورة القمر: ﴿وَقَالُوا مَجْجُونٌ وَارْدُجِرَ﴾ [القمر: ٩].

ودعواهم أنه مجنون مناقض لقولهم قبل هذا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿فَتَرَضُّوا بِهِ﴾، أي: فانتظروا به واصبروا عليه مدة، أي: حتى يموت فتستريحوا منه؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبْرِئُصُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ فَأَذًا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا

مِنَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٢٥﴾ .

لما كذبه قومه واتهموه أنه يريد التفضل عليهم ورموه بالجنون استنصر الله ودعا عليهم.
﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ الباء للسببية، أي: يا رب انصُرني عليهم بسبب تكذيبهم إيي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصُرْهُ﴾ [القمر: ١٠]، وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دِيَارًا﴾ [٢٦] إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوْا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوْا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ [نوح: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُوْنَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيْمِ ﴿٧٦﴾﴾ [الصافات: ٧٥-٧٦].

وذلك بعد أن طال لبثه فيهم يدعوهم إلى الله تعالى وأيس منهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا اِخْتَسِمِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤].

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ معطوف على ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾، أو على مقدر، أي: فاستجبنا دعاءه وأوحينا إليه.

﴿أَنْ أَصْنَعُ الْفُلَّكَ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ«أوحينا»، أي: أوحينا إليه صنع الفلك، أي: صنع السفينة سبيًا ووسيلة للنجاة من الغرق قبل وقوعه.

﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، أي: بمرأى منا، وبحفظنا وكلاءتنا.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ الكوني القدري بإرسال الطوفان بالماء النازل من السماء، والنابع من الأرض، الذي غمر الأرض وغطى السهل والجبل؛ كما قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَمَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: ١١-١٢].
﴿وَفَارَ التَّنُّورُ﴾، أي: ونبع الماء من التنور المعروف «محل النار»، الذي جرت العادة ببعده عن الماء.

﴿فَأَسْأَلُكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ قرأ حفص بالتثنية: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾، وقرأ الباقون بإضافة «زوجين» إلى «كل»: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾.

أي: فأدخل فيها، أي: في السفينة من كل شيء زوجين، ذكرًا وأنثى من الحيوان وغيره.

﴿وَأَهْلَكَ﴾، أي: وأدخل فيها أهلك ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: إلا الذي سبق عليه القول بالهلاك والغرق منهم كابنه، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوْحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَتَأْتِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ [هود: ٤٠ - ٤٣].

﴿وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ﴿٧﴾، أي: لا تكلمني فيهم وتدعني أن أنجيهم شفقة منك عليهم، أو طمعاً في تأخيرهم لعلمهم يؤمنون، وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: ولا تخاطبني فيهم، بل قال: ﴿فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ للدلالة على أن سبب شدة غضبه عليهم وإغراقه لهم هو ظلمهم، وقد أكد هذا أيضاً في الإظهار بدل الإضمار في قوله: ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّنا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ الجملة تعليل للنهي السابق، أي: لأنهم مغرِقون لا محالة، قد قضيت بذلك وقدرته عليهم، فقضائي نافذ فيهم ولا بد.

﴿فَإِذَا أَسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ﴾، أي: فإذا اعتليت أنت ومن معك على الفلك، وركبتم فيها، واستقلت بكم على ظهر الأمواج المتلاطمة.

﴿فَقُلِ﴾، أي: فقل شاكرًا لله تعالى مثنيًا عليه أنت ومن معك: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله تعالى وحده، ﴿الَّذِي نَجَّنا﴾، أي: خلصنا وأنقذنا: ﴿مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فأهلكهم بالغرق، وسلمنا منهم، ومن عملهم، ومن الغرق. وقد امثل نوح عليه السلام هذا؛ كما قال تعالى: ﴿* وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبَهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٤١﴾ [هود: ٤١]، فذكر الله عند ابتداء سيره كما ذكره عند انتهائه، فقال: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزِلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩].

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ﴿١٢﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ تَدْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾ [الزخرف: ١٢ - ١٤].

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزِلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ﴿١٣﴾ روى أبو بكر عن عاصم «منزلاً»

بفتح الميم وكسر الراء، اسم لمكان النزول.

وقرأ الباقون بضم الميم وفتح الزاي: ﴿مُنزَلًا﴾ اسم مفعول، أو مصدر.

وقد استجاب الله دعاءه وأنزله خير منزل وأبركه؛ كما قال تعالى: ﴿وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَأُسْتُوتَ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ﴾ [هود: ٤٨].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: إن في قصة نوح وقومه، وإنجائه ومن معه في السفينة، وإغراق المكذبين من قومه؛ ﴿لآيَاتٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالات وحجج واضحة على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته وصدق رسله؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَّذَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٥].

﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، أي: وإن كنا لمختبرين العباد بإرسال الرسل إليهم، ومبتلين الرسل وأتباعهم، والناس أجمعين؛ كما قال تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢ - ٣]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصّٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وفي حديث هرقل: «وكذلك الأنبياء تبلى ثم تكون العاقبة لهم»^(١).

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ على ما يلقيه من المشركين، وتعريض بتهديدهم، وأن ما يواجهه الرسل بلوى تزول، ثم تكون الدائرة على أعدائهم.

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات رسالة نوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾.
- ٢- أن أساس دعوة نوح عليه السلام وجميع الرسل إثبات العبادة لله تعالى وحده، وإبطال إلهية من سواه؛ لقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

(١) سبق تحريجه.

٣- إنكار نوح عليه السلام على قومه ما هم عليه من الشرك بالله وعبادة الأصنام والأوثان؛ وعدم تقوى الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٤- معارضة الملائكة الذين كفروا من قومه لدعوته، وتكذيبهم إياه، وتحذيرهم قومهم من اتباعه، بحجة أنه بشر مثلهم، وليس بملك، وإنما يريد التفضل عليهم بدعوى النبوة، وكيف خص بالوحي دونهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾.

٥- أن الملائكة والسادات والكبراء وذوي المناصب والجاه والغنى في مقدمة معارضي الرسل، والمكذبين لهم، والتحذير من اتباعهم، اغترارًا بحالهم؛ لهذا لا ينبغي الاغترار بهم.

٦- شدة جهل هؤلاء في اعتراضهم على كون الرسول بشرًا مثلهم؛ إذ لو كان ملكًا ما استطاعوا مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل فيعود اللبس عليهم.

٧- جرأة مكذبي الرسل على تليفق الاتهامات لهم، وتفنتهم في ذلك؛ ليمنعوا الناس من اتباعهم؛ لقولهم: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

٨- دورانهم في فلك حظوظ الدنيا ومناصبها الفانية؛ لقولهم: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

٩- إثبات الإرادة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾.

١٠- إثبات المشيئة لله تعالى، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾.

١١- إثبات وجود الملائكة، وأنهم خلق من خلق الله تعالى.

١٢- تقليدهم الأعمى لأبائهم، واحتجاجهم بما هم عليه من جهل وضلال؛ لقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾. وهذا دليل على جهلهم وجاهل آبائهم، فليس فيه حجة لهم.

١٣- اتهامهم لنوح عليه السلام بالجنون، وأمرهم بانتظار هلاكه وموته؛ لقولهم: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَرَصَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

١٤- عدم تورع أعداء الرسل من وصفهم وأتباعهم بأقبح الأوصاف؛ كالجنون والسحر والكهانة والشعر وغير ذلك؛ لينفروا الناس منهم، وهكذا قيل لسيد الرسل وأفضلهم نبينا محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَوْ أَصْحَابُ بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢ - ٥٣].

١٥- تناقضهم في وصفهم لنوح عليه السلام بين العاقل والمجنون، فأولاً قالوا: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾، ثم عادوا وقالوا: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَضُّوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾﴾ وهذا يدل على حيرتهم وتذبذبهم وفقدانهم الصواب.

١٦- دعاء نوح عليه السلام ربه أن ينصره عليهم بسبب تكذيبهم، ودعاؤه عليهم بعد أن طال لبثه فيهم وأيس منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونُ ﴿٥٦﴾﴾.

١٧- استجابة الله تعالى له ووحيه إليه بصنع السفينة بمرأى منه عز وجل، وعناية ووحى منه؛ لتكون سبباً ووسيلة لنجاته ومن معه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾.

١٨- إثبات صفة الأعين لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾.

١٩- أمر الله تعالى لنوح إذا جاء أمره عز وجل القدري بإرسال الطوفان والغرق، بفتح أبواب السماء بقاء منهمر، وتفجير الأرض عيوناً، وفوران التنور؛ بأن يدخل في السفينة من كل شيء زوجين اثنين، ذكراً وأنثى، من الحيوانات وغير ذلك، وأهله إلا من سبق عليه القول منهم بالهلاك والموت على الكفر كابنه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾.

٢٠- إثبات القدر، وأن ما قدر الله كائن لا محالة، وأن من سبق عليه القول بالهلاك على الكفر فلا سبيل إلى هدايته؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾.

٢١- شدة غضب الله تعالى على هؤلاء المكذبين الظالمين، ونبيه عز وجل نوحاً أن يكلمه في شأنهم بدعائه إياه بنجاتهم، شفقة عليهم، أو طمعاً في إنظارهم لعلمهم يهتدون، وتأسيسه منهم، وأنهم مغرَقون لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْطَبْتُمْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّعْرَضُونَ﴾.

٢٢- أن سبب شدة غضب الله تعالى عليهم، وإغراقه إياهم هو ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، وقول نوح عليه السلام: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَّثَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.

٢٣- أمر الله عز وجل لنوح عليه السلام إذا استوى هو ومن معه على السفينة واستقلت بهم؛ بحمد الله تعالى والثناء عليه على إنجائه إياهم من القوم الظالمين وما هم عليه، وإنجائهم من الغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَجَّثَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٨﴾﴾، وهكذا فعل عليه السلام، فذكر الله في ابتداء سيره ونهايته، وهكذا شرع عز وجل لهذه الأمة الدعاء عند الركوب والسفر.

٢٤- أمره عز وجل له بدعاء ربه أن ينزله هو ومن معه في السفينة منزلاً مباركاً، ويشني عليه بكونه خير المنزلين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿١١١﴾﴾.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لنوح عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ﴾.

٢٦- أن الله عز وجل هو خير المنزلين، ومشروعية الثناء عليه بذلك والدعاء بهذا الدعاء: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾.

٢٧- أن في قصة نوح وقومه، وإنجائه ومن معه في السفينة، وإغراق المكذبين من قومه آياتٍ ودلالاتٍ عظيمةً على كمال قدرة الله تعالى ووحدانيته، وصدق رسله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾.

٢٨- ابتلاء الله العباد بإرسال الرسل إليهم، وابتلاء الرسل وأتباعهم بما يحصل لهم من الأذى من مخالفيهم، وأن الابتلاء بالخير والشر سنة كونية؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، والكافر من المؤمن؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ والمؤمنين، وتهديد للكافرين.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشْرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَعْبُدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا إِنَّكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيبُكُمْ نَارُ مِيزَابٍ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعَثْنَا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، أي: بعد قوم نوح ﴿قَرْنًا آخَرِينَ﴾، أي: جيلاً آخرين وأمة أخرى، يحتمل أن المراد بهم: «عاد»؛ لأنهم هم المستخلفون بعد قوم نوح، وقد جاء في مواضع كثيرة من القرآن ذكرهم بعد قوم نوح.

ويحتمل أن المراد بهم: «ثمود» وهو الأقرب - والله أعلم - لأن هذه القصة تشبه قصة ثمود؛ لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ وغير ذلك.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، أي: يعرفون نسبه وحسبه وصدقه؛ ليكون ذلك أقرب لانقيادهم له، وليبين لهم وتقوم الحجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُبَيِّنَ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]، وهو «هود» أو «صالح».

﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: فقال لهم رسولهم: ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ الآية؛ كما قال نوح لقومه، وقد سبق الكلام على هذا.

﴿وَقَالَ الْمَلَائِكَةُ لِقَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، أي: الذين أنكروا رسالته وكذبوه وجحدوا وحادانية الله تعالى.

﴿وَكَذَّبُوا بِإِيقَاءِ الْآخِرَةِ﴾، أي: كذبوا ببقاء الله تعالى، والدار الآخرة، وأنكروا البعث والحساب والجزاء على الأعمال، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُواهُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [العنكبوت: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِإِيقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتُنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ [الأنعام: ٣١].

﴿وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: أغدقنا عليهم الأموال والأرزاق والنعم في الحياة الدنيا، فاغتروا بذلك، وبطروا.

﴿ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾، أي: من جنسكم، ليس له مزية عليكم، وليس بملك.
 ﴿ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴾ (٣٣)، أي: يأكل من الذي تأكلون منه
 من المطاعم، ويشرب من الذي تشربون منه، فما الذي يفضله عليكم؟ أي: فهلا كان
 ملكًا لا يأكل ولا يشرب؛ كما قال المشركون: ﴿ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ
 وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ وَذَيَّلًا ﴾ [الفرقان: ١٧].

﴿ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ ﴾ الواو: عاطفة، واللام: موطنه للقسم، أي: والله لئن
 أطعتم بشرًا مثلكم وصدقتموه واتبعتموه ﴿ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴾ جملة جواب القسم،
 و«إذَا» بالتنوين: حرف جواب لا عمل له، واللام: واقعة في جواب القسم.

وهذا قلب للحقائق؛ فإن مخالفه هم الخاسرون، وإن مطيعه هم الراحون، وهذا
 كقولهم في سورة القمر: ﴿ أَبَشْرًا مِمَّا وَحَدَّا تَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴾ (١١) أَلْفِي الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا
 بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَشْرٌ ﴾ [القمر: ٢٤-٢٥].

﴿ أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا ﴾ الاستفهام: للتعجب، أي: أيعدكم أنكم إذا
 متم وبليتم وكنتم ترابًا ورميًّا وعظامًا نخرة ﴿ أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ ﴾ من قبوركم ومبعوثون
 أحياء بعد ذلك؟!

﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾ (١٠) قرأ أبو جعفر بكسر التاء: «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ»،
 وقرأ الباقر بفتحها: ﴿ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ﴾، أي: بُعد بُعد.

﴿ لِمَا تُوعَدُونَ ﴾، اللام: للتوكيد، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: بُعد
 وعدكم، أو بُعد الذي توعدون.

﴿ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ «إن» نافية في الموضعين بمعنى «ما»، أي: ما هي إلا
 حياتنا الدنيا.

﴿ نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾، أي: يموت أناس ويحيا أناس، ويموت قوم ويحيا آخرون.
 ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ أحياء بعد الموت؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا
 تَأْتِينَا السَّاعَةُ ﴾ [سبأ: ٣]، أي: لا ثمة بعث ولا آخرة ولا حساب ولا جزاء.

﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ «إلا» أداة حصر، أي: ما هو إلا رجل اختلق
 على الله كذبًا فيما جاء به من دعوى الرسالة، والدعوة إلى عبادة الله وترك عبادة الآلهة،

وفيا يعد به من البعث ويحذر منه من الحساب والجزاء.

﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾، أي: وما نحن له بمصدقين، ولا متقادين.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾، أي: يا رب انصُرني وأظهرني عليهم بسبب

تكذيبهم إياي، فأجاب الله دعاءه.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من

حيث المعنى، واللام: لام القسم لقسم مقدر، أي: والله عن ﴿قَلِيلٍ﴾، أي: بعد زمن

قليل قريب ﴿لِيُصِيعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليصيرن نادمين،

أي: متأسفين على كفرهم وعنادهم وتكذيبهم لك.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْمَةُ﴾، أي: أهلكتهم الصيحة ﴿بِالْحَقِّ﴾ الباء للملابسة، أي: أخذًا

ملابسًا ومصاحبًا للحق، أي: أخذًا بالحق والعدل، وذلك بأن صاح بهم جبريل صيحة

شديدة قطعت قلوبهم في أجوافهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ إِذْ نَبَّأُوهُم بِسَيِّئِ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الحاقة:

٥]، أي: بالصيحة الشديدة.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ نَارَ لَهَبٍ﴾، أي: فصيرناهم غثاء كغثاء السيل الذي يطفو على الماء من

الأعواد والورق اليابس ونحو ذلك، ويلقيه السيل في جنبات الوادي، مما لا قيمة له،

وكما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُخْتَطِرِينَ﴾

[القمر: ٣١].

﴿فَبَعَدَ لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الفاء: عاطفة، و«بعداً»: مفعول مطلق، أي: أبعدوا بعدًا،

أي: فهلاكًا وإبعادًا للقوم الظالمين من الرحمة.

وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: فبعدًا لهم؛ لبيان أن سبب إهلاكهم وإبعادهم

عن الرحمة هو ظلمهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الزخرف:

٧٦].

وفي هذا تحذير للظالمين من هذه الأمة.

الفوائد والأحكام:

١- إنشاؤه عز وجل بعد قوم نوح قرآنًا آخرين، وإقامة الحججة عليهم بإرساله فيهم

رسولًا منهم، يحتمل أنهم قوم هود عليه السلام، ويحتمل أنهم ثمود وقوم صالح عليه

السلام، وهو الأقرب لشبه ما ذكر بقصتهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴿٢٤﴾.

- ٢- منة الله تعالى على كل أمة بجعل رسولهم منهم؛ ليبين لهم، ويطمئنوا إليه.
- ٣- إطباق دعوة الرسل عليهم على الأمر بعبادة الله تعالى، وإبطال إلهية غيره، والأمر بتقواه، وإنكار عبادة من سواه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.
- ٤- تكذيب الملائكة والأكابر من قومه الذين كفروا وكذبوا بقاء الآخرة وأترفوا في الحياة الدنيا له بحجة أنه بشر، وليس بملك؛ كما قال قوم نوح وغيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٥﴾﴾ وهذا دليل جهلهم وضلالهم.
- ٥- جمع هؤلاء الملائكة بين الكفر والتكذيب بقاء الآخرة والترف؛ ولهذا كذبوا رسولهم، وأنكروا رسالته.
- ٦- إثبات لقاء الله تعالى، والدار الآخرة، والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.
- ٧- الحذر من الترف؛ فإنه قد يحمل على البطر والغرور، ورد الحق ومعارضته.
- ٨- أن من طبيعة البشر حاجتهم إلى الأكل والشرب، بخلاف الملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٥﴾﴾.
- ٩- تحذير هؤلاء الملائكة لقومهم من طاعة رسولهم أشد التحذير، وتهديدهم بالخسران إن أطاعوا بشرًا مثلهم واتبعوه؛ لقولهم: ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ لَأِنَّكُمْ إِذَا الْخَسِرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.
- ١٠- تعجبهم من وعد رسولهم لهم بعد موتهم وكونهم ترابًا وعظامًا، بإخراجهم من قبورهم، واستبعادهم لذلك؛ لقولهم: ﴿أَيَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٢٦﴾﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾.
- ١١- أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال حق؛ لو عد الرسل كلهم بذلك.
- ١٢- تكذيبهم بالبعث، وإنكارهم له، وزعمهم أن الحياة مجرد هذه الحياة الدنيا، يموت أناس ويحيا آخرون، ولا بعث ولا جزاء؛ لقولهم: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٧﴾﴾.
- ١٣- زعمهم كذب رسولهم، وأنه إنما هو رجل اختلق على الله كذبًا بدعواه النبوة، ولن يؤمنوا له؛ لقولهم: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٢٨﴾﴾.
- ١٤- استفتاحه عليه السلام ودعاؤه ربه بنصره عليهم بسبب تكذيبهم له؛ لقوله

تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي﴾ ﴿٣١﴾.

١٥- استجابة الله عز وجل له، ووعيده لهم بالعذاب القريب، وتنديمهم على تكذيبهم له؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيعُنَّ نَارًا﴾ ﴿٣١﴾.

١٦- إهلاكهم بالصيحة بالحق والعدل بسبب تكذيبهم وكفرهم، وجعلهم غثاء لا قيمة لهم كغثاء السيل، والحكم عليهم بالإبعاد عن الرحمة بسبب ظلمهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَمَا أَجَعَلْتَهُمْ غُثَاءً فَبَعَدَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٣١﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٦﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٩﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٥٠﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِمِثْلِنَا وَمِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ﴿٥١﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَجَعَلْنَا آيَةَ رَبِّهِمْ

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٦﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد إهلاك المكذبين من قوم نوح والقرن الآخرين بعدهم، ﴿قُرُونًا آخَرِينَ﴾، أي: أمما وأجبالا آخرين.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَجِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما تسبق أي أمة أجلها وما يستأخرون، أي: أن لكل أمة من الأمم المكذبة للرسل وقتا محمداً هلاكها، لا تسبقه ولا تتأخر عنه.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ﴾، أي: ما تسبق أي أمة أجلها وما يستأخرون، أي: أن لكل أمة من الأمم المكذبة للرسل وقتا محمداً هلاكها، لا تسبقه ولا تتأخر عنه.

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَرَا كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ﴾، أي: ما تسبق أي أمة أجلها وما يستأخرون، أي: أن لكل أمة من الأمم المكذبة للرسل وقتا محمداً هلاكها، لا تسبقه ولا تتأخر عنه.

أي: ثم أرسلنا إليهم رسلا متتابعة يتبع بعضهم بعضا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذِبُهُ﴾، أي: كلما جاء أمة من هذه الأمم رسولها كذبوه؛ كما قال تعالى: ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَاْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يس: ٣٠].

﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ بالإهلاك والاستئصال؛ كما قال تعالى: ﴿وَكِرَ أَهْلَكُنَا مِنْ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ ﴿١٧﴾﴾ [الإسراء: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَكِرَ أَهْلَكُنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [القصاص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ ﴿٢٦﴾﴾ [السجدة: ٢٦].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثًا﴾، أي: صيرناهم أحداثًا وأخبارًا يتحدث الناس بما أصابهم.

قال الشاعر:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثًا حسنًا لمن وعى^(١)
وفي هذا تهديد للمكذبين، وعظة للمتقين، كما قال تعالى في الآية الأخرى:

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩].

﴿فَبَعَدًا الْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: فإبعادًا وهلاكًا لهم، وما أشقاهم وأخسر صفقتهم!
قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ
فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿١٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عٰبِدُونَ ﴿١٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا
مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا
إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٢٠﴾﴾:

قوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾، أي: ثم بعد إهلاك تلك القرون والأمم المكذبة
أرسلنا موسى وأخاه هارون ﴿بِآيَاتِنَا﴾ البيّنات ودلائلنا الواضحات.

﴿وَسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾، أي: حجة بينة، وبرهان قاطع على صدقهما، وصحة ما جاء به.
قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيٰتٍ بَيِّنٰتٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١]، منها العصا واليد
والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين ونقص الثمرات، قال تعالى:
﴿قَالَ لَقَدْ آتَيْنَاكَ إِذْ هِيَ نُجُوبٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٢﴾ وَنَزَعْنَا يَدَهُ إِذْ هِيَ بِيضٌ لِّلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأعراف: ١٠٧ -
١٠٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجُرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيٰتٍ
مُّفَصَّلٰتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ
أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِاللَّيْسِينَ وَنَقَّصْنَا مِنَ الثَّمَرٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: ١٣٠].

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾، أي: سادات قومه وكبار جنوده وقياداته كهامان وغيره.
﴿فَأَسْتَكْبَرُوا﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: استكبروا عن الإيمان بالله، وعن
الانقياد لموسى وهارون واتباعهما، وعن طاعتها بإرسال بني إسرائيل معها.
﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾، أي: مستكبرين متطاولين على الناس، فجمعوا بين الاستكبار

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ١/ ١٩٤، «جمهرى الأمثال» ١/ ٣٥٢، «زهر الأكم» ١/ ٣٣٥.

عن قبول الحق، وبين التعالي على الخلق، وقد قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١)، أي: رد الحق وعدم قبوله، واحتقار الناس.

﴿فَقَالُوا﴾ منكرين لبعث الرسل كحال المكذبين قبلهم: ﴿أَتُؤْمِنُ﴾ الاستفهام للإنكار ﴿لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ يعنون: موسى وهارون، أي: ما كان لنا أن نؤمن لهما ونصدقهما وهما بشران مثلنا، وليسا من الملائكة.

﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ يعنون: بني إسرائيل ﴿لَتَأْعَلِدُونَّ﴾، أي: لنا متذللون معبدون مطيعون، وقد كانت بنو إسرائيل خولاً للقبط وخدمًا لهم، يعبدونهم بالأعمال الشاقة؛ كما قال موسى عليه السلام لفرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُّهَا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢].

والمعنى: كيف نؤمن لهما وتتبعهما بعد أن كانوا تابعين لنا؟ وكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟! وهذا من كبرهم وعلوهم، ونظير هذا قول قوم نوح: ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ﴾ [الشعراء: ١١١]، وقولهم: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِإِدْبَارِ الْأَرْبَابِ﴾ [هود: ٢٧].

﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ بحجة أنها من البشر.

﴿فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ بالغرق، أهلكهم الله، وبنو إسرائيل إليهم ينظرون؛ كما قال: ﴿وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، أي: التوراة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ الضمير يعود إلى بني إسرائيل، أي: لأجل أن يهتدي بنو إسرائيل بما في التوراة من الهدى وبيان الحق والشرائع والأحكام.

قال ابن كثير^(٢): «وبعد أن أنزل الله التوراة لم يهلك أمة بعامه، بل أمر المؤمنين بقتال الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].»

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾، أي: وجعلنا عيسى ابن مريم وأمه عليهما السلام

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٥ / ٤٦٩.

﴿آيَةٌ﴾، أي: علامة ودلالة على عظيم قدرة الله تعالى؛ حيث خلق عيسى من مريم، أي: من أنثى بلا ذكر، كما خلق آدم من غير أب ولا أم، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى.

﴿وَأَوَيْنَهُمَا﴾، أي: جعلنا لهما مأوى.

﴿إِلَى رَبْوَةٍ﴾، أي: مكان مرتفع من الأرض.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾، أي: صاحبة استقرار، أي: مكان صالح للاستقرار عليه.

﴿وَمَعِينٍ﴾، أي: ماء جارٍ ظاهر للعيون لا ينضب. وهذا - والله أعلم حين وضعها عيسى، وذلك في بيت المقدس.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى وهارون عليهما السلام، وتأييد الله لهما بالآيات الواضحات والحجج البينات، بعد إهلاك قرون وأمم كثيرة جاءتهم رسل الله فكذبوهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

٢- استكبار فرعون وملئه عن الإيمان بالله، وعن اتباع موسى وهارون والانقياد لما جاء به من الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾.

٣- ينبغي الحذر من الكبر؛ لأنه يحمل صاحبه على رد الحق، والتعالي على الخلق، وغمطهم وانتقاصهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾.

٤- امتناع فرعون وملئه عن الإيمان لموسى وهارون وتصديقهما واتباعهما، بحجة أنها بشران مثلها، وليسا من الملائكة، وبحجة أن قومها بني إسرائيل كانوا معبدين لهم بالخدمة، فكيف يكونون تابعين بعد أن كانوا متبوعين؟! كبراً منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

٥- تسلط فرعون وقومه القبط على بني إسرائيل، واستعبادهم إياهم بالخدمة والأعمال الشاقة، وإذلالهم لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكَ وَسَيِّئُونَ نِسَاءَكَ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾.

[البقرة: ٤٩].

٦- تكذيبهم لموسى وهارون، وإهلاكهم بالغرق؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا﴾

مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿١١﴾ ﴿١٠﴾ .

٧- إيتاء موسى عليه السلام التوراة بعد إهلاك فرعون وقومه، وخروجه ببني إسرائيل وإنجائهم من فرعون وقومه؛ ليهدوا بما فيه من بيان الحق والشرائع والأحكام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿١١﴾ .

٨- الإخبار والامتنان بجعله عز وجل عيسى ابن مريم وأمه آية، أي: علامة ودلالة على كمال قدرته عز وجل؛ حيث خلق عيسى من مريم، أي: من أنثى بلا ذكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ ولهذا يذكر عيسى عليه السلام في القرآن غالباً منسوباً إلى أمه: «عيسى ابن مريم»، بينما يذكر غيره من الأنبياء بلا نسبة.

٩- الامتنان على عيسى وأمه ببايوائهما حين وضعها له إلى مكان مرتفع مستوي مناسب للاستقرار عليه، فيه الماء المعين، وذلك - والله أعلم - في بيت المقدس؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْسَيْنَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ .

* * *

قال الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَادَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ .

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرَهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ ۖ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ .

قوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ﴾، «يا»: حرف نداء، و«أي»: منادى مبني على الضم في محل نصب، ﴿الرُّسُلُ﴾ بدل من «أي»، أو عطف بيان، والنداء موجه لكل رسول، والأمر لهم كلهم في قوله: ﴿كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ المراد بـ«الطيبات» هنا: الحلال من الرزق، أي: كلوا من الرزق الطيب الحلال.

﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾ الواو: عاطفة، أي: واعملوا عملاً صالحاً؛ شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليكم من الطيبات.

والعمل الصالح ما كان خالصاً لله تعالى، موافقاً لشرعه. والأمر للوجوب.
﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، أي: بجميع الذي تعملونه، أو بملككم كله ﴿عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم تام به، مطلع عليه، وسأجازيكم عليه أتم الجزاء وأوفاه وأفضله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين؛ فقال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوْا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ١٧٢].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب

لذلك؟!» (١).

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بكسر الهمزة: ﴿وَإِنَّ﴾.
 وقرأ الباقون بفتحها: «وَأَنَّ»، وسكن النون من «أَنَّ» ابن عامر، وشددها الباقون.
 ﴿أُمَّةً﴾ حال منصوبة من «أمتكم»، والمراد بالأمة هنا: الملة، أو الجماعة، أي: وإن
 هذه ملتكم أيها الرسل ملة واحدة، ودينكم دين واحد، وهو الإسلام وعبادة الله وحده
 لا شريك له، والدعوة إلى ذلك، وإن هذه جماعتكم جماعة واحدة هي الأمة الإسلامية؛
 كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ
 فَمِنْهُمْ مَن هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَن حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان
 عاقبة المكدبين ﴿٣٦﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
 نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال ﷺ: «الأنبياء أولاد علات؛ أمهاتهم شتى، ودينهم واحد» (٢).
 ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾، أي: وأنا ربكم وحدي، لا رب لكم غيري.
 ﴿فَاتَّقُونِ﴾ بفعل ما أمركم به، وترك ما أنهاكم عنه، والخطاب والأمر لهم
 ولأتباعهم.

﴿فَتَقَطَّعُوا﴾، أي: تفرقت الأمم الذين بعث الله إليهم الرسل ﴿أَمَرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾،
 أي: شأنهم ودينهم، واختلفوا على ملل ونحل كثيرة، وعدلوا عما جاءتهم به الرسل من
 توحيد الله تعالى وحده لا شريك له، والاستسلام له بذلك، والانقياد لطاعته.
 ﴿زُبُرًا﴾ قرأ أبو عمرو- على خلاف عنه- بفتح الباء: «زُبُرًا»، وقرأ الباقون
 بضمها: ﴿زُبُرًا﴾، أي: شيعا وأحزابا وفرقا.
 قال ابن القيم: «والزبر: الكتب المصنفة التي رغبوا بها عن كتاب الله وما بعث الله
 به رسوله» (٣).

(١) أخرجه مسلم في الزكاة، قبول الصدقة من الكسب الطيب ١٠١٥، وأحمد ٢ / ٣٢٨، والترمذي في
 تفسير سورة البقرة ٢٩٨٩.

(٢) سبق نخرجه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٣ / ٣ / ٢٣٣.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾، أي: كل فريق بالذي عندهم من العلم والرأي والقول والمعتقد والعمل ﴿فَرِحُونَ﴾ يرون أنهم على الحق والهدى دون غيرهم، وإن كانوا على الباطل والضلال؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣١ - ٣٢].
وكما قيل:

وكل يدعي وصلاً بليلي ولبلى لا تقر لهم بذلك^(١)
ومن المؤسف أن المجتمعات الإسلامية قد أصيبت بهذا الداء العضال، وهو تقطع الأمر، حتى على مستوى البيوت والأسر والقربات، وجماعات المساجد، وسكان الحي، وكثير من المؤسسات التعليمية والخدمية وغيرها. فافتقد كثير من هذه المجتمعات التعاون والتناصح والتواصي بالحق، والتنافس المثمر البناء، مما ينذر بتفكك المجتمع، وبعواقب وخيمة على الفرد والمجتمع والأمة. وهذا يوجب علينا جميعاً - أفراداً ومجتمعات - العمل جميعاً بروح الفريق الواحد، وبث روح التعاون والإخلاص والنصيحة، وتحمل المسؤولية؛ ليصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، ونسعد في الدنيا والآخرة. ولنعلم أن التفرق والاختلاف وتقطع الأمر أساس كل بلية، وسبب كل رزية، في الأمم والمجتمعات صغيرها وكبيرها، حتى بين الأقارب والأسر والإخوة والأصحاب، وهو مركب شياطين الإنس والجن الذين يفرقون بين المرء وزوجه، والوالد وولده، والأخ وأخيه، والجار وجاره، وقد حذر الله منه ورسوله، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ فَرُيُونَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وقال ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً»^(٢).

(١) البيت ينسب لمجنون ليلي. انظر: «مجموع الفتاوى» (٤/ ٧١).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر والصلة ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٠،

وقال ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة» (١).

ولم تُصَبِّبْ الأمة الإسلامية منذ عهد الرسالة إلى يومنا هذا بأعظم من هذا المصاب؛ حيث تفرقت شيعاً وأحزاباً، وطوائف وجماعات، يكدب بعضها لبعض على حساب الإسلام؛ كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعاً فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر (٢)
ولن يعود للأمة مجدها وعزها إلا برجوعها إلى دينها، والاجتماع على كلمة سواء،
وما ذلك على الله بعزير.

﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ﴾ خطاب للنبي ﷺ في شأن المشركين المكذبين، تسلياً له ﷺ،
وتهديداً لهم، أي: اتركهم في غيهم وضلالتهم وجهلهم، ولا تبالهم، فهم من جملة الذين
﴿تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فمنهم من عبد اللات، ومنهم من
عبد العزى، ومنهم من عبد مناة، ومنهم من عبد غير ذلك، وفي هذا إشارة لعدم
انتفاعهم بالوعظ؛ لأن كلاً منهم يزعم أنه على الحق؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُجِرَ لَهُ سَوْءُ
عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا
يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: إلى وقت نزول العذاب وإهلاكهم؛ كما قال تعالى: ﴿ذَرَهُمْ
يَاكُفُّوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَهْلِكِ
الْكَافِرِينَ أَهْمَهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ﴾ الاستفهام للتقريع، أي: أيطنون.
«أن»: حرف توكيد، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: ما نزودهم به ونعطيهم
إياه من الأموال والأبناء.

والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) سبق تخرجه.

(٢) البيت بلا نسبة، كما في «ديوان الحماصة» (١/١٧٦).

﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ «نسارع» خبر «أن»، أي: أحرصون أن الذي نمدهم به من مال وبنين، أو أن إمدادنا لهم من ذلك مسارعة منا لهم في الخيرات، أي: بإعطائهم ما يحبون لفضلهم عندنا؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ: «ما أرى ربك إلا يسارع في هواك»^(١)، أي: في إعطائك ما تحب.

﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يعلمون أننا نمدهم بذلك إملاء واستدراباً لهم؛ ليزدادوا إيماناً؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِيمَانًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٣]، ﴿وَأَمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢ - ١٨٣]، وقال تعالى: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهِذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [١٤]، ﴿وَأَمَلِي لَهُمْ إِنْ كِيدِي مَتِينٌ﴾ [١٥] [القلم: ٤٤ - ٤٥]، وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ حَقَّتْ وَجِدًا﴾ [١١]، ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾ [١٢]، ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾ [١٣]، ﴿وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ [١٤]، ﴿تُرِيظِعُ أَنْ أَنْزِيدَ﴾ [١٥]، ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينِدًا﴾ [١٦] [المدثر: ١١ - ١٦].
قال قتادة: «﴿أَيْحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾ [٥٥] نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [٥٦]: مكر، والله بالقوم في أموالهم وأولادهم، يا ابن آدم، فلا تعتبر الناس بأموالهم وأولادهم، ولكن اعتبرهم بالإيمان والعمل الصالح»^(٢).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه، والذي نفسي بيده لا يسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن حتى يأمن جاره بوائقه» قالوا: وما بوائقه يا رسول الله؟ قال: «غشمه وظلمه. ولا يكسب عبد مالا حراما فيبارك له فيه، ولا

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٧٨٨، ومسلم في الرضاع ١٤٦٤٤، والنسائي في النكاح ٣١٩٩، وابن ماجه في النكاح ٢٠٠٠، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/ ٤٧٣.

يتصدق به فيقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، إن الخبيث لا يمحو الخبيث»^(١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَادَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءَ آتَاً وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا كَادِحُونَ ﴿٦١﴾﴾.

لما ذكر الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف من الله، والوجل من عدم القبول.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾﴾ حرف توكيد، و«من»: للتعليل، أي: إن الذين هم بسبب شدة خوفهم من ربهم ﴿مُشْفِقُونَ﴾، أي: وجلون خائفون، وهم المؤمنون أتباع الرسل، جمعوا بين الأكل مما أباح الله من الطيبات، والعمل الصالح، وبين الخوف من الله وعذابه، فجمعوا بين الإيثار وإحسان العمل، وبين الخوف من الله، معرفة به، وخوفاً من أن يضع عليهم عدله، واتهاماً لأنفسهم بالتقصير. قال الحسن: «المؤمن جمع إحساناً وشفقة، والمنافق جمع إساءة وأمناً»^(٢).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَادَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾﴾، أي: والذين هم بآيات ربهم الكونية والشرعية، الدالة على عظمته ووحدانيته يصدقون، يتدبرون آياته الشرعية وتزيدهم إيماناً؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأنفال: ٢٢].

ويتفكرون في آياته الكونية وتزيدهم له تعظيماً؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ قَدَّم المَعْمُول في المواضع الثلاثة، وهي قوله: ﴿مَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾، وقوله: ﴿بِعِبَادَتِ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ تعظيماً له عز وجل، وفيه

(١) أخرجه أحمد ١ / ٣٨٧.

(٢) «تفسير ابن كثير» ٥ / ٤٧٣.

مراعاة الفواصل.

أي: والذين هم لا يعبدون إلا الله، ولا يشركون به أحداً سواه، لا شركاً جليلاً، كاتخاذ آلهة مع الله، ولا شركاً خفياً كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون له العبادة تمام الإخلاص. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا﴾ كسر الموصولات للاهتمام، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: يعطون ما أعطوا من العطاء، ويعملون ما عملوا من العمل، أي: يعطون ما أعطوا من الزكاة والنفقات والصدقات والهبات والهدايا وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَتَى الْمَالَ عَلَىٰ حَيْهَةٍ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٣]، [لقمان: ٤].

ويعملون ما عملوا من الأعمال الصالحات؛ من صلاة وصوم وحج وبر، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، ودعوة إلى الله تعالى، وغير ذلك. ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ الجملة حالية، أي: حال كون قلوبهم وجلة، أي: خائفة من ربهم، ومشفقة من عدم القبول، وهذا دأب الصالحين، لا يحملون همًّا للعمل؛ فهو يسير عليهم لقوة إيمانهم وشدة عزائمهم، وإنما يحملون هم القبول، ويخافون من الرد. عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله، هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا ابنة أبي بكر، يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون، وهم يخافون ألا يقبل منهم»^(١).

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ الجملة تعليلية، أي: ليقينهم بأنهم إلى ربهم راجعون، أي: أن مردهم وإياهم إليه عز وجل، وعليه حسابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿[الغاشية: ٢٥-٢٦].

﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، أي: يسارعون في عمل الخيرات، ويسابقون إليها، وينافسون فيها، امتثالاً لأمر ربهم، قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة المؤمنون ٣١٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٩٨، وأحمد ١٥٩ / ٦، ٢٠٥.

وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤]، وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَعْقَرٍ وَمِنْ رِبِّكُمُ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١١﴾﴾ [الحديد: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلَيْتَاتٍ مِنَ الْمَنَّانِينَ﴾ [المطففين: ٢٦].

﴿وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ وهم للخيرات سابقون، أي: مدركون لها، ومحصلون لثوابها؛ لأن الجزء من جنس العمل، ولكل مجتهد نصيب، ومن جد وجد، ومن زرع حصد، قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا﴾ [البقرة: ٢٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

وقد أحسن القائل:

الجد بالجد والحرمان بالكسل فانصب تصب عن قريب غاية الأمل^(١)
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه^(٢):
وما المرء إلا حيث يجعل نفسه فكن طالباً في الناس أعلى المراتب
وقال الشافعي رحمه الله^(٣):
ومن طلب العلامن غير كد أضاع العمر في طلب المحال
وقال الآخر:
ومن طلب العلامن غير كد سيدركها متى شاب الغراب^(٤)
وقال الآخر:
ومن زرع الحبوب وما سقاها تأوه نادماً يوم الحصاد^(٥)
الفوائد والأحكام:

(١) البيت لصلاح الدين الصفدي من لاميته. انظر: «نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن» (ص ١٥).

(٢) انظر: «ديوانه» (ص ١٥).

(٣) انظر: «ديوانه» (ص ٩٧).

(٤) انظر: «بيان المعاني» (٤/ ٣٨٣).

(٥) انظر: «لطائف المعارف» لابن رجب (ص ١٤٨).

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والتعظيم والاهتمام؛ لقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ﴾.

٢- امتنان الله عز وجل على الرسل وأمره لهم بالأكل من الحلال، وعمل الصالحات؛ شكرًا لله تعالى على ذلك، وهو امتنان على أتباعهم، وأمر لهم؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾.

٣- اتفاق شرائع الرسل على إباحة الطيبات من المأكول وتحريم الخبائث، وعلى كل عمل صالح.

٤- أن كل ما أباحه الله تعالى وأحله فهو طيب، وما حرمه فهو خبيث.

٥- ينبغي الحرص على تطيب المأكول والمشرب، والتعبد لله بذلك؛ لأن ذلك من طاعة الله تعالى، وعون على العمل الصالح، وهذا دأب الرسل عليهم الصلاة والسلام، فما منهم من أحد إلا رعى الغنم، قال ﷺ: «ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم». فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة»^(١).

وعن المقدام رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»^(٢).

٦- أن الرسل عليهم السلام مكلفون بالعمل كسائر الناس، خلافاً لما يزعمه غلاة الصوفية، من أن الإنسان إذا بلغ درجة في الدين يرتفع عنه التكليف، وهذا من تحريفاتهم الباطلة.

٧- وجوب شكر الله تعالى على نعمه، وعلى ما أباحه من الطيبات بالعمل الصالح.

٨- يجب مقابلة المحسن بالشكر والإحسان، ورد الجميل بالجميل.

٩- أن كل ما أباحه الله وأحله فهو طيب، وما حرمه فهو خبيث.

١٠- لا بد من كون العمل صالحًا؛ خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه.

١١- علم الله عز وجل الواسع المحيط بأعمال العباد، يحصيها ويكتبها عليهم،

ويحاسبهم ويجازيهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٣).

(١) أخرجه البخاري في الإجازة، رعي الغنم على قراريط ٢٢٦٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في البيوع، كسب الرجل من عمل يده ٢٠٧٢.

- ١٢- أن ملة الرسل عليهم السلام ملة واحدة؛ هي الإسلام وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وأمتهم كلهم وجماعتهم هي أمة وجماعة واحدة، هي الأمة الإسلامية.
- ١٣- إثبات ربوبية الله الخالصة للرسل وأتباعهم المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرِيكُمْ فَاتَّقُونِ﴾، وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ رَبَّهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.
- وإثبات ربوبيته العامة لجميع أمم الرسل وسائر الخلق.
- ١٤- وجوب تقوى الله تعالى بفعل أو امره واجتناب نواهيه، والاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية؛ لقوله: ﴿وَأَنذَرِيكُمْ فَاتَّقُونِ﴾.
- ١٥- عدول الأمم عما جاءتهم به الرسل من توحيد الله تعالى، والاجتماع على ملة واحدة، واختلافهم وتفرقهم شيعاً وأحزاباً وطوائف، كل يرى أن الحق معه دون غيره، وتلك بلية البليات، وأعظم المصائب والرذائل؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.
- ١٦- وجوب الحذر من التفرق والاختلاف، والحرص كل الحرص على لم الشمل والاتلاف بين المسلمين، على مستوى الأمة والدول والقبائل والعوائل والقربان والأسر، والمجتمعات كبيرة أو صغيرة، فإن الاجتماع والألفة خير، والخلاف والفرقة والتباغض والتعادي والتهاجر شر مستطير.
- ١٧- تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب المشركين له، وتهديدهم بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرْتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾، أي: اتركهم ولا تبأهم إلى حين حلول العذاب بهم.
- ١٨- ذم المشركين المكذبين له ﷺ، وأنهم سادرون في غيهم وجهلهم وضلالهم، جمعوا بين الإساءة والأمن من مكر الله: ﴿فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرْتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أيحسبون أننا نمدهم به من مالٍ وبيننا ﷻ سارع لهم في الخير بل لا يشعرون.
- ١٩- الإنكار عليهم في ظنهم أن ما يمدهم الله به من الأموال والأولاد مسارعة لهم في الخيرات لخيرتهم عنده؛ لقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمْدَهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ سُرْعِ لَهْمُ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يظنوا ذلك.
- ٢٠- جهلهم وعدم علمهم أن ما يمدون به من الأموال والأولاد إملاء واستدراج لهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

٢١- ثناء الله عز وجل على أتباع الرسل المؤمنين، الذين جمعوا بين الإحسان والخوف من الله، أي: جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وبين خشية ربهم والخوف منه ومن عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ ﴿٥١﴾.

٢٢- امتداحهم بالإيمان بآيات الله الكونية والشرعية والتصديق بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَادَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٥٣﴾.

٢٣- امتداحهم بجمعهم بين إعطاء العطاء والقيام بالعمل، مع وجل قلوبهم وخوفهم من ربهم، ومن عدم القبول، وعدم الإدلال على الله بما يعطونه وما يعملونه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا لِقُلُوبِهِمْ وَجِلَّةً﴾.

٢٤- إيمانهم ويقينهم أنهم إلى ربهم راجعون، وسيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾.

٢٥- ثناء الله تعالى عليهم بالمسارعة إلى الخيرات، وإدراكهم لها، وتحصيلهم لشواها؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ ﴿٥٤﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ١٦ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ ١٧ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ١٨ لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِتْنَا لَا تَنْصُرُونَ ١٩ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تُنْكِرُ صَوْتَ رَبِّكُمْ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَلِمَاتُ اللَّهِ تَهْجُرُونَ ٢٠

قوله: ﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: لا نكلف نفسًا إلا ما تستطيع القيام به وتقدر عليه وتطبيقه؛ فعلاً أو قولاً أو بذلاً.

﴿وَلَدَيْنَا﴾، أي: وعندنا، ﴿كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ وهو كتاب الأعمال، الذي سُطرت فيه جميع أعمال العباد صغيرها وكبيرها؛ لمحاسبتهم ومجازاتهم عليها؛ كما قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ٢١ [الجن: ٢٩].

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الجملة: حالة، أي: لا يظلمون بأن ينقص من حسناتهم، أو يزداد في سيئاتهم، بل يجازى كل بما عمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّىٰ تَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: في غفلة وجهالة وضلالة، ﴿مِنْ هَذَا﴾، أي: من هذا القرآن الذي أنزله الله على النبي ﷺ؛ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراطه المستقيم، أي: أنه لا يصل إلى قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ٥٥ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُمْ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّهُ وَوَلَوْ عَلَىٰ آذَانِهِمْ يُفَوِّرًا ٥٦﴾ [الإسراء: ٤٥ - ٤٦].

﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾، أي: ولهم أعمال سيئة مكتوبة عليهم، زيادة على ما هم فيه من الغمرة والغفلة عن القرآن، والكفر والشرك.

أي: لا بد أن يعملوها قبل هلاكهم؛ ليضاعف عذابهم، وتحق كلمة العذاب عليهم؛ ولهذا أمهلوا وأنظروا، ولم يعجل عذابهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُكَلِّمُ لَهُمْ لِيَزِدُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

وقيل: الإشارة في قوله: ﴿فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ إلى ما ذكر من صفات المؤمنين في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ٥٨ وَالَّذِينَ هُمْ يُؤْمِنُونَ ٥٩ وَالَّذِينَ هُمْ

رَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَاهُونَ ﴿٦٣﴾ .

ومعنى قوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ على هذا، أي: ولهم أعمال سيئة مخالفة لأعمال المؤمنين وصفاتهم هم لها عاملون؛ من الكفر والشرك والاستكبار ونحو ذلك.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد لهم، وأنهم وإن أملي لهم وأمهلوا ليزدادوا إثماً؛ فإنهم معذبون لا محالة، ولنزول العذاب بهم أجل وغاية.

﴿حَتَّىٰ﴾ «حتى» لابتداء الغاية، ﴿إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ «إذا» شرطية غير عاملة، ﴿مُتْرَفِيهِم﴾، أي: المترفين المنعمين منهم، ﴿بِالْعَذَابِ﴾ الباء للملابسة، أي: بالعذاب الدنيوي، أي: إذا أصابهم العذاب ووجدوا مسه وألمه.

﴿إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ﴾ «إذا» هي الفجائية، والجملة جواب الشرط «إذا»، أي: إذا هم يصرخون ويستغيثون ويتوجعون، ويرفعون أصواتهم متضرعين؛ كما قال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَاوَلَاتِ حِينٍ مِّنَاصِرٍ ﴿٦٥﴾﴾ [ص: ٣].

وخص مترفيهم، مع أن العذاب يعم المترف وغيره؛ لأن وقع العذاب عليهم أشد؛ لما اعتادوه من الترف والتنعم؛ كما أن عذابهم أشد وأعظم، قال تعالى: ﴿وَدَرَزْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا ﴿٦٦﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿٦٧﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [الزمل: ١١-١٣].

﴿لَا يَجْعَرُونَ أَلْيَوْمَ﴾، أي: فيقال لهم تبكيتاً وتنديباً: ﴿لَا يَجْعَرُونَ أَلْيَوْمَ﴾، أي: لا تصرخوا وتستغيثوا اليوم بعد وقوع العذاب، فذلك غير نافع لكم، سواء جأرتم أو سكتتم.

﴿إِنَّكُمْ مَتَّانًا لَا تَبْصُرُونَ﴾ الجملة تعليل للنهي السابق، أي: لا ناصر لكم منا يرفع عنكم العذاب، وإذا الله لم ينصرهم فلا ناصر لهم من أنفسهم ولا من غيرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَخُذْ لَكُمْ فَتِنَّ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِّن بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، ثم ذكر سبب أخذهم بالعذاب، فقال:

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، أي: تقرأ عليكم؛ لتتهتدوا بنورها، وتؤمنوا بها،

وتعملوا بمقتضاها.

﴿فَكَنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِبُونَ﴾ الأَعْقَاب: جمع «عقب»؛ وهو: مؤخر القدم، والنكوص: الرجوع إلى الوراء، أي: فكنتم على أعقابكم ترجعون القهقري إلى الخلف والوراء؛ لإعراضكم عن آيات الله وصدودكم عنها ونفوركم من سماعها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ذَالِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾ [غافر: ١٢].

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ حال من فاعل ﴿تَنكِبُونَ﴾.

﴿بِهِ﴾ الضمير يحتمل عوده إلى القرآن وآياته؛ لقوله قبله: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ والمعنى: مستكبرين بالقرآن، أي: مكذبين به تكذيب استكبار، فضمن الاستكبار معنى التكذيب، أو الباء بمعنى «عن»، أي: مستكبرين عن اتباعه. ويحتمل أن المراد بالضمير: الحرم؛ لأنه معهود عند المخاطبين، والباء للسببية، أي: مستكبرين متعالين على الناس بسبب الحرم، تقولون: نحن أهل الحرم وسدنته، وقوامه وخدامه، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْأَمْتَفُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وقيل: الباء على هذا ظرفية، أي: مستكبرين في الحرم.

﴿سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قرأ نافع بضم التاء وكسر الجيم: «يُهْجِرُونَ»، وقرأ الباقون بفتح التاء وضم الجيم: «تَهْجُرُونَ».

﴿سَمِرًا﴾ حال، أي: تسمرون الليل بالحرم.

﴿تَهْجُرُونَ﴾، أي: تهجرون القرآن بالإعراض عنه، ويقولكم القول السيئ فيه؛ كقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجَّبُونَ ﴿٥١﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْتُمْ سَلِيمُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النجم: ٥٩ - ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ [الطور: ٣٣].

وكقولهم: إنه سحر، أو شعر، أو كهانة، وأيضًا: تهجرون، أي: تقولون هجرًا أو سيئًا من القول وأنتم في الحرم.

الفوائد والأحكام:

- ١- تمام عدل الله عز وجل في التكليف، فلا يكلف نفساً إلا ما تطيقه وتقدر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.
 - ٢- إحصاؤه عز وجل على العباد أعمالهم، وكتابته إياها، ومحاسبتهم ومجازاتهم عليها بالحق والعدل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾.
 - ٣- تمام عدله عز وجل في محاسبته الخلائق ومجازاته إياهم، فلا يُظلم أحد منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.
 - ٤- غفلة المكذبين والمشركين عن القرآن وآياته، وما فيه من الهدى والنور، وإعراضهم عنه، وضلالتهم وجهالتهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾.
 - ٥- إمهال هؤلاء المكذبين، وتأخير عذابهم؛ لما قدر عليهم من أعمال سيعملونها؛ ليزدادوا بها إثماً؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ﴾.
 - ٦- إثبات علم الله تعالى بأعمال العباد وتقديره لها قبل أن يعملوها، وأن ما قدره الله تعالى كائن لا محالة.
 - ٧- صراخ مترفيهم واستغاثتهم وتضرعهم بعد أخذهم بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ﴾.
 - ٨- تبيكيتهم وتئيسهم، بأن صراخهم لن يرفع العذاب عنهم بعد وقوعه، ولا ناصر لهم من الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَجْعَرُونَ أَلْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِمَّا لَتَنْصُرُونَ﴾.
 - ٩- أن من خذله الله تعالى وتخلي عنه فلا ناصر له، لا من نفسه ولا من غيره؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾.
- [القصص: ٨١].
- ١٠- تقريعهم وتوبيخهم على إعراضهم عن آيات الله، والتكذيب بها، وعدم الاهتداء بنورها، ونكوصهم على أعقابهم في ضلالتهم وجهلهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنْكَبُونَ﴾.
 - ١١- أن التقدم حقاً إنما يكون باتباع ما جاءت به الرسل، والاهتداء بهدى الله تعالى، وأن النكوص والتأخر والرجوع إلى الخلف والوراء بالإعراض عن ذلك.

١٢- استكبار المشركين عن اتباع القرآن، وتعاليمهم على الناس بسبب أنهم سكان الحرم وسدنته؛ لقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾.

١٣- سمرهم في ليلهم بقول الهجر والسيء من القول بالقرآن، بوصفه بالسحر والشعر والكهانة والكذب، وقول الهجر والسيء من القول وهم في الحرم؛ لقوله تعالى: ﴿سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خِزْيًا فَخْرًا حِزْبًا رَيْبَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصَّرْطِ لَسَاءَ لَكِبُونَ ﴿٧٣﴾ * وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ الْجَوَافِي طَغْيَيْنِهِمْ يَوْمَئِذٍ ﴿٧٤﴾ *

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ الاستفهام للإنكار، والفاء: عاطفة، أي: أجهلوا فلم يدبروا القرآن ويتفهموه ويتفكروا به؛ ليعلموا أنه الحق المبين، أي: أن الذي منعهم من الإيمان هو جهلهم وعدم تدبرهم القرآن.

﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ «أم» في المواضع الأربعة هي المنقطة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمة الاستفهام الإنكاري، أي: بل أجاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؟ و«ما»: موصولة، أي: الذي لم يأت آباءهم الأولين وأسلافهم، أي: أضمنعهم من الإيمان ومن تدبر القرآن أنه جاءهم رسول وكتاب لم يأت آباءهم الأولين، فردوا ما جاءهم من الحق وعارضوه؛ لمخالفته ما كان عليه آباؤهم من الضلال؟ كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَقْوَامٌ آبَاءَهُمْ صَالِحِينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُرْعَوْنَ ﴿٧٠﴾﴾ [الصفات: ٦٩ - ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ١٠٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُوا الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٦٩﴾﴾ [لقمان: ٢١].

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٦٩﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٢٢ - ٢٣].

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾، أي: بل ألم يعرفوا رسولهم، أي: أو منعهم من الإيمان واتباع الحق أن رسولهم محمدًا ﷺ غير معروف عندهم، فيشكون في صدقه وأمانته؟ أي: ليس الأمر كذلك، فهو ﷺ معروف عندهم معرفة تامة، يعرفون منه كل خلق جميل،

ويعرفون صدقه وأمانته، وكانوا يسمونه قبل بعثته: «الأمين»؛ ولهذا قال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: «إن الله قد بعث إلينا رسولا نعرف نسبه وصدقه وأمانته».

وهكذا قال المغيرة بن شعبه رضي الله عنه لنائب كسرى حين بارزهم، وكذلك قال أبو سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه لملك الروم هرقل حين سأله وأصحابه عن صفات النبي ﷺ وصدقه وأمانته، وكانوا بعد كفارا لم يسلموا؛ ولهذا ما أمكنهم إلا الصدق فاعترفوا بذلك (١).

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾، أي: بل يقولون به ﷺ جنة؟ أي: جنون، وهو الخلل في العقل، فيهذي بها لا يدري وبالباطل، ولا عبرة بكلامه.

﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ «بل»: للإضراب والانتقال مما تقدم، أي: بل جاءهم بالحق، أي: بالأمر الثابت الصدق العدل، وهو الدعوة إلى إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ الجملة في محل نصب حال، أي: بل الذي منعهم من الإيمان به، واتباع ما جاء به أنه جاءهم بالحق، وأكثرهم للحق كارهون؛ لمخالفتهم لأهوائهم الباطلة؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُكَذِّبُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

﴿وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: ما تهواه أنفسهم مما هم عليه وآباؤهم، من الشرك والكفر والظلم والفساد، وسيئ الأعمال والأخلاق.

﴿لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لفسدت السموات والأرض ومن فيهن من المخلوقات والعوالم، واختل نظام الكون؛ لأن ذلك كله إنما قام على الحق والعدل والتوحيد.

﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أتيناهم بما فيه تذكيرهم وموعظتهم وعزهم وشرفهم وسؤددهم، إذا قاموا به؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٥ / ٤٧٧.

﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ بقلوبهم وأبدانهم، فلم يتدبروه بقلوبهم، ولم ينقادوا له، ولم يتبعوه بجوارحهم.

﴿أَمْ سَأَلْتَهُم خَرْجًا﴾، أي: بل أتسألهم خرجًا؟ أي: أجرًا وجعلًا، أي: أو منعهم من الإيثار بما جئت به واتباعك أنك تسألهم على ذلك أجرًا؟ كما قال تعالى: ﴿فَهُمْ مِّن مَّعْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠]، أي: أنك لم تسألهم خرجًا؛ ولهذا قال:

﴿فَخَرَجَ رَبُّكَ خَيْرٌ﴾ قرأ ابن عامر: «فخرج ربك»، وقرأ الباقون: ﴿فَخَرَجَ رَبُّكَ﴾.

الفاء تعليلية، أي: لأن خراج ربك خير، أي: جزاؤه وثوابه وعطاؤه خير لك ولكل من دعا إلى الله تعالى من الرسل واتباعهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمُ أُقْتَدَ قُلٌ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [سبأ: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٥٧].

وهكذا قال كل من نوح وهود وصالح ولوط وشعيب لقومهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠].
وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَفْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ [التَّبَعُوا] من لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ [يس: ٢٠-٢١].

﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزِقِينَ﴾، أي: هو الرزاق والرزاق وحده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْعَمِيمِ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

والتفضيل في قوله: ﴿خَيْرٌ﴾ لا يدل على أن هناك رازقًا غير الله؛ لأن التفضيل قد يكون بين أمرين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

وكذلك الجمع في قوله: ﴿الرَّزِقِينَ﴾ لا يدل على أن هناك رازقًا غير الله؛ لأن الرزاق قد يطلق على من كان سببًا في الرزق، والله وحده عز وجل هو الرزاق؛ لأنه هو موجد الأسباب ومسبباتها.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: وإنك يا محمد لتدلهم إلى طريق عدل مستقيم موصل إلى السعادة في الدارين، والفوز بالجنة والنجاة من النار، بأخصر طريق وأقربه.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة، أي: بالقيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، بل يكذبون بذلك وينكرونه.

﴿عَنِ الصِّرَاطِ﴾، أي: عن الصراط المستقيم المعهود الذي تدعوهم إليه، وهو صراط الله والصراط: الطريق.

﴿لَتَنَكِبُونَ﴾ اللام: للتوكيد، أي: مائلون منحرفون، زائغون جائرون عنها. وأظهر في مقام الإضمار فلم يقل: «وإنهم»، بل قال: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لبيان أن سبب تنكبهم الطريق المستقيم هو عدم إيمانهم بالآخرة.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ «لو» شرطية، ﴿رَحِمْنَاهُمْ﴾: فعل الشرط، أي: ولو رحمتنا العامة لجميع الخلق، ﴿وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ﴾ «ما»: موصولة، أي: وأزلنا الذي بهم من ضر يتضررون به من مرض أو فقر أو غير ذلك.

﴿لَلَجُوا﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لتهاذوا واستمروا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾، أي: في تجاوزهم الحد بالكفر والشرك والكبر والمعاصي.

﴿يَعْمَهُونَ﴾، أي: يترددون ويتحIRON ويتخبطون في الضلال والطغيان؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين عدم تدبرهم القرآن وإعراضهم عنه، وأن ذلك هو الذي حرمهم من الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾.

٢- وجوب تدبر القرآن، وأن من تدبره دلّه إلى الحق، وهداه إلى الصراط المستقيم.

٣- الإنكار عليهم في امتناعهم من الإيمان وتدبر القرآن؛ لمخالفته ما كان عليه

أباؤهم الضالون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا يَآتِي آبَاءَهُمْ الْأَوَّلِينَ﴾.

- ٤- ينبغي الحذر من التعصب لما عليه الآباء والأجداد، ورد الحق ومخالفته لأجل ذلك.
- ٥- الإنكار عليهم في امتناعهم من الإيثار واتباع الرسول ﷺ مع معرفتهم له، ومعرفتهم صدقه وأمانته؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ وَمُنْكَرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾.
- ٦- أن قيام الحجّة على قريش أكد من غيرهم؛ لكونه ﷺ منهم، يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته.
- ٧- الإنكار عليهم في رميهم إياه ﷺ بالجنون، وردهم ما جاء به من الحق؛ لأجل ذلك؛ مع علمهم أنه ليس فيهم أعقل منه؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾.
- ٨- جرأة المكذبين والمشركين على وصف الرسل بأقبح الأوصاف؛ لتفجير الناس منهم ومن دعوتهم.
- ٩- أن الذي حملهم على تكذيبه ﷺ ورد ما جاءهم به؛ أنه جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كِرْهُونٌ﴾.
- ١٠- إن أكثر الخلق كارهون للحق، مخالفون مجانبون له، فلا يغتر بها عليه الكثرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣﴾ [يوسف: ١٠٣].
- ١١- أن كراهة أكثر الخلق للحق؛ لمخالفته لأهوائهم الضالة؛ ولهذا أتبع قوله: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كِرْهُونٌ﴾ بقوله: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾.
- ١٢- أن الحق لا يمكن أن يتبع أهواءهم؛ لأنه لو أتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، أي: لفسد الكون بما فيه؛ لما هم عليه من الكفر والشرك والظلم وسيئ الأعمال والأخلاق؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَتَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾.
- ١٣- أن السموات والأرض وما فيهن من المخلوقات؛ إنها قامت على الحق والعدل والتوحيد؛ كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].
- ١٤- أن الله عز وجل أنزل القرآن تذكيراً وعظة للناس، وعزاً وشفقاً لمن آمن به واتبعه؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾.
- ١٥- إعراض المكذبين والمشركين عن القرآن الكريم، وعدم تذكيرهم واتعاضهم

به بقلوبهم، وعدم الانقياد له والعمل به بجوارحهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَهَمَّ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾.

١٦- أنه ﷺ لم يسألهم على تبليغهم الدعوة، واتباعهم إياه أجراً، فيستثقلوا ذلك ويمتنعوا عن اتباعه بسبب ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْتَأْجُرُهُمْ خَرْجًا﴾.

١٧- أن أجره ﷺ في تبليغه رسالة ربه للناس على الله عز وجل، وكذا غيره من الرسل، وذلك أعظم أجر وأفضله؛ لقوله تعالى: ﴿فَخَرَّجْ رَيْبَكَ خَيْرًا﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ، وتشريفه بخطاب الله عز وجل له، وإضافة ضميره إلى اسم الرب عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾.

١٩- أن الله عز وجل هو خير الرازقين، والأرزاق كلها بيده؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

٢٠- ثناء الله عز وجل وامتداحه لمنهجه ﷺ ودعوته إلى صراط مستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٢١- تنكب الذين لا يؤمنون بالآخرة والحساب والجزاء، وانحرفهم وعدولهم عن الصراط المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُونَ﴾.

٢٢- إثبات الدار الآخرة والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٣- تمادي هؤلاء المكذبين بالآخرة في طغيانهم وكفرهم، وعدم شكرهم حتى بعد كشف ما بهم من ضر من مرض أو فقر أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿* وَأَوْرَثْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

٢٤- إثبات صفة الرحمة الفعلية العامة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿* وَأَوْرَثْنَاهُمْ﴾.

٢٥- أنه لا يكشف الضر من مرض أو شدة أو فقر أو غير ذلك ولا يزيله إلا الله تعالى.

٢٦- حيرة أهل الكفر والطغيان، وترددهم وتخبطهم في الضلال؛ لقوله تعالى:

﴿يَعْمَهُونَ﴾.

٢٧- علم الله تعالى بما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ لقوله تعالى: ﴿* وَأَوْرَثْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاؤُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَهَٰذَا مِثْلُ مَا كُنَّا نُرَايَا وَعِظْلَمًا أَهَٰذَا لَمَبْعُورُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا لَئِن لَّمْ يَکْفُرُوا لَبَعْرُونَ ﴿٨٣﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا لَئِن لَّمْ يَکْفُرُوا لَبَعْرُونَ ﴿٨٣﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاؤُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْ هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، أنشدك الله والرحم، فقد أكلنا العلهز - يعني: الوبر والدم - فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاؤُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾» (١).

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾، أي: ابتليناهم بالمصائب والشدائد من الفقر والجوع، وغير ذلك، وفي الحديث: «أن رسول الله ﷺ دعا على قريش لما أبطأوا عن الإسلام، فقال: «اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف» فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام» (٢).

﴿فَمَا اسْتَكَاؤُوا لِرَبِّهِمْ﴾، أي: فما خضعوا وذلوا لربهم، ورجعوا له، بل استمروا على كفرهم وضلالهم وطغيانهم.

﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾، أي: وما يتضرعون إليه ويدعونه ويفتقرون إليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَالَهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿١٥﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الأنعام: ٤٢ - ٤٣].

﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ بالقتل يوم بدر، أو بالمجاعة والفقر، أو

(١) أخرجه النسائي في الكبرى / ٦ / ٤١٣ رقم ١١٣٥٢، وابن حبان في صحيحه ٣ / ٢٤٧ رقم ٩٦٧، والطبري في «جامع البيان» ١٧ / ٩٣.

وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥ / ٤٨٠.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٦٩٣، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٥٤، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

بعذاب يوم القيامة في النار، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَهَارَ فِيهَا﴾ [الزمر: ٧١].
 ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾، «إذا»: هي الفجائية، أي: إذا هم في العذاب الشديد آيسون
 من النجاة ومن كل خير، متحIRON، قد انقطعت آمالهم، وأحاط بهم الشر وأسبابه.
 قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي
 ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾:

قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾، أي: وهو سبحانه الذي خلقكم
 وأوجد لكم السمع والأبصار والأفئدة، وهي العقول والفهوم؛ لتسمعوا وتبصروا
 وتفكروا في آيات الله الكونية والشرعية، الدالة على وحدانية الله تعالى في ربوبيته
 وإلهيته وأسمائه وصفاته.

وهذه الأدوات الثلاث: السمع، والبصر، والعقول؛ هي أدوات إدراك الأشياء
 ووصول الإنسان إلى العلم والمعرفة؛ ولهذا امتن بها وحدها دون بقية الأعضاء.
 كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ
 السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ [النحل: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي
 أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾، أي: قليلاً شكركم على ما أنعم الله به عليكم من هذه
 الجوارح وغيرها من النعم باستعمالها فيما خلقت له، والاستعانة بها على طاعة الله تعالى
 ونسبتها إلى مسديها، وهو الله عز وجل، وقليلاً الشاكر منكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ
 عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ ﴿٣١﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: نشركم وبثكم وفرقكم في الأرض، واستخلفكم
 فيها، ومكنكم من استخراج خيراتها وعمارتها، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ وحده بعد موتكم
 ﴿تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٧٩﴾، أي: تجمعون ليحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ
 الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿١١﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٢﴾﴾ [الواقعة: ٤٩ - ٥٠]، وقال تعالى:
 ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ ﴿٧٧﴾ [الكهف: ٤٧].

﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، أي: وهو وحده عز وجل المتفرد بالإحياء والإماتة،

والمتصرف في الحياة والموت.

﴿وَلَهُ أُخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي: وله عز وجل وحده اختلاف الليل والنهار، أي: تعاقبهما، وتناوبهما، وتسخيرهما، كل واحد منهما يطلب الآخر حثيثاً؛ كما قال تعالى: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْبُئُهُ وَحَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ الاستفهام: للتقريع، أي: أليس لكم عقول تتفكرون وتتأملون بها، فتعرفون أن الذي خلقكم وامتن عليكم بهذه النعم؛ من السمع والبصر والأفئدة ونشركم في الأرض، والذي يحيي ويميت، ويقلب الليل والنهار، هو الله وحده المتفرد بكمال الوحدانية في ربوبيته وإلهيته، لا إله غيره، ولا رب سواه، فتخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتشكروه على نعمه، وتؤمنوا بتمام قدرته على البعث وعلى كل شيء؟ ﴿بَلْ قَالُوا﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل قال هؤلاء المكذبون.

﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أي: مثل قول المكذابين الأولين قبلهم. أو موصولة، أي: مثل الذي قاله الأولون.

﴿قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ﴾ قرأ ابن عامر بهمزة واحدة: «إِذَا مِنَّا»، وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ﴾.

﴿وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾، أي: وكنا تراباً ورميماً وعظاماً بالية. ﴿أَلَمْ نَكُنْ مِنَ الْمَبْعُوثِينَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بهمزة واحدة: «إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ». وقرأ الباقون بهمزتين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مِنَ الْمَبْعُوثِينَ﴾.

الاستفهام: للإنكار والتعجب، واللام: للتوكيد.

أي: قالوا إنكاراً للبعث واستبعاداً له: «إِذَا مِنَّا» وكنا تراباً وعظاماً بالية ﴿أَلَمْ نَكُنْ مِنَ الْمَبْعُوثِينَ﴾، أي: هذا لا يمكن ولا يتصور بزعمهم.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ وفي سورة النمل قُدم اسم الإشارة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءَ لَمُحْرَجُونَ﴾ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ [النمل: ٦٧ - ٦٨].

والمعنى: لقد وعدنا نحن وأباؤنا أننا نبعث بعد كوننا تراباً وعظاماً، ولم نره، ولم

يبعث أحد من آبائنا. وهذا تعليل للإنكار وتأكيد وتقوية له.

﴿إِنْ هَذَا﴾ «إن»: نافية بمعنى «ما»، أي: ما هذا الوعد بالبعث بعد كوننا تراباً وعظاماً ﴿إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: حكايات الأولين وما سطره في كتبهم من الخرافات والقصص والأكاذيب، وهذا كقولهم: ﴿أَلَمْ نَأْمُرْ دُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَلَمْ نَأْمُرْ دُونَ ﴿١١﴾ أَلَمْ نَأْمُرْ دُونَ ﴿١٢﴾﴾ [النازعات: ١٠-١٢].

الفوائد والأحكام:

١- أخذ المكذبين بالعذاب الدنيوي بالابتلاء بالمصائب والشدائد من الجوع والفقر وغير ذلك؛ ليستكينوا ويخضعوا لربهم ويتضرعوا إليه، ولكن هيهات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾.

٢- شدة قسوة قلوب هؤلاء المكذبين، وتماديهم في الطغيان والكفر، وعدم رجوعهم وخضوعهم لربهم، وعدم تضرعهم إليه مع أخذهم بالعذاب؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَآ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣].

٣- أن الابتلاء بالمصائب من أسباب رجوع العبد الموفق إلى ربه وخضوعه له، وتضرعه إليه.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾.

٥- تهديد المشركين المكذبين، وتوعدهم بالعذاب الشديد، الذي يجعلهم آيسون من النجاة ومن كل خير، قد أحاط بهم الشر وأسبابه، إما في الدنيا وإما في الآخرة في النار؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْ هُمْ فِيهِ مُبْسُوتُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

٦- امتنان الله تعالى على العباد بخلقهم ومنحهم السمع والأبصار والأفئدة، ونشرهم في الأرض، وتسخيرها لهم يستخرجون خيراتها ويعمرونها؛ ليشكروه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴿٧٩﴾﴾.

٧- أن من أعظم ما منحه الله للعباد نعمة السمع والأبصار والأفئدة، فهي أدوات الإدراك والعلم والمعرفة؛ ولهذا امتن الله بها وحدها دون سائر الأعضاء.

٨- قلة شكر العباد لربهم على نعمه العظيمة عليهم، وقلة الشاكرين منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلْيَلَا مَا تَشْكُرُونَ﴾.

٩- إثبات بعث الخلائق، وحشرهم إلى ربهم لمحاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا أِيَابَهُمْ﴾ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٥٦﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

١٠- إثبات تفرد عز وجل وحده بالحياة والموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

١١- تفرد عز وجل وحده بتقليب الليل والنهار وتصريفهما؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُ اٰخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾.

١٢- الإشارة إلى نعمته عز وجل ومنته على الخلق باختلاف الليل والنهار، وتقليبهما، وتمازج قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي اٰخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾ [يونس: ٦].

١٣- الإنكار الشديد على المكذبين والمشركين عدم انتفاعهم بعقولهم في التفكير في عظمة الله تعالى وكمال قدرته، الذي أنشأ لهم السمع والأبصار والأفئدة، وذراهم في الأرض، وتفرد بالحياة والموت، وتقليب الليل والنهار؛ ليستدلوا بذلك على وحدانية الله تعالى، فيخلصوا له العبادة، وعلى عظيم نعمه ومنته عليهم، فيشكروه، وعلى تمام قدرته على البعث، فيؤمنوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

١٤- أن من لم يهده عقله إلى معرفة ربه عز وجل، وكمال قدرته، ووحدانيته، وعظيم نعمه، ووجوب شكره، بإخلاص العبادة له وحده، فليس بعاقل.

١٥- سلوكهم مسلك المكذبين الأولين في إنكار البعث، وترديدهم مقالتهم في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعْنَاءَ نَّالْمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿٨٢﴾.

١٦- تأكيدهم هذا الإنكار، وتعليقهم له بأنهم وعدوهم وآباءهم بهذا البعث، ولم يروه ولم يبعث أحد من آباءهم. وزعمهم أن الوعد بذلك ما هو إلا من أساطير الأولين وحكاياتهم الكاذبة؛ لقولهم: ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾.

١٧- قدرة الله التامة على بعث الموتى بعد كونهم ترابًا وعظامًا بالية، وعلى كل شيء مما قد لا تدركه العقول، لكن يجب التسليم به؛ لإخبار الله ورسوله بذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩١﴾ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

في هذه الآيات تقرير المشركين بتوحيد الربوبية، الذي يقرون به ولا ينكرونه؛ لإلزامهم بتوحيد الإلهية؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ الاستفهام: للتقرير هنا، وفي قوله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾، وفي قوله: ﴿قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالبعث - محتجاً عليهم بما أثبتوه وأقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية، وبعث الناس بعد الموت - : ﴿لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ من المخلوقات والعوالم، خلقاً وملكاً وتدبيراً؟.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: أجيبي إن كنتم تعلمون ذلك. ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ» في المواضع الثلاثة. بألف الوصل قبل اللام، ورفع الهاء من الجلالة.

وقرأ الباقون: ﴿لِلَّهِ﴾ بغير ألف مع خفض الهاء، أي: سيقولون لله وحده ذلك كله، خلقاً وملكاً وتدبيراً، لا شريك له في ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]، أي: متصرف فيها.

﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام: للتقريع، أي: أفلا تعتبرون وتتعضون وتستدلون بهذا على وحدانيته في إلهيته وحده لا شريك له.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ تدرج من سؤالهم عن الأرض

ومن فيها إلى ما هو أكبر وأعظم؛ وهو سؤالهم عن رب السموات السبع، ورب العرش العظيم، الذي هو سقف المخلوقات وأعلاها، وأكبرها وأوسعها، وأحسنها؛ كما قال في آخر السورة: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، أي: الحسن الباهر.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: هي لله وحده، خلقًا وملكًا وتدبيرًا، لا شريك له في ذلك. ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الاستفهام للتقريع، أي: أفلا تتقون الله وتحافون عقابه في عبادتكم معه غيره، وإشراككم به مع إقراركم بربوبيته، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم الذي هو أكبر المخلوقات؟!

﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ انتقال وتدرج مما سبق إلى تقريرهم بما هو أهم من ذلك كله، أي: من بيده ملك كل شيء في هذا الكون وخزائنه علوية وسفلية. و«ملكوت»: صيغة مبالغة بمعنى: «ملك».

﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾، أي: يحمي ويغيث من يشاء، ويحفظ عباده من الشرور، ويدفع عنهم المكاراه.

﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾، أي: ولا يغاث أحد ويحمى منه، لا راد لقضائه، ولا معقب لحكمه، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا فَعَلَ وَهُوَ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].
﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: فأجيبوني.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، أي: سيقرون بأن ملكوت كل شيء لله، وأنه الذي يجير ولا يجار عليه.

﴿قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ الاستفهام للتقريع، أي: فكيف تذهب عقولكم؟! تعبدون غير الله، وأنتم تعلمون أن بيده ملكوت كل شيء، وهو الذي يجير ولا يجار عليه، وأن معبوداتكم لا تملك شيئًا!

﴿بَلْ اتَّبَعْتَهُم بِالْحَقِّ﴾ «بل» حرف إضراب وابتداء، أي: بل جئناهم بالحق، أي: بالأمر الثابت الصحيح، وهو إعلامهم أنه لا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه، وأقمنا الأدلة الكونية والشرعية على ذلك.

﴿وَأَنَّهُمْ لَكَ كَذِبُونَ﴾ الجملة في محل نصب حال، واللام: للتوكيد، أي: وإنهم لكاذبون في عبادتهم مع الله غيره، وجعلهم معه آلهة أخرى، وفي نسبتهم الولد له، تعال

الله عن ذلك؛ ولهذا قال: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَّاهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٨٤﴾ عَلَيْهِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾، أي: ما جعل الله له ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾ «من» هنا وفي الموضع الذي بعده: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما جعل الله لنفسه أي ولد؛ لكمال غناه عن خلقه، وعدم حاجته إلى الولد، وهذا رد على المشركين في زعمهم أن الملائكة بنات الله، تعالى الله وتقدس عن ذلك علواً كبيراً.

﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾، أي: وما كان معه عز وجل أي إله غيره.

وقدم نفي الولد على نفي الشريك - والله أعلم - لأن شبهة من زعموا أن الملائكة بنات الله وعبودهم من دون الله أقرب للتمويه من زعم المشركين الحجارة شركاء لله؛ لأن الملائكة غير مشاهدين.

﴿إِذَا أَذَّاهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ «إذ»: حرف جواب، واللام: واقعة في جواب «لو» مقدر، و«ما»: موصولة، أي: لو كان على سبيل فرض المحال مع الله إله آخر؛ ﴿إِذَا أَذَّاهَبَ كُلُّ إِلَهٍ﴾، أي: لانفرد كل إله بخلقته.

﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾، أي: ولغالب كل منهما الآخر، يريد الانفراد بالأمر دون الآخر.

قال ابن القيم: «فلا بد من أحد أمور ثلاثة: إما أن يذهب كل إله بخلقته وسلطانه، وإما أن يعلو بعضهم على بعض، وإما أن يكونوا كلهم تحت قهر إله واحد، يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه، ويمتنع من حكمهم ولا يمتنعون من حكمه، فيكون وحده هو الإله الحق، وهم العبيد المرهبون المقهورون. وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي، وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد، من أدل دليل على أن مدبره واحد، لا إله غيره؛ كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره، فذلك تمانع في الفعل والإيجاد، وهذا تمانع في العبادة والإلهية، فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان، كذلك يستحيل أن يكون له إلهان معبودان» (١).

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٣/ ٢٣٥.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾، أي: تنزيهاً لله تعالى وتقديساً له ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: عن الذي يصفون، أو عن وصفهم، أي: عما يصفه به المشركون وينسبونه إليه من الولد والشريك.

﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قرأ نافع وأبو حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «عالمٌ» بضم الميم، وقرأ الباقر بكسرهما: ﴿عَلِيمٌ﴾، أي: عالم ما غاب عن أعين الخلق وحواسهم وإدراكهم، وما يشاهدونه ويمسونه ويدركونه. ﴿فَتَعَالَى﴾، أي: تعاضم وتقدس وتنزه.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: عن الذي يشركون به من الشركاء، وعن شركهم به.

الفوائد والأحكام:

١- تقرير المشركين بتوحيد الربوبية الذي يقرون به ولا ينكرونه؛ لإلزامهم بتوحيد الإلهية الذي ينكرونه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٩﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ الآية.

٢- تقرير المشركين بأن الله الأرض ومن فيها من المخلوقات، خلقاً وملكاً وتدبيراً، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾.

٣- تقرير المشركين على عدم تذكرهم وتعاضمهم، وعبادتهم مع الله غيره مع إقرارهم بربوبيته، وعلمهم أن له الأرض ومن فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

٤- تقرير المشركين بأن الله هو رب السموات ورب العرش العظيم، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾.

٥- تقرير المشركين على عدم تقواهم عذاب الله وعقابه؛ لعبادتهم غير الله، مع إقرارهم بربوبيته، وأنه رب السموات السبع ورب العرش العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾.

٦- تقرير المشركين بأن بيده عز وجل ملكوت السموات والأرض، وهو يجير ولا يجار عليه، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكَوْتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا

يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿٨٩﴾

٧- تقريع المشركين؛ كيف تذهب عقولهم؟! يعبدون غير الله مع إقرارهم بربوبيتهم، وعلمهم أن بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه!

٨- أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلهية.

٩- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لكل شيء.

١٠- إقامة الحجة على المشركين ببيان الحق؛ بأنه لا معبود بحق إلا الله، وإقامة

الأدلة والبراهين على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ آتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾.

١١- تأكيد كذب المشركين في جعلهم مع الله آلهة أخرى، وفي نسبتهم الولد إليه،

تعالى الله عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾.

١٢- النفي القاطع المؤكد أن يكون الله اتخذ ولدًا، أو كان معه إله غيره؛ لقوله

تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾.

١٣- أنه يمتنع أن يكون للكون أكثر من إله؛ إذ لو كان له أكثر من إله لاختل

بنيانه وما استقام نظامه؛ لأنه لا يخلو إما أن ينفرد كل إله بخلقه، أو يعلو بعضهم على

بعض، ولأن انتظام أمر العالم علويه وسفليه، وارتباط بعضه ببعض، وجريانه على نظام

محكم دقيق، لا يختل ولا يختلف ولا يفسد، أدل دليل على أن مدبره واحد لا رب غيره،

ولا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ

وَلَعَلَّابَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

١٤- تنزيه الله وتقديسه عما يصفه به المشركون من الولد والشريك؛ لقوله تعالى:

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

١٥- علم الله تعالى الواسع بما غاب عن أعين الخلق وحواسهم، وبما يشاهدونه؛

لقوله تعالى: ﴿عَلِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

١٦- تعاليه عز وجل وتعاضمه عما يشركه به المشركون من الشرك والشركاء؛

لقوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَكَ مَا نُوعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٣٨﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٣٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٤٠﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٤١﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٤٢﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٤٣﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَكَ مَا نُوعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٣٨﴾ أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٣٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿٤٠﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٤١﴾:

قوله: ﴿قُلْ رَبِّ﴾، أي: قل يا محمد داعياً: ﴿رَبِّ﴾، أي: يا رب، ﴿إِمَّا تُرِيدُنِي﴾، «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: إن أريتنِي.

﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي يوعدون، أي: الذي يوعد المكذبون من العذاب، أي: إن عجلت عذابهم في حياتي، فعذبتهم وأنا أنظر إليهم، ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾، أي: يا رب فلا تجعلني فيهم فيصيبني ما أصابهم من العذاب؛ لأن العذاب إذا نزل قد يعم الظالم وغيره، قال تعالى: ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢].

وفي الحديث: «ويل للعرب من شر قد اقترب! فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج». وحلق بين أصبعيه السبابة والوسطى، فقلت: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث»^(١).

ولهذا قال ﷺ في الدعاء: «وإذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون»^(٢). وأظهر في مقام الإضمار، فقال: ﴿فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، ولم يقل: «فيهم»؛ للدلالة على أن ما توعدوا به من العذاب بسبب ظلمهم، وليعم هذا الوعيد معهم غيرهم من الظالمين.

(١) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٦، ومسلم في الفتن وأشراف الساعة ٢٨٨٠، والترمذي في الفتن

٢١٨٧، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٣، من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة ص ٣٢٣٥، وأحمد ٥/ ٢٤٣، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه،

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ ﴿٩٥﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بـ«على»، و«ما»: موصولة، واللام: للتوكيد، أي: وإنا على أن نريك الذي نعدهم به من العقوبات والنقم لقادرون بأن نعجل ذلك في حياتك فتراه.

﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: ادفع بالحسنة ﴿السَّيِّئَةِ﴾، أي: عامل بالإحسان من أساء إليك، واعف واصفح عمن آذاك من قومك، واصبر على أذاهم، ففي ذلك عظيم الأثر، وجزيل الأجر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٣١﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا دُونَ حَظِّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

﴿تَحْتُنَّ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ «ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: نحن أعلم بالذي يصف ويقول هؤلاء المكذبون من قومك من الأقوال الباطلة المتضمنة للكفر والتكذيب لك، ولما جنتهم به من الحق، أي: فدعهم واترك أمرهم إلينا. وفي هذا تسلية له ﷺ، وتهديد ووعيد لهم.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ ﴿٣٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٣٨﴾. أمر بالدفع بالتي هي أحسن في معاملة المسيء من البشر؛ لأن ذلك قد ينجع فيه ويكف شره، ثم عطف بالاستعاذة بالله من همزات الشياطين، ومن حضورهم؛ لأن شرهم لا يندفع إلا بالاستعاذة بالله منهم؛ لأنهم لا يكفيهم ولا يقنعهم إلا إهلاك الإنسان وزجه في النار؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿٦﴾ [فاطر: ٦].

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ الواو: عاطفة، أي: وقل: يا رب اعتصم وأستجير بك، وألتجئ إليك، وألوذ بجنابك.

﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾، أي: من وساوسهم ونزغاتهم، وتسويلهم وتزيينهم الباطل؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْغِيَةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس: ١ - ٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَيَّ أَدْبَرُهم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

وكان ﷺ يستعيز بالله من الشيطان ويقول: «أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم؛ من همزه ونفخه ونفته»^(١).

ولما رأى رجلاً قد اشتد به الغضب وانتفخت أوداجه، قال ﷺ: «إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»^(١).

«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: وأعوذ بك يا رب من حضورهم، أي: من حضورهم إياي في أي أمر من أموري؛ عند قراءة القرآن، أو عند النزاع والسياق، أو في أي شيء من أمري.

وعن أبي اليسر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان يدعو: «اللهم إني أعوذ بك من الهدم، وأعوذ بك من التردى، وأعوذ بك من الغرق والحرق والهزم، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت»^(٢).

وعن عمرو بن شبيب، عن أبيه، عن جده، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا كلمات نقولهن عند الفزع من النوم: «باسم الله، أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»^(٣).

كما أمر بذكر الله عند الأكل والجماع والذبح، وغير ذلك من الأمور؛ لأن في ذكر الله مطردة للشيطان؛ لأنه إذا سمع ذكر الله خنس وأدبر.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [آل عمران: ١٥٦] لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الوتر، باب في الاستعاذة ١٥٥٢.

(٣) أخرجه أبو داود في الطب - كيف الرقى ٣٨٩٣، والترمذي في الدعوات ٣٥٢٨، وأحمد ١٨١ / ٢ -

وقال الترمذي: «حسن غريب».

تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣١﴾.

قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ﴾، أي: حتى إذا حضر أحد هؤلاء المكذبين الظالمين المفرطين الموت، وكُشف عنه غطاء الغفلة، ورأى ماله، وذكر قبح أفعاله؛ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَيْفَ بَصُرْتُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾.

﴿قَالَ﴾ ندمًا على تفريطه حين لا ينفعه الندم: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾، أي: ردوني إلى الدنيا.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، أي: لأجل أن أعمل عملاً صالحًا.

﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾، أي: فيما تركت من العمل، وفرطت في جنب الله.

قال قتادة: «والله ما تمنى أن يرجع إلى أهل أو عشيرة، ولكن تمنى أن يرجع فيعمل بطاعة الله؛ لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت، فاستقال ربه فأقاله، فليعمل بطاعة الله عز وجل» (١).

﴿كَلَّا﴾ حرف ردع وزجر، أي: لن تجاب إلى سؤالك، ولا سبيل إلى الرجعي؛ لأن الله قد قضى أنهم إليها لا يرجعون؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ رَأَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٣١﴾، [يس: ٣١]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ [يس: ٥٠].

وهكذا يسألون الرجعة فلا يجابون عند الاحتضار وهم في غمرات الموت، ويوم النشور، وعند العرض على الجبار، وحين يعرضون على النار، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُرُومَاتِ نَاصِبًا وَسِوَاهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِزْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ لَوْ كُنَّا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ ﴿٤٤﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ وَيَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلٍ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤٤]، وقال تعالى:

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥ / ٤٨٧.

﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ التَّذْيِيرُ فذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آثَمَتْنَا آثَمَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا آثَمَتَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾ [غافر: ١١].

﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ الجملة للتعليل للزجر السابق، والضمير في «إنها» يعود إلى مقالة هذا المحتضر: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

و«كلمة»: مستعملة في الكلام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: ٧٤]، وقال ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(١). أي: هي مجرد أمنية يتمناها، ومقالة لا تنفيذ قائلها إلا الحسرة والندامة والأسى، وكلام كاذب لا عمل معه، فلورد لعاد إلى ما نهي عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَوَرَدُوا الْعَادُوا لَمَّا هُوَ أَعْنَهُ وَإِن تُهْمُ فَذُنُوبُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: ومن أمامهم؛ كما قال تعالى: ﴿مِن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ [إبراهيم: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، أي: أمامهم. وقال لبيد^(٢):

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع
و«البرزخ»: الحاجز بين شيئين، أي: ومن أمامهم حاجز بين الدنيا والآخرة، وهو مقامهم في القبور منذ موتهم إلى يوم يبعثون، يُنعم فيه المؤمنون، ويعذب فيه الكافرون، إلى قيام الساعة؛ كما قال تعالى عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٦١﴾﴾ [غافر: ٤٦].

الفوائد والأحكام:

١- أمر الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يدعوهم إن عجل عذاب المكذبين الظالمين في

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٨٤١، ومسلم في الشعر ٢٢٥٦، وابن ماجه في الأدب ٣٧٥٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: «ديوانه» ص ٥٧، «البيان والتبيين» ٥٧/٣، «الأغاني» ٣٦٣/١٥.

حياته وأراه الله إياه: ألا يجعله في القوم الظالمين، فيصيبه ما أصابهم من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيّني مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾.

٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله: ﴿رَبِّ﴾.

٣- أن وعيده عز وجل للمكذبين واقع بهم لا محالة، وآتٍ ولا بد.

٤- أن العذاب إذا نزل قد يعم الظالم وغيره، والصالح والطالح.

٥- أن تكذيب الرسول ﷺ وما جاء به، والشرك بالله أعظم الظلم؛ لقوله تعالى:

﴿الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾، أي: الذين بلغوا الغاية في الظلم.

٦- قدرة الله تعالى التامة على تعجيل ما توعد به الظالمين من العذاب في حياته ﷺ،

فيريهم عذابهم لو شاء عز وجل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾.

٧- أمره عز وجل له ﷺ بالإحسان إلى من أساء إليه، والصبر على أذى قومه؛

لقوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾.

٨- الترغيب والحث على مقابلة الإساءة بالإحسان؛ لأمره عز وجل به رسوله

ﷺ، وامتداحه لأثره، وتكفله بأجره.

٩- إثبات علمه عز وجل التام بما يصف المكذبون ويقولون من الأقوال الباطلة،

المتضمنة للتكذيب له ﷺ، والكفر بما جاء به من الحق، وإعلامه ﷺ بذلك؛ ليدعهم

ويكل أمرهم إليه عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾، وفي هذا تسلية له

ﷺ، وتهديد ووعد لهم.

١٠- أمره عز وجل له بالاستعاذة به من همزات الشيطان، والاستعاذة به من

حضورهم أي أمر من أموره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾

وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾.

١١- مشروعية الاستعاذة بالله من همزات الشياطين، ومن حضورهم؛ لأن الله أمر

بذلك الرسول ﷺ، ولنا به أسوة، وحاجتنا إليها أشد وأعظم.

١٢- أن شر شياطين الإنس قد يندفع بالإحسان إليهم؛ لهذا أمر الله بذلك،

بخلاف شر شياطين الجن؛ فإنه لا يندفع إلا باللجوء إلى الله، والاستعاذة به من

شروهم، ومن حضورهم؛ لأنه لا يقنعهم ولا يكفيهم إلا إهلاك بني آدم.

١٣- ندم كل واحد من المكذبين الظالمين المفرطين عند الموت والاحتضار وسؤاله الرجعة؛ ليتدارك ما فاتته، ولكن هيهات ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.

١٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾.
 ١٥- معرفة المفرط عند الاحتضار تمام المعرفة أنه لا ينفع إلا العمل الصالح، لكن بعد فوات الأوان.

١٦- تبيس هذا السائل من الرجوع إلى الدنيا، وردعه وزجره؛ لقوله تعالى: ﴿كَلَّا ۗ أَيُّ لَّا سَبِيلَ لَكَ إِلَى الرَّجْعِي ۗ﴾.

١٧- أن مقالة هذا السائل: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١١﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ كلمة لا قيمة لها، ومجرد أمنية يتمناها، لا تفيد قائلها إلا الحسرة والندامة، وكلام كاذب لا عمل معه، فلورد لعاد لما نهي عنه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۗ﴾.
 ١٨- أن الكلمة تطلق على الكلام وإن كثر وطال.

١٩- إثبات البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، من المقام في القبور إلى قيام الساعة والبعث، وتهديد المكذبين الظالمين المفرطين بعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ وَّرَأَيْهِمْ بَرَزَخُ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۗ﴾.

٢٠- إثبات البعث والقيامة والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۗ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ أَتِنَىٰ عَلَىٰ كَعْبٍ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلَبْنَا عَٰلِينَآ شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِٰدُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالُوا احْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَاءَ لِحَاظِكُمْ أَتُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾ وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ قَضِحَكُونَ ﴿١١١﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَالِقُونَ ﴿١١٢﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾:

قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ الفاء: استثنائية، و«الصور»: القرن الذي ينفخ فيه إسرافيل النفختين: النفخة الأولى، وهي الراحفة؛ ليموت كل من على وجه الأرض من الأحياء إلا من شاء الله، والنفخة الثانية، وهي الرادفة؛ ليحيا كل من في باطنها من الأموات، والبعث والنشور؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَّظُنُّونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرٰجِفُ الرّٰحِفَةُ ﴿٦٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرّٰدِفَةُ ﴿٦٧﴾﴾ [النازعات: ٦-٧].

والمراد بالنفخة في قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾: النفخة الثانية للبعث والنشور وخروج الناس من القبور وحشرهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٨].

أي: تنقطع الأنساب بينهم، فلا يرثي والد ولده، ولا يلوي عليه، ولا ينتصر أخ لأخيه، ولا قريب لقربيه، وذلك من شدة الكرب والهول.

﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، أي: لا يسأل قريب قريبه، ولا صديق صديقه وهو يبصره؛ لانشغال كل منهم بطلب النجاة والفكاك لنفسه، بل يفر كل منهم من الآخر مخافة أن يطالبه بشيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١١٠﴾ يَبْصُرُونَ نُهُمُ يَوْمَ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ

يَوْمَ يَذُوبُ بَيْنَهُ ۖ وَصَحْبَتَهُ وَأَخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتَهُ الَّتِي تُؤَيِّبُهَا ۖ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ [المعارج: ١٠ - ١٤]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ ۖ وَصَحْبَتَهُ وَبَنِيهِ ۖ لِكُلِّ أُمَّرٍ مِّنْهُمْ يَوْمَ يَوْمٍ ذِشَانٌ يُعِينُهُ ۖ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

وقد كانوا في الدنيا ينتصر القريب لقرابه، والنسيب لنسيبه، إما بالحق، أو بالباطل؛ كما قال قائلهم:

أخاك أخاك إن من لا أخاله كساع إلى الهيجا بغير سلاح (١)

لكن في ذلك اليوم ينتهي هذا كله، وينشغل كل منهم بنفسه، ولا يفكر في غيره.

لانسب اليوم ولا خلعة اتسع الخرق على الراقع (٢)

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين، ثم نادى منادٍ: ألا من كان له مظلمة، فليجئ فليأخذ حقه، قال: فيفرح المرء أن يكون له الحق على والده أو ولده أو زوجته، وإن كان صغيراً، ومصداق ذلك في كتاب الله: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٣).

﴿فَمَنْ نَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾، أي: كثرت حسناته فرجحت على سيئاته.

﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، أي: الفائزون بالمطلوب، الناجون من المهوب، الفائزون بالجنة، والناجون من النار، وأكد فلاحهم وحصر الفلاح فيهم بكون الجملة اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم».

﴿وَمَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ﴾، أي: كثرت سيئاته فرجحت على حسناته.

﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ الخسران الميين، الذين بلغوا الغاية في الخسران

والهلاك والخيبة.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾، أي: ما لهم جهنم، ما كثون فيها، مقيمون أبد الأبد؛

(١) البيت لمسكين الدرامي. انظر: «ديوانه» (ص ٢٩).

(٢) البيت ينسب لأنس بن العباس بن مرداس، وينسب لأبي عامر جد العباس بن مرداس. انظر: «الكتاب» لسيبويه ٢/٢٨٥، «سمط اللالي» ٢/٣٦، «شرح شواهد المغني» ٢/٦٠١. وفي بعضها: «اتسع الخرق على الراقع».

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٥/٤٨٨.

لكفرهم.

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾، أي: تغشى وتحرق وجوههم النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ طُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩].

وخص الوجوه بالذكر إهانة وإذلالاً لهم؛ لأنها مواضع الحسن والتشريف والإكرام، وإلا فإن عذاب النار يغشاهم من كل جهة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ﴾، أي: وهم في جهنم كالحون، أي: عابسون، قد قلصت شفاههم، وبرزت أسنانهم من أثر تقطب أعصاب الوجه من شدة العذاب والألم. قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [٥٥] قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿٥٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٥٧﴾.

قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [٥٥] لما ذكر العذاب الحسي لأبدانهم، أتبع ذلك بذكر العذاب المعنوي لقلوبهم، بالتقريع والتوبيخ لهم، الذي لا يقل عن العذاب الحسي.

قوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ الاستفهام: للتقريع، أو الإنكار، أي: ألم تكن آياتي الشرعية وحججي تقرأ عليكم فيها بيان الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ودعوتكم إلى الإيمان، وتحذيركم من عواقب الكفر والإجرام، بما لا حجة لكم بعده؛ كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

﴿فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، أي: فكنتم بآياتي تكذبون؛ كما قال تعالى: ﴿كَلِمًا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿١﴾ [الملك: ٨ - ٩].

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾، أي: أقروا بقيام الحجة عليهم بالآيات؛ ولهذا قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الشين وألف بعدها:

﴿شَقَاوُنَا﴾.

وقرأ الباقون بكسر الشين وإسكان القاف من غير ألف: ﴿شَقَوُنَا﴾، أي: غلبت واستولت علينا شقاوتنا، وإعراضنا عن الآيات، وما كتب علينا من الشقاء في سابق علمك.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾، أي: تائهين عن الحق، مبتعدين عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ﴿١٠﴾ فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ [الملك: ١٠-١١].

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾، أي: من نار جهنم؛ لنرجع إلى الدنيا؛ كما قالوا في الآية الأخرى: ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ [غافر: ١١-١٢].

﴿فَإِنْ عُدْنَا﴾، أي: فإن رجعنا إلى ما كنا عليه من التكذيب والضلال.

﴿فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾، أي: مستحقون للعقوبة، وهم كاذبون في وعدهم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿٢٨﴾ [الأنعام: ٢٨].

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَسْخَوْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿٢٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَايُزُونَ ﴿٢١﴾.

قوله: ﴿قَالَ أَسْخَوْ فِيهَا﴾، أي: امكثوا في جهنم أذلاء صاغرين مهانين، وفي هذا زجر لهم وإهانة وإذلال.

﴿وَلَا تُكَلِّمُون﴾، أي: ولا تكلموني في طلب الخروج مرة أخرى، ولا في رفع العذاب أو تخفيفه؛ فإنكم لن تخرجوا، ولن يرفع عنكم العذاب أو يخفف، وفي هذا تئيس لهم من الخروج، ومن النجاة مما هم فيه.

﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا ﴿٢٠﴾.

لما توعدهم بالخسران والعذاب الحسي في جهنم، والعذاب المعنوي بالتقريع

والتوبيخ، وأيسهم من كل خير؛ ذكر السبب الذي أوصلهم إلى العذاب وقطع عنهم الرحمة، وهو سخريتهم بالمؤمنين.

قوله: ﴿إِنَّهٗ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي﴾، الهاء: ضمير الشأن، أي: إِنَّ الشَّانَ أَنَّ فَرِيقًا من عبادي- وهم المؤمنون- كانوا ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا ﴿ءَامَنَّا﴾، أي: صدقنا بقلوبنا بآياتك، وانقدنا لما جاء فيها من الحق بجوارحنا.

﴿فَاعْفِرْ لَنَا﴾، أي: استر ذنوبنا، وتجاوز عنا.

﴿وَأَرْحَمْنَا﴾ برحمتك الخاصة الواسعة.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ لأنك أرحم بعبادك من الوالدة بولدها، وأرحم بهم من أنفسهم.

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سُخْرِيًّا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف بضم السين: «سُخْرِيًّا»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿سُخْرِيًّا﴾، أي: جعلتموهم سُخْرِيًّا، تسخرون منهم وتستهزئون بهم؛ لإيهاهم وسؤالهم ربهم المغفرة والرحمة، وانشغلتهم بذلك.

﴿حَتَّىٰ أَسْأَلُوكَ ذِكْرِي﴾، أي: حتى نسيتهم ذكري بسبب اشتغالكم بالسخرية والاستهزاء بهم.

﴿وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾، أي: وكنتم مما هم عليه من الإيها والعبادة تضحكون؛ استهزاء بهم، مما أنساكم ذكر الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢١) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِذَا أُنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٢٤﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

﴿إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ الباء للسببية، و«ما» مصدرية، أي: أثبتتهم وأكرمتهم بسبب صبرهم على أذاكم وسخريتكم بهم، وعلى طاعة الله تعالى وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة.

﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بكسر لهمزة: «إِنَّهُمْ»، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿أَنَّهُمْ﴾.

أي: بأن جعلتهم هم الفائزون بالسعادة في الدنيا والآخرة، ودخول الجنة والنجاة

من النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ تُؤْتَبُ الْأَكْفَارُ مَا كَانُوا يُفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [المطففين: ٣٤-٣٦].

وقد أكد عز وجل الفوز وحصره فيهم بـ«أن»، وضمير الفصل «هم»، ويكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

الفوائد والأحكام:

١- انقطاع الأنساب يوم القيامة بين الأقارب، فلا يلوي والد على ولده، ولا ولد على والده، ولا أخ على أخيه، ولا قريب على قريب؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ ﴿٣٧﴾﴾.

٢- عدم تساؤل الأقارب والأصدقاء وغيرهم فيما بينهم؛ لانشغال كل منهم بطلب الخلاص والفكاك لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

٣- فلاح وفوز من ثقلت موازينه، فرجحت حسناته على سيئاته، وتأكيد فلاحهم، بل حصر الفلاح فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

٤- خسران الذين خفت موازينهم أنفسهم بمصيرهم إلى جهنم وخلودهم فيها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٤٠﴾﴾.

٥- شدة عذاب جهنم، وإذلالها لأهلها بلفح وجوههم وإيلامها، حتى تكون كالحة عابسة من شدة تقطيعها؛ لقوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿٤١﴾﴾.

٦- تقرير المكذبين وتوبيخهم على تكذيبهم بالآيات وعدم الإيمان بها؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كُنْزُوا آيَاتِنَا عَلَىٰ كُفْرٍ فَكُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

٧- اعترافهم بغلبة الشقاوة واستيلائها عليهم، وضلالهم، وكتب الشقاء عليهم في سابق علم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿٤٣﴾﴾.

٨- سؤالهم ودعائهم ربهم أن يخرجهم من جهنم؛ ليرجعوا إلى الدنيا فيستدركوا، وأنهم إن عادوا إلى الضلال فهم ظالمون يستحقون العقوبة؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

٩- إثبات ربوبية الله العامة لجميع الخلق؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا ﴿٤٥﴾﴾.

١٠- زجر الله تعالى لهم، وتحسنتهم، وإذلالهم، وإهانتهم، ونبيه إياهم عن تكليمه

بطلب الخروج، أو رفع العذاب، أو تخفيفه، أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا
وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ ﴿الآية.

١١- ثناء الله تعالى على المؤمنين الذين جمعوا بين الإيمان والخضوع والتضرع والتوسل
إلى ربهم، ودعائه بطلب المغفرة والرحمة، والثناء عليه بسعة رحمته وإحسانه؛ لقوله تعالى:
﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَأَرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

١٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا﴾.

١٣- أن سبب تعذيب المكذبين بالعذاب الحسي في جهنم، والعذاب المعنوي
بالتفريع والتخسئة والإذلال لهم؛ تكذيبهم بآيات الله، وسخريتهم واستهزاؤهم
بالمؤمنين، وانشغالهم بذلك، ونسيانهم ذكر الله والعمل لأنفسهم، وضحكهم منهم؛
لقوله تعالى: ﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾.

١٤- مجازاة الله تعالى المؤمنين بالجزاء العظيم، بسبب صبرهم على أذى المكذبين،
وصبرهم على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقداره، وتخصيصه إياهم بالفوز والفلاح
دون غيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

١٥- الترغيب في الصبر على الأذى، وعلى طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى
أقداره المؤلمة؛ لعظم أجر الصابرين.

* * *

قال الله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٣٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنِلِ الْعَادِينَ ﴿١٣٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٣٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٣٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٣٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٣٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَتَنِلِ الْعَادِينَ ﴿١٣٣﴾ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٣٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٣٥﴾ فَتَعَلَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٣٦﴾﴾.

﴿قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ قرأ ابن كثير وحمة والكسائي: «قُلْ» بغير ألف على الأمر.
وقرأ الباقون: ﴿قَالَ﴾ بالألف على الخبر.

أي: قال الله تعالى هؤلاء المكذبين على سبيل التوبيخ لهم على تفریطهم: ﴿كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ في الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ، أي: كم مكثتم وأقمتم في الدنيا من عدد السنين؟ أي: أنكم أقمتم فيها سنين يمكنكم فيها العمل - وإن كانت قليلة - ولكنكم فرطتم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَمِرُوا مَا يَنْدَكُرُ فِيهِ مِنْ تَذَكُّرٍ وَجَاءَهُمُ التَّنْذِيرُ﴾ [فاطر: ٣٧].

﴿قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ﴾ استقصروا البتيم في الدنيا؛ لأنهم قضوا ذلك بالكفر واللغو واللعب والغفلة واتباع الشهوات، والسخرية والاستهزاء بالمؤمنين، والضحك منهم.
﴿فَتَنِلِ الْعَادِينَ﴾، أي: فاسأل الحاسبين الضابطين للعدد، وهذا من باب التأكيد بأن لبثهم في حدود ما ذكروا ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، أي: ما لبثتم إلا زمنًا قليلًا؛ لأن الدنيا كلها في الآخرة قليل.

﴿لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لاستفدتم من هذا القليل بالإيمان والعمل الصالح كما استفاد منه المؤمنون، ولم تضعوه بالكفر واللغو واللعب والغفلة والشهوات.
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أفظنتم أيها المكذبون

﴿أَتَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ «عبثًا»: مصدر في موضع الحال، أي: عابثين، أو مفعول لأجله، أي: لأجل العبث.

ومعنى ﴿عَبَثًا﴾: باطلاً، وبلا حكمة، تأكلون وتتمتعون وتمرحون وتسرحون، بلا أمر ولا نهي، ولا حساب ولا جزاء؛ كما قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

﴿وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ معطوف على قوله: ﴿أَتَمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾، أي: وحسبتم، أي: ظننتم أنكم لا ترجعون، أي: لا تردون فتحاسبكم ونجازيكم على أعمالكم، أي: لا تظنوا ذلك، ولا يخطر لكم ببال، فمردكم إلينا وحسابكم علينا؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا أِيَابَهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥-٢٦].

﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾، أي: تعالى وتعظيم وتقديس عن هذا الظن الباطل، بأنه خلق الخلق عبثاً، وأنهم إليه لا يرجعون؛ لما في ذلك من القدح في حكمته عز وجل.

﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ «الملك» و«الحق» من أسماء الله عز وجل، أي: الملك للكون كله، خالقه ومالكه، والمتصرف فيه.

﴿الْحَقُّ﴾، أي: الحق الثابت، فهو عز وجل حق، وربوبيته حق، وألوهيته حق، وأساؤه وصفاته حق، وأمره ونهيه حق، وخبره حق، وقدره حق، وشرعه حق، ووعدته حق، ووعيده حق، وحسابه حق، وجزاؤه حق، وجنته حق، وناره حق، وهو الحق المبين؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥].

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ﴾ خالق العرش ومالكه وصاحبه؛ كما قال تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥].

﴿الْكَرِيمِ﴾، أي: ذو الحسن والمنظر البهي.

وخص العرش؛ لأنه سقف المخلوقات وأكبرها وأوسعها، وهو سبحانه رب ما دون العرش من المخلوقات من باب أولى.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا

يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٣٣﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٣٤﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾، أي: ومن يعبد مع الله معبودًا آخر ﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ الجملة معترضة بين الشرط وجوابه، أي: لا حجة له به ولا بينة، ولا دليل له البتة. ﴿فَاتِّمِمْنَا حِسَابَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ جواب الشرط، والفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فإنما حسابه وعقابه على شركه بالله عند ربه، فهو الذي يحاسبه. وفي هذا تهديد ووعد له. ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، أي: لا يفوزون البتة، بل يخسرون الخسران المبين، وفي هذا ضرب من رد الصدر على العجز، فقد افتتحت السورة بذكر فلاح المؤمنين ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾، وختمت بنفي فلاح الكافرين بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾. ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ﴾ الأمر له ﷺ ولكل من يصلح خطابه، أي: وقل يا رب اغفر لنا، أي: اغفر لنا بستر ذنوبنا، والتجاوز عنا؛ لننجو من عذابك.

﴿وَارْحَمْ﴾، أي: وارحمنا برحمتك الخاصة؛ لنفوز برضاك، ونحصل على ثوابك. ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ لأنك أرحم بعبادك من الوالدة بولدها، وأرحم بهم من أنفسهم.

الفوائد والأحكام:

١- توبيخ المكذبين وتنديمهم على تضييع أعمارهم بما يضر ولا ينفع؛ لقوله تعالى: ﴿قَلَّ كَرِيسْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

٢- استقصارهم لمدة لبثهم في الدنيا؛ لأنهم شغلوا بالكفر واللغو واللعب والغفلة واتباع الشهوات؛ لقولهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسَلِّ الْعَادِينَ﴾، وقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر.

٣- أن مدة لبثهم - وإن كانت قليلة - فهي كافية للعمل لخلاص أنفسهم كما فعل المؤمنون، لو كانوا يعلمون ما ينفعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَلَّ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

٤- الإنكار عليهم وتقريعهم في ظنهم، أنهم إنما خلقوا عبثًا؛ ليأكلوا ويشربوا ونحو ذلك، دون حكمة فوق ذلك كله، وهي تكليفهم بعبادة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾.

- ٥- الإنكار عليهم في تكذيبهم بالمعاد، ورجوعهم إلى الله تعالى للحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَاتَرْجَعُونَ﴾.
- ٦- تقديس الله وتعظيمه وتعالیه عن أن يكون خلق الخلق لغير حكمة، وأنهم لا يردون إليه فيحاسبهم ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَعَلَى اللَّهِ﴾.
- ٧- إثبات أنه عز وجل هو «الملك الحق» الذي لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.
- ٨- إثبات عظمته عز وجل، وربوبيته للعرش، ولجميع المخلوقات ربوبية عامة، والاستدلال بذلك على إثبات إلهيته؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾، وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّيَّ﴾.
- ٩- إثبات الحكمة لله تعالى في خلقه وقدره وشرعه.
- ١٠- أنه لا برهان ولا حجة ولا دليل لمن دعا مع الله إلهًا آخر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾.
- ١١- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لمن أشرك مع الله غيره؛ لقوله تعالى: ﴿فَأِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّيَّ﴾.
- ١٢- أن الكافرين لا يفلحون أبدًا، بل هم الخاسرون الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.
- ١٣- أن من دعا مع الله إلهًا آخر فقد أشرك، وبلغ غاية الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.
- ١٤- الأمر والندب إلى دعاء الرب عز وجل وسؤاله المغفرة والرحمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ﴾.
- ١٥- إثبات ربوبية الله الخاصة له ﷺ وللمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ﴾.
- ١٦- الحث على الشناء على الله عز وجل بأنه خير الراحمين، فهو أرحم بالعبد من الأم بولدها، وأرحم به من نفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

فهرس الموضوعات

- ٥ تفسير سورة طه
- ٧ المقدمة
- ٧ أ- اسم السورة:
- ٧ ب- مكان نزولها:
- ٧ ج- فضلها:
- ١١ تفسير قوله تعالى: ﴿طه ١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى... ﴿الآيات [١-٨] ١١
- ١٧ تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أُنْتِكَ حَدِيثُ مُوسَى...﴾ ﴿الآيات [٩-٢٣] ١٧
- ٣٠ تفسير قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى...﴾ ﴿الآيات [٢٤-٣٥] ٣٠
- ٣٦ تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى...﴾ ﴿الآيات [٣٦-٤١] ٣٦
- ٤٢ تفسير قوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِعَايَتِي وَلَا تَنبَأُ فِي ذِكْرِي...﴾ ﴿الآيات [٤٢-٥٥] ٤٢
- ٥٥ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأْنَى...﴾ ﴿الآيات [٥٦-٦٤] ٥٥
- ٦٥ تفسير قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى بِإِمَامًا أَنْ نَكُونَ آوَّلَ مَنْ أَلْقَى...﴾ ﴿الآيات [٦٥-٧٠] ٦٥
- ٦٣ [٧٠].....
- ٦٧ تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ...﴾ ﴿الآيات [٧١-٧٦] ٦٧
- ٧٥ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي...﴾ ﴿الآيات [٧٧-٨٢] ٧٥
- ٨٢ تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصْحَابُكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى...﴾ ﴿الآيات [٨٣-٨٩] ٨٢
- ٨٩ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونَ مِنْ قَبْلُ يَلْقَوْنَ إِنَّمَا نُنْتَمِ بِهٖ...﴾ ﴿الآيات [٩٠-٩٨] ٨٩
- ٩٧ تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ...﴾ ﴿الآيات [٩٩-١٠٤] ٩٧
- ١٠٥ تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا...﴾ ﴿الآيات [١٠٥-١١٤] ١٠٥
- ١٠٢ [١١٤].....
- ١١٢ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا آلَ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا...﴾ ﴿الآيات [١١٥-١٢٢] ١١٢
- ١٢٧ تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ...﴾ ﴿الآيات [١٢٣-١٢٧] ١٢٧

- ١١٨.....
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاجِدِهِمْ...﴾
- ١٢٤..... [١٣٢-١٢٨] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَا نَبِيَّنا بِعَايَةٍ مِّن رَّبِّهِمْ...﴾ الآيات [١٣٥-١٣٣]... ١٣٤
- ١٣٩..... تفسير سورة الأنبياء
- ١٤١..... المقدمة
- ١٤١..... أ- اسم السورة:
- ١٤١..... ب- مكان نزولها:
- ١٤١..... ج- فضلها:
- ١٤١..... د- موضوعاتها:
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ...﴾ الآيات [١]-
- ١٤٧..... [٩]
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ...﴾ الآيات
- ١٥٧..... [٢٠-١٠]
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ نَأْتِ الْهَيْهَاتَ مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْسِرُونَ...﴾ الآيات [٣٣-٢١] ١٦٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ...﴾ الآيات [٤٧-٣٤] ١٧٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ...﴾
- ١٩٣..... [٧٧-٤٨] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَمْحُكُمَا فِي الْحَرِّ إِذْ نَفَسْتُمْ فِيهِ غَمًّا ثَقِيًّا وَكُنَّا لِلْكَافِرِينَ
- شُهَدَاءَ...﴾ الآيات [٨٢-٧٨] ٢١٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿* وَيَأْتِيكَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ
- الرَّاحِمِينَ...﴾ الآيات [٩١-٨٣] ٢٢٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ...﴾
- ٢٣٩..... [١٠٣-٩٢] الآيات
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ...﴾ الآيات [١١٢-١٠٤]

- ٢٤٨
- ٢٥٧ تفسير سورة الحج
- ٢٥٩ المقدمة
- ٢٥٩ أ- اسم السورة:
- ٢٥٩ ب- مكان نزولها:
- ٢٦٠ ج- موضوعاتها:
- تفسير قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ...﴾ الآيات [٧-١]..... ٢٦٤
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ...﴾ الآيات [٨-١٣]..... ٢٧٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...﴾ الآيات [١٤-١٨]..... ٢٨٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿* هَذَا نِ حَصْمَانِ أَحْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ...﴾ الآيات [١٩-٢٤] .. ٢٩١
- تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَافِ يُظَلَمِ نُذُوقُهُ مِن عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ الآية [٢٥] ٢٩٨
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا...﴾ الآيات [٢٦]- ٣٠٦..... [٢٩]
- تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَن يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِنْدَ رَبِّهِ...﴾ الآيات [٣٠-٣٣] ٣٢٩.....
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ...﴾ الآيتين [٣٤، ٣٥] ٣٤١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُم فِيهَا حَبْرٌ...﴾ الآيتين [٣٦، ٣٧] ٣٤٧.....
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا...﴾ الآيات [٣٨-٤١] ٣٦١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ...﴾

- الآيات [٤٢-٥١] ٣٧٨
تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾
٣٨٦ [٥٢-٥٥] الآيات ﴿فَنَسَخَ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ...﴾
٣٩٨ ... [٥٦-٦٢] الآيات ﴿الْمَلَأُ يَوْمَئِذٍ اللَّهُ بِحُكْمٍ بَيْنَهُمْ...﴾
تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى أَنْ اللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً...﴾ الآيات [٦٣-٧٠] ٤٠٦
تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ...﴾ الآيات [٧١-٧٦] ٤١٥
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ...﴾ الآيتين [٧٧، ٧٨] ٤٢٢
تفسير سورة المؤمنون ٤٣٧
المقدمة ٤٣٩
أ- اسم السورة: ٤٣٩
ب- مكان نزولها: ٤٣٩
ج- فضلها: ٤٣٩
د- موضوعاتها: ٤٣٩
تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ...﴾ الآيات [١-١١] ٤٤٤
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ...﴾ الآيات [١٢-١٦] ٤٥١
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ...﴾ الآيات [١٧-٢٢] ٤٥٧
تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ...﴾ الآيات [٢٣-٣٠] ٤٦٣
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ...﴾ الآيات [٣١-٤١] ٤٧١
تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾...﴾ الآيات [٤٢-٥٠] ٤٧٦
تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا...﴾ الآيات [٥١-٦١]

- ٤٨١
- ٤٩٢ تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ الآيات [٦٢-٦٧] ...
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَقْلَمَ يَدَبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ...﴾ الآيات
- ٤٩٧ [٦٨-٧٥]
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ...﴾ الآيات
- ٥٠٣ [٧٦-٨٣]
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ...﴾ الآيات [٨٤-٩٢]
- ٥٠٩ [٩٢]
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٣٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ
- الظَّالِمِينَ ﴿١٥﴾...﴾ الآيات [٩٣-١٠٠] ...
- ٥١٤ تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ...﴾ الآيات
- ٥٢١ [١٠١-١١١]
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ...﴾ الآيات [١١٢-١١٨]
- ٥٢٨ فهرس الموضوعات. ٥٣٣

دار ابن الجوزي 8428146



9 786038 274958